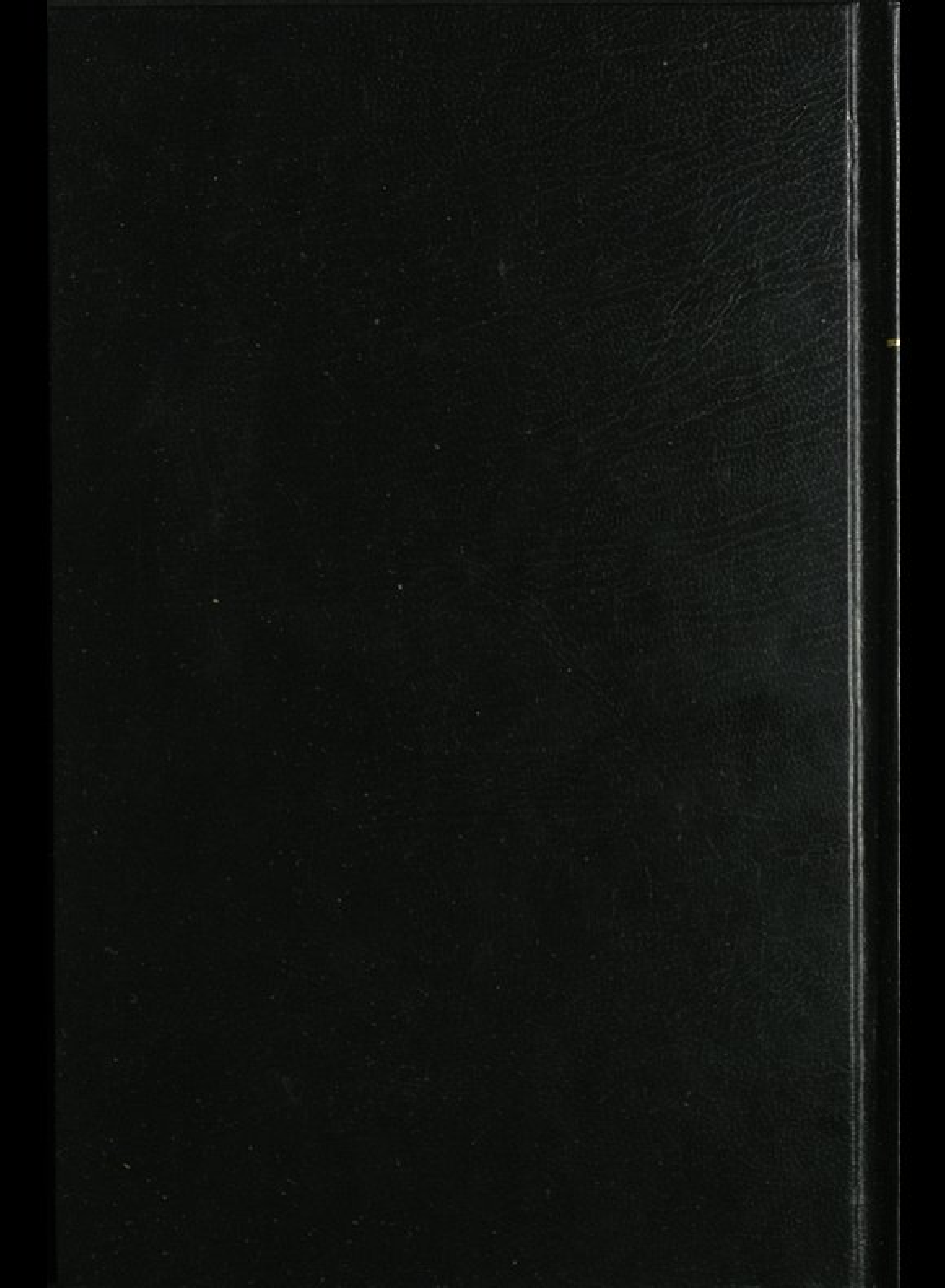


الجزء الثاني

من

مجموعة

الدكتور

شبلي شميل

وهو

يبحث في موضوعات شتى عمرانيّة
طبيعيّة وعلميّة وتاريخيّة وادبيّة وسياسيّة تقريريّة
وانتقاديّة وفكاهيّة

ان اليوم الذي ينصرف الانسان فيه من تنميق الكلام الى اتقان العمل هو اليوم الذي تتقوّم فيه طباعه فتقلّ سخافاته ويكثر جدّه ويقلّ رياؤه وينشط من الذل ويرتقي ارتقاءً حقيقياً ويحق له حينئذ ان يعدّ نفسه انساناً

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

بيـــان

هذا الكتاب يتضمن مباحث مختلفـة في موضوعات شتى علمية واجتماعية. وهو الجزء الثاني من مجموعة كتاباتنا. والمباحث المنشورة فيه كُتبت في ازمان مختلفة ونُشرَت في صحف مختلفة ايضاً. وقد جمعتها هنا غير ملتزم في ترتيبها تاريخها بحسب وضعها فقد يكون المبحث كتب اخيراً ونشر هنا اولاً وبالضدّ. وحاولت احياناً ان اضمَّ الموضوعات المتقاربة بعضهـا الى بعض. ولكني لم اتعمّد ذلك دائماً اما لصعوبة الجمع واما بقصد ان يجد القارئ في التنقُّل بين المختلفات راحة قد لا يجدها بين المؤتلفات. وهي مباحث ربما كان على بعضها أثر من الجدَّة بيننا في الماضي. واما اليوم فالأفكار قد ألفتها حتى يخال لي انها صارت قديمـة في هذا العهد الجديد الراقي. ولا اقلَّ من ان يدلَّ هذا البعض بعض الدلالة التاريخية للمتعقّب على كيفية نشوء الأفكار في الشرق وهذا حسبي من نشرها وكفى

الدكتور

مصر في ٢٤ دسمبر سنة ١٩٠٨

شبلي شميل

المقالة الاولى

حوادث وافكار[1]

لا اعلم من الفلسفة الا اسمها ولا أعي من العلوم الا رسمها ولا اعرف عن البسيطة الشيء الكثير ولا ادري عن الانسان الا اليسير فلا ترجُ ايها القارئ ان ترى مني فلسفة ارسطو او فصاحة ديموستين او رواية طاسيت او تثبت ابن رشد او احاطة ابن سينا او علم نيوتون او خواطر باسكال او اسهاب ڤولتير او اصابة روسو فما هي الاَّ حوادث يومي وافكار ليلي . وان شئت فقل حوادث يومك وافكار ليلك حوادث تتوالى على الانسان وتتناقلها الحواس فتؤثر في العقل تأثيراً يجعل فيهِ تفكيراً يقف بهِ تارةً على الارض وأُخرى يرتفع الى السماء وطوراً يدخل به الى نفسه فان في طاقة العقل ان يحكم في اعمال ذاتهِ كما يحكم في اعمال العالم الخارجي

والمؤثرات اما مرئيات او مسموعات او مشمومات او مذوقات او ملموسات وكلٌّ منها اما لذيذ واما مؤلم وبحسب درجتـه من اللذة والألم يكون تأثيرهُ في العقل فان الحواس ليست الا ناقلة لتلك الاحساسات لا شاعرة بهـا فاما كيفية شعور العقل بها مع كوننا نحسبها مرسومة في الحواس نفسها فمن ادق مسائل علم المعقول ومن اقوى الادلة على وجوب تقسيم الاعمال

الاَّ ان تأثر العقل بالمؤثرات واحكامهُ بها تختلف كثيراً بالنظر الى اختلافها واختباره اياها فكلما كانت اشد غرابةً واعظم اختلافاً كان العقل اشدّ انفعالاً بها واعظم تأثراً ولهذا كانت اميال العقل وتصوُّراته تختلف على حسب اختلاف الاقاليم . وكلما كان العقل اقل اختباراً للمؤثرات كان اكثر توهماً فيهـا فانهُ كثيراً ما يتوهم بها امراً ثم لا يلبث ان ينفيه عنها بعد ان يزداد اختباراً لها وقد يصعب عليه ذلك ان تمكّن الوهم فيه

***

(١) نشرت في جريدة مصر الفتاة سنة ١٨٧٩

ولما كان الاوائل اقلّ اختباراً من الاواخر كانوا بالضرورة اقلّ علماً منهم بل كان معظم علمهم جهلاً وجلُّ افكارهم وهماً . وكان الخلف يشتغلون كل يوم باصلاح ما افسده السلف بحسب ما يتبين لهم بازدياد اختبارهم واتساع معارفهم . الا ان ازالة ما فسد من المبادئ من عقول الناس لا بدّ وان تحول من دونها مصاعب ربما ادت الى اراقة الدماء . فان الاوهام الراسخة في العقل بواسطة النقل مدة قرون تكون كالحقائق الراهنة لا تحتمل تأويلاً ولا تدع للجدال سبيلاً ولا سيما ان افراد الامم لا يتساوون جميعهم في سيرهم المعنوي فلا نرى في كل جيل وفي كل عصر غير افراد قليلين سابقين قومهم بكثير من السنين . فعدد الجاهلين هو العدد الكثير فهو القوي من هذه الحيثية والقوة تغلب الحق في مثل هذه الاحوال ولكن غلبتها حاليَّة وقتيَّة واما في المستقبل فيتأيد هذا الحق وتجني الاواخر ثمرة اجتهاد الاوائل الذين كثيراً ما لا يحصدون ما يزرعون

⁂

والغريب ان الناس لا يصبرون على بيان الحقيقة بالادلة والبراهين اذا كانت مخالفة لآرائهم مغايرة لاهوائهم بل ينقضونها بالقوة وهذا مخالف للعقل غير موافق للنقل فقد عُلِمَ ان كثيراً من هذه الحقائق التي حاولوا اطفاء نورها تأيدت وعمّت اخيراً فلا ينبغي للانسان العاقل ان ينبذ حقيقة لقلة نصرائها وكثرة اعدائها فكم من حقيقة ضاعت بكثرة الجلبة ثم كانت لها الغلبة بقوة الحق

ولا شك ان الامة التي تتخذ القوة القاهرة سلاحاً في نقض المبادئ المخالفة لمألوفها بعيدة عن اسباب التقدم ووسائل التمدن حتى تقطع السلاسل وتمزق الحجب الحائلة بينها وبين حرية البحث التي تطلق للعقل عنان الفكر فتزيد معرفةً بالاسباب والحقائق اذ يشتغل بكل ما يعرض لهُ فيتمسك بما تؤيدهُ الشواهد وهكذا يستخدم افكارهُ لفهم الحوادث عوضاً عن ان يستخدم الحوادث لتأييد افكارهِ حرصاً عليها . واغرب منهُ ان المصائب التي تحل باولئك الافراد الذين ساء بختهم لوجودهم قبل اوانهم والتي مصدرها البشر تُعتبَر قصاصاً عادلاً عند من يعتقد ان الجزاء يكون على قدر الاستحقاق صادراً

عن قوة سرية تراقب اعمال الانسان فيقول هذا جزاء الضالين وهو اشد فساداً من ان يُبرهَن على فساده . فلو تجاسر احد في زمن جاهلية اليونان على ان يكفر بجوبيتر ابي الآلهة أفما كان يتساقط عليه غضب جوبيتر متجسداً بايدي الكهنة والشعب فهل يجب والحالة هذه مع معرفتنا فساد تلك الشريعة ان نعتبر ان ذلك القصاص كان عدلاً . كلا

⁂

ولذلك لا يليق بنا ان نتمسك بما كان في الاعصر الخالية من الاوهام تمسُّك الاعمى بقائده ولا ان نطرح ما تبديه لنا الاكتشافات والحوادث من الحقائق لمجرَّد كونه مخالفاً لما انطبع في عقولنا ورسخ في اذهاننا كما انهُ لا يجب ان نعتبر القصاص الذي يقع على بعض الافراد لمناقضتهم بعض المبادىء العامَّة مفعول قوة ساهرة تعدل كل شيء على قدر الاستحقاق بل يجب علينا ان نحارب الاوهام ونبدّدها بقوة الحقيقة لكيلا يقوى امرها فنعدم اسباب التقدم . فان الانسان اذا تمكَّن الوهم منهُ سقطت قواهُ وفقد اسباب العمل اذ يستولي الخوف على طباعه والرعب على حواسه تستلفتهُ حوادث الكون فيتهيبها عوضاً عن ان يبحث فيها ويستفيد منها ولا تهمهُ شمس تستطع او قمرٌ يلمع او ريح تهب او نار تشب واذا نظر الى السماء كفَّ عنها الطرف خشيةً واحتراماً لانهُ لا يرى كواكبها الا آلهة ولا يحسب صواعقها الا عذاباً واذا نظر الى الارض قال امي ارحميني ولا تحبسي عني قوتاً يغذيني وماء يرويني ولا يتجاسر ان يقطع منها سنبلة قمح او يتناول قبضة ارز الا بعد الاستغفار والتكفير اذ يرى في كل شيء آلهة قاهرة وارواحاً ساحرة فيستدعي في حركاته وسكناته ارواح الاشجار وقوات الجبال ونفوس الكواكب وما يستدعي الا خيالات واوهاماً لا تجلب لهُ خيراً ولا تدفع عنهُ ضيراً ولا يستفيد منها الا توسيع نطاق الاوهام في دائرة عقله حتى تتبلد قواهُ وتكلّ مشاعرهُ ولا يعود يعتبر للعمل في الارض قيمة ولا للبحث عن الكائنات فائدة ولا في التعاون مزية فيكسل وتصير حياتهُ كحياة الحيوان منفردة ذاتية منفرزة عن الهيئة الاجتماعية ولا يهمهُ الا الحصول على ما يقيه من الموت برداً وجوعاً اذ يعتقد ان كل شيء قسمة فلا يجديه الاجتهاد فيه نفعاً فيسكن الاكواخ ويلبس المسوح ويأكل القشور وهي قسمة ليست من الانسانية في شيء

فالامة التي تتخذ هذه المبادئ شعارها لا تلبث ان ترى نفسها متقهقرة كلما خطا العالم نحو التقدُّم خطوة تأخَّرت عنهُ خطوات حتى تصبح اخيراً لا علوم لها ولا شرائع ولا صنائع مفتقرة الى غيرها من الامم المتمدنة افتقار الصلة للموصول ولا تحسن نسج ثوب ولا غزل خيط ولا صنع ابرة بل تكون كالعلق على بدن الانسانية تكدر راحتها وتمتص دمها

⁂

ان في الانسان صفة اوليَّة ضرورية جداً لحفظهِ وهي مصدر كثير من الصفات الأُخر الموجودة فيهِ . وهذه الصفة هي محبة الذات التي تدفع كل فرد من افراد الانسان لاستحصال كل ما هو موافق او يظهر لهُ انهُ كذلك واجتناب ما هو مضرّ . ولا يقتصر وجودها على الانسان فقط بل هي موجودة في الحيوان ايضاً بدليل ان الحيوان يعمل دائماً بقصد المحافظة على كونهِ والمحاماة عن ذاتهِ حتى في اعمالهِ البديهية التي لا محلّ فيها للنظر او الكسب . وهي صفة بديهية ومما يدلنا على كونها كذلك الاعمال البديهية التي يجريها الانسان بدون توسط الارادة فيها اذ تحملهُ على ان يدافع عن نفسهِ بما يقيهِ من الضرر عند المفاجأة وقبل ان تحصل فرصة للارادة لأن تتوسط في ذلك كانطباق الاجفان على العينين اذا فاجأتهما ضربة او آفة اخرى وتقاعس الانسان الى الوراء اذا عثر الى الامام او مدّ يديهِ لاستلقاء الارض بهما ليدفع هكذا بضرر اصغر ضرراً اكبر ربما يحصل لو صادف السقوط على الاعضاء المهمة كالراس وغيرهِ . الاَّ انها وان كانت بديهية فللارادة عليها سلطانٌ كبير فتتصرَّف فيها ولكن بحسب ما يتراءى لها موافقاً اي لا تقدر الارادة ان تفعل الاَّ للغاية التي تفترضها لها محبة الذات ولو مهما اختلفت القوى العقلية وفسدت احكام الارادة . وان وافقت محبة الذات الارادة احياناً فيما يعدمهما الوجود كقتل الذات فلا يكون ذلك الاَّ لغايةٍ ذاتية ايضاً اما بقصد التخلص من مصيبة ثقل حملها على الحياة او طمعاً في تحصيل حياةٍ أُخرى جديدة ترجوها . وهذه الصفة واجبة ضرورية اذ انهُ يتوقف عليها جميع الفوائد المادية اللازمة لحياة الفرد الحسيَّة ويتولد عنها جميع الصفات الادبية الرفيعة ايضاً التي تتوقف عليها حياة الفرد المعنوية

واذا أدَّت احياناً الى ما يخالف ذلك فلتصرُّف الاميال والارادة غير المرتبة فيها . وبحسب ذلك تكون الصفات المتولدة منها اما جيّدة واما رديّة

* *

واعلم ان الجيّد والرديّ لا يوجدان مجردين في الوجود الكلي بل هما هكذا نسبيان بالنظر الى ظروف الزمان والمكان بحيث ان ما لا يوافق هذا يوافق ذاك وبالعكس فلا يتأتى لنا والحالة هذه ان ننفي عن شيء صفة الموافقة والملاءمة نفياً مطلقاً اذ انها لم تتجرد عنهُ الاّ بالنظر الى حالة من الحالات او موجود من الموجودات مع موافقتهِ حالات اخرى وموجودات اخرى كما انهُ لا يصح ان نلزمهُ صفة الموافقة اذ انها لا تصحُّ لهُ في كل الظروف والاحوال

ولما كانت محبة الذات من ضمن الصفات الغريزيّة والاحساسات الطبيعيّة التي تتأثر بالمؤثرات وتتغير بالمغيرات كانت لا تثبت على حال ولئن كانت غايتها ابداً ذاتية الاّ انها لا تسلك دائماً الطريقة المؤدية الى هذه الغاية لانقيادها لاحكام الارادة وما تظنهُ موصلاً الى شيء يؤدّي بها احياناً كثيرة الى آخر لجهلها بالوسائط . وهذا هو السبب في قول بعضهم ان الانسان يفعل مندفعاً من غير علم منهُ الى غاية غير الغاية التي يقصدها بقوة تتصرف فيهِ مقيمين الواسطة مقام السبب وهو منقوض . لان هذه القوة سواء كانت على قول بعضهم منفصلة عنهُ او على قول غيرهم متصلة بهِ اما ان تكون غير ارادتهِ او تكون هي نفس ارادتهِ . فان كان الاوَّل حصل العبث اذ لا يكون للارادة البينةِ احكامها والظاهرةِ اعمالها فائدةٌ في الجسم الذي تظهر فيهِ او تكون وظيفتها ان توهمهُ السير الى غاية غير الغاية المفروضة لهُ وبعبارة أُخرى ان تخدعهُ وكلاهما غير سديد . وان كان الثاني كان لا حاجة الى اقامة قوة اخرى بجنب الارادة طالما هي الارادة نفسها . فاذا صدقت الحواس في نقلها التأثيرات الى العقل وصدق العقل في احكامهِ واعتدلت الارادة في شهواتها تولد عن هذه الصفة الاولية الغريزية كثير من الصفات الفرعية الرفيعة كالكرم والشرف والشهامة والمروءة والصدق والعدل وحب الالفة والتعاون وغير ذلك من الصفات الحسنة التي تسبب بها راحة الانسان وسعادتهُ منفرداً ومجتمعاً

وبخلاف ذلك اذا انخدعت الحواس في نقلها وكذب العقل في حكمهِ وضلت الارادة في شهواتها فيتولد عنهـا الدناءة والكبرياء والجبن والكذب والظلم ورياء المحكوم واستبداد الحاكم والانفراد وغير ذلك من الصفات السافلة التي ترجع على الفرد بالويل وعلى الاجتماع الانساني بالخراب

⁂

انظر الى الكبرياء والشرف فهما صفتان متولدتان عن محبة الذات اولاهما ذميمة متولدة عن اتحاد محبة الذات بالجهل والثانية حميدة متولدة عن اتحاد محبة الذات بالعلم . فالكبرياء تحمل صاحبهـا على احترام نفسهِ باحتقار غيرهِ والشرف يحملهُ على احترام نفسهِ باحترام غيرهِ فالغايـة واحدة في كلا الامرين وهي احترام الذات الاَّ ان طريقة الحصول على ذلك مختلفة . وهذا الاختلاف ناتج عن اختلاف العلم بالاسباب والوسائط كما تقدَّم فلو علم صاحب الكبرياء ان السبيل الذي يسلكهُ في احترام نفسهِ وتعظيمها هو السبيل المحقَّر لما لعدل عنهُ الى ما هو احسن منهُ لان محبة الذات لا تستطيع ان تصير عاملة على ان تسلك السبيل الذي يؤدّي بها الى ما لا يسرّها كما ان صاحب الاستبداد لو علم ان استبدادهُ لا يأتي عليهِ بما تتمناهُ محبة ذاتهِ لمـا صبر عليهِ دقيقةً واحدة كما ان صاحب الرياء ايضـاً لو علم انهُ يوجد لهُ سبيل آخر غير ريائهِ لاستحصال رضى سيدهِ المستبد آمنًا على نفسهِ من غدرهِ لعدل عنهُ الى الصداقة وخلوص النية واستعمال الحرية في تأدية خدمتهِ . لذلك كان سلطان الرياء قويًا جـدًا حيثما قوي الاستبداد والقوم الذين يستولي عليهم الرياء هم قوم لا يصدقون ولا يصدّقون . فالرياء والموالسة والتدليس وما شاكل هي سلاح من يرغب في ان يكون مقربًا من الاستبداد متمتعًا بما يمكن تحصيلهُ من خيرات الظلم . ومن لم يتدرَّع بهذه الصفـات بل لبث مصرًا على الصدق وخلوص النية واستعمال الحرية ليس لهُ ان يطمع بالتقرب من المستبدين بل عليهِ ان يبتعد عنهم ما امكن قبل ان يبعدوهُ من بينهم لان صفاتهِ هذه لا تحسن في عينيهم ولا ترجع عليهِ الاَّ بالوبال

⁂

والانسان الذي لم تهذبهُ التجارب ولم توسع دائرة عقلهِ العلوم الصحيحة فـلا يرى

الاَّ ما كان قريب الغاية تقتصر محبة الذات فيهِ عليهِ ولا تجاوزهُ لانهُ يحسب ان سعادتهُ قائمة باسباب لا تتعداهُ ولا يمكن ان تتأتى لهُ مع سعادة سواهُ بل بخلاف ذلك قد يظن ان سعادة غيرهِ تعود عليهِ بالشقاء فيسعى في تحصيل سعادتهِ بمضادة سعادة غيرهِ . وهذا ناتج من جهلهِ الاسباب والوسائط التي تمكنهُ من الحصول على هذه السعادة المطلوبة منهُ فاذا زاد اختبارهُ وكثرت معارفهُ واتسعت دائرة احكامهِ رأى ان في الانضمام والتعاون واشتراك المصالح مزايا اخرى تفيدهُ ولا توجد لهُ منفرداً فينتقل من محبة الذات الفردية الى المحبة العائلية فصاعداً من النوع والجنس اذ يرى والحالة هذه في سعادة عائلتهِ بل وطنهِ بل نوعهِ ما يعود عليهِ باعظم سعادةٍ لا تتأتى لهُ من دون ذلك . فالامر متوقف اذاً على العلم بالاسباب والوسائط لان الانسان كيفما فعل انما يعمل دائماً بقصد الوصول الى غاية واحدة وهي سعادتهُ فاذا تصور انهُ يستطيع الحصول على سعادتهِ منفرداً دعتهُ محبةُ ذاتهِ الى اتباع السبيل الذي يرسمهُ لهُ علمهُ واذا علم ان سعادتهُ لا تحصل لهُ منفرداً بل يحتاج فيها الى التعاون مال اليهِ كما يظهر من المقابلة بين تصرُّفات الانسان في حالتي الخشونة والتمدن

ما أطوعه . وما أطمعه (١)

في نظام الاجتماع صدوع هي كالسوس تنخره ولا بد أن تقوضه ولو طلي بقار الظلم وصفح بصجد الوهم

يتنازع الاجتماع منذ القديم قوتان تتنازعان فيه قياد الانسان لكن كل منهما من سبيل

هاتان القوتان كانتا في الاول مجتمعتين وكان هولهما شديداً ثم انفصلتا . ولكنهما بقيتا متحالفتين . وسوف يعم اختصامهما حتى تلاشي الواحدة الاخرى فيسود سلطان الحقيقة ويتقوض سلطان الوهم

ولكن الاجتماع يخطو في ذلك خطوة خطوة وكل خطوة تنقضي فيها اجيال وتقضي على آمال

فالانسان وان زجَّ في الظلمة مقهوراً فلا يخرج الى النور الا مقسوراً : ألا ترى لسان حال الجماهير يقول في كل جيل « ليس في الامكان ابدع مما كان » حتى يحار العقل في اي حالتيه الانسان اسعد

لا ريب ان العلم اذا عم وبلغ الدرجة القصوى بلغ الانسان منتهى السعادة . ولكن — حتى يعم — اي أشقى من الانسان السابح بين الحالتين يتنازعه سلطان القوتين وهو ليس بالجاهل فيرع ولا بالماكر فيزع

ولكن الانسان وزع ام ورع . ضلع ام ظلع . ماكراً وغبياً واحد في مرماه

كنت يوماً في محفل واذا السلطان بابهى مظاهرها . ثم قفلت راجعاً الى بيتي فرأيت البواب جاثياً يصلي ويداه الى وجهه وكفاه مبسوطتان وهو يحدق اليهما ويتمتم كانه يقرأ عليهما ورداً وآثار الاجتهاد بادٍ عليه فقلت في نفسي : قسمة ضيزى . ثم نظرت الى ما به من الاعتقاد الراسخ فقلت : ولكنها تعزية كبرى . فما اصعب الانسان . وما اطوعه . وفي الحالين ما اطمعه . ذاك يرث الارض . وهذا يريد ان يرث . . . ملكوت السماء

---

(١) نشرت في مجلة سركيس سنة ١٩٠٧

المقالة الثانية

الحياة واصلها [1]

حيرة المرء في الوجود حياة   كل يوم تريك منها شؤونا
خاضت الناس في الظنون ولكن   ما درى الناس سرَّها المكنونا

الحياة حيرة العلماء والحيرة علة البحث ولذلك لم يمرّ عصر على الانسان الا وقام فيهِ يسأل : ما هي الحياة ومن اين اتت وكيف تولدت مسائل ثلاث مرتبط بعضها ببعض كلما اغلقت عليهِ من وجه قام يعالجها من آخر لعلها تفتح لهُ وهو في كل العصور لم يزد بها علماً عما قالهُ فيها ملتون الشرق ابو العلاء المعري

والذي حارت البرية فيهِ   حيوان مستحدث من جماد

ومن المقرر في العلم اليوم ان كل حيّ مهما كان حقيراً لا يولد الا من جرثومة متضمنة فيها كل اجزاء هذا الحي وهذه الجرثومة نفسها صادرة من حي مثله . والخلاف بين العلماء والفلاسفة في اصل الجرثومة الاولى هل تولدت في الارض نفسها ومن مادتها و بقوة من قواها ام كيف . فاصحاب رأي التولد الذاتي يذهبون الى ان الاحياء جميعها نشأت في عالمنا هذا من نفس مادته وبقواه الخاصة وقد كانت في الاصل مادة حية بسيطة جداً ثم تكيفت وتحولت على مرّ السنين والعصور المتطاولة حتى رست على ما هي عليهِ اليوم . وخالفهم اصحاب مذهب الجراثيم الذين ينكرون التولد الذاتي بناء على ما يرونه اليوم من ان كل حي لا يولد الا من حي مثله ولما سئلوا عن اصل هذه الجراثيم ذهبوا فيها مذاهب ومن اغرب ما ذهبوا اليهِ انها اتت الى عالمنا من عالم الكواكب وهو قول لو تدبرناه لرأيناه لا ينفي التولد الذاتي وانما يبعد حله لانها سواء تولدت في ارضنا او اتتها من عالم آخر فلا بد ان تكون قد تولدت اولاً في نفس هذا العالم بالنشوء ولا بد ان

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨ وهي علمية فكاهية

تكون مادة ذلك العالم الذي تولدت فيهِ اولاً وقواه شبيهة بمادة عالمنا وقواه ايضاً لكي تستطيع ان تعيش فيهِ . جاء في كتابنا الحقيقة ما نصه « على ان بعض الفلاسفة يذهبون الى ان الارض التي كانت في البدء قاحلة وغير مسكونة انما عرضت فيها الحياة مما اتاها من الجراثيم من بعض الكواكب المصطدمة بها وهو قول محتمل الا انهُ غير مقنع ويظهر لنا انه لا يحل المسألة وانما يزيدها ارتباكاً فان لم تكن الحيـاة قد ظهرت على الارض ذاتياً بفعل احوال طبيعية وكياوية فيلزم ان تكون قد ظهرت ابتداء على أحـد كواكب نظامنا الشمسي وخصوم التولد الذاتي الذين يتعلقون باهداب هذا التعليل كالملجأ الاخير لهم انما يعدون حلّ هذه المسألة ولا يأتون فيها بتعليل شافٍ ولا يخفى ان الحلّ الطيفي الذي استطعنا بواسطته ان نعلم تركيب الكواكب الكياوي ارانا ان هذه الكواكب متكونة من نفس المواد المتكون منهـا سيارنا فالصوديوم والمغنيسيوم والهدروجين والاكسيجين والكربون والكلسيوم والحديد والتلوريوم والبزموت والزئبق الخ موجودة هناك كما هي موجودة هنـا . وقد علم كذلك من فحص الحجار الجوية ان هذه الاجسام تتحد هناك كما تتحد في ارضنا فلا بدَّ اذاً من ان تكون الاحياء الاوَل قد تكونت فيها من مواد جامدة شبيهة بموادنا فوالحالة هذه ما الفائدة من الزعم بأن ارضنا انمـا اتتها الحياة من كوكب اصطدم بها في مروره في الفضاء اذ لا بدّ من الاقرار في كل الاحوال بأن التعضي قد وقع في المادة في احد نجوم نظامنا الشمسي فمن العبث اذاً الاصرار على انكار نشوء الحياة في الارض »

***

ولو لم يكن قائل هذا القول من ذوي المكانة في العلم لمـا عبأ احد بهِ لغرابته وانما الناس في المسائل العلمية كما في سواهـا كثيراً ما يعيرون الكلام التفاتاً بالنظر الى مقام قائله . فصاحب هذا الرأي الغريب هو اللورد كلفن اي السير وليم طمسن احد مشاهير العلماء الطبيعيين جاء في الحقيقة ما نصه « والذي ارتأى اولاً ان جراثيم الاجسام الحية وقعت مع الرجم هو السير وليم طمسن الانكليزي ومنذ مدة خطب بعضهم خطبة طويلة في تكوّن البرد قال انهُ يتكوّن من بخار موجود في الخلاء الذي بين الاجرام السماوية

فما اتمَّ الخطبة حتى وقف السير وليم طمسن وقال اظن الخطيب يمزح في ما يقول لانهُ لو فرضنا ان البرَد تكوَّن في تلك الاعالي لذاب قبل ان بلغ الارض بملايين من الأميال . ولما جلس قام اللورد ريلي وقال انا اعرف رجلاً ارتأى رأياً اغرب من هذا وهو ان بزور الاحياء هبطت على الارض من السماء »

وبديه ان الاحياء على موجب هذا الرأي لم تتساقط الى ارضنا باشكالها الحاضرة اي ان السماء لم تمطرنا من كل نوع من انواع الاحياء زوجين ذكراً وانثى زوجين من الكلاب وزوجين من الفيلة وزوجين من الارانب وزوجين من الحيتان الخ تكاثرت وعمرت الارض فلا الانسان ولا الحيوان لم يأتيا على هذه الصورة وانما الذي تساقط الى ارضنا بزور وبراعم ومكروبات نمت فيها وتحوَّلت على مقتضى ناموس النشوء والتحول وارتقت وكوَّنت الاحياء المعروفة اليوم

⁂

ولا بدَّ لتحقق هذا الرأي على فرض ان سلمنا بهِ من ثلاثة شروط اولاً وجود صور حية في عالم آخر غير عالمنا وليس لنا ما يثبت ذلك ولا نريد بهذا القول اثبات العمارة للارض وحدها ونفيها عن سائر السيارات وانما نريد بهِ ان ليس لنا دليل قاطع على ان سائر العوالم مأهولة باحياء شبيهة باحياء ارضنا او مختلفة عنها وان كانت عمارتها محتملة بالقياس

ثانياً وجود وسائط للنقل تحمل هذه الجراثيم من العوالم الاخرى وتنقلها الى الارض وهذا الشرط متوفر في منقضَّات النيازك وسواقط الرجم التي هي اجزاء من الاجرام السماوية تتساقط على الارض كما لو تحطم احد الاقمار وتساقطت اجزاؤه . ومثل هذه المنقضات على الارض كثير ومن كل حجم بعضها يزن القناطير وبعضها يقل عن المثقال . وقد حسب نيوتون ولوكيار انهُ يتساقط منها على الارض كل يوم نحو عشرين مليوناً واربعين مليوناً اذا عدت الصغار منها . وقد اثارت هذه النيازك في بعض القبائل عواطف العبادة يحكى انهُ سقط في سنة ١٨٥١ في زوروما في افريقيا الشرقية نيزك فدنا السود منه بكل احترام ومسحوه بالزيت « كأنهم تداوي منه جرحاً » وكسوه بالحلل الثمينة « كي لا

تخدش خده الابصار » ونقلوه الى أحد الاكواخ ونصبوه معبوداً لهم . وما امر هؤلاء السود مع هذا الحجر السماوي باعجب من امر ذلك الفلاح الانكليزي الذي رأى من عهد مائة سنة رجلاً راكباً منطاداً نزل عليه ولما سأله ابن أنا جثا على ركبتيه وقال انت في كولسدون (اسم بلدة) ايها الاله القادر على كل شيء

ثالثاً ان تكون النيازك آتية من عوالم فيها احياء وحاملة جراثيم حية وغني عن البيان ان جميع النيازك لا تستطيع ان تقوم بهذا الامر . مثال ذلك النيازك المؤلفة من معدن كان مصهوراً من شدة الحرارة على انهُ يوجد نيازك شبيهة بصخورنا يمكن للجراثيم ان تستقر في شقوقها بل نعرف نيازك تتضمن مواد عضوية شبيهة بالراتينج فهذه المواد وان لم تكن الحياة نفسها الا انها في ما يرجح متكونة عن كائنات حية او فيها وجه لهذا الفرض فانتقال الجراثيم بمثل هذه النيازك اذاً ممكن . ولكن يقوم على ذلك اعتراض وهو ان النيازك التي تخترق الهواء تمرّ فيه بسرعة عظيمة جداً هي على تقدير لوكيار من ٤٠ الى ٦٠ كيلومتراً في الثانية فتسخن الى درجة تصير فيها نيرة من شدة ضغط الهواء ودرجة الحرارة التي قد يبلغها النيزك والحالة هذه تختلف من ٤٠٠٠ الى ستة آلاف درجة فلا تستطيع الجراثيم ان تبقى حية في كل هذه الحرارة اذ قد تبين من الامتحان ان البزور قد تقوى على احتمال ١٠٠ الى ١٢٠ درجة من الحرارة الجافة بعض ساعات واما على حرارة ١٥٠ الى ٢٠٠ فانها تموت والمكروبات تهلك في جميع اشكالها . غير ان النيازك لا تبلغ جميعها هذه الدرجة من الحرارة ومن المؤكد ان التسخن هو غالباً سطحي وقد سقطت نيازك كانت فاترة وغيرها كان بارداً وفي سنة ١٨٦٠ تساقطت في درمسالا في الهند قطع كانت بحال وصولها الى الارض بالغة من البرد درجة صقعت منها الاكف التي لمستها

* *
*

وتعليل ذلك بسيط فالنيازك التي هي عبارة عن محطات الكواكب قبل ان تصل الى الارض تمرّ في فضاء بارد جداً تختلف درجة بردهِ من ٥٠ الى ١٥٠° تحت الصفر فاذا صادمت الهواء فقد تسخن في كل كتلتها اذا كانت صغيرة ولا تسخن الا في سطحها ويبقى باطنها بارداً اذا كانت اكبر فمن الممكن اذاً ان يصل الينا بعض النيازك من دون

ان يسخن كثيراً فاذا كان حاملاً في بعض اجزائه الباطنة بعض الجراثيم فليس من الضروري ان تحترق

ولكن يَرِد علينا حينئذٍ اعتراض آخر وهو اذا كانت الجراثيم لا تحترق فمن يضمن لنا انها لا تموت من شدة البرد لان برد الفضاء شديد ولكن الامتحانات الحديثة قد ذهبت بهذا الاعتراض اذ قد تبين منها ان البزور وانواع البكتيريا تحتمل برداً شديداً من دون ضرر لا درجة ٥٠ او ١٠٠ فقط بل ٢٠٠ تحت الصفر . فمن الجراثيم ما بقي حياً مائة ساعة في هواء درجة برده ١٩٠ تحت الصفر و ١١٨ يوماً على درجة تختلف بين ٣٧ و٥٣ تحت الصفر . وهذه المعلومات كثيرة الفائدة اذا ضممناها الى غيرها مما علم في هذه السنين الاخيرة

فقد كان المظنون الى ايامنا هذه ان البزور ولئن ظهرت بحالة نوم فلا تزال الحياة تعمل فيها واذا كانت تبدو لنا واقفة فما ذلك الا في الظاهر فقط فهي لا تزال تقضي بعض الوظائف الجوهرية كالتنفس والمبادلات الغذائية ولكن ببطء وضعف كليين والحال ان ذلك خطأ فان هذه الوظائف الحيوية تقف وقوفاً تاماً على درجات البرد المذكورة كما تقف عندها في الاجسام الكياوية الفتها وخصائصها المميزة لها كما تبين من الامتحان

***

وبالحقيقة كيف يمكن التصديق ببقاء وظيفة التنفس وسائر الافعال الحيوية عاملة ونحن نرى بزوراً في الفراغ لا تفرز مقداراً من الحامض الكربونيك يشعر به بالحل الطيفي ونرى بزور البرسيم (القرط) تبقى ست عشرة سنة في غاز الازوت والكلور والهيدروجين والكحول الصرف ثم تنبت اذا اخرجت الى الهواء والرطوبة والحرارة . وحب الحمص المخنوق ضمن الزئبق يبقى حياً بعد خمس سنين الى غير ذلك من الامتحانات التي يكاد يكون التبادل الحيوي ممتنعاً فيها . في مثل هذه الاحوال لا بد من التسليم بوقوف الحياة وقوفاً تاماً بحالة لا هي الموت لان الحياة ما زالت ممكنة ولا هي الحياة لان الحياة هي التبدّل والحركة بل هي حالة متوسطة بين الموت والحياة . وعليه فلا خوف على الجراثيم من برد الفضاء اذا صح انتقالها الينا من الاجرام الاخرى بواسطة النيازك . وما بسطنا

كل ذلك هنا الا من باب الفكاهة العلميــة لا تأيداً لهذا الرأي الذي هو في اعتقادنا غريبٌ جداً كما تقدم . والشيء بالشيء يذكر فمن غرائب احلام العلماء ما خطر في القرن الماضي لأحـد مشاهير الجراحين والعلماء الطبيعيين المدعو هنتر بالنظر الى وقوف ظواهر الحياة كما تقدم وهذا يدلك على ان هذا الفكر ليس حديثاً فقد خطر له ان يجرّب ايقاف الحياة واجرى امتحاناته على بعض انواع الحيوانات الدنيا فجرّب ان يوقف حياتها بالبرد فنجح في ذلك ولكنه لما اراد ايقاظها بالحرارة وجدها لا حياة لمن تنادي وله من وراء ذلك غرض عظيم قال في بيان هذا الغرض ما نصه « قـد ظننت انه يمكن اطالة الحياة الى ما لا نهاية له باجلاد انسان بوضعه في مكان بارد جـداً واستندت في ذلك على ان كل عمل ومن ثم كل خسارة في مادته تقف والحالة هذه الى ان يسخَّن ثانية وقلت في نفسي اذا اراد انسان ان يقف السنين العشر الاخيرة من حياته لاجراء هـذا التعاقب بين العمل والراحة يمكن اطالة حياته آلافاً من السنين يوقظ فيها كل مائة سنة مرة فيقف على كل ما جرى في العالم مدة رقاده وكنت معلقاً كل آمالي على نجاح هذا المشروع ولكن « امتحاناتي خانتني » انتهى فترى مما تقدم ان هنتر كان يحلم بالخلود الجسماني للجميع ولكنه لم ينجح والظاهر ان حلمه لن ينجح على اننا لا نريد ان نثني عزم احد من الراغبين . . . .

المقالة الثالثة

الادوار الجليدية وتأثيرها في الانسان (١)

لم يَرِد على الانسان سؤال اصعب من سؤالِهِ : ما هو الانسان ؟ فان هـذا السؤال سئل منذ نشأت الفلسفة واشتغل بِهِ جميع الفلاسفة ومع ذلك بقي زماناً طويلاً ولم يتحوَّل عما تركهُ عليهِ مؤسسا المدرستين القديمتين طالس وفيثاغورس وما ذلك الاَّ لقيام الانسان حكَماً في مسئلةٍ لا يسلم فيها من الغرض مع انقيادهِ في احكامهِ الى التصوُّرات الشعرية

---

(١) المجلد الخامس من المقتطف سنة ١٨٨٠

والافكار الوهمية والمبادئ الخرافيـة . ولذلك لم يتيسر البحث عن الانسان بحثاً علمياً حتى زعزعت العلوم الطبيعية هـذه المبادئ الفلسفية في الاعصر المتأخرة فانحصر البحث في هذه المسألة في علمي الانتروبولوجية اي علم الانسان والسوسيولوجية اي علم الاجتماع الانساني

وعلى ذلك فعوضاً عن ان يصعد الانسان بالخيال الى الطبقات السماوية ليبحث عن اصل الانسان فانهُ ينظر اليهِ في المكان الذي ينشأ فيهِ وينمو ويموت ولا ينتقل الى غيرهِ من الابحاث الطبيعيـة الاَّ عند الضرورة لارتباط العلوم الطبيعية بعضها ببعض ارتباطاً شديداً بحيث يتعذر البحث في علم منها بدون الاستناد الى سابقهِ في سلم العلوم . فالسوسيولوجية لما كانت اصولها في علم البيولوجيـة اي علم الحياة كان اعتناء علماء عصرنا بدرس فروع البيولوجية لتأسيس علم الانسان لا يماثلهُ اعتناء . ثم ان معرفة حقيقـة هذا العلم متوقفة ايضاً على امر مهمّ من متعلقات علم الفلك وهذا الامر هو مبادرة الاعتدالين وهو وان كان مذكوراً في جميع كتب الهيئة منذ هيبرخوس الاَّ انهُ لم يكن يظن أحـد قبل الآن ان لهُ تعلقاً بارتقاء الانسان واما الآن فيعتبر عند جمهور الجيولوجيين انهُ سبب حصول الادوار الجليدية في اوقات معينة . وقد ظهر من الابحاث المختلفة ان بين الانسان وبين الادوار الجليدية نسبةً شديدةً بحيث تؤثر في نموهِ وتمدنهِ وبهذا الاعتبار تنبئنا عن ماضيهِ ومستقبلهِ بامور كانت تبقى مجهولةً لولا ذلك ولهذا لا بد قبـل الشروع في هذا البحث من التكلم قليلاً عن الادوار الجليدية على ما يذهب اليهِ جمهور الجيولوجيين تمهيداً للموضوع فنقول

رأى الجيولوجيون في نقبهم بعض الجبال ان سطح الصخر الذي يؤلف جانب الجبل املس وعليهِ ثلوم متوازية كأنهـا مصنوعة بالازميل (انظر وجه ١٩٥ من السنة الثانية) ورأوا ايضاً حجارة هائلة بعضها مبدَّد في منحنى الجبل من سفحهِ الى قمتهِ وبعضها بعيدٌ عنهُ في السهول المجاورة وقد لاحظوا ايضاً على مسير هذه الحجارة خطوطاً متقطعة ممتدة من محل استقرارها الى قمـة الجبل فحكموا ان الحجارة المذكورة قد انفصلت من الجبل بقوةٍ ما واستقرت على ابعادٍ مختلفة بحسب القوة التي ابعدتها . وان الخطوط آثار مرورها

على الارض في انحدارها . واول ما شاهدوا هذه الحجارة الهائلة والثلوم والخطوط في جبال ألبا . ثم رأوها في جبال اخرى في شمالي اوربا وظهر لهم انها تزداد وضوحاً كلما تقدموا الى الشمال وقد توهموا انها تجه دائماً من الشمال الى الجنوب فقالوا ان سببها ارتفاع مياه الاوقيانوس المتجمد الشمالي بغتةً واندفاع الجليد منهُ قطعاً هائلةً على الارض بقوة عنيفة ساقت امامها ما اعترضها من الحجارة وغيرها وثلمت سطوح الصخور الملساء وهذا هو مذهب الطوفان . وعضد هذا المذهب كوفيه الطبيعي الشهير وبقي معوّلاً عليهِ الى سنة ١٨٣٠ وحينئذٍ قام ليَل الجيولوجي الانكليزي فناقضهُ قائلاً ان الظواهر الطبيعية الحادثة على سطح الارض ليست نتيجة انقلابات فجائية لا تدرك اسبابها بل هي حادثة عن عوامل طبيعية تتم امامنا ببطء شيئاً فشيئاً وان هذه العوامل المتناقضة النتائج مرجعها كلها الى القوات النارية التي ترفع سطح الارض والى فعل الهواء الذي يفتّت الصخور ويعرّي الجبال وينقل التراب ويملأ بهِ الاودية . ثم تحقق الجيولوجيون خلافاً لما كانوا توهموهُ ان اتجاه الخطوط من الشمال الى الجنوب ليس مطرداً بل يتبع مسير الماء كيف كان مجراهُ فيكون ايضاً من الجنوب الى الشمال كما في جبال البرينه وهذا الاتجاه لا يصح ان يكون حادثاً عن طغيان الابحر الشمالية . فتحوّل فكر العلماء حينئذٍ للبحث عن اسبابٍ اخرى طبيعية فتحقق شمبر احد الطبيعيين الجرمانيين من انهار الجليد الحاضرة انها تترك في سيرها حجارةً هائلةً وصخوراً مثلمةً شبيهة بما يوجد في الطبقات السفلى وانما الفرق بينها ان القديمة اكثر امتداداً فاستنتج من ذلك انها (اي القديمة) حصلت من انهار جليد اعظم من الموجودة الآن . ولكن لما كان بين هذا القول وبين التعاليم المعوّل عليها حينئذٍ بونٌ عظيم لم يعبأ بهِ . وفي سنة ١٨٤٠ نشر اكاسيز الشهير كتاباً بهذا المعنى بيَّن فيهِ وجود دور جليدي في الادهار الغابرة وابدى رأيهُ عن انهار الجليد القديمة وعن نتائج امتدادها العظيم فلشهرتهِ انتبه كثير من العلماء الى ذلك وسافر جماعة من جيولوجي الانكليز ومنهم ليَل الى جبال ألبا ليتحققوا بانفسهم فعل انهار الجليد ورجعوا مقتنعين مما رأوا . ثم تحقق العلماء ذلك ايضاً في جميع البلدان ذوات الجبال بوسط اوربا وشمالها وشمال اميركا وجنوبها وفي جبال اسيا الوسطى حتى ان مذهب

الانهار الجليدية عمَّ الآن وصار حكماً من احكام الجيولوجيا . ولما تحققوا ان القسم الاعظم من نصف الكرة الشمالي اكتسى بالجليد بعدما تكوّنت اراضي الدور الثلاثي بقي عليهم ان يعرفوا ما هو السبب لحصول ذلك فذهبوا مذاهب شتى وارتأوا آراء متعددة افضت بعد المباحث الطويلة الى ان سطح الارض لم يكتسِ بالجليد مرةً واحدة فقط بل مراراً متعددة في ادوار متعددة وثبت عندهم ان هذه الادوار الجليدية ترجع في ادوار منسوقة على نظامٍ محدود . ولدى التأمل في هذا النظام اخذوا يبحثون عن السبب الذي تهبط به حرارة احد نصفي كرة الارض فيبرد برداً شديداً يؤذن للجليد بالدوام ازماناً مديدة ففطنوا الى امر مبادرة الاعتدالين والى انتقال محور دائرة الارض العظيم فسهل عليهم حل هذا المشكل . فان هذا المحور العظيم يتحرك تحركاً بطيئاً في دوران الارض حول الشمس حتى يدور دورةً كاملة بالنظر الى الاعتدالين في احدى وعشرين الف سنة تقريباً كما يعلم من علم الهيئة وفي هذه المدة يوافق بالضرورة خط الانقلابين مرتين فينطبق عليهِ لحظة من الزمان . وقد حدثت الموافقة الاخيرة سنة ١٢٥٠ للميلاد وحينئذٍ كانت نقطة الرأس في الانقلاب الشتوي فتأتى من ذلك ان بلغت ايام الربيع والصيف في نصف الكرة الشمالي اعظمها وطالت فصول الشتاء واشتد بردها جدًّا في النصف الجنوبي بحيث تولاهُ دورٌ جليدي لم يزل حتى يومنا لان ظروف المناخ لم تتغير من ثمَّ كثيراً . ثم اذا تقهقرنا عشرة آلاف وخمس مئة سنة رأينا ان نقطة الرأس كانت في الانقلاب الصيفي فحصل عكس ما تقدم اي ان فصول الشتاء طالت واشتد بردها في نصف الكرة الشمالي فاحدثت عليها دوراً جليديًّا فكل ١٠٥٠٠ سنة يحصل دورٌ باردٌ جدًّا شمالي ثم جنوبي على التعاقب بحيث تتوالى الادوار الجليدية على كلٍّ من نصفي الكرة كل احدى وعشرين الف سنة

⁂

فلننظر الآن الى الانهار الجليدية من جهة تأثيرها في نوع الانسان فاول ما يتضح لنا هو سبب الاختلاف العظيم بين اهل الشرق والغرب من جهة تاريخهم ولولا ذلك لكان تاريخهم يبقى في غاية الابهام . فلا يخفى ان تاريخ الانسان الشرقي اقدم جدًّا من

تاريخ الانسان الغربي فان اقدم آثار الانسان التي وجدت في اوربا لا يتجاوز عمرها ٧٠٠٠ الى ٨٠٠٠ سنة حسب تعديل الجيولوجيين بناء على اقدم الآثار الموجودة حديثاً واما آثارهُ الدالة على تمدنهِ في الشرق فيصعد تاريخها كما في بلاد مصر الى ١٥٠٠٠ سنة حسب تقويم اعدل الجيولوجيين . وذلك موافق لرواية مانثون الذي امرهُ بطليموس فيلادلفوس فنقل عن الكتب المقدسة لهيكل اليوبوليس العظيم تاريخ مصر منذ ايامها الاولى وضمنهُ في ثلاثة مجلدات لم يصل الينا منها سوى بعض فقرات وفصول ذكرها المؤرخون القدماء الذين جاءوا بعدهُ كهيرودوطوس وغيرهِ . على انهُ لم يكن احدٌ قبل الآن يثق بصحتها لما بين التواريخ التي ينسبها الى دول مصر وبين التعاليم الشائعة من الفرق البيّن حتى جاءت اخيراً الابحاث الجيولوجية مؤيدةً صحتها . فاذا قيل ما هو السبب في كون تاريخ تمدن بعض شعوب المشرق يتقهقر الى ١٥٠ قرناً مع ان اهل اوربا لم يكونوا منذ سبعة او ثمانية آلاف سنة الاَّ قبائل متوحشة يقطنون المغاير والكهوف فالسبب واضح لمن يتدبّر مذهب الادوار الجليدية . فان بلاد مصر لعدم وجود الجبال فيها ولاتصالها من طرفها الجنوبي بمدار السرطان آمنة من نوازل الثلج والجليد فلا تعيق نمو الانسان فيها وكذلك يقال ايضاً عن السهول الواسعة الممتدة في جنوبي اسيا من حدود البحر المتوسط الى حدود الصين . بخلاف اوربا فانها لبعدها عن المدارين واتصالها بالابحر الشمالية فالبرد يشتد فيها جدًّا فيتراكم الثلج على القسم الاعظم من سطحها فتحول دون نمو الانسان فيها . وهذا هو السبب في عدم ظهور آثار الانسان السابق العهد التاريخي فيها الى ما بعد تقهقر الانهار الجليدية الاخيرة . ولا يوجد قبلها الاَّ بعض عظام بشرية يندر وجودها اكثر فاكثر كلما اقتربنا الى اسافل الاراضي التي تكوَّنت في الدور الرباعي

⁂

ثم يتضح ايضاً على مذهب الادوار الجليدية سبب امر آخر كثير الابهام كسابقهِ وذلك ان من يقابل بين امم الشرق القديمة وبين الامم الحاضرة بالنظر الى نشاط القوى العقلية يستعظم الفرق بينها . أليست بلاد الهند وايران والكلدان مهد التمدن وام العلوم

والصنائع (فان خرابات بابل ونينوى لا تزال موضوع اندهاش اهل هذا العصر مما يدلُّ على ان الصنائع فيهما كانت بالغةً من الاتقان اعلى درجة فضلاً عن ان علم الهيئة نشأ في بابل والعلوم الرياضية كانت متسعة جدًّا في بلاد الهند) فما الذي استولى عليها حتى لم يبقَ لها بقية تذكر او ذكرٌ يشهر أليست البلاد التي اولدت طالس وارخميدس وهيبرخوس عقيمةً منذ زمان طويل فكيف وهنت قوى هؤلاء الشعوب ولماذا سكنت حركتهم عن التقدم في معراج التمدن . ان سبب ذلك يتضح من دور البرد الاخير الذي استولى على نصف الكرة الشمالي فان شدتهُ وصلت الى ابعد من حدود الانهار الجليدية بكثير (فان دور البرد الشديد المستولي الآن على نصف الكرة الجنوبي لا يزال تأثيرهُ واصلاً الى حدود رأس الرجاء الصالح في افريقية وبونس ايرس في اميركا مع انهُ دخل في التناقص من تاريخ ١٢٥٠ سنة للميلاد) فاهالي جبال اسيا لما داهمها الثلج حينئذٍ انسحبت من امام البرد والتجأت الى السهول المنحدرة نحو شطوط البحر المتوسط وخليج العجم وبحر الهند . وما دامت تلك الثلوج تبعث الهواء البارد الى الجنوب فتبرّد تلك الجهات دام المهاجرون اليها على نشاطهم العقلي الخاص بسكان البلاد الباردة فنما التمدن وانتشر في الشرق ولكن لما اخذت تلك الثلوج تذوب وتتقهقر اخذت طبائع تلك الاقاليم تتغير فاستولت عليها حرارة الجهات المدارية واستولى الخمول على سكانها واخذ نشاطهم ينحط وعزائمهم تضعف حتى سكنوا في رقدتهم التي نراهم فيها فنهض الغرب حينئذٍ اذ خلع عنهُ جلباب البرد القارس الذي كان كبّل قواهُ واخمد انفاسهُ قروناً عديدة وابان للعالم اجمع كم ترك الاوائل للاواخر بما أبداهُ من النشاط الذي فاق كل نشاط . فان الذي اتصل اليه ابن المغرب من السعة في المعارف والدقة في العلوم والاتقان في الصنائع لا تبعد عنا شهودهُ ولا يترك محلاً للريب في انهُ انالهُ قصب السبق في ميدان الانسانية . ولكن لا فضل لاحد بذلك فالفضل لله ولا عار علينا بخمولنا فانهُ بحكم الدور سيأتي زمن لا يتجاوز مئة قرن بتعديل الجيولوجيين فيهِ تعود الثلوج وتغطي القسم الاعظم من نصف الكرة الشمالي فتمسي تلك العواصم الماهولة كبطرسبورج وفينا وبرلين وباريس ولوندرة ونيويورك

كان لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامرُ

فيولي اهلها الادبار من امام وجه البرد طالبين ملجأ في جنوبي اوربا وفي اماكن اخرى على شطوط البحر المتوسط ويتقهقر الغرب ويبرد هواء الشرق فيدب النشاط في عروق اهلهِ وتوافيه السعادة بعد الشقاء وينتقل محور التمدن اليهِ

ان البلاد كالعباد فانها تشقى كما تشقى العباد وتسعدُ

***

ولنذكر الآن ما استفادهُ العلماء من الادوار الجليدية . فالجيولوجيون استفادوا منها معرفة اعمار طبقات الارض المختلفة بمراقبة ظواهر الجليد فيها والانتروبولوجيون استفادوا معرفة عمر الانسان من آثاره فيها . أما الجيولوجيون فتحققوا في نصف الكرة الشمالي ثلاثة ادوار جليدية واضحة اقدمها في الطبقة الوسطى للاراضي الثلاثية والثاني في بداية الرواسب الرباعية والاخير انهار الجليد الاخيرة في جبال الالب وأما الانتروبولوجيون فالظاهر انهم وجدوا عظاماً بشرية حتى في الطبقة الوسطى للاراضي الثلاثية اي في اقدم دور جليدي عرف الى الآن . فاذا اضفنا ٢١٠٠٠ سنة مدة رجوع الدور الجليدي مضروبة في ٢ عدد الدورين الجليديين الشماليين الاول والثاني الى ٩٢٥٠ سنة التي مرَّت من الدور الجليدي الشمالي الاخير الى القرن الاول للميلاد كان لنا عمر الانسان المعروف الى الآن وربما كانت الابحاث المستقبلة تبعد تاريخه عن ذلك ايضاً . على اننا نقول ان كل ذلك منقول عن ارباب هذا العلم فلا نجزم بصحتهِ بل نتبرَّأ من تبعتهِ فلا يهلّل المعتقدون ولا يتهلل الجاحدون[1] . اه

---

(١) لم نشأ ان نغير شيئاً في اسلوبنا في بسط الآراء او الاشارة اليها تصريحاً او تلميحاً في كل كتاباتنا الماضية والحاضرة لتدل بذلك على خطتنا المقتبسة من سوانا والخاصة بنا . وكأنَّ الاسلوب الغالب في الماضي كان يميل الى التلميح اكثر من التصريح وكثيرون حتى اليوم يعدون ذلك التلميح براعة . ولكن ذلك لم يدم بنا طويلاً حتى عدلنا عن تلك الحذلقة الى ما هو امرح بياناً

المقالة الرابعة

الاجتماع البشري او العمران (١)

الغاية من الاجتماع البشري ويسمَّى العمران ايضاً التعاون على المعاش والاعمال في تحصيلهِ من وجوههِ واكتساب اسبابهِ . وذهبت طائفة من الحكماء الى ان الاجتماع نتيجة الفكر والرويَّة وقصرتهُ على الانسان وقال قومٌ بل هو طبيعيٌّ في الحيوان لما يُعهد من اجتماع النمل والنحل والجراد والقرود كما سنبيّن ذلك في ما يأتي وانما بلغ الغاية في الانسان لانهُ اقومها تكويناً وابعدها فكراً واقواها رويَّة . واجمعوا على انهُ ضروريٌّ للبشر والاَّ لم يكمل وجودهم ولم تتم حياتهم لان الانسان مضطرٌّ لدفع شرور كثيرة عنهُ مثل الجوع والعطش والبرد والتعب وعدوان بعضهِ على بعض وعدوان الحيوانات الأُخر التي تساكنهُ ارضهُ وتنازعهُ الحياة فيها ولمقاومة قواسر اخرى طبيعية كثيرة . ومحتاج كذلك الى مواد وآلات يتقي بها هذه الشرور كالقوت والكساء والمساكن والاسلحة وغير ذلك مما يقتضي اعمالاً كثيرة فان كان منفرداً فهو لا يستطيع القيام بها جميعاً لان كل عملٍ منها يستغرق فيه حياةً كاملة وقد لا تفي بجزء منه فهو لا بدَّ لهُ من الاجتماع وتقاسم الاعمال حتى يتمَّ له التعاون بحيث يكون منه الزارع والصانع والجندي والوازع والمخترع والحكيم وحتى ينتظم وجودهُ ويحسن حالهُ . ولهذا شبَّه الحكماء العمران بجسمٍ حيّ كسائر الاجسام الحيَّة مركَّب من اعضاء مختلفة تعمل لغاية واحدة وهي سلامة بعضها وسلامة الكل . ووصفهُ بعضهم وصفاً طبيعياً نظيرها كما سيأتي . ولو اقتصر الانسان على الحياة منفرداً ما استطاع ان يتغذَّى بغير الأثمار او يكتسي بغير اوراق الشجر يخصفها عليهِ او يأوي الى كهوف الارض ولما امكن له اقامة القصور الشاهقة وبناء المدن الحصينة واتخاذ الملابس الحسنة الفاخرة وطبخ الاطعمة الجيّدة اللذيذة واصطناع الاسلحة المنيعة ولكان اشبه بالحيوانات العجم ولما نما الى هذا الحد ولكانت حياتهُ اشبه

(١) نشر ذلك في مقتطف السنة التاسعة والعاشرة سنة ١٨٨٤ و١٨٨٥

بحياة الكريّات الحية المؤلف منها الجسم الحي اذا كانت منفردةً . فهو لم يستطع النهوض بهذه الاعمال الاّ مجتمعاً فحياتهُ الاجتماعية اذاً ضرورية لحفظهِ وراحتهِ ورفاهيته ولهذا نما فيهِ هذا الميل للاجتماع الى حدٍّ بليغ جدًّا حتى وصفهُ الحكماء بقولهم الانسان مدنيٌّ بالطبع اي لا بدَّ لهُ من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم كما يقول ابن خلدون

ولكي يتمَّ له ذلك لا بدَّ لهُ من سنن تكفلهُ ولا بدَّ من العدل في هذه السنن اي مراعاة مصالح الجمهور المتبادلة ولا بدَّ من احترامها كذلك والاَّ انفصمت عروة الاجتماع وتداعت دعائمهُ . لكن لما كان الانسان كثيراً ما لا يسلك من نفسهِ الطرق المثلى المؤدية الى ذلك اما عن عتوٍّ وغرور او عن جهل وذهول كان لا بدَّ لهُ من اقامة قوَّةٍ يناط بها المحافظة على المقرَّر من السنن والاقتصاص ممن يحيد عن جادَّتها والاَّ آل به الحال الى الفوضى . اي لا بدَّ لهُ من وازع يكون منهُ اذ لا يمكن ان يكون من سواهُ يدفع عدوان بعضهِ عن بعض ويهتم باصلاح شؤونهِ . وقد اشار أرسطو الى ذلك كله في دائرته المسماة في عرف السياسيين بالدائرة السياسية حيث قال « العالم بستان سياجهُ الدولة والدولة سلطان تحيا بهِ السنَّة والسنَّة سياسة يسوسها الملك والملك نظام يعضدهُ الجند والجند اعوان يكفلهم المال والمال رزقٌ تجمعه الرعية والرعية عبيدٌ يكنفهم العدل والعدل مألوف وبهِ قوام العالم »

واختلفوا في حقيقة هذه السنن فذهب قومٌ الى انها الشرع المفروض من عند الله والاَّ لم يكن لها وقع في القلوب ولا نهيٌ عن المنكر وقال غيرهم بل هي الشرع على الاطلاق والاَّ لما اقتضى ان تتم العمارة للبشر قبل الانبياء ولا لامم غير تابعة لهم . قال ابن خلدون « وتزيد الفلاسفة على هذا البرهان حيث يحاولون اثبات النبوَّة بالدليل العقلي وانها خاصَّة طبيعية للانسان فيقررون هذا البرهان الى غايتهِ وانهُ لا بدَّ للبشر من الحكم الوازع ثم يقولون وذلك الحكم يكون بشرعٍ مفروضٍ من عند الله يأتي به واحدٌ من البشر وانهُ لا بدَّ ان يكون متميزاً عنهم بما اودع فيهِ من خواص هدايتهِ ليقع التسليم لهُ والقبول منهُ حتى يتمَّ الحكم فيهم وعليهم من غير انكارٍ ولا تزيف وهذه القضية للحكماء غير برهانيَّة كما تراهُ اذ الوجود وحياة البشر قد تم من دون ذلك بما يفرضهُ الحاكم لنفسه

او بالعصبيَّة التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادَّتهِ . فاهل الكتاب المتبعون للانبياء قليلون بالنسبة الى المجوس الذين ليس لهم كتاب فانهم اكثر اهل الارض ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والاثار فضلاً عن الحياة وكذلك هي لهم لهذا العهد في الاقاليم المنحرفة في الشمال والجنوب بخلاف حياة البشر فوضى دون وازع لهم البتة فانهُ يمتنع وبهذا يتبين لك غلطهم في وجوب النبوَّات وانهُ ليس بعقلي وانما مدركه الشرع كما هو مذهب السلف من الامة » . وذهب فريقٌ الى ان السنن التي اصطلح عليها الانسان في بادئ اجتماعهِ انما هي سنن العوائد وهي احكام تكليفية مرعية في المعاملات والمعايش انما الحكومة لا تشدّد في المحافظة عليها وهي تحصل للناس بالتربية والمحاكاة وتنشأ فيهم عن سليقة وهي اسبق كل السنن . وذهب سبنسر الى انها اصلها جميعاً لانها هي المرعية وحدها عند بعض الاجيال من البشر المنغمسين في التوحش كاهل استراليا وطسمانيا والاسكيمو وغيرهم ممن ليس لهم نظامات سياسية ولا دينية أو هي فيهم أثر من عين . قالوا وقد كان زمام هذه النظامات السياسية والدينية أولاً في يد سلطان واحدٍ ولم ينفصلا الا بعد حين اي بعد ان بلغ الانسان درجةً عالية في العمران كما تدلُّ احوال كثيرٍ من أجيال البشر اليوم وكما يعلم من تاريخ الامم العظيمة والملل الشهيرة . وذهب المحققون الى ان السنن ينبغي ان تكون تابعة للانسان لا متبوعة بهِ اي ان تكون متغيرة لا ثابتة ومقيدة لا مطلقة حتى تكون نافعة لهُ لا سبباً مانعاً لارتقائه والا لما قدر الانسان ان يخطو خطوةً عما يفرضهُ له نظام معلوم ولبقي في كل عصرٍ وفي كل جيلٍ كما كان في العصر الاول والجيل الاول من اجتماعهِ لان كل جيلٍ لهُ سنن لا تصلح لسواهُ فان لم تتغير هي لم يتغير هو . والحق ان احوال الامم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرةٍ واحدة ومنهاج مستقرّ كما يقول ابن خلدون انما هو اختلاف على الايام والازمنة وانتقالٌ من حالٍ الى حال الاَّ ان هذا التبدُّل في الاحوال والعوائد والنحل بتبدُّل الاعصار ومرور الايام يذهل عنهُ الكثير من الناس اذ لا يقع الاَّ بعد احقابٍ متطاولة فلا يكاد يتفطن لهُ الا الآحاد من اهل الخليقة

⁂

واختلفوا في طبيعة الحكم الوازع فقال قوم هو الحكم الملكي المطلق ورأسهُ الملك وقد اشار انوشروان الى ذلك حيث قال « ورأس الكل افتقاد الملك حال رعيته بنفسهِ واقتداره على تأديبها حتى يملكها ولا تملكه » وقال غيرهم بل هذا النظام مفسد للعدل الذي هو اسُّ العمران بما يولي الملك من السلطان المطلق على عمالهِ وعلى رعيتهِ اذ لا يكون لاعمالهِ منتقد ولا لأحكامهِ معدل فيعدل الى الاستبداد في أُمور الرعية ويستخدمها لأغراضهِ الخصوصية . واذ تستحسُ الرعية منهُ بذلك تدين لهُ خاضعة خادعة ويسود عليها مخضوعاً لهُ مخدوعاً . فيتقرَّب لهُ اصحاب الاغراض بالكذب في موضع الصدق وبالاطراء في موضع التنديد لان الناس متطلعون الى الدنيا من جاهٍ او ثروة والنفوس مولعة بحب الثناء . ويسلك معهُ على هذا المنهاج عمَّالهُ وتبَّاعهُ وسائر بطانتهِ فيحجبون عنهُ صحيح الاخبار متزلفين اليهِ بما يزيدهم فيهِ استئثاراً وفي احوال الرعية استبداداً

حكى ابو الفدا في تاريخهِ قال « بينا الخليفة المنصور يطوف بالكعبة ليلاً اذ سمع قائلاً يقول اللهمَّ اني اشكو اليك ظهور البغي والفساد في الارض وما يحول بين الحق واهلهِ من الطمع . فخرج المنصور الى ناحية من المسجد ودعا القائل وسألهُ عن قولهِ فقال لهُ يا امير المؤمنين ان أمَّنتني انبأتك بالامور على جليتها واصولها فأمنهُ فقال ان الذي دخلهُ الطمع حتى حال بين الحق واهلهِ هو أنتَ يا أمير المؤمنين فقال المنصور ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي والحلو والحامض عندي . فقال الرجل لأن الله استرعاك المسلمين واموالهم فجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر وابواباً من الحديد وحجَّاباً معهم الاسلحة وامرتهم ان لا يدخل عليك الاَّ فلان وفلان ولم تأمر بايصال المظلوم والملهوف ولا الجائع والعاري ولا الضعيف والفقير وما احد الاَّ ولهُ من هذا الامر حق . فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك تجبي الاموال فلا تعطيها وتجمعها ولا تقسمها قالوا هذا قد خان الله تعالى فما لنا لا نخونهُ وقد سخر لنا نفسهُ فاتفقوا على ان لا يصل اليك من اخبار الناس الاَّ ما أرادوا ولا يخرج لك عامل فيخالف امرهم الاَّ اقصوهُ ونفوهُ حتى تسقط منزلتهُ ويصغر قدرهُ . فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس وهابوهم فكان اول من صانعهم عمالك

بالهدايا ليتقووا بهم على ظلم رعيتك . ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا بهِ ظلم من دونهم . فامتلأت بلاد الله بالطمع ظلماً وفساداً وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل . فان جاء متظلم حيل بينهُ وبين الدخول اليك فان أراد رفع قصة اليك وجدك قد منعت من ذلك وجعلت رجلاً ينظر في المظالم فلا يزال المظلوم يختلف اليهِ وهو يدافعهُ خوفاً من بطانتك فاذا صرخ بين يديك ضُرب ضرباً شديداً ليكون نكالاً لغيرهِ وانت تنظر ولا تنكر فما بقاء الاسلام على هذا . فان قلتَ انما تجمع المال لولدك فقد أراك الله في الطفل يسقط من بطن امهِ وما لهُ في الارض مال وما من مال الاَّ ودونهُ يدٌ شحيحة فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى يعظم رغبة الناس اليهِ . ولست الذي يعطي وانما الله عزَّ وجلَّ يعطي من يشاء بغير حساب . وان قلت انما اجمع المال لتسديد الملك وتقويتهِ فقد أراك الله في بني أُميّة ما أغنى عنهم ما جمعوهُ من الذهب والفضة وما اعدُّوا من الرجال والسلاح والكراع حين أراد الله ما أراد . وان قلت انما أجمعهُ لطلب غايةٍ هي اجسم من الغاية التي انت فيها فوالله ما فوق الذي انت فيهِ منزلة الاَّ منزلة ما تُنال الاَّ بخلاف ما أنت عليهِ »

فلم يكن بدٌّ في مثل هذا النظام من تعظيم شريعة الله والاكثار من الهديد بها تذكيراً للملوك وتهويلاً كما فعل الاعرابيُّ المذكور مع المنصور وكما فعل بهرام بن بهرام في حكاية البوم حيث يقول ايها الملك ان الملك لا يتمّ عزّهُ الاَّ بالشريعة والقيام لله بطاعتهِ والتصرف تحت امرهِ ونهيهِ . » والاَّ قلَّ عدلهم واتتفى صلاحهم وكثر جورهم وهار بناء ملكهم اذ ليس لهم زاجرٌ سواها لانهم غير مسئولين في ما عهد اليهم من امور العباد الاَّ لله وحدهُ . هذا على فرض ان يكون الملك حليماً عادلاً فكيف بهِ اذا كان جباراً عاتياً كتيمور الذي كان كما فتح مملكةً او مدينة يبني من رؤوس اهلها هرَماً

* * *

قالوا ولهذا النظام ايضاً أثر لا يحمد في الاخلاق اذ تنحط معهُ الهمم وتضعف العزائم وتذلُّ النفوس بما يكثر من الظلم فيسود الرياء ويفشو الكذب لان الذين يغلب فيهم الظلم يغلب عليهم الرياء حتى يصير فيهم ملكةً طبيعية فيقلُّ الصدق لان القوم الذين

يغلب فيهم الرياء هم قومٌ لا يصدّقون ولا يصدقون فيختل نظام الملك ويسوء حال الرعية وتفقد على مر الزمان استقلالها في عالم الوجود . قال ابقراط في كتاب الاهوية والمياه والمساكن « لذلك كان أهل آسيا أقل نجدةً للحروب من أهل اوربا لان اعظم قسم منها تحكمهُ ملوك وحيثما كان الناس عبيداً لسواهم فهم لا يهتمون بأن يتمرنوا على السلاح بل ان يتخلصوا من التجند لان الخطر غير موزَّع على السواء . فالرعايا يذهبون للحرب متحملين مشقاتها و يموتون عن سادتهم بعيدين عن اولادهم ونسائهم واصدقائهم وسادتهم هم الذين يجنون ثمرة اتعابهم لمد شوكتهم واما هم فلا ينالهم غير اقتحام الاهوال والموت . ومما يؤيد ذلك ان جميع الذين في اسيا من اليونان والبرابرة ممن لا سادة لهم بل هم يتولون الحكم فيهم وعليهم بشرائعهم ويشتغلون لانفسهم هم بين سكانها انجدهم للحروب واقدمهم على الخطر لانهم هم الذين يجنون ثمرة بسالتهم ويتحملون عار جبنهم » .

لذلك قالوا ان الحاكم ينبغي ان يكون مقيداً بسننٍ تضعها الامة وان يكون مسئولاً لها بها وهذا النظام لهُ فوائد جمة اولاً ان الحاكم لا يكون معهُ مطلق التصرُّف فاحكامهُ في الامر والنهي لا تجري الاَّ اذا كانت مطابقة لوضع السنن المقرَّرة والتي يحافظ عليها رجالٌ من مشارب مختلفة وآراء متباينة تعهد الامة اليهم بها . ثم لما كانت احتياجات الامة تختلف باختلاف احوالها كان هذا النظام موجباً من هؤلاء الرجال للنظر في هذه السنن لتعديلها من وقتٍ الى آخر بحيث تكون موافقة للحال ويكون ذلك بالاشتراك مع الامة التي يطّلعون على آرائها ومناويها ويفهمون مقاصدها ومغازيها اذ لا يكون معهُ حجرٌ على الافكار . وهذا الامر من طبعهِ ان يثير حرباً في الآراء والمذاهب تكون نارها برداً وسلاماً على الامة . لان المضادة التي تنشأُ حينئذٍ تكون نتيجتها اعطاء الاشياء حقها من التمحيص قبل اقرارها والوقوف فيها عند حد الاعتدال والاَّ ان لم تكن المضادة في الآراء لم يمكن تمحيصها بنار الانتقاد ولا الاعتدال بها اذ تنفرد بها النفوس ويقوى بها التشيع والنفس اذا خامرها تشيعٌ كان ذلك التشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد فتجمح الى ركوب متن الافراط او تسقط في مهواة التفريط . ولا يخفى ما لذلك النظام من الاثر في تحسين احوال الامة وعلومها وصنائعها لما ينمو فيها من فضائل الحرية القانونية

المؤسسة على معرفة الانسان نفسهُ وما يجب لهُ وما يجب عليهِ في العمران فتنطبع على الاقدام والقيام بالاعمال الجليلة اذ تنهض منها الهمم وتشتدُّ العزائم فتمتد شوكتها في الاقطار ويتسع نطاق ملكها . قال أبقراط ايضاً « ولهذا السبب كان اهل اوربا أشد نجدةً للحروب من أهل آسيا لانهم لا تحكمهم ملوك نظيرهم فالخاضعون للحكم الملكي يفقدون الشجاعة ضرورة لان نفوسهم مستعبدة فلا يهمهم التعرض للخطر لمد شوكة غيرهم وانما تحكمهم شرائعهم لذلك هم اذا رأوا الخطر محدقاً بهم اقدموا عليهِ بجسارة لان النصر عائده عليهم »

***

وذهب فريق الى ان هذا الحكم انما هو الحكم الملكي المقيد وقال غيرهُ بل هذا النظام يشم منهُ رائحة الاستبداد وهو محفوف بالمخاطر لان الملك وان كانت الامة تقاسمهُ الحكم بمن تستنيبهم منها لديهِ لمراقبة اعمالهِ والذود عن حقوقها الاَّ انهُ لم يخلُ من بطانةٍ وعمال يهمهم التقرب لهُ اكثر من القيام بمصالح الامة فربما عاونوهُ على استمالة نوابها اليهِ اما لذهول هؤلاء عن المقاصد التي ندبوا لها او لخوف حرمانهم من المناصب بما للملك وخاصتهِ من السطوة والنفوذ فانقلبت نيابتهم فيها شراً وهدايتهم لها تضليلاً وساءت بهم مصيراً . ثم لما كان هذا النظام يخوّل الملوك حق الولاية بالسلالة كان لا يمتنع ان يتولى منهم من يكون خامل الذكر فاقد الحزم فتتلاعب بهِ اغراض عمّالهِ وتتجاذبهُ اهواؤهم وهو فاقد الرشد لا يميّز غث الامور من سمينها فيتطرّق الخلل الى امور المملكة من وجوهٍ شتى حتى تصبح

كريشةٍ في مهب الريح طائرةٍ لا تستقرُّ على حالٍ من القلقِ

وبالجملة ذهبوا الى ان الحكم الوازع يمتنع ان يكون مقيّداً حق التقييد في مثل هذا النظام الاَّ اذا كان فيهِ الملك صورةً لا حقيقةً كما يعهد في بعض الامم (امّة الانكليز) وهي مع ذلك اصلح الناس حالاً . ولذلك قالوا لا بدَّ من ان يكون حكم التبديل شاملاً لعامة الهيئة من الملك الى العامل البسيط مع مراعاة جانب الحكمة في هذا التبديل اجتناباً لشر العجلة اذا كان سريعاً فتتبدّل الدول ولا تكون فرصة للعمل وفراراً من سوء عقبى

الابطاء لئلاّ يستبد الرأس الحاكم بالحكم اذا طال عهدهُ وهو قابض على ذمامهِ كما وقع لنابوليون . وينتخب الرأس من آحاد الامة ويوجب لهُ هذا الانتخاب عندها ما لهُ من الحكمة والدراية بالامور فيتعاون مع رجال الحكومة على اتمام الحكم في الامة وعليها على قوانين الشورى الحقة . قالوا وهذا النظام كثيراً ما لا يبرأ من الخلل الاَّ انهُ ابلغ ما في طاقة البشر ادراكهُ بالفعل

***

ومن ينظر في العمران ينبغي ان لا يذهل عمّا للاقليم من الاثر فيهِ اذ لا يستوي العمران في كل الاصقاع لاختلاف طبائع اقاليمها ولا في كل الاجيال لاختلافهم في الخلق والخلق وسبب ذلك لان الانسان متأثر لعامة الاسباب الطبيعية من حرّ وبرد وهواء وخصب وجدب ونجد وغور وجبل وسهل وبادية ومصر واختلاف فصول وغير ذلك ما بين اعتدال مزاج واختلاف تكوين وشدَّة واسترخاء وحزم وثبات وطيش وخفة وخشونة ولين ونشاط وتوانٍ وغفلة وذكاء وبلادة وكل ذلك يؤثر في عاداتهِ وسياساتهِ ونحلهِ ويؤثر بعضهُ في بعضٍ ايضاً بحيث تختلف النتائج عن ذلك اختلافاً جسيماً وتتنوع الى ما لا حدَّ لهُ . فانك اذا قابلت بين سكان صقع وصقع تجد بينهم بوناً عظيماً في التكوين والاخلاق والسياسات والعادات وكذلك الاجيال الواحدة تختلف في الاحقاب المختلفة وسكان البلد الواحد يختلفون فيما بينهم حتى لا تكاد ترى اثنين يشبه احدهما الآخر بسبب ذلك

وربما امكن الحكم على طبائع كل قومٍ من طبائع اقليمهم بقطع النظر عن تاريخهم لان متولدات كل اقليم هي شبيهة بهِ لذلك كان اليونان الاقدمون في عصر الميتولوجيا يصلون آلهتهم نار الحرب وكان اكثر شعرهم حماسياً كما جاء في ديوان شاعرهم اوميروس لان شعر كل قوم مرآة حال ذلك القوم ولذلك ايضاً كان المصريون القدماء يعبدون التمساح وغيرهُ من اصناف الحيوانات العجم . ولهذا السبب عينهِ كان اهل بريطانيا يغلب على طباعهم الجد وعلى تصوُّراتهم العبوسة كما يظهر من تصوُّرات شاعرهم ملتن ولهذا السبب ايضاً كان العرب واهل ايطاليا واسبانيا يصبون الى الالحان الشجية ويميلون

الى الغزل والتصابي في شعرهم . وما كان بين ذلك كانت طباع اهلهِ بين ذلك ايضاً ولا يمكن الاطلاق في مقام التقييد لان اسباباً اخر كثيرة عامة وخاصة اذا اشتركت مع ذلك لم تبقِ هذه النتائج على حالها بل غيّرت من امرها و بدلت تبديلاً كبيرًا

***

وممَّن تمعَّن من الاقدمين بما لطبيعة هذه الاسباب من الاثر في طبيعة الارض وسكانها ابو الطب ابقراط قال في عرض كلام لهُ في هذا المعنى ما نصهُ « ان آسيا تختلف اختلافاً عظيماً عن اوروبا بطبائع محاصيلها وسكانها فكل ما ينبت في آسيا اقوم خَلقاً واعدل خُلقاً وسبب ذلك اعتدال فصولها فانها لوقوعها بين شروقي الشمس (الشتوي والصيفي) هي معرضة للحر بعيدة عن البرد وهذا هو سبب خصبها وجودة محاصيلها واعتدال اقليمها . وهي ليست متساوية في كل الاماكن فما كان منها واقعاً متوسطاً بين الحرّ والبرد كانت اثمارهُ اخصب واشجارهُ اجمل وهواؤهُ ارق ومياههُ مطراً كانت ام ينابيع اصحّ اذ ليس فيهِ زيادة حرّ تحرقهُ ولا قلة مياه تيبسهُ ولا برد قارس يميتهُ بل هو دائماً نديّ بسبب امطارهِ الغزيرة وثلوجهِ الكثيرة فارضهُ لذلك كثيرة الخصب زرعاً مزروعاً كان ام نباتاً تنبتهُ الارض من نفسها وحيواناتهُ كبيرة كثيرة النتج وسكانهُ سمان واشكالهم جميلة وقاماتهم معتدلة وقلما يختلف احدهم عن الآخر . وهذه القارة ايامها اشبه بالربيع لاعتدال فصولها انما ليس لاهلها بسالة الرجال ولا الصبر على الملمات ولا الثبات في الاعمال ويغلب عليهم حبُّ اللذات ... وامم اوروبا تختلف بعضها عن بعض بالقد والشكل لشدَّة اختلافات فصولهم وكثرتها . الى ان يقول . لذلك فيما ارى كان اهل اوروبا يختلفون فيما بينهم اكثر من اهل آسيا وكان اهل البلد الواحد يختلفون في القد لان تكوين الجنين يختلف في اقليم تكثر فيهِ اختلافات الفصول اكثر من اقليم تتشابه فصولهُ وكذلك يحصل في الاخلاق لذلك كان اهل اوروبا اشدّ نجدةً للحروب من اهل آسيا » اه

***

وكذلك تكلَّم الشيخ الرئيس ابن سينا في كتاب القانون وقد نحا نحو ابقراط في

ذلك حتى يظن في اماكن كثيرة انهُ نقل عنهُ . قال في ارجوزتهِ متكلماً عن سبب اختلاف اللون في البشر

بالزنج حرٌّ غيّر الاجسادا حتى كسا جلودها سوادا
والصقلب اكتسبتِ البياضا حتى غدت جلودها بضاضا

***

وممَّن افاض في هذا الموضوع ابن خلدون في مقدمتهِ حيث بسط الكلام على تأثير الحرّ والبرد والهواء والقوت والمكان وغيرها بما لا يعهد لهُ مثيل الاَّ عند علماء طبائع الحيوان اليوم . قال من كلام طويل لهُ في ذلك ما نصهُ « وفي القول بنسبة السواد الى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد واثرهما في الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات وذلك ان هذا اللون شمل اهل الاقليم الاول والثاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب فان الشمس تسامت رؤُوسهم مرتين في كل سنة قريبة احداها من الاخرى فتطول المسامتة عامة الفصول فيكثر الضوء لاجلها ويلح القيظ الشديد عليهم وتسودُّ وجوههم لافراط الحر — الى ان يقول — وليست هذه الاسماء لهم من قبل انتسابهم الى آدميٍّ اسود لا حام ولا غيرهِ . . ثم يقول . ونظير هذين الاقليمين مما يقابلهما من الشمال الاقليم السابع والسادس شمل سكانهما ايضاً البياض عن مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال اذ الشمس لا تزال بافقهم في دائرة مرئيّ العين او ما قرب منها ولا ترتفع الى المسامتة ولا ما قرب منها فيضعف الحر فيها ويشتد البرد عامة الفصول فتبيض الوان اهلها وتنتهي الى الزعورة . ويتبع ذلك ما يقتضيهِ مزاج البرد المفرط من زرقة العين وبرش الجلد وصهوبة الشعر » وهذا التعليل ربما لا يوافقهُ فيهِ كثير من العلماء اليوم لانهُ لم يحقق لهم اثر الحرّ والبرد في توليد اللون . فقد ذكر كنوك نقلاً عن سميث ان الهولانديين الذين قطنوا افريقيا الجنوبية لم يتغير لونهم في مدَّة ثلاثة قرون وذهب دي كاترفاج الى ان طوائف النور واليهود لم يتغيروا مع انهم منتشرون في عامة الاقاليم من عهدٍ طويل . والصحيح انهم لم يتغيروا تغيراً مهماً الاَّ ان هذه الادلة لا تفيد شيئاً عظيماً ضدَّ هذا الاثر لقصر الاحقاب المذكورة بالنسبة الى الاعصار المتطاولة التي توالت على الانسان

وبالنظر لما للانسان من الاقتدار على تغيير الاحوال الطبيعية وتحويل اثرها فيه لما يناسبهُ. وربما كان هناك اسباب أُخرى ايضاً كالانتخاب الطبيعي والجنسي كما يذهب دارون والقوت والامراض وغير ذلك . والحق ان التعليل عن لون البشر لا يزال غامضاً الاَّ انهُ لا ينكر ان لضوء الشمس والحرّ كسائر الاسباب الطبيعية ايضاً اثراً فيهِ لما يعلم من تأثر المادَّة الملونة للجلد (والموجودة في جلد البشر عموماً) تبعاً لطبيعة الاقليم بحيث يزيد افرازها ويقلُّ بحسب حرّ الاقليم وبردهِ كما يقول المشرح صابي

⁂

ثم يصف ابن خلدون تأثير ذلك في الاخلاق فيقول « ومن خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع موصوفين بالحمق في كل قطر والسبب الصحيح تأثير الاقليم والحر – الى ان يقول — ونجد يسيرًا من ذلك في اهل البلاد الجزيرية من الاقليم الثالث لتوفر الحرارة فيها وفي هوائها لانها عريقة في الجنوب عن الارياف والتلول . واعتبر ذلك ايضاً في اهل مصر فانها في مثل عرض البلاد الجزيرية او قريب منها كيف تغلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب حتى انهم لا يذخرون اقوات سنتهم ولا شهرهم وعامة أكلهم من اسواقهم » . اقول وربما كان لعدم اذخارهم القوت سبب آخر غير الغفلة التي اشار اليها ابن خلدون فلا يخفى ان ما ينشأ في بلاد باردة من انقطاع المواصلة بين اهلها بسبب البرد والمطر والثلج يولّد في سكانها الحيطة خوفاً من ذلك فيذخرون اقواتهم لسنة بل ولاكثر من سنة بخلاف سكان البلاد التي يندر مطرها ويقل بردها فهم لا يرون لزوماً لان يحتاطوا لامرٍ لا يخشون وقوعهُ

وقد ذكر تأثير الخصب والجدب بما ينطبق على قولنا « وسكان بلادٍ ليّنة التربة كثيرة السهول والبطاح كثيرة الخصب واسعة الرزق قلما يحتاجون الى جهد البدن والعقل للحصول على الرزق والإثراء فان ارضهم تنبت ما يكفيهم وربّما ثبطت منهم الهمم بقدر سعة العيش مثل بلاد مصر فان نيلها يفيض التبر وارضها تنبت الذهب »

ومن عجيب ما ذهب اليهِ في هذا الباب — مما لو اطلع عليهِ علماء طبائع الحيوان

اليوم لاثبتوا لهُ السبق على دارون ولامرك في مذهبهما باحقاب متطاولة وان لم يقصد ذلك نظيرها — هو قولهُ « واعتبر ذلك في حيوان القفر ومواطن الجدب من الغزال والنعام والمهى والزرافة والحمر الوحشية والبقر مع امثالها من حيوان التلول والارياف والمراعي الخصبة كيف تجد بينها بوناً بعيداً في صفاء اديمها وحسن رونقها واشكالها وتناسب اعضائها وحدة مداركها . فالغزال اخو المعز والزرافة اخت البعير والحمار والبقر اخو الحمار والبقر والبون بينها ما رأيت وما ذاك الاَّ لاجل ان الخصب في التلول فعل في ابدان هذه من الفضلات الرديئة والاخلاط الفاسدة ما ظهر عليها اثرهُ والجوع لحيوان القفر حسَّن في خلقها واشكالها ما شاء »

***

الاَّ انهُ اي ابن خلدون وان كان قد اشبع الكلام في اثر الاسباب الطبيعيَّة انما لم يذكر تأثير الاسباب الادبية كما فعل ابقراط ولا يخفى ما لهذه الاسباب من شديد الاثر في ذلك والحق يقال انهُ يصعب استيفاء الكلام في هذا الموضوع جملةً ومبوَّباً ولو في مجلدات ضخمة لكثرة هذه الاسباب وامتزاجها واختلاف نتائجها بحسب ذلك مما لا يقع تحت ضبط كما اشرنا اليهِ في ما تقدم

فهذه الاسباب الطبيعية والادبية مع ما يعرض لها من الامتزاج والاختلاف انما تؤثر تأثيراً شديداً في العمران لشدَّة تأثيرها في الانسان وهذا هو السبب في عدم تساوي البشر في صفاتهم ونظاماتهم وعلومهم وصنائعهم ولغاتهم وسائر ما يتعلق بهم لعدم استواء الاسباب المؤثرة في طبائعهم واخلاقهم انما لم يكن يمتنع اصلاح احوالهم بالاسباب الادبية لما للانسان من الاقتدار بها على التأثير في الاسباب الطبيعية نفسها وجعلها اصلح الاحوال لهُ لان الانسان وان كان منفعلاً لهذه الاسباب بحسب طبيعتها الاَّ انه قادر كذلك على تغييرها وتبديلها واتقاء شرها واستدرار خيرها بما لهُ من حدة المدارك وقوة الاستنباط . لذلك كان من الواجب عليهِ ان لا يغفل شأن معدَّات التربية العقلية كالتعليم والنظامات السياسية وسواها لئلاَّ يفقد بفقد الصالح منها عامة فوائد العمران ويسقط في مهاوي التهلكة والخسران

المقالة الخامسة

تاريخ الاجتماع الطبيعي

كلما ارتقى الانسان في العلوم الطبيعية قلت الحاجة به الى اجهاد القوى العقلية والالتجاء الى العلوم الجدلية والتعطش الى قراءة الاقاصيص الخيالية الخرافية والتحليلية المزعوم انها وصف حقيقي للعواطف وأصبح شأنها حقيراً وهو اليوم يحسبها من صناعات الآداب الراقية وما هي بالحقيقة الا من مختلقات الوضع المناقضة للطبع والتي ضررها اليوم أشد جداً من ضرر الفلسفة القديمة ومن ضرر علم الكلام وعلم اللاهوت في العصور المظلمة لانها طمت على الاجتماع كالسيل الجارف حتى أغرقته فيها وما كان فضل فرنسا في ثورتها الاجتماعية السياسية ليعادل ضررها بعد ذلك في منهجها هذا النهج وهي عماد هذه الاقاصيص اليوم

تقدم القول في مقالة « الاجتماع البشري والعمران » ان من الناس من يذهب الى ان الاجتماع نتيجة الفكرة وحدها وخصَّهُ بالانسان ومنهم من يذهب الى انهُ طبيعيّ فيهِ وأطلقهُ على الحيوان . اما الاول فقول اكثر الحكماء المتقدمين . وأما الثاني فقول اكثر الحكماء والطبيعيين المتأخرين وسترى مما نبسطهُ لك فيما يأتي اي القولين أحق وأولى

ان البحث في العمران لم يكن في القديم الاَّ من همّ بعض الحكماء ولم يبنَ على قواعد راهنة الاَّ في هذا العصر وقريباً من هذا العهد وعما قليل سيصير درس سننهِ من اول الضروريات للانسان لان ارتقاء الانسان في التمدن لهُ نتيجتان لازمتان وقد طالما عدَّهما الناس متناقضتين وهما نموّ الحياة الشخصية ونموّ الحياة الاجتماعية معاً . فقد كان الاعتقاد سابقاً ان ما يبذلهُ الفرد في مصلحة الجمهور انما يبذلهُ من مصلحة نفسهِ وبالعكس . ولم يكن يظن ان بين المصلحتين ارتباطاً شديداً ولذلك كانت شرائع البشر في القديم أشدَّ انحرافاً لجانب الاستبداد وأقلّ احتراماً لجانب العدل في التعاون والاشتراك في المنفعة . ولم تتجلَ هذه الحقيقة كما ينبغي الاَّ في هذا العصر اي بعد ان رسخت معارف البشر في العلوم الطبيعية وانجلى لهم بها ارتباط سنَّة هذا الكون فرأوا اتفاقاً حيث كان سواهم يرى

انفصالاً . فرأوا مصلحة الفرد مرتبطة بمصلحة الجمهور وبالعكس ارتباطاً شديداً حيث لا تتم حياة الواحد الأ بحياة الآخر لأنهم رأوا السنن الفاعلة في الاجتماع نفس السنن الفاعلة في الافراد . ولذلك قالوا ان الاجتماع لا تتمُّ معرفة طبيعتهِ وسننهِ الأ بمعرفة طبيعة الافراد وسننها كما ان الجسم الحي لا تتم معرفة سننـهِ الا بمعرفة سنن الكريّات الحية التي يتركب منها . لان كل صفات الاجتماع في الخلق والاخلاق متصلة اليهِ من الافراد التي تؤلفهُ وكل صفات الافراد كذلك متوارثة فيهم ومنتقلة اليهم من الاجتماع فاذا استقرينا هـذه السنن في تاريخ نشوءها الى اصلها الطبيعي خالين من الغرض والتشيُّع انتقل بنا البحث في الاجتماع من دائرة الشريعة والسياسة الى دائرة علم الحياة ودخلنا في قسم من العلم الاجتماعي يمكن تسميتهُ تاريخ الاجتماعات الطبيعي لان البحث حينئذٍ لا يقتصر على الحكم الوازع والاجتماعات السياسية بل يعم الاجتماعات البشرية كافة حتى الاجتماعات الحيوانية ايضاً . ولا يخفى ما يترتب على معرفة ذلك من الفوائد للعمران لان الفائدة انما تحصل للعمران اذا جرى الانسان فيهِ على سننهِ لا على ضدها والبحث فيهِ على هذه الصورة واجب ليعلم ايّ السياستين أولى بهِ ألسياسة الحرة ام السياسة الاستبدادية وذلك اوّل ما يعوّل عليهِ اصحاب العقول الحرة لتأييد آرائهم لان أصدق الادلة التي يجب الاعتماد عليها هي من العلوم الطبيعية . ثمَّ اذا استقرينـا هذه السنن الى اصلها ايضاً انتقل البحثُ بنا ضرورةً الى العلوم الطبيعية لان السنن الفاعلة في الكريات الحية هي نفس السنن الفاعلة في جواهرها الفردة ولذلك كان البحث في علم الاجتماع — تاج العلوم البشرية — من اعظم المباحث لمعرفة سرّ الحياة الكلية المستولية على عامة سنن الكون

⁂

وتشبيه العمران بجسم حي قديم جدًّا . فالفلاسفة المتقدمون كافلاطون وارسطو شبهوهُ بحيوان كثير الرؤوس وفلاسفة القرن الثامن عشر كشكسبير وروسُّو وصفوا لهُ اعضاء ايضاً ولكن هذه المشابهة مجازية عند اكثر المتقدمين قياسية عند اكثر فلاسفة القرن الثامن عشر وتعتبر مشابهة بالمطابقة اليوم . فان سبنسر الانكليزي لا يفرق بين

سنن الاجتماع وسنن الحياة وشفل الالماني يصف الجسم الاجتماعي كأنهُ يصف حيوانًا وصفًا طبيعيًا فيصف الخليَّة الاجتماعية اي العائلة والانسجة الاجتماعية واعضاء الاجتماع وروح الاجتماع وجيجري يجعل الاجتماعات بين الاحياء في كتاب لهُ في الحيوان ويصفها وصفًا طبيعيًا وغيرهم ممَّن حذا حذوهم في هـذا العصر كثير . فلنبحث معهم لترى اولاً هل يصحُّ تشبيـه العمران بجسم حي وهل السنن الفاعلة في الجسم الحي كالحيوان هي نفس السنن الفاعلة في العمران

فالجسم الحي مركب من اعضاء مختلفة ولكل عضو من هذه الاعضاء عمل خاص ومشترك معًا اعني ان العضو الواحد يعمل غير ما يعمل الآخر ويعمل لهُ في آنٍ واحد فان المعدة مثلاً تعمل غير ما يعمل القلب والقلب غير ما يعمل الدماغ وكلٌّ من الدماغ والقلب والمعدة لازم للآخر . وكذلك العمران فانهُ مركب ايضًا من اعضاء مختلفة تعمل لغاية واحدة فالزارع يعمل غير ما يعمل الصانع والصانع غير ما يعمل الوازع وكلٌّ من الوازع والصانع والزارع لازم للآخر فهو من هذا القبيل كالحي تمامًا . ولا تقتصر هذه المشابهة على الصفات الخاصة فقط بل تتناول العامة ايضًا فقد قال سبنسر وقولهُ حق ان القوى الكبرى في حيوان تام التركيب ثلاث وهي الغاذية وافعالها تهيئة الغذاء وآلاتها المعدة والكبد وما يتلوهما والمدبرة وافعالها تحصيل الغذاء وآلاتها الدماغ والاعصاب ومايتلوها والموزّعة وافعالها توزيع الغذاء وآلاتها القلب والشرايين وما يتلوها . وان القوى الكبرى في العمران ثـلاث كذلك وهي الصناعة وافعالها الاعمال للمعـاش والحكومة وافعالها تحصيل اسباب هذا المعاش والتجارة وافعالها توزيع هذا المعاش

⁂

ولقائلٍ يقول اذا كان هذا التركيب شرطًا لازمًا للحياة فهل يلزم منهُ ان تكون كل آلة مركبةً حيَّةً وهل الساعة حيَّة فانها مركبة من آلات او اعضاء مختلفة تعمل لغاية واحدة كذلك . فعلى ذلك نجيب ان الفرق بين الآلات الطبيعية الحية والصناعية غير الحية هو ان الاولى ذات اعضاء حتى في أهمّ اجزائها تعمل لحفظ الكل نظيرها بخلاف الثانية فان اعضاءها نفسها غير مركبة من اعضاء مختلفة نظير تلك ولا تعمل فيهـا نظير

فعلها اي انها لا تعمل عملها من نفسها لحفظ الكل بل بالضد من ذلك فهي تميل دائماً الى ابطال هذا العمل . وهذا ما يمتاز بهِ الحي عن غير الحي ولذلك لم تكن الساعة حية واما العمران فحيٌّ لان كل عضو منهُ مركب من اعضاء اخرى تعمل نظيرهُ لحفظ الكل كما في الجسم الحي فكل حيوان مركب من حيوانات أُخر أقل منـهُ في التركيب . فان الكريّات الحية التي يتألف من مجموعها جسم كل حي انما هي اشخاص حية ذات حياة خاصة بها ولها اميالها وشهواتها وامراضها كأنها افراد البشر الذين يتألف من مجموعهم جسم العمران . والحيوانات الدنيا كالمفصلة والديدان يمكن تقسيمها الى اجزاء تبقى حيّة بعد التقسيم كأنها مملكة تقسمت بخلاف الآلات الصناعية . وربَّ معترض يقول ان ذلك لا يمكن في الحيوانات العليا فنجيب ان في امكان بعض اجزاء هـذه الحيوانات ان يبقى حياً بعد موت الحيوان كالاظفار والشعر ويمكن فصلهـا كذلك من حيوانٍ والصاقها بحيوانٍ آخر حيث تبقى حيّة (١) فهي اشبـه شيء بأمّة اضيفت الى أُخرى واذا كانت الحيوانات العليا لا تستطيع ان تبقى حية بعد تقطيعهـا الى حدّ معلوم فذلك لان اختصاص الاعمال فيها اتمّ منهُ في الحيوانات السافلة فهي أشبه شيء باجتماعات بعض انواع الحيوان التامة الانتظام كالنمل فان المتعوّد منها على تحصيل قوتهِ بواسطة غيرهِ يموت اذا فصل عن البعض الآخر

***

وهذا التعاون بين اعضاء الاجسام الحيّة بحيث ان الواحد يعمل لنفسهِ وللكل في آن واحد جرَّ معهُ قضيتين فاسدتين في حقيقة الحياة احداهما تتعلق بالسبب والاخرى بالغاية . اما الاولى فيفرض فيها ان كلَّ جزء من الاجزاء الحيّة لهُ فوق ميلهِ الخـاص قوة خاصة تتولى امرهُ بالنسبة الى نفسهِ والى غيرهِ وهي القوة الحيوية التي عضدها رجال

---

(١) من غريب ما يزعم بعضهم ان الارجل المنزوعة من حيوان والملصقة بحيوان آخر لا تزال تخصُّ المنزوعة منه وانها تحيا بقوته الحيوية . قال والدليـل على ذلك هو ان لون الشعر لا يتغير كأنه لا يمكن تعليل ذلك بتكوين الشعر نفسه وباستقلال الاعضاء التي تغذيه فيه مع استمدادها الغذاء والحياة من الحيوان الثاني ويترتب على زعمه هذا ان الحيوان يمكن انقسامه بدون انقسام حياته وهو من اغرب الاسرار

من اهل المكانة في العلم . والحقُّ انهُ لا يفهم بماذا تختلف هذه القوة عن سواها من القوى التي توهموا وجودها قديماً ككراهة الطبيعة للفراغ والقوة النابضة للشرايين وغيرهما من القوى التي عدَّها القدماء انيَّات مجردة مستقلة حتى ابان العلم فساد ذلك اذ لم يرَ فيها سوى اسباب طبيعية متصلة ومرتبطة بعضها ببعض . واما الثانية وهي الغاية فيفرض فيها على ما يظهر ان كل جزء من الحي موفَّق للكل بقوة عاقلة كائنة فيهِ او خارجة عنهُ . فان كان هذا هو المفروض حقيقة فالعلم اليوم في غنًى عنهُ لامكان تعليل المطلوب بأوفى بيان على وجه لا يقتضي هذا الفرض فان هذا التعاون الذي فيهِ يخدم الواحد الكل والكل الواحد انما هو نتيجة تفاعل متبادل بين الاعضاء فالعضو الواحد لا يهتمُّ بغيرهِ ولا يشتغل الاَّ لخير نفسهِ وانما خيرهُ مرتبط بخير غيرهِ . والامر بالحقيقة كذلك فانهُ لا شيء اطمع من الكريات الحيــة التي تؤلف الجسم الحي اذ كل كريَّة تطلب كل شيء لنفسها وتجذبهُ اليها والحياة ليست سوى اكتفاء هــذه المطامع . فالناظر الى النتيجة لا جرم يظن في اول الامر ان كل كريَّة انما اشتغلت لسواها وهي في الواقع لم تشتغل الاَّ لنفسها بدون غاية سوى حفظ ذاتها وهذا كائن ضرورة بحفظ سواها ومرتبط بهِ ارتباطاً ميكانيكياً . ولذلك قال بعض الباحثين في العمران انهُ ينبغي لكل واحد من البشر ان يشتغل لخير نفسهِ فيشتغل لخير الكل . ولا يخفى ان تنازع البقاء كما هو مذهب دارون يجعل بين هذه الكريات التي هي بالحقيقة حيوانات صغيرة تنازعاً شديداً تكون نتيجتــهُ ملاشاة البعض العديم المناسبة وحفظ البعض الآخر المناسب لحيــاة الكل بالانتخاب الطبيعي . فتأخذ الكريات بذلك صوراً معلومة وتؤلف حيواناً معلوماً وهكــذا على مرّ العصور المتطاولة تتكون الانواع الثابتة الى حدّ محدود والمتغيرة في الاجيال البعيدة فان الطبيعة ليس فيها شيء ثابت ثبوتاً مطلقاً بل كل شيء فيها في حال المصير فالتعاون بين اعضاء الاحياء ليس قصداً وانما هو نتيجة لازمة فقط

***

واذا تقرَّر ذلك فلننتقل من اجتماعات الكريات الحية الصغيرة التي تؤلف الاحياء الكبيرة الى اجتماعات البشر التي تؤلف الامم فاننا نجد في الاجتماع البشري نفس ما في

كل حي اعني الميل الباطن لحفظ الذات والتفاعل الظاهر مع الاشياء التي من خارج بما في ذلك من تنازع البقاء والانتخاب الطبيعي واذا كان ذلك حياة فالعمران حي ايضاً كالنبات والحيوان بل حياتهُ أتمّ من حياتهما لانهُ اذا كان هناك قصد فانما هو في الاجتماع البشري لان هذا الاجتماع يدرك حاجتهُ ويقصد غايتهُ الخاصة والعامة معاً وهذا الفرق نسبيٌّ ايضاً كارتقاء سلسلة الاحياء بعضها عن بعض

وقد اعترض بعضهم على هذه المشابهة بين جسم الحي وجسم العمران فقال ان اعضاء الحي متصلة واعضاء العمران منفصلة وهو اعتراض ساقط وقول منقوض لان اجزاء العمران غير منفصلة حقيقة والاّ لزم القول بالفراغ كما ان اجزاء الحي غير متصلة كذلك واذا كان بينهما فرق في ذلك فانما هو في بعد المسافات بين الاجزاء فقط كالفرق بين جسميهما فان جسم العمران اكبر من جسم الحيوان وهو فرق نسبي لا يصح ان يكون اعتراضاً . واعترض غيرهُ اعتراضاً يتعلق بالزمان فقال ان الحي يولد ويحيا ويموت بعد ان يمرّ باسنان معلومة والعمران وان كان يولد ويحيا كذلك الاّ انهُ في زعمهِ لا يموت وهو غير صحيح ايضاً لان الامم والشعوب التي تتولد في العمران تهرم وتموت ايضاً والفرق بين العمران والحي في طول العمر فقط والعمران لم يتجاوز بعد سن الصبا وربما كان المستقبل يتهدد العمران كلهُ بالهرم والموت ككل حي سواهُ اما لتغلُّب نوع آخر من الانواع الحيَّة عليهِ وإما لتغير احوال ارضهِ التي هي مهد حياتهِ فيعرض لها من القواسر الطبيعية ما يفرّق اتصالها ويبدّد اجزاءها ويلاشي نظامها فيموت الاجتماع البشري ضرورة . على ان الارض ككل شيء سواها لا تتلاشى حقيقة وانما تتقلب احوالها وتتبدل اشكالها وتتفرّق اجزاؤُها في محيط هذا الكون وتحوّل من حال الى حال وتبعث من صورة الى صورة متحركة على الدوام ومتنقلة في الزمان والمكان وهذا هو بالحقيقة الموت

وما الموت الاّ عودةٌ بعد بدأةٍ	وما البعثُ الاّ بدأةٌ بعد عودةِ
ولكنهُ موتٌ لنا عن وجودنا	وبعثٌ لأشتاتٍ لنا لا لجملةِ
سكونٌ لمن قد مات منّا وراحةٌ	وان لم يكن فيهِ لهُ من سكينةِ

فترى مما تقدم ان المشابهة في الخلق بين العمران والحي تامة من كل الوجوه وفي ما يأتي سنبحث عن هذه المشابهة بينهما في الاخلاق

***

واذا انتقلنا من النظر الى الكلّيات الكبرى المتعلقة بالعالم اجمع والمترتبة على تشبيه الاجتماع بالحي كما مرَّ آنفًا الى النظر في ما اختص منها بالاجتماعات البشرية كان لنا من ذلك نتائج تختص بالسياسة ذات بال نقتصر منها في هذا المقام على ما هو أهمّ

اولاً ان ارتباط اعضاء الجسم الاجتماعي بعضها ببعض على الصورة التي ذكرنا يجعل التأثير الواقع على العضو الواحد يمتدُّ ضرورةً الى سائر الاعضاء . فالشارع كالطبيب يلزمهُ ان يكون حكيماً في مداواة علل الجسم الاجتماعي لئلاَّ يداوي علةً في عضوٍ فيحدث علةً في عضوٍ آخر . فالالتفات الى طائفة من الناس وترك ما سواها ينمي الملتفَت اليها جدًّا ويضعف المتروكة فتفقد النسبة بين اعضاء الاجتماع اذ تُصبح فيهِ على طرفي الضعف والقوة فيختلُّ نظامهُ ويأول بهِ الحال الى السقوط والاضمحلال

***

ثانياً اذا كانت الاجتماعات اجساماً طبيعية لا صناعية وكان الاجتماع نفسهُ حاصلاً لزوماً لا عارضاً أفلا يُستدَلُّ من ذلك على ما يكون من سوء العقبى للاصلاحات العنيفة الجارية على غير المجرى الطبيعي اي الناشئة عن غير تغيرُّ الارادة العامة تغيرُّاً ذاتياً . فالحيُّ لا يستطيع ان يحتمل تغيراً مهماً ما لم يكن هذا التغيير موافقاً لأميال اعضائهِ غير مختلف عن طبيعتهِ ولقد تقدَّم ان الاجتماع حيٌّ متراضٍ اعني ان الذي يجمع اعضاءهُ ويربطها بعضها ببعض ليس الملاصقة البسيطة وانما هو الرابط الارادي . وهو بمثابة الرابط الميكانيكي لانهُ يوجد رابط عقلي بين اهل المدنية وهو بمثابة الرابط الميكانيكي بين الكريّات ولذلك وجب ان يكون التغيير الحاصل في الاجتماع موافقاً لارادة الجمهور او للقسم الاكبر منهُ . والاصلاح الملقى على عاتق الاجتماع ولا يقصد منهُ الاَّ خير البعض او هو ناشئ عن ارادة البعض فقط انما هو اصلاحٌ صناعيٌ او قسري اي غير طبيعي جيء بهِ قبل وقتهِ ويخشى من عواقبهِ . وبالضد من ذلك كل اصلاح جزئي او

كلي ناشيء عن التراضي والاتفاق بين كثيرين او بين الكل فهو اصلاح طبيعي قانوني . والفرق بين الطبيعي والصناعي ظاهر كالصبح . الاول موافق للطبيعة والثاني مضادٌ لها . وبما ان الانسان طبيعيٌّ في الاصل كان كل ما يسير بهِ على غير المجرى الطبيعي غير نافع لهُ بل مضرًّا بهِ فسياسة الاجتماعات العاقلة ينبغي ان تكون طبيعية لكي تكون نافعة اي يلزم ان تكون موافقة لارادة الجمهور وميلهِ والاَّ لم تحمد عائدتها لان الامر الجاري مجرًى لا يوافق ارادة اعضاء الاجتماع انما هو جارٍ على غير وفق الارادة الحيوية التي هي الرابط للجسم السياسي

***

ثم لما كان اجماع الارادات في العمران على امر غير ممكن غالبًا وكان القسم الاكبر يبقى معهُ عدد قليل من الناس غير موافق لهُ كان لنا من ذلك قاعدة ثالثة في السياسة وهي ضرورة التدرُّج في الانتقال من حال الى حال بحيث لا تكون المباينة بين القديم والحديث والحاضر والمستقبل كلية والاَّ اعترض الانتقال موانع لا تقاوَم ولا تحمد معها النتيجة . وتشتدُّ الحاجة الى هذا التدرُّج كلما كانت النتائج الجامعة للارادات السابقة كالعوائد والاعتقادات أشدَّ وأرسخ . والحاصل انهُ يصعب جدًّا في جسم كبير كالحيوان الاجتماعي تغيير الجسم كلهِ دفعةً واحدة للزوم استعدادهِ الى الاحوال الجديدة بتوفيقهِ لها شيئًا فشيئًا . قال سبنسر ان الضرر الذي يلحق بالاجتماع من نزع شرائعهِ القديمة قبل إحكام شرائعهِ الجديدة حتى تصلح لان تقوم مقامها ليس أقل من الضرر الذي يلحق بحيوان من جنس ما يعيش بين الماء واليابسة اذا نزعت خياشيمه قبل ان تكمل رئتاه . فالنتيجة الكبرى المتحصلة من فيسيولوجيا الاجتماعات انما هي تفضيل النشوء على الثورة . واعظم وسائط الارتقاء بالنشوء انما هو الاتفاق الذي لا يقرر شيئًا الاَّ تدريجًا وبعد ان يتمَّ التراضي عليه

***

ولا ينبغي ان يُفهم من ذلك ان الثورات مضرَّة في جميع الاحوال كما يزعم بعض المؤرخين لانهُ توجد احوال خاصة لا يمكن تخلُّص الجسم المتواني والمريض فيها الاَّ

بثورة فيسيولوجية كبحران مثلاً او نوبة حمى تخلّصه من خطر الموت . وهذا يدلنا على انَّ الاجتماع لا بدَّ له في بعض الاحوال من ثورة تخلّصه من خطر الهلاك . ويلزم ان تكون الثورة صادرة عن استعداد باطن كأنها اتفاق خفي بين اعضائهِ موافقة لاميالهِ اي ان تكون عبارة عن صوت الشعب لكي تكون قانونية والاَّ انقلبت شرّاً عليه . والثورة التي تكون كذلك هي ثورة لا تُغلب ولا تُقاوَم لانها ليست من افعال الآحاد بل هي عبارة عن تخلُّص الجسم كله مما ثقلتْ وطأته عليهِ تخلُّصاً طبيعياً قانونياً (١) لانها ليست بالحقيقة سوى فعل سريع لقوًى متجمعة تجمعاً بطيئاً في زمن طويل اشبه شيء بالزوبعة التي تجمع في سنين كثيرة ولا تثور الاَّ في يوم واحد ثم تهجع ولذلك يقال ان النشوء هو القاعدة واما الثورة فامرٌ شاذٌ رديءٌ غالباً وان كان قانونياً نافعاً احياناً

***

فيرى مما تقدَّم ان كلاً من نصراء الثورة والمحافظين يجد في التاريخ الطبيعيّ سنداً لمذهبهِ واتفاقهما انما هو في الحريّة والحريّة نتيجة لازمة متحصلة للسياسة من علم الحياة . فاهل الاستبداد الذين يعتمدون على العنف والقوَّة لا شك انهم يجهلون الصفة الحية للاجتماع ويعدونهُ كآلة مصطنعة ويتصوَّرون النظام الاجتماعي كالنظام المادي غير الحي . ففي الآلات المصطنعة غير الحية لا تجتمع الاجزاء بعضها الى بعض الاَّ بقوَّة خارجة عنها غير مستقرَّة فيها تحفظها ساكنة او تحركها . والوحدة الظاهرة فيها آتية من الصانع وهي في الصورة فقط لا في الحقيقة فان طبيعة العناصر فيها لم تتغير فالخشب يبقى خشباً والحديد حديداً والاجزاء المختلفة لا تتم العمل المطلوب الاَّ قهراً بسلسلة افعال قهريّة وكل جزء ميال من نفسهِ لابطال فعل الآخر واذا كان بينها تعاون او ظاهرُ اتفاقٍ فانما هو على ضد طبيعتها ولا يدوم . وكل نظام ملقىً قهراً غير مرتضًى بهِ لا بدَّ من ان يختل وهو تضام الاشياء الماديّة لا الحية . والسلام الظاهر والحالة هذه أشبه شيء بسلام

(١) كالثورة الفرنسوية فانه لم يصدَّها شيء ولم يقوَ عليها شيء مع انه اعترضتها موانع داخلية وخارجية قوية جداً وما ذلك الا لانها كانت موافقة لميل الشعب كله وناشئة عن استعداده بخلاف الثورة المصرية العرابية فان نارها ما لبثت ان شبت حتى انطفأت ولم يبق منها في الامة جذوة كالنار في الهشيم لانها لم تكن ناشئة عن استعداد الامة بل عن مطامع بعض ذوي المناصب

مدينة دخلها العدو فانهُ لا يدوم الا ما دامت القوَّة المثقلة على حركاتها المخمدة لانفاسها متغلبة عليها . فالرابط الذي يربط الاجتماع لا يتم نظامهُ بالاستبداد والقوَّة وان قام بهما احياناً لانهما ليسا من جوهر طبيعتهِ بل هما دليل على عدم كمالهِ . وفي الجملة فحيثما يبتدئ الاستبداد والقوَّة ينتهي الاجتماع الحقيقي بين البشر . والاجتماع البشري لا يقوم حقيقة الاَّ بالشوق الغريزي ولا يكمل الاَّ بالتراضي والاتفاق فبذلك يتم النظام الاجتماعي لا بسواهُ اذ تكون القوَّة المدبرة مستقرَّة في كل عضو من اعضائهِ بحيث يشتغل لنفسهِ ولسواهُ معاً من ذاتهِ وفي آن واحد

* *

ولننظر الآن الى سياسة الطبيعة في الاحياء ونقابلها بسياسة الاجتماعات لعلنا نستنتج فوائد سياسية من ذلك . فاعلم ان في الحي كما في الجسم الاجتماعي افعالاً متروكة لعهدة كل شخص وغيرها متروك لعهدة مراكز ثانويَّة او جمعيات خصوصية وغيرها لعهدة المركز الاعظم القائم مقام الجسم كلهِ . فاوَّلاً الحي يترك كل كريَّة من الكريَّات المؤلف منها تشتغل لذاتها تحت سلطان القوى المستقرَّة فيها . والعامل في هذه القوى مرجعهُ كما تقدم الى امرين المنفعة والشوق فكل كريَّة تحس بنفسها وبجارتها بالشوق الكائن فيها اليها بحيث تصير مصلحة جارتها عندها كمصلحتها . ثم تجتمع الكريَّات وتتألف باشتراك المنفعة والشوق وتبادل الغذاء والحركات وذلك أشبه شيء بالمبادلة التي تقع بين البشر والحاصلة فيهم بدون تداخل القوَّة المركزيَّة اي الحكومة بناء على ما فيهم من الاميال وما لهم من المنافع المشتركة لا لعلة اخرى

ثانياً يوجد في الحي مراكز ثانوية واعضاء مهمة على جانب من الاستقلال اشبه بممالك صغيرة في مملكة كبيرة وهي الاحشاء المختص بها إعداد الغذاء وتطهيرهُ وتوزيعهُ اعني بها المعدة والرئتين والقلب . فهذه الاحشاء غير خاضعة للعضو المدبر اعني الدماغ فالمعدة تهضم الطعام والقلب يوزع الدم في البدن والرئتان تطهرانهِ بتعريضهِ للهواء اراد الدماغ ام لم يرد . وقد يبلغ استقلال اعضاء التغذية مبلغاً عظيماً جداً فالامعاء لا تزال تفعل افعالها الخاصة ولو قطعت الاعصاب التي توصلها بالدماغ . والقلب لا يزال يضرب بعد

نزعه من الجسم ولا سيما في الحيوانات ذوات الدم البارد وفي بعض الحيوانات اللبونة ايضاً كدب القطب . والكبد لا تزال تفرز الصفراء وتولد السكر بعد ذبح الحيوان ونزف دمهِ . وقد يكون تركيب بعض الحيوانات السافلة المائية مختلطاً جداً بحيث تشتغل اجزاؤها بعضها لبعض وكلها للكل ومع ذلك فليس لها جهاز عصبي . فهي هنا في غنى عن سلطان مركزي او قوة خارجة عنها تتولى تدبيرها وانما تفعل ذلك من نفسها بناء على ما في العناصر التي تؤلفها من الافعال الذاتية اي من قابلية الحس والتهيج ومن ثم من الاميال المنفعية والاشتياقية الموجبة لحصول المبادلة بينها كما يحصل التعاون بين البشر . فوظائف التغذية والنمو تتم بدون توسط الدماغ كما ترى

واما وظيفة الدماغ فقاصرة على الاعضاء الظاهرة اي اعضاء النسبة التي بها يعرف الحيُّ الاشياء التي من خارج فيأمرها باخذ اللازم منها واتقاء الضارّ اذ يكون لهُ عليها سلطان يتصرّف فيها بحسب مقتضى الحال . فوجود جهاز عصبي والحالة هذه لهُ مركز كالدماغ مقتدر على ان يجعل الاعضاء تخضع لهُ خضوعاً تاماً لازم لسلامة الحيّ . على ان الجهاز العصبي نفسهُ لا يكون دائماً خاضعاً لسلطان المركز اعني الدماغ بل للمراكز العصبية الثانوية . ففي الحشرات كل عقدةٍ تحرّك الاطراف المتعلقة بها لمقاومة ما يمانعها . واذا دهم الانسان امرٌ يُخشى منهُ على عينيهِ فان جفنيهِ ينطبقان للحال بحركة ذاتية اي قبل ان يكون لهُ فرصة للتفكر بالخطر وبكيفية اتقائهِ . واذا عثر الى الامام فانهُ يقعنسس الى الوراء بحركة ذاتية لمقاومة العثرة او انهُ يستلقي الارض بيديهِ خوفاً من السقوط على الاعضاء الرئيسة ليتقي بذلك شراً اكبر بشرٍّ اصغر . فنرى مما تقدم ان اعضاء النسبة الظاهرة نفسها تستغني في احوال خصوصية عن انتظار حكم الدماغ وتستقل عنه كما تستقل الاعضاء الباطنة

***

قال الذين يقيمون حدًّا فاصلاً بين الاجتماع والجسم الحي ان افعال اعضاء الاجتماع مغايرة في نوعها لافعال اعضاء الجسم الحي اعني ان افعال اعضاء الحي ترتبط بعضها ببعض ارتباطاً فيزيولوجياً واما افعال الاجتماع فانها ترتبط بعضها ببعض بالحس والافكار

اي برباط عقلي . وقال غيرهم ان افعال الفريقين من نوع واحد لان الكريات الحية التي هي اجزاء الحي اي اعضاؤُهُ ليست عديمة الحس بل بالضد من ذلك هي ذات حس ايضاً اذ الحس الذي في الجسم الحي كلهِ انما هو هذا الحس عينهُ في حال التزيد والتجمع . فارتباط اعضاء الحي بعضها ببعض ليس بالحصر فيزيولوجياً بل فيهِ شيء من العقل ايضاً وان يكن في حالةٍ دنيئة جداً ولذا يعتبر ارتباطاً عقلياً . وهذا ما يجعل علم الاجتماع المعروف بالسوسيولوجيا داخلاً في علم الحياة المعروف بالبيولوجيا . وليس في هذا القول شيء من الغلوّ والتكلف لان الحدود المميزة بين العلوم المختلفة كالحدود المميزة بين مواليد الطبيعة صناعية لا طبيعية

***

واذا تأملنا حقيقة الرابط الذي يربط كل اجتماع معاً سواء كان هذا الاجتماع بين كريات الجسم الحي او بين افراد الحيوانات او البشر وجدنا انهُ واحدٌ في الاصل فالرابط بين الكريات الحية التي يتألف الجسم الحي منها ليس الا الميل البسيط المغروس في كل شيء لحفظ ذاتهِ اولاً لان كل شيء في الاصل يدور حول مركز نفسهِ بالشوق الحاصل فيهِ اليهِ وذلك هو محبة الذات المنفردة . ثم يتحوّل هذا الميل في الكريات الى ميلٍ مركبٍ لحفظ ذاتها بحفظ ذات سواها لان اجتماعها بعضها مع بعض اجتماعاً بسيطاً في اول الامر لا بدّ من ان يؤَثر في طبيعتها تأثيراً مهماً بحيث تصبح حياة بعضها متوقفة ضرورةً على حياة البعض الآخر. فالكرية حينئذٍ لا تميل لحفظ ذاتها فقط بل لحفظ علاقتها مع سواها ايضاً لأن كل شيء في الفرع يدور حول مركز غيرهِ بالشوق الحاصل فيهِ الى مركز نفسهِ وذلك هو محبة الذات المشتركة ثم تحوّل هذه المحبة المشتركة العمياء الى محبةٍ مشتركةٍ عاقلة في اعضاء الاجتماعات التي لها قوّة الادراك لا الحس والتهييج فقط

***

واختلفوا في سبب هذه المحبة العاقلة بين الحيوانات المدركة فذهب قومٌ وفي مقدمتهم سبينوزا الى انها مسببة عن اللذّة الحاصلة لهذه الحيوانات من مشاهدة صورها في امثالها بناء على ان اللذة قائمة بسهولة الفعل قالوا وأسهل الافعال على الحيوان استحضار صورة على صورتهِ كما هو مقرَّر من ان الاستحضار لا يتمُّ بواسطة الدماغ وحدهُ بل بواسطة

كل الجهاز العصبي . ولهذا كان الحيوان المدرك اذا أراد ان يتصوَّر هيئةً او ان يتذكَّر صوتاً يشرع في ان يقلّد تلك الهيئة ويحاكي ذلك الصوت ولا ريب ان الحركات والهيئات والاصوات المتعود عليها هي اسهل عليهِ من سواها مما لم يتعوَّدهُ . وكما كانت عنهُ ابعد كان استحضارها عليهِ اصعب فيولّد فيهِ الكراهة لها ولذلك كان القرد يرتعب جدًّا من رؤية الحرباء . فاذا تكرَّرت هـذه اللذة اشتدَّ الشوق لتجديدها حتى ينقلب الشوق مودَّة وتصير المودَّة فيزيولوجية بعد ان كانت عقليـة . فتنتقل بالوراثة وتؤثّر في الاعضاء بحيث يصير الاجتماع معها ميلاً غريزياً فيولد الحيوان المدرك وصورة امثالهِ منطبعة على دماغهِ كما يولد الطائر وصورة العش منطبعة على دماغهِ ويشتد هـذا الميل بالانتخاب الطبيعي حتى يحصل الاجتماع اخيراً بالسليقة الغريزية

* * *

وذهب غيرهم وفي مقدمتهم دارون الى ان هذه المحبة سببهـا المنفعة وردَّ عليهم اصحاب القول الاوَّل بانهُ مسلَّم ان الحي لا يحفظ صفةً ان لم يكن لهُ منفعة منها ولكن قد يحدث اولاً ان تنشأ هذه الصفات عن اسباب غير المنفعة . فان الطائر المعروف بالابتر (Manchots) مثلاً اذ يكون على الارض يصطفُّ بحسب سنّهِ الصغار في جانب والكبار في جانب والاناث في جانب وتطرد كلُّ فئةٍ الفئة الأُخرى عنهـا والظاهر ان ذلك حاصلٌ فيهِ عن لذة اجتماع المثل بمثلهِ لا عن سببٍ آخر . وثانياً ان تكون الصفة النافعة في الاحوال العامة مضرَّة في بعض الاحوال الخاصة فتعشيش بعض انواع الطيور مثلاً بالقرب من مساكن البشر غير مفيد لهُ وكذلك اجتماع البغـاء وصراخها حول ما يقتل منها غير مفيد لها وقس عليهِ . فالميل الاجتماعي هنا لم ينمُ بالنظر الى منفعتهِ لانهُ قد يبقى هو ولا تبقى منفعتهُ وانما بالنظر الى اللذة الحاصلة للمثل من مثلهِ واذا دققنـا النظر نرى ان اللذة والمنفعة مرجعهما الى الموافقة بالمطابقة . والموافقة بالمطابقة اعمُّ فقد تكون اللذَّة وقد تكون المنفعة وقد تكون سواهما . وهـذه الموافقة لا تكون لجميع الاحوال بل لغالبها والصفات المكتسبَة عنها ترسخ حتى يعرض لها على مرّ الزمان ما يغلبها ويحوّلها عن حالها . ولذلك كانت الصفات المسماة غريزيةً او بديهيـةً تبقى زماناً طويلاً ولو

زالت المنفعة كما في المثال المتقدّم ذكرهُ

*

ولنعُد الى ما نحن بصدده فنقول قد ظهر ان المشابهة بين جسم الاجتماع والجسم الحي من حيث ارتباط اعضاء كلٍّ منهما بعضها ببعض هي مشابهة تامّة لان الرابط الذي يربط كلاً منهما هو واحد في الاصل وهو الشوق الاعمى الحاصل في المثل الى مثلهِ ثم يعقب ذلك في الاجتماع الحيواني تقسيم الاعمال والتعاون وذلك شبيهٌ ايضاً باختصاص الوظائف في الجسم الحي . ولا يخفى ان اختصاص الوظائف في الجسم الحي كلما نما زاد معهُ خضوع الاعضاء بعضها لبعض حتى يختص السلطان الاعظم بواحدٍ منها (او باكثر من واحد ولكن بمقام الواحد) الى ان تصير حياة هذا الواحد بمقام الكل كالدماغ في الجسم الحي المرتقي وهذا موجود في الاجتماع الحيواني ايضاً فان الحيوانات المجترّة والصفيقة الجلد والقرود يكون لكل جماعةٍ منها رؤساء تسود على الكل كما يسود الدماغ في الحي على سائر اعضاء البدن ثم يقوى سلطان هذا الرئيس حتى يصبح موضوع اعتناء الكل . ويتضح ذلك في جسم الاجتماع الحيواني اكثر مما في جسم الحي نفسهِ لان اعضاء جسم الاجتماع الحيواني يكون في تعاونها وخضوعها من الادراك والاختبار ما لا يكون في أعضاء الجسم الحي . فالرئيس في الاجتماع الحيواني كثيراً ما يستقرب اليه اتباعهُ بالتمليق وهو غير ذاهل عما لهُ عندها من رفيع المقام وما عليهِ لها من المسئولية ايضاً فقد حكى برَهم ان اناث القرود يجتمعنَ حول القرد الشيخ ويبذلنَ العناية في تفليتهِ من القمل فيطيب نفساً بذلك ولكن لا تأخذهُ غفلة عن مصلحة الجمهور فهو دائماً يقظان يجيل عينيه من مكان الى مكان ويصعد من وقت الى آخر الى رأس شجرة عالية ليستكشف ما في الجهات المجاورة ثم يخبر سائر القرود بنتيجة استكشافهِ سليمة كانت او غير سليمة باصوات خصوصية مفهومة عندها . وهذه الافعال التي تربط افراد الاجتماع الحيواني وهي تقسيم الاعمال واختيار العمال هي الرابطة لافراد الاجتماع البشري ايضاً وهذا يدلنا على ان في الحيوان جرثومة ما هو نامٍ جدًّا في الانسان كما ان في الكريات الحية نفسها جرثومة ما هو نامٍ جدًّا في الحيوان

*
* *

فالاجتماع الحيواني هو جسم حي تتعاون اجزاؤُهُ كلها كما يقول ابقراط وتؤلف كلاً حيًّا يتعاون تارةً في اعمالٍ مشتركة كتعاون القندر في بناء بيوتهِ وبعض انواع الطير في بناء اعشاشهِ وتارةً في اعمالٍ خاصة مما يدل على محبةٍ حقيقية بين اعضائهِ كمعاونة القرود بعضها بعضاً لنزع الشوك من جلدها واجتماعها على حجر كبير لكي تقلبهُ وانتصار بعضها لبعض لدفع نازلة ولو كان في ذلك خطر على حياة المنتصر . وقد تبلغ هذه المحبة فيهِ الى حدّ الاخلاص الشديد الذي هو من أخص صفات البشرية وارفعها شأناً فقد ذكر برَهم ما يثبت ذلك في القرود قال « بينا انا واقف سمعت فوق رأسي صراخ قرود فنظرت واذا قرد صغير على شجرة قد تركتهُ امهُ وهربت مذعورة فصعد اليهِ احد اتباعي فلما أبصرهُ القرد صرخ صراخاً شديداً فللحال جاوبتهُ امهُ وارتدَّت لتأخذهُ فصرخ حينئذٍ صرخة ثانية خصوصية جاوبتهُ امهُ عليها بصرخةٍ خصوصية كذلك فرماها احد الواقفين بالرصاص فانجرحت وولَّت هاربةً لكن صراخ ابنها لم يدعها تبتعد كثيراً حتى رجعت اليهِ فرُميت ثانيةً بالرصاص فأُخطئت ولكن ذلك لم يمنعها من ان تثب الى الغصن بعد عناء عظيم فلما وصلت الى ولدها اسرعت فوضعتهُ على ظهرها واوشكت ان تبتعد بهِ واذا برصاصة ثالثة أُطلقت عليها رغماً عن ممانعتي فكانت القاضية ومع ذلك فلم ترمِ بولدها الى الارض بل ضمتهُ الى صدرها وهي تجود بالروح حتى قضت نحبها وهي تحاول ان تهرب بهِ » . وقال ايضاً « ان قرداً شيخاً هجم على الكلاب هجمة الاسود لكي يخلّص قرداً صغيراً من بين انيابها وما ارتدَّ عنها حتى رجع بهِ وقد حمله على منكبهِ » . فلا شك ان المبدأ الباعث على هذه الافعال يقرب جدًّا من مبدإِ اخلاق الانسان لا نقول في انسان مثل ارسطو ونيوتن مثلاً بل في متوحشٍ او طفلٍ صغير ثم يتحوَّل هذا المبدأ من الشوق الاعمى في الكريات الحية الى بديهيات الحيوان الى معقولات الانسان حتى يكتمل في الاجتماع البشري فيصير الشوق محبةً والمحبة اخاء والاخاء تعاوناً والتعاون عدلاً وتعيين الوظائف الرفيعة وانتخاب الرجال لها حكومة فتكتمل حياة الاجتماع العقلية كما تكتمل ايضاً حياته الفيزيولوجية

***

على ان سبنسر الفيلسوف الانكليزي لا يرى هـذا الكمال في حياة الاجتماع الفيزيولوجية لانهُ يقول ان في الحيوان جهازاً عصبياً هو مركز الاعمال العقليـة وأما في العمران فليس يوجد ما يشبه ذلك . وردَّ عليهِ بعضهم بقولهِ بل ذلك موجود ايضاً فان ادمغة الامة بمثابة الدماغ . وان العواطف والحواس والنطق وسائر العلامات والكتابة والتلغراف وكل وسائط الاتصال بمثابة الاعصاب التي تنقل الحس وتوصل الحركة الى كل اجزاء البدن . وان العيال بمثابة العقد العصبية التي هي عبارة عن ادمغة صغيرة يجتمع الحس فيها ويقوى . والمدن بمثابة الفقرات والعاصمة من المدن بمثابة الرأس الذي هو فقرة عظمت حتى سادت على سواها . والعلماء والحكماء وكل الذين يرشدون الامة هم بمثابة الكريات المرتقية في الدماغ الذي هو نفسهُ لا يزيد عن عقدة عصبية عظمت على سواها كما عظم الرأس على سائر الفقرات . فان كان اشتراك كل اعضاء العمران بالفكرة يجعل العمران ارفع جدًّا من سائر الاحياء فهذا الارتفاع لا يجوز ان يكون فرقاً جوهرياً كفرق الاحياء نفسها عما هو دونهـا . وعليهِ ففي الجسم الاجتماعي جهاز عصبي لوظائف النسبة كما فيهِ جهاز دوري وجهاز غذائي فهو حيٌّ تام لا ينقصهُ شيءٌ فيزيولوجياً

لولا الهوى وبديعُ الشوق يهديهِ ما صحَّ في الكون معنًى من معانيهِ
ولا سرى النجمُ في العلياء وانتظمت له المواقع تُقصيهِ وتُدنيهِ
ولا استقامت حياةٌ في الوجودِ ولا تمَّ الوجودُ ولا تمت مبانيهِ
شوقٌ تكاملَ من أدنى الوجودِ الى أعلى فأعلى الى أعلى أعاليهِ
حتى تناهى وقلب المرء تُلهبهُ نارٌ من الحب يُذكيها وتُذكيهِ
نارٌ من الشوق في قلبِ المشوق ثوت تذكو فيُصلى ويغذيها فتُفنيهِ
ما زالَ والنارُ تذكو في جوانبهِ حتى تفانى بما قد كان يحييهِ

***

قال احد الحكماء اذا كان الانسان الكامل دليلاً على الجنين فبالاولى ان يكون الاجتماع دليلاً على سائر الموجودات التي تؤلف الطبيعة وعلى السنن الفاعلة فيهـا حتى

طبيعتها ايضاً لان الاجتماع اولى باسم العالم الاصغر من الانسان نفسهِ (١)

قد رأينا في ما مرَّ ان كل اجتماع انما هو تعاون يبتدئ طبيعياً بمحبة الذات والشوق وينتهي عقلياً باتفاق الارادات او التراضي في البشر . لكن ما هي محبة الذات أو ما هو الشوق نفسهُ سوى اول افعال الارادة فهذه بعد ان تريد ذاتها وحدها تريد سواها من الارادات الاخر لها ثم تريدهُ لنفسهِ ايضاً لان كل شيء كما قلنا يدور في الاصل حول مركز نفسهِ بالشوق الحاصل فيهِ اليه وفي الفرع حول مركز نفسه بالشوق الحاصل فيه الى مركز سواهُ فالارادة على اختلاف انواعها جاهلة ذاتية ام عاملة ذاتية ام مشتركة هي اسُّ كل اجتماع وجوهر كل حيّ وبهذا الاعتبار ينقسم العالم الى ثلاث رُتب اولاً الرتبة التي تكون الارادات فيها عمياء ذاتية كل واحدة منها تشتغل لنفسها كأن لا يوجد سواها وهي الجماد . ثانياً الرتبة التي تبتدىء الارادات فيها ان يحس بعضها ببعض ويجتمع بعضها ببعض لكن على سبيل الشوق البسيط فقط وهي النبات الحيوان . ثالثاً الرتبة التي تصير الارادات فيها عاقلة تدرك نفسها ويعرف بعضها بعضاً ويجتمع بعضها ببعض على سبيل الاتفاق والتراضي وهي الاجتماع البشري . فالاجتماع البشري هو الجدير بان يسمى حيواناً مريداً متراضياً وهنا مكان الوفاق بين مذهب الطبيعيين في الحيوان الاجتماعي ومذهب العقليين في العمران . فالواحد انما يبين اصل الاجتماع والثاني غايتهُ والصحيح ان الواحد لا ينبغي ان يُفصَل عن الآخر فتاريخ الاجتماع كلهُ قائم بالشوق البسيط اولاً والتراضي اخيراً باستمالة الواحد الى الآخر . ولا ريب ان ذلك تاريخ العالم اجمع . فالافعال في الطبيعيات عمياء والسنن ثابتة وهي بالحصر كذلك في العقليات وانما اكتسبت في هذه من القابليات ما جعل فعل الارادات التي صارت عاقلة اظهر فيها فارتباط اعضاء الاجتماع بعضها ببعض اختياراً كارتباط اعضاء الحيوان بعضها ببعض اضطراراً

⁂

ومرجع ابسط صفات الحي الى الحس والحركة وهاتان الخاصتان هما بالحصر الحياة . والظاهر ان الحس والحركة هما ايضاً صورتان لشيء واحد احداهما باطنة والاخرى ظاهرة

(١) اشارة الى قولهم العالم الاصغر دليل على الاكبر

فهما اشبه شيء بالمقعر والمحدب . فالحس هو الكيفية التي تتصل الحركة بها الى مشاعرنا الباطنة والحركة الكيفية التي يتصل الحس بها الى المشاعر الظاهرة . حرك ذراعك واغمض عينيك فانك تدرك الحس لا الحركة بخلاف الناظر اليك فانهُ يدرك الحركة لا الحس . فالحس اذاً هو ادراكنا الحركة الحاصلة فينا والحركة هي ادراكنا الحس الحاصل في سوانا . والاصل الذي يرجع اليه الحس والحركة هو القوة او بالحري الارادة التي هي اس كل وجود . وكل ما نعلمهُ يحملنا على الاعتقاد بان الحس موجود في العالم حيث توجد الحركة على صور تتفاوت في الوضوح والخفاء . ولا يخفى ان الفاصل بين الحيوان والنبات يعتبر اليوم صناعياً لا حقيقياً . والظاهر انه كذلك ايضاً بين النبات والجماد[1] نعم انه لم يستطع احد ان يولد كريّة حية من كريّة غير حية لكن هل يستطيع احد ان يولد دقيقة من الكبريت من غير الكبريت او دقيقة من الاكسيجين من غير الاكسيجين او من مادة لا اكسيجين فيها . ام هل يلزم من ذلك الاعتقاد ببساطة الاجسام الكثيرة المسماة عناصر ومن ثم القول بخلق خاص لكل من الكبريت والاكسيجين والكربون والهيدروجين والحديد والذهب الخ وهل يلزم كذلك القول بقوة خاصة لكل دقيقة معدودة في الكيمياء بسيطة شبيهة بالقوة الحيوية . فالعلم يميل الى ضد ذلك اي الى التسليم بان الجواهر الفردة الكماوية ليست غير قابلة الانقسام قطعاً وانما لا تقبلهُ مع بقاء خصائصها فيها على حالها كما ان الجسم الحي لا يقبلهُ مع بقاء خصائصهِ فيه . كذلك الانسان فانك لو شطرتهُ شطرين ما بقي انساناً فهو من هذا القبيل جوهر فرد وأما من قبيل آخر فهو اجتماع

* * *

فهذه الاعتبارات تدلنا على ان الحياة موجودة في الطبيعة حيث توجد الارادة على درجات متفاوتة تارة هاجعة خفية كما في الجماد واخرى متنبهة ظاهرة كما في النبات وطوراً متمالكة متعارفة كما في الحيوان واخيراً متكاثرة متقوية باشتراك الارادات العاقلة كما في

(١) قال توك في مقالة نشرها المقتطف من عهد قريب ان الحد المقام بين النبات والحيوان لا وجود له وكلما تعمقنا في درس الجمادات نرى اوجه الفرق بينها وبين الاحياء تقل فالانسان يولد من ابوين والحيوان السافل من نظيره بالانقسام والنبات من نبات نظيره والظاهر ان ذلك كذلك في الجماد فقد بين جرنز بالامتحان ان الجماد كالحي يتولد من جماد نظيره

الاجتماعات والممالك فالحياة كالازوت تحول من حال الى حال مرتقية من ادنى الى اعلى الى ان تبلغ أرفع مقاماتها المعروفة . ألا ترى ان الفعل المسمّى طبيعياً كالحرارة والكهربائية لا يغير الأَّ أعمّ خصائص الاجسام فاذا زاد عن حدٍّ معلوم تحوّل الى الفعل المسمّى كيماوياً الذي يغير تركيبها وهو هو في الحالين ولم يتغير الا في الكية . ولو كان في امكاننا ان نفعل على ما هو أدق تركيباً ونسلّط على الاجسام حالة خصوصية من الحرارة او الكهربائية او الحركة لاستطعنا ان ننبه الحس ونوقظ الحياة او الارادة من نومها العميق. فقد مرَّ على الكون زمن كان فيهِ النظام الشمسي مشتعلاً ولم تكن العوالم سوى دخان ومع ذلك فلا يبعد ان شرارة الحياة كانت موجودة في هذا الأتون الملتهب لانهُ ما لبث ان برد حتى ظهرت الحياة فيهِ . فالذي لا يعتقد المعجزات اي الذي لا يعتقد الاَّ العلم لا تفرَق الحياة عندهُ عما يسميهِ المادَّة التي هي نفسها ليست سوى مجموع قوًى او ارادات . فكل شيء في العالم حيٌّ وكل شيء فيهِ فرد واجتماع معاً . فعلم الحياة وعلم الاجتماع وعلم التكون هي بالحقيقة علم واحد . والعالم نفسهُ مملكة عظيمة في حال التصوُّر وربما يظهر فيهِ يوماً ما على صورة الفكر والارادة العاقلة كما ظهر فيهِ في الاصل على صورة حرارة او حركة او قوَّة

* * *

على ان الحكماء والطبيعيين غير متفقين على النتيجة السياسية المتحصلة من التاريخ الطبيعي . بسبب ذلك حصل نزاع شديد بين اثنين من كبار الطبيعيين والحكماء في هذا العصر وهما هكسلي وسبنسر الانكليزيان. فهكسلي يكره جدًّا تشبيه الاجتماعات بالاحياء لاستخراج القواعد السياسية من ذلك لانهُ يزعم ان التاريخ الطبيعي لا يدل الاَّ على السياسة الاستبدادية . وأما سبنسر فيذهب غير مذهبهِ حيث يقول ان التاريخ الطبيعي يدل على السياسة الحرة ولا ينكر ان هكسلي مصيب في تنكره من التهافت على الاستقراء السريع لان علم الحياة وان كان يعلمنا على نوع ما هو الجسم السياسي وكيف صار الى ما هو عليهِ انما لا يركن اليهِ في معرفة ماذا يصير اليه يوماً ما . والعقل البشري ارفع من ان يتخذ الاحياء الدنيا مثالاً لهُ وينقاد لها انقياداً اعمى . ومن الخطإ ايضاً الاعتماد على مشابهة ظاهرة ناقصة كما يفعل كثيرٌ من السياسيين ممن يبالغ او يخطيء في استدلالات التاريخ

الطبيعي مبينين فضل الحكم الملكي بمثال النحل او فضل الحكم الجمهوري بمثال النمل . انما لا ينكر ايضاً انه لا يجب ان يُغفل ادنى شيء في هذا الوجود حيث كل شيء ذو شأن . فتمثيل الجسم الاجتماعي بالحي يؤدي في نظر هكسلي الى حصر الحكومة في مركز معين حصراً شديداً حيث يقول « ان الدماغ يفكر للجسم كلهِ ويشتغل لهُ ويحكم فيهِ حكماً مستبداً والاَّ لكان يحقُّ لكل عضلة في انقباضاتها ولكل غدَّة في مفرزاتها ولكل كريّة في افعالها ان ترفض كل حقّ للجهاز العصبي في ذلك بشرط ان لا تضر بسواها وكيف تكون حالة الجسم يا ترى لو كان كل عضوٍ من اعضائهِ يفعل افعالهُ من نفسه » . وردَّ عليه سبنسر ان الاعضاء قسمان ظاهرة وباطنة فاذا كانت القوة المنحصرة لازمة للظاهرة فليس الامر كذلك في الباطنة فهي تحتاج فقط لما فيها من القوة الغريزية ولا تطلب من الغذاء الاَّ المقدار اللازم لتعوَّض بهِ عن العمل الذي تعملهُ وهذا هو العدل في الاحياء . والامر كذلك في العمران فان الناس المحاربين في الخارج والذين هم بمثابة اعضاء النسبة الظاهرة في الحي يحتاجون ضرورة الى حكومة مركزية تدبر امرهم . وأما الذين في الداخل القائمون بحركة التجارة والصناعة والذين هم بمثابة اعضاء التغذية والدورة الباطنة فبالضد من ذلك يحتاجون الى الحرية فاحتياج الاجتماع الى حكومة حرة او مستبدة يختلف باختلاف كونهِ مؤلفاً من امة متعلقة على الصناعة او الحروب . فعلم الحيـاة لا يدل على الفوضى كما يتوهم بعضهم كما انهُ لا يدل على الاستبداد

**

وتداخل الحكومة ضروريٌّ في كل الاحوال انما هذا التداخل كما يقول سبنسر نوعان موجب وسالب فالموجب كما لو زرعت الحكومة ارضي أو اكرهتني على اتبـاع طريقة معلومة في الزراعة والسالب كما لو اقتصرت فقط على ردعي عن التعدي على ارض جاري والحاق الضرر بهِ . وهذا النوع الاخير من التداخل هو اللازم في الجسم الاجتماعي فلتضمن الحكومة تنفيذ المعاهدات اي العدل وهكذا تكون قـد تممت الوظيفة المطلوبة منها قال . الاقتصاديّ هو يتلي « ان اهم الافعال التي تقوم بها حياة المملكة تتم بواسطة اناس لا يفتكرون بها ولا يعلمون انهم متشاركون بل يسعى كلٌّ منهم وراء مصلحتهِ فقط

وتتمُّ بضبط واعتناء وانتظام لا يصل اليه جهد افضل المنتبهين » فلو فرض ان رجلاً عهد عليه ان يقدم كل يوم لمدينة كبرى كاحدى العواصم المعروفة كفافها من الزاد وسائر ما تحتاج اليه لما امكنهُ القيام بهذه العهدة لكثرة الاحتياجات المذكورة واختلافها ولو أُلقيت هذه العهدة الى حكومة لما تمَّ لها القيام بها بانتظام ولانفقت عليها النفقات الباهظة اذ يحصل حينئذٍ ما يحصل لو كان الدماغ مكلفاً بالانتباه لكل ما يلزم لتمثيل الدم ولدورته في البدن ولاخراج كل مفرز من غدَّته . فغذاء كل مدينة يصل اليها يومياً بدورة ذاتية حركاتها منتظمة كحركات النبض وتداخل الحكومة الموجب لا تكون لهُ نتيجة سوى تعاقب الشبع والجوع على المدينة . وتداخلها السالب يضمن لها حياتها اذ تستقيم معهُ حركة اسواقها ويصبح اناسها في مأمن بعضهم من بعض في اعمالهم وسائر احوالهم . فتعاون الناس بعضهم مع بعض بحيث لا يرفع احدهم نظرهُ الى ما وراء مصلحته كافٍ لان يفعل في صلاح حال العمران ما لا تستطيعهُ حكمة اعظم الحكماء وانتباه اعظم الحكومات

*
* *

ولقائلٍ ان الافعال التي يفعلها الافراد تحت عامل المنفعة الذاتية وان كانت كافية في الاحتياجات المادية الاَّ انها ليست كذلك في الاحتياجات التي من غير هذا المعنى . فعلى ذلك يجيب سپنسر انهُ من الخطإ ان يظن انه لا يوجد خارجاً عن المنفعة الذاتية الاَّ قوَّة اجتماعية وهي قوَّة الحكومة . أليس للبشر ما عدا احتياجاتهم الذاتية احتياجات حبية وهذه سواء فعلت وحدها او اشتركت ألا تحدث افعالاً جليلة كالافعال الحاصلة عن المنافع الذاتية . أتريد ان تعرف الافعال الاجتماعية للمحبة منفردةً كانت او مشتركةً انظر الى اعمال اهل البرّ والاحسان الصادرة عن الافراد او عن جمعيات خصوصية لا يد للحكومة فيها . فالمنفعة والمحبة في نظر سپنسر كافيتان وحدهما للقيام بكل احتياجات الجسم الاجتماعي كما انهما تكفيان لاحتياجات الجسم الحي والحكومة لا يطلب منها الاَّ ان تؤدي وظيفة شبيهة بوظيفة الدماغ اي ان تكون النائبة عن الامة في احتياجاتها المنفعية والحبية سالكةً في ذلك سبيل العدل . فدماغ الحيوان مقرٌّ لنيابة حقيقية عن الجسم كلهِ يلزم ان تكون نموذجاً للحكومة . والامر بالحقيقة كذلك فان الاعضاء ترسل

انباءها الى الدماغ وتحصر فيهِ لذاتها وآلامها وتشكو لهُ حاجاتها وتخبرهُ باختلال احوالها كأن الجسم كلهُ مختصر فيهِ . ووظيفة الدماغ الصحيح كما يقول سپنسر هي التعديل بين المصالح المختلفة الطبيعية والعقلية والادبية والاجتماعية وذلك هو وظيفة الحكومة المطلوب منها التعديل بين مصالح البشر المختلفة بحيث ان كلاً منهم ينال حقهُ بدون ان يضرَّ بالآخر

⁂

على ان بعضهم يرى ان نظر سپنسر في تعيين وظيفة الدماغ والحكومة وان كان مصيباً الاَّ انهُ قاصرٌ في بابهِ لان الدماغ وان كان نائباً عن الجسم كلهِ في مصالحهِ المنفعية والحبية الاَّ انهُ ليس نائباً بسيطاً وقاضياً يقضي في المصالح المذكورة لتعديلها فقط بدون ان يزيد شيئاً عليها بل هو ايضاً عضو الفكرة والارادة والروية فكثيراً ما يدفع الجسم من نفسهِ نحو امرٍ انقياداً لفكر رفيع . والانسان كثيراً ما ينكر مصلحة نفسهِ القريبة لقضاء مصلحة اعظم كنشر حقيقة او ابداء تصوُّر جليل . فالحكومة لا يكفي ان تكون بمقام قاضٍ بسيط يقضي في مصالح الامة لتعديلها مقتصرة على الحاضر القريب بل يلزمها ان ترتفع فوق نفسها وفوق مصلحة البعض للنظر في المستقبل البعيد لان الجسم وان كان يحسُّ باحتياجاتهِ انما احساسهُ بها مبهم ولا يتضح على صورة الحس ولا الفكرة الاَّ في الدماغ . كذلك الاجتماع فيهِ حقوق كثير لا يحس بها الاَّ احساساً مبهماً مع شدة لزومها لهُ ولا تجلي الاَّ للحكومة فالجهلاء مثلاً لا يشعرون بالاحتياج الى العلم مع شدة لزومهِ ولذلك كان ينبغي على الحكومة ان تسعى من ذاتها لتتميم المشاريع اللازمة كاقامة التعليم الالزامي مثلاً وعدم اغفال كل ما من شأنهِ ان يحفظ مستقبل الامة لئلاَّ يسبقها غيرها من الامم في معرض الارتقاء في هذا الوجود فتسوء حالها وتسقط في مهواة التهلكة والخسران

فسپنسر وان كان قد استوفى ما للميل الغريزي من اليد القوية في ارتقاء الامم الاَّ انهُ في نظر بعضهم قد اغفل امر الرويّة المتجمعة في الدماغ عن احساسات اجزاء البدن المبهمة التي يلزم ان تبلغ الغاية في الحكومة . هذا واذا نظرنا الى هاتين القوتين اي الميل الغريزي والروية ولم نفصل بينهما نرى انهما ليستا فقط علة كل اجتماع بل علة كل شيء حتى العالم نفسهِ اذ العالم نفسهُ انما هو اجتماع كبير كل جزء من اجزائهِ يشتغل

لسلامتهِ وسلامة الكل بما فيهِ من الميل لحفظ ذاتهِ وحفظ علاقاتهِ مع سواهُ وبهذا تمام النظام في الكون(١)

(١) عقب المقتطف على هذا البحث بالكلام الآتي قال :

حيوان هائل — هذا حيوان لم تمر صورته بمخيلة انسان من المتقدمين ولم يكتشفه الا جماعة من فلاسفة المتأخرين . والمعتاد ان يوصف الحيوان بالهول اذا كان كبير القد ضخم الجثة كالحوت والفيل وغيرهما او كان قبيح الصورة شديد الضرر او نحو ذلك مما يوقع الرهبة والخوف في نفس ناظره ومتصوره. على ان الحيوان الذي نحن بصدده لم يعهد له مثيل في الكبر ولم يخطر على بال انسان قبل الآن ان الارض يمكن ان تربي مثله فهو شاغل لكل انحاء المعمورة سائد على وحش البر وحوت الماء وطير الهواء يسبح الناس الوفاً في نقطة من دمه وتتعاقب الملوك والرؤساء في رأسه وتقطن القبائل والشعوب في جوفه وتحيا الامم وتموت وهو باقٍ فيحيا بموتها وينمو بحياتها وقد صار عمره الوفاً من السنين وربما عاش بعد الوفاً منها وربوات حتى يقبض روحه باري الارواح ويعيد جسده الى التراب الذي جبل منه . لا نقول هذا من باب المجاز وليس في كلامنا احاجي ولا الغاز وانما هو حق اليقين اذا صدقنا ما يقوله جماعة من فلاسفة المتأخرين

نقول وما هذا الحيوان العجيب فنجيب انه الاجتماع الانساني الذي انت في عضو من اعضائه بمثابة الكرية التي لا تراها عينك لصغرها في عضو من اعضائك . واذا امعنت النظر في المقالتين المعنونتين بتاريخ الاجتماع الطبيعي في هذا الجزء والذي قبله (بقلم الدكتور شبلي شميل) رأيت هناك ما يقوله اولئك الفلاسفة في اثبات وجود هذا الحيوان وبيان المشابهة التامة بينه وبين كل جسم حي

وسواء صدقوا في ما قالوا او لم يصدقوا فلا غرو ان المشابهة بين الجسم الحي وجسم الاجتماع جديرة بان يمعن الانسان نظره فيها ليعرف مقامه بين اقرانه ولزومه لقيام هذا الاجتماع وبقائه . فكما ان الرأس في البدن لا يستغني عن اليد ولا اليد عن الرجل ولا الرجل عن البطن كذلك اعضاء الاجتماع الانساني لا يستغني بعضها عن بعض فالزارع لازم للصانع والصانع للوازع والوازع لكل منهما . ولا فرق في لزوم الاعضاء لجسم الاجتماع ما دامت حياته موقوفة على عملها وقضاء وظائفها . وتفاوتها في المقام اعتباري لا حقيقي فلا الحاكم اشرف من التاجر ولا التاجر من الصانع في حقيقة الواقع كما انه لا فرق حقيقي بين مقام المعدة والقلب والدماغ في البدن وانما الفرق اعتباري يتغير بتغير العوائد والاحكام على مر الايام

ولا يبرحن من الاذهان « ان القوى الكبرى في كل حيوان تام التركيب ثلاث وهي الغاذية وافعالها تهيئة الغذاء وآلاتها المعدة والكبد وما يتلوهما والمدبرة وافعالها تحصيل الغذاء وآلاتها الدماغ والاعصاب وما يتلوها والموزّعة وافعالها توزيع الغذاء وآلاتها القلب والشرايين وما يتلوها » وبها قيام الحيوان ودوام حياته وكذلك « القوى الكبرى في العمران ثلاث وهي الصناعة وافعالها الاعتمال للمعاش والحكومة وافعالها تحصيل اسباب هذا المعاش والتجارة وافعالها توزيع هذا المعاش» فمن يزعم ان العمران يتم بقوة او قوتين من هذه الثلاث دون الثالثة او ان احداها اشرف بالطبع من غيرها فزعمه باطل وهو في جسم العمران كرية لا تخلو من العفونة بل يخشى ان ينتشر منها الفساد . اه

(المجلد العاشر من المقتطف سنة ١٨٨٥)

المقالة السادسة

القرآن والعمران (١)

ليس من غرضي هنا ان اتكلم على الاديان كشرائع موحاة . ولا ان ابين مزية دين على آخر . ولا ان ادخل غمار البحث في قضايا كل دين لاقرارها أو تخريجها الى ما يوافق بل ان ابين حقيقة علاقة الاديان بالعمران وتأثيرها الحقيقي فيه من وجهها الاجتماعي

ان اكثر الباحثين في هذه العلاقة ينسبون كل ما يرونه في العمران من ارتقاء وتقهقر وسير ووقوف وحركة وجمود الى الدين واكاد لا أعلم احداً خالف هذه القاعدة فغلاة المعطلين وكبار المؤمنين والذين بين بين كلهم في ذلك سواء . فيقضون لهذا الدين أو على ذاك بالنظر الى ذلك وهم فيما ارى مخطئون باعتبار جوهر الدين والا كانت النتيجة واحدة في كل الاديان وفي الدين الواحد في كل العصور . ولا ينكر ان الدين يؤثر في اخلاق الامم التي تدين به ولكن هذا التأثير اذا دققنا النظر يجب أن يكون واحداً في الجوهر لانها جميعها تصبو الى غاية واحدة وهي اصلاح حال الانسان في العمران وتتذرع الى ذلك بمبدإ واحد هو الثواب والعقاب في الحياة الاخرى لتحمل الانسان على ان ينصاع اليها في الغاية الحميدة التي قصدتها في اجتماعه . فنهت عن المنكر وأمرت بالمعروف واعتبرت المنكر كل ما خالف مصلحة الاجتماع والمعروف كل ما وافق هذه المصلحة فامرت باقامة القسط في المعاملات وتخطته الى وجوب الرحمة فحثت الانسان على الاشتراك بالمنفعة ونهته عن الاستئثار بها وأمرته بالعطف على البائس المسكين ونهته عن الحيف عليه

ودينا التوحيد السائدان اليوم هما دين الانجيل ودين القرآن الاول يعلمنا التساهل الى حد ان ينسى الانسان نفسه في مصلحة قريبه أي اخيه والثاني يجعل الفقير شريك الغني في ماله اذ يفرض له عليه نصيباً منه . وكلاهما فيهما من الحكم الرائعة والآداب العالية ما يجعلهما في مبدأهما الاجتماعي مطابقين لمرامي أعظم الفلاسفة المصلحين

(١) نشرت في المؤيد سنة ١٩٠٨

الاجتماعيين اليوم . ولو جاز لي ان ابين ماهية الفرق بينهما لقلت ان الدين المسيحي يوسع المجال للنظر والمحمدي للعمل اي ان الاول دين التجريد والثاني دين المحسوس ولكنهما يلتقيان في نقطة واحدة وهي اصلاح الانسان في دنياه — ومن غريب المفارقات ان اتباع الاول ساروا شوطاً بعيداً في الحياة العملية واتباع الثاني وقفوا متقهقرين — وهذا لا يخالف ما قلناه فيهما وانما يؤيد مبدأنا من انّ حقيقة الاديان لا دخل لها في العمران

وكلاهما يدعو الناس اليه بطريقة واحدة سلمية فالانجيل يقول علموهم وبشروهم . والقرآن يقول لا اكراه في الدين . واذا طرأ عليهما ما خالف ذلك في بعض العصور وفي بعض المواقف فلدواع اجتماعية ليست من جوهر الدين وكان كلاهما في هذا الارغام سواء . هذا هو مبدأ الدينين الاجتماعي

ولكن الباحث الذي يتعقب كلام كل من الكتابين يجد فيهما كثيراً من مثل قوله (اقتلوهم حيث ثقفتموهم) بعد قوله (قاتلوا الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا) ومثل قوله « ما جئت لالقي سلاماً بل سيفاً» بعد قوله « من لطمك على خدك الايمن فحول له الايسر » الى غير ذلك من المفارقات التي لا يذهب مغزاها على العاقل ولا مكانها من القول ولكن قد تضر كثيراً بالجاهل وتكون عنده سبباً للتشبث السقيم وللاخذ في سباسب الجدال العقيم فتضر بالدين وبمصلحة العمران معاً . لذلك رأى العقلاء من المؤمنين في النصرانية والاسلام وجوب رد مثل هذه القضايا المشتبهة التي قد تلتبس على الافهام فتبدو مخالفة لمصلحة الاجتماع الى مبدأ الدين الجوهري الذي تقدم ذكره والذي هو غرض الشارع الحقيقي وتأويلها بحسب ذلك حتى صار الاجتهاد أمراً لازماً في الدين . والحق يقال ان رجال الدين في الاسلام قد برزوا في هذا الامر كثيراً في العصور الاولى وفاقوا النصرانية فيه لان كبار ائمتهم كانوا من كبار الفلاسفة أيضاً لا في الدين بل بمعنى الكلمة الحقيقي حتى بلغت علوم الفلسفة التي اخذوها عن اليونان في نهضتهم الاولى أقصى مراقيها بخلاف النصرانية فان الفلسفة طمست فيها على عهدها الاول وعدت من المحظورات فيما خلا النظريات المتعلقة باللاهوت المسيحي وبقيت كذلك الى عهد الانشقاق العظيم الذي حصل في النصرانية في اوائل عصور النهضة في اوربا

وأول من أجاز الاجتهاد في الاسلام ابو بكر بعد موت النبي في قتال اهل الردة اذ كان الاعتقاد ان من تشهد لا يجوز قتاله على تركه شيئاً من الدين وهـذا كان رأي اكثر الصحابة أما ابو بكر الخليفـة الاول للاسلام فنظر الى المسألة من وجهها السياسي وخاف عاقبـة التراخي مع العرب الذين امتنعوا عن تأدية الزكاة فقال لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه الى الرسول لقاتلتهم على منعه ومضي بنفسه الى قتالهم . وجرى الاسلام على خطته من جهة الاجتهاد كل مدة النهضة . وقد قال الغزالي وهو من كبار ائمة الاسلام في أول القرن السادس للهجرة بوجوب التأويل في قضايا الدين والتوسع فيه لما رآه من التخاذل في ظاهر الدين والعلم في امور كثيرة فخاف ان يقف ذلك في سبيل العلم ثم يعبث بالدين . فقال ما ملخصه : «اذا بدا لك تناقض بين الدين والعلم فاعمد الى التأويل ذلك خير من ان ترمي الدين بتهمة الضعف» ولذلك كان كل دين لا يتسع فيه مجال الاجتهاد كثيراً مقضياً على اممه بحكم الضرورة (١)

ومما تقدم يتضح لك ان لا فرق بين الاسلام والنصرانية في غايتهما الاجتماعية ومبدئهما في هذه الغاية . ولكن الناظر الى العمران اليوم يجد بوناً بعيداً بين الامم التابعة لكل من الفريقين فلماذا هذا الفرق ؟

الناس في نظرهم الى الدين فريقان فريق يغلبه الهوى فيندفع بتيار التشيع والتحمس الاعمى فيقضي على الصبغة الدينية التي تخالف صبغته كيفما كانت حال الاقوام المصطبغين بها حسنة ام رديئة ومثل هؤلاء لا شأن لنا معهم في بحثنا هـذا وهم في مجموعهم قذًى في عين العمران وشجى في حلقة معطلين كانوا ام مؤمنين مشركين ام موحدين نصارى ام مسلمين من هذا المذهب ام من تلك الشيعة والمؤمنون منهم شر على الدين من سواهم

وفريق يبحث فيه بحث العالم الاجتماعي ولكن قد يخونه النظر فينظر الى الدين في مرآة الشعوب التي تدين به ومن اعراض الكلام ويحكم على الجوهر من العرض. ويؤيده في حكمه هذا ما يغلب عليه مما يكون قد رسخ فيه من أثر التربية الاولى فان البداءة التي تقوم به في الذهن تجرد عن كل روية (وكلامنا في اصحاب العقول الراقية) ويدلك

(١) آيات النسخ نفسها اقوى دليل على روح القرآن السياسي والاجتماعي

على ذلك الاندهاش العظيم الذي يرتسم على وجهه عند ما تصادره فيها لاول مرة خصوصاً اذا كان يعتقد فيك العلم ويتوسم بك نزاهة الغرض كأنك ارتكبت جناية عقلية ذبحت بها أمامه كل القوى الراشدة ثم لا يلبث أن يطرق مفكراً كأنه داخله الريب ولذلك كان الشك أول مراتب الرشد

وقلما يسلم باحث اجتماعي مهما كانت مداركه راقية من مفعول هذه التربية الاولى فان سلم منهـا من جهة الدين لم يسلم منها من جهة الوطن والسياسة التي تقتضيها مصلحة هـذا الوطن وفي اعتقاده ان الوطن دين ثان . وقليل ما هم اولئك الذين يتملصون من مفاعيل هذه العوامل الثلاثة فيجعلون دينهم الانسانية ووطنهم العالم اجمع

وما دعاني الى هـذا البسط الا ما رأيته في هذه الايام من الحركة الشديدة في الافكار بسبب ما جاء في كتاب اللورد كرومر من علاقة الاديان بالعمران . فقد تعرض اللورد في كلامه على المصريين وعلى الامم الاسلامية قاطبة لجوهر الدين الاسلامي وجعل القرآن العقبة الكؤد في سبيل ارتقائها والمسئول عن تقهقرها

وقد تصدت الجرائد الاسلامية للرد عليه والحق يقال ان كلا الفريقين سلك مسلك الحرية في القول والمحقق في البحث الا انهما لم يسلما مع ذلك من سلطان هـذه العوامل وفي اعتقادي انهمـا حاما حول الموضوع وقليل من تلمس طرقه من بابه : اللورد اندفع كثيراً فلم ينظر الى دين القرآن الا من خلال اولئك الذين وقفوا دونه ووقفوا به حيث أرادوا . وهم وقفوا محجمين فلم يريدوا ان يجسوا باصابعهم موضع الألم . وهذا الذي حملني على التعرض لهذا البحث مع ما فيه من الوعورة فلعل صوتي الضعيف يكون كالشرارة وان احرقت وآلمت في بعض المواقف فلا تعدم من العقلاء أنصاراً فتكون نارها بهم نار الخليل برداً وسلاماً على امم لا ينقصهم من دينهم شيء لكي يسيروا في العمران مع الامم المتمدنة جنباً لجنب ويحفظوا للشارع مجد أثره

واللورد كرومر من أعاظم رجال العصر وأصحاب العقول الراقية ولصوته دوي في محافل العالم المتمدن وهو من نادرة الرجال السياسيين يقول ما يفتكر ولا يماري وهو في حكمه لم يوارب بل قال ما يعتقد انه الحق الصراح الاَّ ان ذلك كله لا يوجب ان يكون

قوله حقاً . فهو اذا اخطأ – والخطأ تسرب الى حكه من كل ما تقدم – حيث قال ان شريعة القرآن لا توافق العمران في كل عصر وان وافقته في بعض العصور . ونفس قوله هذا حجة عليه لان العمران لا يتسامح في شرائعه . ولو قال ان الاديان لا توافق مصلحة العمران لكان في قوله نظر لا بالنظر الى مبادئها بل لخروج دعاتها بها احياناً كثيرة عن جادتها ووقوفهم بها في سبيله . أما وقد قال قوله فالذي يصح على دين يصح على آخر . والقضايا التي استند اليهـا واعتبرها من جوهر الدين كان يمكنه ان يعتبرها في الدين الاسلامي كسواها في سائر الاديان مما يمكن تجاوزه لولا انه رأى استمساك رجال الدين بها وقيامهم في وجه المصلحين منهم كأنها من غرض الشارع ولذكر ان خلافهم فيها وفي ما ضاهاها من المسائل الاجتماعية لاشبه شيء بالمناقشات الدينية التي كادت تقضي على أمم النصرانية في عصور الجهل والتي احدثت تأثيرها السيء في الامم الاسلامية كما هو اليوم . وما مثل رجال الدين الاسلامي فيها الأ مثل رجال الدين في اوروبا لما قاموا على غليلي يكفرونه لانه قال ان الارض تدور وفي كتبهم ان يشوع أوقف الشمس ثم ثبتت حركة الارض ولم يمس جوهر النصرانية باذى . وهل يعقل ان القرآن الطامح الى أبعد المرامي الاجتماعية يكون قـد اراد بمثل هذه القضايا ان يجعلها غلاً في عنق العمران . وكيف لا يجوز حملها على محمل المجاز وكتب الدين مشحونة بامثال هذا الكلام من المجاز والاستعارة ولا سيما القرآن [1] وبالحقيقة ان علاقة الدين بالعمران من حيث تأثيره في ارتقائه وتقهقره ليست الا عارضة والا لما ارتقى العمران وتقهقر وهو تحت سلطان دين واحـد . واذا كان قد وقف ورجع القهقرى مراراً كثيرة بسبب الاديان فما ذلك بسبب تعاليم الدين نفسه بل

(١) اليس قيام نساء المسلمين في اول عهد الاسلام يخطبن في القوم حاسرات الوجوه اقوى دليل على ان مسألة الحجاب ليست من المسائل الجوهرية في الدين ولو جاز لي ان اسهب الكلام على ذلك هنا لجلوت الاسباب التي دعت اليها في حينها مما يجوز للباحث الاجتماعي اعتباره ولماذا لا يجوز الاجتهاد هنا ايضاً ولكن رجال الدين هم العقبة في سبيل الارتقاء لا الدين نفسه أما مسألة تعدد الزوجات فهي في الحقيقة ليست بالاعتراض الوجيه على القرآن لانه منهيٌّ عنها صريحاً فيه بفرض العدل فيها وهي والطلاق ليستا في الاسلام ولا في النصرانية من المسائل الدينية التي يقيد بها الاجتماع ولذلك لا تعدان حجة على القرآن ولا على سواه اذا تصرف الانسان فيهما بحيث لا توافقان مصلحة العمران

من الذين ادعوا الزعامة عليه فقصروا في ادراكه او تاجروا به

وتاريخ الاجتماع شاهد عدل على ما تقول فاليونان بلغوا من التمدن شأواً بعيداً وكانوا من المشركين بمعنى الكلمة الحقيقي أي كانوا يعبدون آلهة كثيرة ومثلهم الرومان وكانوا يعبدون الاصنام . وقد تقهقر الروم على عهد النصرانية حتى انحلت عرى ملكهم وقام العرب وشادوا على انقاض دولهم ودول الاكاسرة ملكاً باذخاً وهم حديثو العهد بالدين ولقد كانت اوروبا في العصور الوسطى في حالة سيئة جداً مع انتشار النصرانية فيها الى درجة لم يكن الناس يرون السعادة الا بالاعتزال في الاديرة والصلاة على قارعة الطريق ولولا الانشقاق العظيم الذي حصل فيها من قيام بعض رجال الشجاعة كلوثر وما جرّ ذلك بعده من اضطرام نار الثورة الفرنساوية التي حطت من صولة الاكليروس والحكام لما أغنت النصرانية اممها شيئاً ولما ارتقوا الى ما هم عليه الآن

والذي اصاب النصرانية أصاب الاسلام نفسه فراح فريسة مطامع الطامعين من الحكام ورجال الدين من ضعاف الافهام وأصحاب الاغراض وسقط الشعب في مهواة الجهل فأخذ يتقهقر وسواه يتقدم وجنى على الدين حكم الحاكمين عليه

فترى مما تقدم ان الدين نفسه ليس العقبة الحقيقية في سبيل العمران بل رجال الدين أنفسهم واي برهان على ذلك اسطع من سهولة ارتقاء اليابان . فانها لما تحاكت مع اوروبا وقام فيها عاهل يفهم قيمة الارتقاء بنشر العلم وتأييد الصناعة نشطت وارتقت بسرعة لا مثيل لها في التاريخ . وما ذلك الا لان الحائل دون ارتقائها كان السلطة الحاكمة فلما زال هـذا الحائل لم تصادف الامة عقبات اخرى من رجال الدين لانهم هناك ليسوا شيئاً يذكر لان الدين عندهم شذرات من شرائع اهمها البوذية . وهي تعاليم أدبية اجتماعية اكثر منها دينية

ولقد ردت الجرائد على هذا الطعن كل بحسب ما تراءى له انهُ معزز للدين ولكني أقول بكل أسف انهم لم يريدوا ان ينظروا الى الحقيقة كما هي . فلم ينظروا الى تقهقر العالم الاسلامي والاسباب التي دعتهُ الى هذا التقهقر وهم في موقف اليوم يغبطون عليهِ للمجاهرة بالحق نعم ان الحق يجرح ولكن الانسان الذي يبحث في جسمه عن محل الالم

ليداويه يفلح اكثر من الذي يحاول ان يخفيه . ولو فعلوا لخدموا الدين وخدموا أنفسهم بالتنبيه الى مواطن العلة للنهوض من الوهدة التي سقطوا فيها بسبب جهل زعماء الدين الذين هم وحدهم المسؤولون عما جنوا على العمران وعلى اممهم وعلى الدين نفسه بالاشتراك مع الحكام فساقوهم بعصى المظالم عصوراً متطاولة . ولفتحوا امامهم الباب واسعاً لادخال الاصلاح بينهم ولو بثورة في قلب الامم الاسلامية تحدياً بمن سبقهم من الامم الاخرى ذلك خير لهم من فنائهم بالابتلاع شيئاً فشيئاً كما هو الواقع اليوم

فالمنصف لا يسعه ان يلقي على القرآن تبعة تقهقر الامم الاسلامية بل على الرؤساء من رجال الدين والحكام فاذا ارادت الامم الاسلامية ان تجاري الامم المتمدنة في ارتقائها فالقرآن لا يحول دونها كما ان الانجيل لم يكن الباعث على نهضة تلك وما عليها الا ان تجاريهم وتضرب الضربة الشديدة على ايدي الرؤساء عموماً لتكشف بالعلم سجوف الجهل المسدولة على عقول الشعب

واني لاستغرب من جرائدنا مع ما أظهرتهُ اليوم من الحمية لنصر الدين كيف انها لم تقم قيامتها اللازمة لنصر رجل جهر بالحق منذ عهد قريب لتطهير الدين من البدع الشائنة ولمنع وقوع الحيف عليهِ ولم يسمع حينئذٍ الا صوت اولئك الذين ضربوا على يد الضارب على هذه البدع ولم يسمع لهم صوت اليوم كأن الدين معايش وهي لو فعلت لنصرت الدين نصراً مبيناً ومهدت السبيل « للوثر » يصلح من عقائدها ويدفع عن القرآن تهماً ما أنزل الله بها من سلطان ولعل الصوت القاسي الذي جاءهم اليوم من وراء البحار ينبههم اكثر الى هذا الفرض الواجب فيهبون هبتهم الى هذا الاصلاح ويقولون ونحن نردد معهم « وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم »

المقالة السابعة

ماذا قرأ وماذا رأى (١)

الانسان لا يرى الحقيقة لانه اعرق في جهلها . واذا رآها لا يريد ان يعرفها لانها تروعه . فيدور حولها ويروغ منها لانه الف التمويه في كل شيء . وانه ليفضل ان يكذب على نفسه اذا عرفها من ان يقولها

هيولى تملأ الفضاء متحركة حركة دائمة لا اول لها يعرف ولا آخر يوصف كأنها سلسلة حلقات متصل أولها بآخرها او نقطة من محيط دائرة لا يعرف أين تبتدي ولا أين تنتهي

زوابع تثور فتتحول جواهر تتضام دقائق فذرات فاجساماً فاجراماً تسبح في هذا الفضاء تنقسم شموساً تضيء واقماراً تستمد وسيارات تدور وثوابت ليست ثوابت الأ بالنسبة الى سياراتها والا فالكل في فلك يدور

قوى تتجاذب متبايناتها وتتنافر متشابهاتها تتحد بها اجزاء المادة صنوفاً وتنتظم صنوفها صفوفاً فيها الرفيع والوضيع والبسيط والمركب نماؤها من ظاهر بطيئة النماء بطيئة الانحلال

معدن نام وما هو بحي منفعل وما هو بحاس يتعاظم وما هو يباق ويفحل وما هو بفان متحول وان لم يبد لك في الحال متغير ولكن على مرّ العصور والاجيال

قوى تنتظم الى ان تفقد الانتظام تستولي على المادة فتحولها في الحال الى اجسام تتغذى وتحس وتتحرك سريعة النماء سريعة الانحلال نماؤها من داخل بالقلب والابدال

حي ينقسم نباتاً يتغذى وحيواناً يحس ويتحرك ينبت من بذرة قد لا تراها العين فيتعالى ويتعاظم ثم يموت ولا يموت بل يرد الى المادة ما استعار منها ثم يرقد في بذرة عائداً من حيث أتى

---

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨

معدن ونبات وحيوان هي موضوع الاعجاب والاستغراب تراها منفصلة وليس بينها فواصل أفق الواحد متصل بأفق الآخر كأنه منه ومتحول عنه

مواد الكل واحدة مرجعها الى الهيولى وقواه واحدة مرجعها الى الحركة . والهيولى والحركة سيان فلا تنفصلان . والهيولى فرض لبسيط المادة والحركة حقيقة بيّنة تتحول الى كل القوى المعروفة وترد اليها كل القوى المعروفة : الحرارة والنور والكهربائية والمغناطيسية والحياة نفسها . فالحركة اصل الكل

الكل باقٍ لا يدثر وما هي الأصور تمر واشكال تتحول واوضاع تتغير في حلقة هذا الدور

أدوار تنتظم أياماً وايام تنتظم شهوراً وشهور تنتظم فصولاً وفصول تنتظم سنين ثم يعود الدور

ينبثق نور فيبدد غياهب الظلماء ثم يعقبه ليل بهيم يسد منافس الغبراء فيدور اليوم

يطلع القمر هلالاً كأنه الطفل وقد اهلّ ويكتمل بدراً ثم يتناقص عائداً على بدئه كأنه يمثل حياة الانسان بالزيادة والنقصان فيدور الشهر

يبدو وجه الطبيعة كالحاً كأن الموت قد حلّ . وتلبس الارض ثوباً قاحلاً كأنه جلد الهرم . وتتلبد غيوم كأنها الهموم وتلمع بروق كأنها الآمال في وسط المصائب . وتقصف رعود كأنها غضب الآلهة او صراخ اهل الجحيم وهم يعذبون في ما يقولون . وتعصف رياح تصفر كصوت البوم . على الرسوم . وينعقد البخار سحاباً فتنفتح عيون السماء كأنها تضحك ضحك القنط من فارغ الامل . او تبكي بكاء الثكلى من دنو الاجل. فتنفجر عيون الارض ضاحكة لضحكها او باكية لبكائها فتسيل الجداول والانهار وتسترد البحار ما اعطت فتتعاظم كبراً وتنتفخ عجباً كأنها تقول « هذه بضاعتنا ردت الينا » وتذبل عيون المسيل كأنها تتذكر الآية « انا لله وانا اليه راجعون »

فاذا انقضى الشتاء انبسط وجه السماء وافتر له ثغر البسيطة باسماً وبرزت الارض كالعروس تتهادى بحلة سندسية واخضلت الغصون كأنها القدود وقد لانت وتمايلت طرباً كأنها الخصور وقد دقت . او القلوب وقد رقت. وتفتقت الانوار من اكمامها كأنها

وجوه الحسان وقد برزت من حجابها وفاح ارج الازهار على نغم الاطيار . فانتعشت لها الانفاس كأنها الاعراس والكل فيها فرحون

فاذا انقضى الربيع اقبلت الطبيعة مثقلة كالرجل وقد فارق زمن الصبا واقبل على زمن الجد والكد ينظر الى ما زرعه في ماضيه وما يحصده في حاضره وما سيدخره لمستقبله

فاذا انقضى الصيف جاء الخريف بذبوله واصفراره كالشيخ وقد فرغ منه الامل يتوقع حلول الاجل . وهكذا ينتهي الحول ويرجع الدور

وفي وسط ذلك كله قائم ذلك الكائن العجيب ملتقى النقيضين . ومجتمع الضدين اضعف من النبات والحيوان في بنيانه . واقوى الكائنات بمستنبطات جنانه. عاقل جاهل . يرتفع بافكاره تارة الى السهى حتى يقال « ان هذا الا ملك كريم » . وينحط باعماله طورًا الى الحضيض حتى يقال « ان هذا الا شيطان رجيم » . حيوان الى اقصى درجات الحيوانية وما هو بحيوان . آله الى حد المعجزات وما هو من سكان الجنان . ذلك هو الانسان

وقف على البسيطة عاريًا جائعًا خائفًا كأن اصله ليس من هذا المكان . وذهل انه هو الانسان « المطرود من الجنان » البرد يؤذيه . والحر يعييه . والجوع يضنيه . فسكن المغائر وخصف اوراق الشجر عليه ورعى النبات كالسائمة واكل اشلاء الحيوان كالكواسر

نظر الى الحيوان فراعه ما رآه فيه من القوة واكمال العدة فارتعدت فرائصه خوفًا منه وليس له براثن تقيه او مخالب تحميه فعمد الى كهوف الارض يختبئ فيها عنه . وتسلق الاشجار العالية هربًا منه

عمد الى الحجارة يحكها حكًا ليصنع منها سلاحًا يذود به عن نفسه ويسطو به على سواه . فاخترع السلاح واهتدى الى الصيد وتطاير الشرار . من احتكاك الحجار . فاكتشف النار . واهتدى الى اكل طعامه مشويًا . بعد ان كان يأكله نيًا . وكان ذلك أول « اختراع » وأول « اكتشاف »

نقَّب في الارض فاهتدى الى المعادن ورآها تلين في النار فاصطنع منها العُدد وتفنن واتقن وشعر بنفسه انه نال بها قوة ذللت له الطبيعة فبنى البيوت واصطنع الكساء من

الياف النبات وشق الارض وزرع وحصد واستثمر النبات وذلل الحيوان . وكاد يتذكر « انهُ المطرود من الجنان »

رأى الارض واسعة ومطامعه شاسعة فامتطى الحيوان جواداً يقطع به مفاوز الغبراء وبنى المركبات لنقل الاثقال واستطلاع مناجع الكلاء

ضاقت به الارض على سعتها واعترضته البحار فبنى المراكب واخذ يجذف في عرض الماء ثم اصطنع الشراع واستقبل بهِ مهاب الهواء . وهكذا اصبح سيد البر وسلطان البحر

رأى التعاون ادعى الى القوة فانتظم جماعات وبنى المدائن واختط الممالك وشاد الحصون المنيعة والقصور الرفيعة وغرس الحدائق تجري من تحتها الانهار كأنهُ اراد أن يعيد بها « الفردوس الضائع » وتأنق في المآكل واللباس والاثاث واغرب في الكماليات بعد الحاجيات حتى تخطاها الى الزخارف

نظر في العلوم لحفظ المعلوم وطلب المجهول فانكشفت له اسرار الطبيعة فاستخرج من كنوزها وأسر قواها فاستسرى البخار واستنطق البرق فاستعاض عن الشراع ببواخر تمخر في عرض البحار . وعن الجياد بقواطر تسابق الرياح وتقرب الشاسع من الاقطار

طمح ببصره الى العلياء فأخذ يحدق في القبة الزرقاء وقد كان ظنها « جلداً » مصفحاً وكواكبها انوار سكان السماء . فما لبث ان اخترقها بذكائه فعرف حقيقتها ووقف على تركيبها وقاس ما بينها من الابعاد كأنها منه « على قاب قوسين او ادنى »

رأى الطبيعة قد دانت له قريبها وبعيدها عاليها وسافلها ظاهرها وباطنها جمادها ونباتها وحيوانها . فعتا وتكبر . وطغى وتجبر . وشق عليه ان ليس امامه جبار « يهدد كل جبار عنيد » ليقول له « فها انا ذاك جبار عنيد » حتى شاد من الاوهام حقائق وقام يناصب آلهته العدوان . كأنه تذكر انه « طريدها في سالف الازمان »

رأى كل ذلك فرآه حقيراً في عينيه ذليلاً لديه « اي مكان يرتقي . اي عظيم يتقي » فلم يجد اصعب على نفسه منه هو نفسه . فسعى ليقهر بعضه بعضاً ويسود بعضه على بعض . انسان على انسان وقبيلة على قبيلة وامة على امة وفرد على امة . فسن الشرائع ووضع القوانين توافق اميال القوي وتهضم حقوق الضعيف فظلم وهو ينادي بالعدل وتجبر وهو

يعلم الناس التواضع وعتا وهو يوصيهم بالحلم

شرائع اصلها « العادات » وقوانين لم تخطُ المألوف ثبتت على مر الازمان . مع أن العادات تتغير وكذلك الانسان . شرائع لم يقتصر فيها على المعاملات بل تناول بها ما وراء المنظور لكي تكون اوقع في النفوس وابلغ للمنى

رأى كل ذلك دونه فصبا بنفسه الى ما وراء الطبيعة فبنى من الاوهام ابراجاً وامتطى من الغرور معراجاً . وقال في نفسه لعلي آله ولا ادري. ألست سيد هذه المخلوقات وسلطان هذه الكائنات . فهل يصح ان يكون عنصري كعنصرها وحظي كحظها : يوم يروح ويوم يجيء وارحام تدفع وارض تبلع . لا . فانا من عنصر أعلى لذلك نفسي تصبو اليه . اصلي منه ومرجعي اليه . فانا آله في صورة انسان او انسان في نفس آله

آله ولكن عبد شهواته واسير احتياجاته يرتدي ثوباً كثفت هيولاه . اليها مرجعه ومنها قواه . آله ينحل كالجماد ويتغذى كالنبات ويتألم كالحيوان . فاذا انحل لم يترك غير كثيف المادة واذا اغتذى فلا يغتذي الا منها واذا تحرك فلا يحرك الا فيها وبها . آله يولد وما هو بباق ويموت وما هو بفان . يمثل الفصول في ادوارها . والمادة في اطوارها . ينشأ بذرة كالنبات والحيوان . ينمو مثلهما ويتعاظم مستعيراً عناصر المادة الى ان يهرم . فيرقد في بذرته عائداً من حيث اتى بعد ان يكون قد رد الى الطبيعة ثياباً عارية. واخلاقاً بالية . استعارها منها . ولم يكن له غنى عنها

علم ذلك كله في هبة مرت مر السحاب حطت من كبريائه وكسرت من خيلائه ارتسمت له الحقيقة فيها مجردة عن زخرف الكلام وبهرجة الخيال . في هبة انتعاش هو منتهى الحياة وابتداء الموت كالانتعاش الذي يسبق انطفاء النور . استيقظ فيها كالنائم وقد انتبه. فرأى الحقيقة مرتسمة امامه باحرف نافرة تنفذ الابصار ولا تفوتها العين قرأها ثم رقد . ماذا قرأ . . . وماذا رأى . . . لم يقل

المقالة الثامنة

حول مقالتي (١)

« بحث بسيكولوجي سوسيولوجي او اخلاقي عمراني »

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

كنت جالساً ذات يوم بين فريق من نخبة الادباء فسمعتهم يتحدثون بما جاء في (كتاب مصر الحديثة) من التعريض بدين القرآن وما احدثه ذلك من الثورة في الافكار وما ترتب عليها من المناقشات في الاندية والمجالس والردود في الجرائد. ورأيت مدار بحثهم قائماً على المسائل الخلافية التي لا ينضب البحث فيها ولا تأتي بجدوى غير اثارة الضغائن واحتدام الخصام واشتداد الجدال على امور لا طائل تحتها يظنها الباحث من جوهر الدين وهي عند العاقل ليست منه في شيء. ورأيت ان البحث على هذه الصورة لا يزيد نار الخلاف الا استعاراً ويزيد الانشقاق بين أصحاب الاديان المختلفة ولا يفيد اصحاب الدين الواحد فائدة عمرانية البتة يدخلون البحث بهوى التشيع ويخرجون منه بنار التحمس . وكل يخيل له انه محكم العقل فيما يذهب اليه وانه على هدى وسواه في ضلال مبين وما منهم من يشك فيما يقول ولا يذكر انه انما شب على هذا الدين أو ذاك المذهب كرهاً لا طوعاً طبقاً للحديث النبوي « كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فابواه يهودانه او ينصرانه أو يمجسانه » ولا يخفى ما في هذا الكلام من الحكمة الرائعة والفلسفة العالية وكأني اشرت الى ذلك في كلامي على التربية الاولى وما لها من الاثر الراسخ في الذهن حتى يصير فيه من البداءه التي تفوق طور الروية فلا تقبل تمحيصاً ولا تطيق جدالاً

وكأن الحقيقة بدت لي في غير ما هم فيه يخوضون فرأيت ان في المسألة نظراً دقيقاً وكأنما

(١) نشرت في المؤيد سنة ١٩٠٨ على اثر رد بعضهم على رسالة القرآن والعمران المذكورة آنفاً

الكل عنهُ غافلون فقلت لهم اني لا أرى رأي أحد منكم لا رأي صاحب كتاب (مصر الحديثة) ولا رأى كل منكم على اختلاف منازعكم الدينية فالدين في نظري لا علاقة له رأساً بالعمران من حيث تأثيره في ارتقائه ووقوفه وتقهقره او هو تأثيره واحد فيه لان كل الاديان أصولها واحدة في كل الامم وتصبو الى غاية واحدة اجتماعية وهي اصلاح أمور الانسان في معايشه ولا يؤثر فيهِ الاَّ نزعات رجاله في احكامهِ الفرعية فاذا عملوا بموجب الدين وحكموا العقل في تطبيق هذه الاحكام على مصلحة العمران بحسب روح كل زمان لم يصده ذلك عن الارتقاء . وعزمت على الكتابة في الموضوع لاني قلت في نفسي ان لم يوجه تيار البحث في هذه المسألة الوعرة الى هذه الجهة فانه يستحيل زحزحة الافكار عن مألوفها بالسرعة اللازمة لتحقيق هذه الامنية المنشودة وهي ارتقاء الانسان في العمران . والا فهناك تيار آخر سيله جارف يسير بسرعة البرق سوف يقضي علينا اذا كنا لا ننهض لمقاومتهِ بسرعة تحاكي سرعته وبعدات تحاكي معداته . وأبديت فكري هذا لكثيرين . واكثرهم استصوبوا رأيي . ولكني رأيت بعضهم يشك في النتيجة ومنهم رجل ذو علم وأدب وقف مطرقاً ولم يتكلم وكأني قرأت على وجههِ انه غير واثق من عملي لعلمه بما أنا عليهِ من المبادئ وما انطوى الجمهور عليهِ من الانطباع لفهم الاشياء كل على هواه فيصعب عليَّ ان اخوض لج هذا البحث واخرج منهُ سليماً من دون ان أمس شعائر أصحاب دين في دينهم وهناك الطامة الكبرى . ولما أبديت له ان كلامي سيكون على علاقة الدين بالعمران وهذا لا يستلزم البحث الا في جوهر الاديان وان النزعة العمرانية في هذا الجوهر تكاد تكون واحدة في سائرها حتى الاجتماعية منها وان الاحكام الفرعية في كل دين يلزم ان يرجع فيها الى هذا الجوهر . رأيت كاني اقرأ على وجههِ اكثر من ذلك وهو اعتقاده بان الاسلام ليس في احكامه المرونة اللازمة لتطبيقها على مصلحة العمران فتذكرت عند ذلك اثر تلك النشأة وقلت اذا كان هذا منعوطها في ذي عقل راجح فما بالك في سواه وما قلت قولي هذا الا لاعتقادي بانه ما من دين يجوز ان يقف حائلاً في سبيل الارتقاء اذا حكموا العقل في أحكامه المتعلقة بالمعاملات . ومنهم من نصحني بالعدول لئلا اصادف ما لا احب علماً منهُ بان الناس يذهبون في تأويل كل

أمر مذاهب ويخرجونه كما يشاؤون وكما تشاء أهواؤهم فلا يبعد ان يرموني بغير ما اقصد ويدفعوني الى ما اكره

اما أنا فآفتي — اذا كان ذلك يعد آفة — انه متى بدت لي حقيقة تستهويني حتى لا أعود اضبط نفسي عن ابدائها وعذري في ذلك ان الحقيقة لا يكفي ان تعلم بل يجب ان تقال ايضاً والا بقي الناس في العمى وساؤا مصيراً . وقلت اذا كان الاجتهاد الذي هو ركن من اركان الدين الاسلامي لا يذلل هذه الصعوبات فالذنب ليس على القرآن بل على الرؤساء الذين بيدهم الحل والربط في هذه الاحكام وباب الاجتهاد لا يجوز ان يقفل مهما قال المتقولون من انصار التقهقر ما دام الدين ديناً والعمران عمراناً ولا بد لي كيف كان الامر من نصر القرآن اعجاباً به وبصاحبه وان كنت خارجاً عن دينه فالحقيقة أعم من ان تكون ضالة المؤمن وحده كما يفهمون ونصرها واجب على كل منصف

وكيف لا يحق لي الاعجاب بصاحب هذا الكتاب والناس قد بلغ اعجابهم برجل مثل نابليون الى ان عدّوه من خوارق الطبيعة ولولا ان قلت عاطفة التقى لألّهوه والظاهر ان الناس لا يعظمون الا كل فتاك بهم . والفرق بين الاثنين اجتماعياً كالفرق بين الثريّا والثرى . وهل يقاس بالمصلح الحقيقي رجل سفاح كنابوليون ضحى لمطامعه كل غاية اجتماعية وبنى على انقاض الثورة الفرنساوية الجليلة المبدأ التي هدمها بيده بعد ان استخدمها لمقاصده ملكاً متداعي البنيان لا غاية فيهِ الا فخر الفتح وتأييد المطامع الذاتية وحدها وشاد قانوناً عده الناس آية في المرامي الاجتماعية وما هو كما قلت فيهِ ولو كبر على مريديهِ الا مجموع شبهات وظنون فيما هو كائن وما يكون على ما بين ذلك المصلح ونابوليون من التباين العظيم في روح العصر الذي قام كل منهما فيهِ . وما من أحد يستطيع ان يقدر الضرر الذي أحدثهُ نابليون قدره بتحويله مبدأ الثورة الفرنساوية الى خدمة اغراضهِ وبضربهِ على يد العمران بقانون كان له كالغل في عنقهِ والقيد في رجله حتى اذا مشى مشى بهِ متثاقلاً

وهل ينكر التمدن فضل دين القرآن عليهِ يوم كانت الشعوب المعول عليها في ذلك العهد منغمسة في الترف لاهية بهِ عن العلم فكان الاسلام محيي رفاتهِ وناشر لوائهِ وحافظ

كنوزه ولولاه لربما كان قد قضي على علوم اليونان وآدابهم وفلسفتهم ولا أقول انهُ هو الذي نقلها كلها وانما صانها من ايدي اولئك الذين لو بقوا وشأنهم لعبثوا بها ولم يدعوا شيئاً منها يصل الينا

واعجابي بصاحب الشريعة المحمدية لا يقل عن اعجابي بصاحب الانجيل وما في شريعته من الحض على التساهل وحب الانسان بعضهِ لبعض مما لا يمكن ان يصح بدونهِ عمران ولا فرق بين الشريعتين في جوهرهما اجتماعياً حتى ولا دينياً . كيف لا وقد قال كلاهما انهما أتيا لا لينقضا الناموس بل لا كمال أعمل النبيين قبلهما . ولقد عرف الناس لهما هذا الفضل من الوجهة الدينية فأقاموا لهما المعابد من مساجد وكنائس آثاراً ناطقة بمجدهما ولو انصفهما العمرانيون لاقاموا لهما آثاراً مدنية (عفواً سادتي لا تكفروني لكم دينكم ولي دين) تنطق بمآثرهما الاجتماعية فيعرف جميع الناس على السواء فضلهما وتزول الحوائل من بينهم فيندفعون في العمران مرتقين بدلاً من ان يقوموا فيهِ بعضهم على بعض متخاذلين متقهقرين

و بعد ان وطنت النفس على ذلك قمت وكتبت مقالتي « القرآن والعمران » متكلاً فيها على نفسي حتى اذا كان هناك تبعة تحملها وحدي وقد تخلصت بذلك من تهمتين تهمة التعصب وتهمة التوكل اللتين يرمي البراهمة بهما اتباع الاديان السامية فقد ذكر الدكتور هوج ان البراهمة قالوا له منددين بتعصب النصارى لدينهم واضطهادهم لمخالفيهم « ان هذا التعصب فيهم دليل على ضيق العقل لان العاقل لا يضطهد احداً لدينهِ » ولما أرادوا المفاخرة قالوا له « انتم تجعلون كل اتكالكم على الله واما نحن فلا نتكل الا على انفسنا ودينكم مصدره من شعب من اصل ساميّ وهذا الاصل ادنى من اصلنا وليس عنده فكر فلسفي غير مستعار »

والبراهمة كما في الملل والنحل ينتسبون الى رجل منهم يقال له برهام قد مهد لهم نفي النبوات اصلاً وقرر استحالة ذلك في العقول بوجوه . منها انهُ قال ان الذي يأتي بهِ الرسول اما ان يكون معقولاً واما ان لا يكون معقولاً . فان كان معقولاً فقد كفانا العقل التام بادراكه والوصول اليهِ فاي حاجة الى الرسول . وان لم يكن معقولاً فلا يكون

مقبولاً اذ قبول ما ليس بمعقول خروج عن حد الانسانية ودخول في طور البهيمية

والظاهر اني نجحت في مقالتي اكثر من نجاح البراهمة بالاتكال على أنفسهم . فما انتشرت في المؤيد حتى صادفت استحسان كثيرين من عقلاء الامتين المحمدية والمسيحية بعضهم صرح بذلك على صفحات المؤيد و بعضهم بكتب خصوصية لي وآخرون مشافهة في حديثهم معي . ولما آنست ذلك من الذين يهمهم امر هـذا البحث اكثر من سواهم طلبت منهم ان يؤيدوني بكتاباتهم في الجرائد خدمة لامتهم فاحجموا فعلمت أن الحرية فيهم لم تتجاوز حد الفكر ولم تصل بهم الى القول وخصوصاً النشر كأنهم يخشون سطوة الجمهور اكثر من ربهم واعتذرت عنهم ان ذلك منهم لقلة ثقتهم في هـذا الجمهور خوفاً من شره ولشدة طمعهم برحمة الله ولولا علمي بناموس الافعال المتجمعة وما يترتب عليهِ بعد حين من الافعال العظيمة لقلت اني أخطأت المرمى وان مقالتي جاءت قبل اوانها على ان اثرها مهما كان اليوم قليلاً فسينضج بالاختمار كما يختمر العجين وتنضج الاثمار ويصير مع الزمان شيئاً عظيماً

ولكن مقالتي لم تعدم منتقداً وهذا ما كنت اتوقعهُ لعلمي ان ما من عمل حسناً كان أو رديئاً الا ويجد انصاراً مستحسنين وخصوماً مهجنين فالحسناء لا تعدم ذاماً كما ان الفولة المسوسة تجد كيالها الاعمى فانا لم استغرب قيام بعضهم للردّ عليّ ولا انا ممن يكرهون الانتقاد او يدعون العصمة ولا انا أجهل قول المثل « من ألف فقد استهدف » وانما الذي استغربته صرف كلامي الى غير وجهتهِ وتأويله على غير مفهومه وهو بالحقيقة اجتهاد هنا الى حد الشرود عن المقصود والحق يقال ان أعمال العقل غاية في الغرابة ولولا ذلك لما اختلف الناس في نظرهم الى الشيء الواحد. والى هذه الغرابة افضل أن انسب اختلاف نظر الذين نظروا في كلامي على ما فيه من التعيين الواضح لا الى قصد سيء منهم

ففريق من النصارى زعم اني عرضت بالدين المسيحي ونشر احدهم في جريدة الوطن مقالة أنكر عليَّ فيها استشهادي ببعض آيات الانجيل ناسباً اليَّ وضعها في غير موضعها كأني فهمتها كما يدل عليه ظاهرها غير معتبر المقام الذي وردت فيهِ ولو انصفني لعلم اني ما ذكرتها الا وانا في مقام بيان اظهر فيهِ ما في كتب الدين من كلام الاستعارة والمجاز

الذي يتسع فيـه مجال التخريج والتأويل حثاً على وجوب الاجتهاد في قضايا الدين كلما وجد بينها و بين مصلحة العمران ومصلحة العلم اقل اختلاف لئلا نجني على العمران وعلى الدين نفسه معاً اذا استمسكنا بتلك القضايا استمساكاً اعمى . و بعضهم ألمع الى ما يشم منهُ اني متحيز فيما كتبت لا ناصر حقيقة وهؤلاء هم الذين يقرؤون كل شيء كما هو في باليات قحوفهم . فليعلم الذين لا يدركون معنى ما يكتب او ما يقال اني حتى اليوم ما تحيزت الا لما اعتقدتهُ الصواب فانا لم اكتب ما كتبت الا لاعتقادي انه الحق ولم أجعل لعاقل سبيلاً لان يرميني بتهمة التحيز لدين من الاديان أو لقوم من الاقوام وما قصدت بذلك الا خدمة مصلحة الانسان في العمران

ومنهم من قام يناقشني في المفاضلة بين الدينين وهو خروج عن بحثي كما اوضحت ذلك في ديباجة مقالتي فقام في الرد عليَّ يظهر تحامله على الدين المسيحي وليس في بحثي ما يجعل له اقل مسوغ لان ينحو معي هذا النحو فجذبني من سماء التجرد للكليات الى أرض المشاحنات في الجزئيات ونصبني فيمقام رجل مسيحي أو اقول قوله وأخذ يغرف لي من تلك الالوان ما شاء وشاء سخاؤه وأنا من فضله أصيب حتى امتلأت معدتي وهو أدب رائع . ولا شك أنه انقاد الى ذلك بهوى التشيع وهو يقرأ مقالتي فذهل عن مسلكي فيها ونسي في تحمسه الغاية التي قصدتها منها وقام يضرب على هذا الوتر المضلل والمنفر والذي يرجح عندي ذلك قوله « قرأت مقال فلان (اي مقالتي) الساعة » اراد بذلك انه قرأها في الساعة التي بعث فيهـا برده الى الجريدة فكأنه لم يتروها جيداً فما وصل الى آخرها حتى كان قد نسي اولها حيث أقول

« ليس من غرضي هنا ان اتكلم على الاديان كشرائع موحاة . ولا ان ابين مزية دين على دين ولا ان أدخل غمار البحث في قضايا كل دين لاقرارها او تخريجها الى ما يوافق . بل ان ابين حقيقة علاقة الاديان بالعمران من وجهها الاجتماعي ثم قارنت بين أصول الاديان واتصلت فيها الى نتيجة اجتماعية واحدة و بنيت عليها بحثي

ولعله اراد بذلك ان يجاري اكثر كتابنا فيما اصطلحوا عليه من مثل قولهم « ما حملني على ان اكتب في هـذا الموضوع الأ اشارة من لا تسعني مخالفته فقمت على ما بي من

المشاغل وضيق الوقت وقلة البضاعـة » الى غير ذلك من كلام الكبر في التواضع ليبينوا للناس فضلهم وسرعة خاطرهم . ولو تدبروا الامر جيداً لعدلوا عن مثل هذا الكلام البارد ولعلموا ان الاسراع وعدم التأني لا يقيانهم ملاماً اذا اخطأوا ولا يكسبانهم زيادة فخر اذا اصابوا كما ان التدبر والتردد ليسا دليلاً على العي . وأما انا فالله يشهد والناس يشهدون أني ترددت كثيراً ولولا ان فوجئت من كل جهة ولولا خوفي ان ينصرف الجمهور بذلك عن فهم مقالتي على حقيقتها لما عمدت الى الرد واضطررت الى هذا البيان

واقد اعجبني قول احد افاضل المسلمين في انتقاده على منتقدي اذ قال« لو قال قوله هذا في مقال وجهه الى سواك لربما كان له فيه وجه أما وقد قاله في وجهك فما وجهه فيهِ وأنت تدافع عن دينهِ » قلت لعله كبر عليه اني جعلت اصول دينه كأصول سواه فاعتبرني شر نصير . فدفع اليَّ كتاباً كان قد جاءني بهِ وقال خذ اقرأ فقرأت

« اعلم ان دين الله في كل الامم واحـد لا تختلف اصوله باختلاف الامم وأحوالها وأزمانها وامكنتها وانما الذي يختلف باختلاف ذلك هي الاحكام الفرعية . وذكر الآية : « إنا أوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين الخ »(١)

والذي حملني على هذا الظن ذكره دين البراهمة في هذا المعرض وهو لا ينظر الى النصرانية باحسن من نظره اليه فهو يأبى ان يسلم بان اصول دينه كاصول دين سواه فاعلم يا صاحبي قبلت ام لم تقبل ان اصول الاديان المختصة بالعمران واحدة حتى في الاديان الاجتماعية . قلت الاديان الاجتماعية لانه يوجد دين يجوز ان يسمى كذلك ليس فيه شيء مما هو مصطلح عليه في سائر الاديان واساسه الادب والانسانيـة وبعبارة اخرى الفضيـلة وهو دين بوذا الذي هو اكثر الاديان انتشاراً بعد دين المسيح فان البوذيين يبلغون ٤٥٠ مليوناً والمسيحيين ٤٧٥ مليوناً

وهذه شذرة من تعاليم هـذا الدين تنبئك عن اصوله جاء في الملل والنحل قال « ودون مرتبة البد (أي بوذا) البوديسعية ومعناه الانسان الطالب سبيل الحق وانما يصل الى تلك المرتبة بالصبر والعطية و بالرغبة فيما يجب ان يرغب فيه و بالامتناع والتخلي عن

(١) من كتاب الاسلام دين الفطرة للشيخ عبد العزيز شاويش

الدنيا والاعراض عن شهواتها ولذاتها والعفة عن محارمها والرحمة على جميع الخلق والاجتناب عن الذنوب العشرة . قتل كل ذي روح . واستحلال اموال الناس . والزنا . والكذب . والنميمة . والبذاء . والشتم . وشناعة الالقاب . والسفه . والجحد لجزاء الآخرة انتهى وهي كما ترى اشبه شيء بالوصايا العشر عند النصارى

ولم تقتصر الاديان على اخذ الفضائل عن بعضها مما يعد من اصول الدين بل اخذت أيضاً بعض العقائد الدخيلة على الدين . فالبراهمة وهم اصحاب الفكرة كما يقول الشهرستاني لتمييزهم عن البوذيين اصحاب المحسوس يعظمون امر الفكر ويقولون هو المتوسط بين المحسوس والمعقول فالصور من المحسوسات ترد عليه والحقائق من المعقولات ترد عليه ايضاً فهو مورد العلمين من العالمين فيجتهدون كل الجهد حتى يصرفوا الوهم والفكر عن المحسوسات بالرياضة البليغة والاجتهادات المجتهدة حتى اذا تجرد الفكر عن هذا العالم تجلى له ذلك العالم فربما يخبر عن مغيبات الاحوال وربما يقوى على حبس الامطار وربما يوقع الوهم على رجل حي فيقتله في الحال ولهذا كانت عادتهم اذا دهمهم أمر ان يجتمع اربعون رجلاً من المهذبين المخلصين المتفقين على رأي واحد في الاصابة فيتجلى لهم المهم الذي يهضمهم حمله ويندفع عنهم البلاء الملم الذي يكأدهم ثقله . انتهى . ألا ترى ان ذلك يشبه التصوف وحلقة الذكر الدخيلة على الاسلام

ولم ينتشر هذا الرد في المؤيد حتى قال بعضهم لمن كان معهُ حين اطلاعه عليه (قل للشميل انه يستأهل (وكأن اقل ما اراد بذلك اني وان كنت قد نظرت الى الحقيقة فلم أنظر الى طبائع القوم واستعدادهم وقال غيره (جدح جوين من سويق غيره) . يريد اني جنيت هذه الجناية على الدين المسيحي فكأني جدت من مال غير مالي فخاف على نصيبه منه ولا مسوغ له على هذا الخوف مني عليه

فكان حضرة الفاضل كامل السويفي لم يكتفِ باني جعلت مدار بحثي على اصول الاديان متجنباً البحث في الوحي والمفاضلة بين دين ودين والكلام على قضايا كل دين حتى يمكني التوفيق بين جوهر الاديان ومصلحة العمران كما قلت في اول مقالتي بل اراد ان يجرني للبحث معه في طبائع الاديان وحقائقها وان يلبسني اما قلنسوة راهب واما عمامة

شيخ (مليح بعد هالكبره جبة حمرا) . ولو جاريته للزمني ان اجول معه جولة في قضايا كل دين وان نغرق كلانا والجمهور معنا في هذا البحر اللاّ قرار له الذي هو علم اللاهوت وعلم الكلام (ولقد انصف العرب بتسميته بهذا الاسم) وهـذا ما لم تصبُ نفسي اليه حتى اليوم . فلا نعلم حينئذٍ من اي مضيق نركب ولا في اي لج نخوض ولا على اي شط نحط ونقع في تيه نفقد معهُ خيط اربانا . وهذا ليس محله في هذا المقام مقام تمهيد العقبات الحائلة بين تقارب الامم وبينهم وبين ارتقائهم في العمران واني لاشكر لحضرة العالم المتبحر الفاضل الجيزاوي لانهُ كفاني الخوض في هذا البحث فأظهر جلياً بمقالته البديعة التي نشرت في المؤيد ما يصح ان يعتبر في الخلاف بين الدينين فصل الخطاب في هذا الباب عند ذوي الالباب

وأما استشهاده بمن ذكرهم من كبار الكتاب الاوروباويين ليثبت ان النصرانية أضرت بالاجتماع في اوروبا فقد قلناه في مقالتنا الاولى ولكننا لم نعتبر هـذا الضرر من جوهر الدين بل من الرؤساء من رجال الدين والحكام كما اننا لم نعتبر تقهقر الامم الاسلامية الاّ لهذا السبب عينهِ . واعتبرنا نهوض النصرانية وارتقاءها هذا الارتقاء الباهر انما هو لنبذها العقائد التي أدخلوها على الدين وليست من جوهره حتى صار الدين عند القسم الكبير المتنور منهم عنـد المؤمن صلة القلب الى الله كما في قول شاعرنا الاديب نقولا أفندي رزق الله

انما الدين موعد واتفاق بين هذا الورى ورب البرية

وحتى صار عند غير المؤمن موضوع بحث اجتماعي بالنظر الى ما في مبادئه الاجتماعية من الموافقة للعمران وكثيرون يعجبون بهذه الموافقة فلا يجعلون البحث في حقائق الاديان سبباً للمنازعات الاجتماعية العقيمة تاركين لكل واحـد الحرية في ان يعبد ربه كما يريد ناظرين فيها الى تلك المبادىء العمرانية التي تجعل مصلحة الانسان القريبة في دنياه اشتراكية بين افراده وأي دين لا يعلّم ذلك وهذا الذي نظرنا اليه في أصول الاديان فعظمناها تعظيماً لم يفقنا فيهِ باحث ديني مهما كان متحمساً في ايمانه فهل يجوز بعد ذلك أن ينحى علينا باننا غضضنا من دين لنصر آخر

على ان العمراني الذي يريد ان يجعل بحثه في العمران لتطبيق نواميسه على قول فلان وفلان او دين من الاديان انما مثله كمثل الذي يحاول ان يطبق المطبوع على الموضوع فيتسامح بما لا يجب ان يتسامح بهِ من المطبوع و يستمسك بما لا يجب ان يستمسك بهِ من كل موضوع ومشروع فيركب متن الضلال و يهيم في فيافي الخيال فينطق بما لا يفهمهُ سواه ولا يفهمه هو نفسه ويحسب انه أتى ببدائع الاعجاز في الاستعارة والمجاز فيجني على ذلك المشروع من حيث يظن انه يخدمه ويجني على العمران نفسه

أما نحن فننظر الى العمران ومرشدنا في نواميسه ذلك الكتاب البسيط المفتوح امام كل انسان والذي يستطيع ان يفهمهُ كل واحد اذا قرأه بامعان ألا وهو كتاب الطبيعة الذي هو اساس كل قياس صحيح اي اساس كل منطق سليم وبيان

على اني لا اعلم . كيف ان الدين الذي فيه مثل هاتين الآيتين :

حب قريبك كنفسك وحب الله فوق كل شيء — وكما تريدون ان يفعل الناس بكم افعلوا انتم ايضاً بهم » الجامعتين فيهما كل واجبات الانسان نحو ربه ونحو قريبه يجوز ان يقال فيهِ مثل قول اديبنا السويفي من انه دين شرك بالله ودين خراب في الدنيا ولا اناقشهُ في اللاهوت . ولعل له في علم الاقتصاد نظراً جديداً يخالف قولهم « الانسان مدني بالطبع » ويعلمنا ان « التكافل في العمران غير التكافؤ في قواه » فتعمر حينئذٍ الدنيا عنده بالتفريق والتخاذل والاكتفاء والانفراد والاستئثار فيتألف المجتمع بانفراط عقده — وما هي الاَّ لآلىء منثورة — ويتقدم تقدماً سرطانياً متبارياً في مشي القهقرى حتى يبلغ ما بلغنا اليه في هيئتنا الحاضرة من الارتقاء الدركي (وان شئت الا الموضة اليوم فالرقي) الذي صارت سماؤنا فيه كسماء خيل المعرّي وهي تعبٌ وصارت عقولنا فيهِ اضيق من دوائر جماجمنا ومرامي نظرنا اقرب من ارانب انوفنا منا . وهل قارىء كتب مثل هؤلاء الاساطين في العلم والادب والفلسفة الذين ذكرنا اسماءهم يجوز له — مع كل سعة هذا الاطلاع — ان يقف في فهم كلامهم على مثل هذا الاكتفاء وما هو لعمري لو درى الا مثل اكتفاء القارىء في قوله « ويل للمصلين » على ان غرضنا هنا ليس هذا فما باله يدفعنا للنظر في حقيقة الاديان والمفاضلة بينها ولم نقصد في كل ما كتبنا الا مصلحة

العمران بالتوفيق بينها و بين اصول الاديان بما ترآى من الامكان وهل في مقالتنا الاولى غير ذلك حتى يقوم علينا المسيحيون يتهموننا في اننا تعرضنا للدين المسيحي والمسلمون يناقشوننا في المفاضلة بين الدينين انها لمصيبة

وقبل ان ننتهي من هذا البحث أريد ان اجاري حضرتهُ مجاراة كلية للوصول الى النتيجة المترتبة على كلامه والتي وقف عندها فانا اسلم له جدلاً « بأن العالم المسيحي كما يقول لم يرتقِ الا بعد احتكاكه بالعرب وان المسيحية عثرة في سبيل الارتقاء وان الاسلام هو موجد هـذه المدنية الباهرة » فقط يبقى عليه ان يقول لنا لماذا اذاً اتباع النصرانية ساروا في مضمار التمدن شوطاً بعيداً واتباع الاسلام وقفوا متقهقرين؟ فان قال ان الاسباب اجتماعية عدنا الى حيث افترقنا وكنت مصيباً ولعله لا يقول غير هـذا القول لئلا يجني حينئذٍ جنايتين على العمران وعلى الدين نفسه . ام هو يريد بهذه المغالطات التمويه حتى يبقى حجاب الجهل مسدولاً على عقول الناس ليبقوا كما في قوله « صم بكم عمي فهم لا يرجعون » اما نحن فنميل الى ما هو ادعى لمصلحة العمران من مثل قوله : ما جعل عليكم في الدين من حرج . يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر . وهذا ينطبق كل الانطباق على ما رمينا اليه في مقالتنا الاولى اثارة للاذهان لكي يعلم الجميع على السواء « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

*
* *

ننشر هنا المقالة التى اشرنا اليها في هذا الرد والتي نشرت في المؤيد بتاريخ ٣٠ مارس سنة ١٩٠٨ دعماً لمقالتنا ولو انها ليست لنا لما فيها من الفائدة في هذا الموضوع حسما لهذه المسائل الخلافية التي يتذرع بها المتنطعون في الاديان لاثارة الفتن بينهم . وقد نشرت بتوقيع « محمد صادق الجيزاوي » وهو في علمنا اسم مستعار ولولا اننا لم نستأذن صاحبها لصرحنا باسمه الحقيقي وهو من خيرة علماء المسلمين وافاضلهم . وهذا نص هذه المقالة مع بعض حذف

كلما خمدت زادوها سعيراً

من أجل كرومر قامت في هذه الايام ضجة دينية بين المسلمين والنصارى في هذه البلاد . فالمسلمون قد فرحوا اذ ظنوا انهم قد فازوا على كرومر بقولهم كما قال وصولتهم في التبشير والتنفير كما صال . والنصارى لم يجدوا من الذوق ان يجادلوا في بعض ما سمعوه

عن دينهم لعلمهم بأن كرومر تخطى الحدود وأتي بما لا ينتظر من مثله فأحرج صدور اخوانهم

ولكن احرجت هذه الضجة أيضاً صدور الذين يعتقدون ان الارتقاء انما هو بتربية العقول ومزاولة الشؤون الاجتماعية باستقلال افكار وان الديانات كلها سواء من جهة انها لا تضر بالاجتماع اذا كانت عقول اهلها مرتقية كما انها لا تنفع فيه اذا كانت عقول جماعاتها متدنية وشاهدهم على ذلك ان اهل دين واحد ارتقوا يوماً وانحطوا يوماً والاعتقاد لم يفارق قلوبهم والعبادة لم تبرح معابدهم و بيوتهم

هؤلاء قوم يحسنون الظن بالديانات ولا يرونها عوائق عن التقدم والتمدن وانما يرون أن تشيع اهل كل دين منها وتحاملهم على دين الآخرين قد احدث ويحدث فظائع من نتائج البغضاء والنفور فيودون لو ينتهي هذا التحامل والتجادل في الدين ويقولون اذا لم يمكن قطع حبال هذا الجدال فلا ينبغي ان تبقى منصوبة الا بأيدي فريق مخصرص لا يُمد بشيء البتة من القوى المادية فتتنازل الاقوال والاقوال وتنتهي على لا شيء الاحوال لانه لم يعهد ان الجدال افاد في تغيير المذاهب وانما تغيرها اسباب اخرى لسنا في صدد تفصيلها

ومن عرف الدكتور شبلي شميل كان ذلك حسبه ان يعرف مقصدهُ من المقالة التي كتبها في هذا الصدد ونشرها في المؤيد اي يعرف انه يرمي الى تفنيد الجدل والحث على خير العمل أما من لم يعرفهُ فربما ظن انه مسيحي كتب ينتصر لدينه بطريقة حبية

***

كان من جملة الذين لم يعرفوا هذا الحكيم ولا قصده حضرة الكاتب محمد كامل السويفي الذي نشر يوم الخميس رداً على الدكتور فتذكرنا اذ قرأناه ان كرومر بتصديه للمفاضلة بين الدينين انما كان موقد نار . وان قومنا كلما خمدت هذه النار زادوها سعيراً . فان بعض الذين يكتبون الردود في هذا الموضوع يقابلون كرومر بمثل ما صنع وينسون انه ليس من الضروري اذا اخطأ سليم مثلاً بشتم ملة جرجس أن يخطيء جرجس بشتم ملة سليم وينسون ان للدين المسيحي اهلاً هم اخواننا في لساننا ووطننا تغيظهم لوائح التحامل على دينهم وروائح تفضيل غيره عليه

ولولا ان كان قبيحاً عدم وجود من يدعو بيننا الى اسباب الوئام وينكر عليَّ اسباب الخصام بقدر الامكان لما وجدنا من اللائق ان نأتي ما تكره من الخوض والمماحكة في هذه المسائل ولكن تلك الضرورة من الدعوة الى الوئام هي التي حملتنا على تذكير حضرة الاديب كامل السويفي ببعض كلمات

⁂

رأيت في كلام حضرته مواضع كثيرة جديرة بالاخذ والرد معهُ ولكن ليس هذا من مقاصدنا ولا ندخل فيه وانما نقتصر هنا على سبعة مواضع قد رأينا التذكير فيها اوجب والحاجة الى الايضاح فيها أمسّ وادعى . جاء في عرض كلام الدكتور ما يفيد ان الدين المسيحي دين توحيد كالدين الاسلامي فانكر صاحب الرد وقال ان دين النصارى دين تعديد لا دين توحيد فاعلم ايها الاديب ان النصراني يبتدىء عقيدته بقوله « اؤمن باله واحد الخ » فالاله واحد عندهم كما هو عندنا وأما ما نسمعه في صفات المسيح ابن مريم فانها فلسفة لا نعرفها نحن ولا يعرفونها هم وقد حملهم عليها بعض النصوص التي هي عندهم مقدسة وكل دين لا يخلو من امور تحمل اهله على فلسفة كان في غنى عنها لولاها

وقد جهل اكثر كتاب المسلمين عقيدة النصارى في الاله الواحد الذي ليس بمادة كما جهل اكثر كتاب النصارى عقيدة المسلمين ولكن لظهور الصعوبة في فلسفة العقيدة النصرانية يقول النصارى ان في الدين شيئاً هو فوق العقل ويعدون ذلك من مفاخرهم في تدينهم فيظن المسلم انهم يريدون بقولهم فوق العقل انهُ غير معقول وليس هذا هو المراد بل المراد ان العقل لا يكاد يدركه وكان مثل هذا القول شائعاً ومعروفاً عند المسلمين أيضاً ولكن بعض كتابهم في هذه الايام الجديدة قاموا ينادون بأن الدين الاسلامي وحده دين العقل ويفسرونه بان العقل يدرك كل شيء فيه ولسنا ندري كيف يدرك العقل امور العالم الغيبي مثل انهار اللبن والعسل التي في الجنة ومثل عالم الارواح المجردة وعالم الملائكة ولا نعرف كيف يستطيع اولئك العقلاء تفسير النار التي رآها موسى فلما أتاها نودي يا موسى اني انا الله فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى . اي عقل يدرك حقيقة هذا النداء الذي سمعهُ موسى فخر صعقاً ، واي عقل يدرك حقيقة نفخ الله في فرج

مريم كما جاء في القرآن المجيد بنص هذه الآية «ومريم ابنة عمران التي احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا »

النصراني يقول الاله واحد كما يقول المسلم ثم يقول النصراني ان عيسى كلمة الله وروح الله وهكذا يقول المسلم ايضاً والنصراني يقول ان مريم عذراء حملت بعيسى الذي هو روح الله وكلمة الله من غير ان يمسها بشر وهكذا يقول المسلم أيضاً فانا اسأل اخواني المسلمين ان يبينوا لي الفرق اولاً بين هذه التعابير وان يفهموها جيداً قبل ان يجادلوا النصارى على التعبير بالآب والابن والروح القدس وقبل ان يسألوا عن الفلسفة التي تبين ان هذه الكلمات الثلاث تدل على حقيقة واحدة ظهرت في ثلاثة مظاهر . وما نار موسى عن القاري ببعيد

اني لاعلم ان هذا المبحث سيستغرب به اخواني المسلمون وربما جلب فيّ الظنون ولكني لا ابالي بظنونهم في سبيل حقيقة مهمة اكره ان يجهلها اخواني وان يجهلها النصارى أيضاً وهي ان ديني الفريقين مبني على الايمان بالغيب [١] وعلى تصديق الرسل [٢] بما جاؤوا بهِ من اخبار الملائكة والشياطين والجن واول الخليقة وخبر آدم وأخبار رسل الله وكتبه [٣] التي بعثها اليهم والغرائب التي حدثت باذن الله نحو ولادة عيسى ثم صفات الله الذي ليس بمادة مثل انه متكلم وقد كلم موسى وسميع يسمع الذي يدعوه و بصير يكره كشف عورة الانسان في خلوته لانه يراها ثم صفات الجنة موعد المتقين وما فيها من العنب والرمان والنساء الحسان والولدان وصفات النار موعد الكافرين وما فيها من آلات العذاب وصنوف العقاب ابد الآبدين ودهر الداهرين على جرم هو عدم تصديق الانسان بما لم يدركه عقله

فيا اخا العقل ومن يريد كل شيء من الدين بالعقل اياك ثم اياك من الوقوف في

(١) ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين • الذين يؤمنون بالغيب • ويقيمون الصلوة ومما رزقناهم ينفقون (٢) والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالاخرة هم يوقنون • (الاية) (٣) قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما اوتي موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون (الاية)

العالم الغيبي مع العقل . اذا كنت ترجو تلك الجنان وتخشى تلك النيران فان كنت لا ترجو ولا تخشى ما هنالك فاياك ثم اياك ان تدعي الدين فانك كاذب بشهادة أهل كل الملل اجمعين . ها قد ابلغتك الحقيقة والله يعلم اني لك من الناصحين

فاذا علمت ذلك يا صاحب العقل من المسلمين فاعلم ان المسيحي يسلم الى الله في ايمانهِ بعالم الغيب تصديقاً لمتى ومرقس ويوحنا وبولس . واذا علمت ذلك يا صاحب العقل من النصارى فاعلم ان المسلم يسلم الى الله في ايمانه بعالم الغيب تصديقاً لمحمد صلى الله عليهِ وسلم واذا علمتما انه لم يسلم احدكما في هذين الايمانين المتشابهين بمجرد عقله فاعترفا بانكما متشابهان في سبب الايمان وتصالحا فانكما في هذا الباب اخوان

وأزيدك ايها المسلم بياناً في ان النصراني يؤمن باله واحد فاقول ان القرآن المجيد لم يسم النصارى مشركين كما لا يخفى بل سماهم اهل كتاب واجاز أكل ذبائحهم والتزوج بنسائهم ولم يجز هذا ولا هذا في الذين سماهم مشركين وقد اشتبه الامر على بعض العلماء من الاقدمين فسأل عالماً آخر كيف لا يكون النصراني مشركاً وهو يقول ان الله ثالث ثلاثة فقال له ان الله الذي لم يسمه مشركاً أعلم مني ومنك

هذا ما رأيتهُ واجباً من بعد ان رأيت وسمعت كلمات القاصرين في هذه المباحث العميقة لدى المؤمنين بالغيب والعقيمة لدى الذين لا يريدون الا ما يشهد بهِ الحس أو العقل بسهولة فان اقنع ونفع فنعما ذاك والا فليتجادل القوم ما شاؤا ان يتجادلوا حتى تطلع الشمس من مغربها أليس كذلك ؟

***

وجاء في عرض كلام الدكتور انه جعل الاديان بمثابة واحدة من حيث علاقتها بالعمران وتأثيرها في الاجتماع فانكر ذلك عليه صاحب الرد . وقد طال المقال فضاق المقام عن الاسهاب في هذا الموضوع فلذا اكتفي بكلمة واحدة وهي ان صاحبنا يسلم معنا ومع الدكتور بأن ديننا الاسلامي لا ينافي العمران فافرض انك لا ترى ديناً آخر له هذه المزية وان ديانات الاقوام الآخرين قد خربت ديارهم وقطعت نسلهم فلذلك لم يبقَ في الصين من نسمة ولا حجر على حجر ولم يبقَ في اوربا واميركا من ديار ولا

نافخ نار فما الذي يضرك اذا كان دليلك الحس ودليله الخيال ان تجامل من حولك من الذين يتدينون بالنصرانية اخوانك في الوطن واللسان اللذين لم يبقَ لهم من اخوان في الدين الاّ اربعمائة وخمسون مليوناً فقط ! نعم اقول لك ما الذي يضرك اذا لم تفاجيء القوم جيرانك بأن ليس بيدهم الا دين يخرب الديار ويفني البشر !

***

بقي شيء واحد مما احببت الكلام فيهِ وهو انه جاء في عرض كلام الدكتور ان الزواج والطلاق ليسا في الاسلام والنصرانية من المسائل التي يقيد بها الاجتماع وقد قال صاحب الرد بان ذلك صحيح في الاسلام دون المسيحية ولولا انني ما وصلت الى هذا المقام حتى مللت لشدة كراهتي الجدل في الدين لاسهبت في هذا الموضوع ايضاً ولكني اعدل عن ذلك الى توجيه نظر الكاتب الى كتاب الوجود ففيه صحائف الامم وهناك يجدان لاجتماعها سنناً قد راعتها الديانات كلها فالمسيحية جاءت في هذه الابواب بوعظ ونصائح ولم تجيء بشرع حاتم يجب تأييده على الملك والحاكم فهذا سر اختلاف طوائفهم في هذه الابواب قديماً وحديثاً فمن تمسك بهذه النصائح من ملوكهم وشعوبهم بنوا عليها قوانينهم في هذه المسائل ومن رأى مندوحة في تفسيرها وتأويلها وجواز مخالفتها اجتماعياً تراهم توسعوا فيها على قدر ما آنسوا ان العادات تساعدهم . وبهذا البيان تعرف صحة قول الدكتور

وبعد فانني قد عملت ما عليَّ من الارشاد الى وجوب التفاهم وآداب المناظرة ومراعاة الاوقات فيها وارجو بعد ذلك امرين . الاول من حضرات الكتاب المسلمين ارجوهم اذا مدحوا دينهم ان لا يذموا دين غيرهم . والثاني من حضرات الادباء المسيحيين ارجوهم ان لا يظنوا الدين الاسلامي هو الذي يأمر بذم غيره من الديانات بل هو يأمر بالحكمة والموعظة الحسنة . انتهى ببعض اختصار

المقالة التاسعة

رأى وقال (١)

كل شيء في الكون سلسلة : العالم المادي والعالم المعنوي على حد سوى . وكما نشأت الاحياء الراقية من احياء ادنى وهي من مواد الطبيعة هكذا نشأت الاديان من الاعتقادات وهذه من الخرافات وهذه من قلة تعرُّف الانسان لظواهر الاشياء التي حوله وتوهمه فيها

آيات بينات . وحقائق باهرات . ضلالٌ استمسك بهِ الناس كأنه العروة الوثقى كل حزب بما لديهم فرحون . وهدى اذا ذكروه فانما هم يهمسون

اناس يجوعون ويعطشون ويموتون . نظروا الى ما حولهم واذا الارض تخرج لهم ما يأكلون مريئاً ويشربون هنيئاً . فقالوا أُمنا ارحمينا ولا تحبسي عنا قوتاً يغذّينا وماء يروينا . وارتفعوا الى ما فوق واذا البرق يكاد يخطف ابصارهم والرعد يصم اذانهم فانخلعت قلوبهم من هول ما يبصرون ويسمعون . فاغمضوا جفونهم وجعلوا اصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت وخروا خاشعين

اوهامٌ اصلها احلام . تطوف بالناس وهم نيام . فينتقلون وهم في مكانهم مقيمون. فقالوا الانسان اثنان . جسمٌ مقيم . وروحٌ يهيم . يفارق ثم يعود. ولا ينفك الا اذا حل الموت الزؤام . فينطلق في منفسح الوجود . يذكر المعاهد والعهود . وما ذلك الأ ذكرى ما كانوا يعلمون لو كانوا يفقهون

رأى الاوائل انهم يرقدون ثم يستيقظون . ويغمى عليهم ثم يفيقون . وقد يدفنون كاموات فيقومون . فداخلهم ان الموت رقدة ثم يبعثون بعثاً تحيا به اجسادهم وتعود اليها ارواحهم . ذلك خير لهم من موت يكرهون . فدفنوا معهم كل ما كانوا يحتاجون اليهِ في الحياة الدنيا من طعام وشراب ولباس ومتاع وسلاح بهِ عن حياضهم يذودون .

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨

وعبيداً يخدمونهم في الحياة الاخرى واعدوا لهم البلايا رؤوسهـا في الولايا يركبونها يوم يحشرون

من الناس القوم الاشرار . ومنهم القوم الاخيار . فانتشرت ارواحهم في الارض كل يعمل على شاكلته . فخافوا الارواح الشريرة ولاذوا بالارواح الصالحة يتعوذون بكل ملك كريم من كل شيطان رجيم

اباءنا كنا بررة وانتم احيـاء . وما نعقكم امواتاً . فما نحرمكم من كل ما كنتم بهِ تتمتعون . فقد اعددنا لكم طعاماً مما كنتم تأكلون . وشراباً مما كنتم تشربون . وزودناكم كل ما كنتم اليه تحتاجون . وحنطنا اجسادكم تحنيطاً واعددنا لها القبور . لتحفظ الى يوم النشور . وقد زيناها بالزهور . لعلكم عنا ترضون وايانا تذكرون

ذكرى لم يكن يقصد بهـا سوى الاكرام . ثم استرضاء خوفاً من زوال منفعة ثم تجسم الوهم حتى ضاع الرشد في هوى حب النفس فقاموا يعبدون ما يجدون

حيواناً يجاور القبور . او نباتاً ينبت على هذا المكان المأنوس والمهجور . قد يتعالى وتنزل اصوله الى باطن القبر المعمور . فلعل روح الحبيب. انتقلت الى هذا الجار القريب. وما كانوا الا واهمين في ما كانوا يزعمون

تناسخٌ تمسخ بهِ ارواح الاشرار . وتترقى بهِ ارواح الاخيار . خالط الناس فيه جميع اصناف الكائنات . حتى اختلط عليهم أبشر ما يرون في صورة حيوان وجماد ونبات . وباتوا في امورهم حيارى لا يدرون

وهموا ان الحياة الاخرى كالحياة الدنيا. مساكن الموتى فيها انما هي مساكن الاحياء او هي قريبة منها عنها يرحلون . وعليهـا يترددون . ثم لمع نور ضئيل في ظلمات الاوهام فابعدوها الى الغابات والحراج فالبراري فالجبال الشاهقة حيث صارت اقرب الى الغيوم والارتفاع منها الى السماء. بعد ان كانوا قد هبطوا بها الى اعماق الجحيم . قبل ان استقلَّ بهِ الشياطين وفصلوه عن النعيم . فاكرموها في الحيوان والاشجار فالحجار فالقفار . حتى وقفت بهم الآمال . على اعالي الجبال . لما رأوا فيها من المهابة والجلال . وهم يهيمون في في ما راحوا عنهُ يبحثون

عبدوا اباً كريماً . او ملكاً عاتياً او حليماً . او حيواناً نافعاً او شريراً . او شجرة في العراء . يستظلّ بها من الرمضاء . او بئراً يردونها في الصحراء . او حجراً اسود سقط من العلاء . او نهراً يروي رياضهم . او ناراً يصطلون بها . او طبائع تميل اليها شهواتهم . باتوا في سبيلها متهالكين . عبدوا ذلك كله دفعاً لمكروه . واستجلاباً لمنفعة . معبودات تعدادها تعداد الكائنات. فانواع المنافع فاصناف القوات. وما كانوا الا اوهامهم يعبدون

احتجبت عنهم آلهتهم فقالوا صعدت الى السماء . فقصدوا الجبال الشاهقة يناجونها منها . فبرزت لهم الشموس الساطعة . والكواكب اللامعة . فانبهرت ابصارهم من جمالها وهم اليها ينظرون . فقالوا ان هي الا آلهتنا او مساكن آلهتنا نعبدها او نعبدها فيها . وما كان اباؤنا على هدى في ما كانوا يعبدون (١)

غابت عنهم معبوداتهم فطلبوها من عالم الغيب الى عالم الشهادة. فاقاموا لها التماثيل والانصاب يذكرونها بها في المصائب. ومازجتها الاوهام . فنحتوا منها الاصنام. يقصدونها في المهمات . ويستنجدونها في الملمات . لقد ضلوا في ما كانوا يقصدون ويستنجدون

وقفوا عند ذلك زماناً طويلاً . الوف السنين تعدُّ فيه كأمس الدابر . والافكار في اضطراب وحيرة . والاعتقادات متناقضة غير متوافقة . مقطوعة موصولة غير متناسقة . والعالم ميدان ترمح فيهِ الارواح والاشباح . والصور المريعة والخيالات الشنيعة . فانفتح الباب واسعاً للسحر والسحرة والشعوذة والمشعوذين والرقي والطلاسم . كلٌّ يجد في ذلك مصلحة له : المضلّلون والمضلّلون . اما هؤلاء فاهل مكرٍ . واما الاولون فاغبياء . هؤلاء ليسوا على هدى من علمهم وما كان اولئك بمخطئين

آلهة يرضون ويغضبون . ويحبون ويكرهون . ويعشقون ويتزوجون . ويولدون ويلدون . ويتحالفون ويتحاربون . يسكنون الجبال . ويتردّدون على الغياض . ولهم مواقع تذكر مع البشر يهيجون البحار . ويثيرون الرياح ويحبسون الامطار . ينزلون الى

---

(١) فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما افل قال لا احب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما افل قال لئن لم يهدني ربي لاكوننّ من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي فلما افلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون

اعماق الجحيم . في طلب نفس صديق لهم من الناس ويصعدون بها الى النعيم . آلهة صوّرهم الناس على صورتهم وبكل ما هم اليه يميلون . وجعلوهم نظيرهم طوائف ومراتب بعضهم فوق بعض ولهم رئيس عظيم له يخضعون. واليه يرجعون. ذلك والناس في ضلالهم يعمهون . واذا بصوت زاجر خرج من وسط هذه الظلمات ونطق بهذه الكلمات [١]

أربًا واحداً ام الف رب   ادين اذا تقسمت الامورُ
تركتَ اللاتَ والعزّى جميعاً   كذلك يفعل الرجل البصيرُ

ذلك كان نشوء الانسان في الاوهام . قبل مجيء الثلاثة العظام . موسى اليهودية وعيسى النصرانية ومحمد الاسلام

المقالة العاشرة

كشكول طبيب [٢]

اودع هذا الكشكول كلما يدور في الخاطر من منظور وغير منظور ومنقول ومعقول غير متعمد ترتيباً او ضامن صواباً او متكلف عناء لانتقاء الالفاظ او الابداع في المعاني أو التأنق في الانشاء غير فاتح كتاباً او مسهد جفناً او جاهد فكراً او مختلس وقتاً [٣] او مصلح خطأً او متوخ حقيقة مدفوعاً الى الورق عن غير قصد ماداً ساعدي الى الدواة عن غير جهد وممسكاً القلم بيدي عن غير سابق علم بما اخط محققاً ما يؤثر عن العلماء والعلماء كالشعراء قد يصدقون وقد لا يصدقون من ان الوظيفة تكوّن العضو فقد روي عن كثيرين من الكتاب انهم لا يستطيعون ابداء فكر او انشاء سطر ولا يعرفون ماذا يكتبون ولعلي واحد منهم — حتى يمسكوا القلم بيدهم فيقبضون عليه وهو مثل كقناة مهدي السودان فاذا هزوه

(١) اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً وما انا من المشركين

(٢) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨ على اثر مشروع القيصر في نزع السلاح وعلى اثر موقعة ام درمان وانتصار كتشنر سردار الجيش المصري (٣) مخالفة للعادة القبيحة المشهورة

على القرطاس اصبح كأنه سيف بطل ام درمان الذي اثبت للناس حقيقة كبرى طبَّل العالم لها وزمر ألا وهي ان الحضارة ارقى من البداوة والعلم افضل من الجهل وان الرجل المدجج بالسلاح اقوى من الاعزل فاسترد عن مقدرة ما اضاعوه لا عن عجز وانما هي المصلحة تؤتى من ابوابها

وقد ذكر اناس تغلب عليهم الشراسة اذا حملوا العصا ويبالغون في الكياسة اذا لبسوا القفاز ولعل هذا هو السبب الذي لاجله لم احمل عصا في عمري وانا اكره لبس القفاز لا لاني اريد ان ابقى بين السكّر والحنظل

لا تكن سكراً فتأكلك النا   س ولا حنظلاً تذاق فترمى (١)

بل لاني اعتقد فيه عدم الصحة واقل اضراره حبس اليد وحبس البخار الجلدي وانا اكره كل تقييد . ولعل هذا الذي حمل القيصر ايضاً على اصدار منشوره طالباً نزع السلاح يريد بذلك ان يعجل مجيء الدور الثالث من ادوار حكم العالم اذ يؤثر عن اهل التثليث انهم يعتقدون ان العالم حكمه اولاً الاب بالجبروت ثم الابن باللين وسيأتي عصر يحكم فيه الروح القدس بالرحمة

أخط كل ذلك غير مقاوم ما بي من الكسل والملل أو مجاهد في سبيل العمل كأني صرت من اهل التمني لا احب ان التي دلوي في الدلاء خوفاً من ان يجيء بحمأة وقليل ماء وانا اكره التقتير ولو مع اليسر وافضل عليه البذل ولو مع العسر انام على القرطاس حتى يجف الحبر على القلم ان لم يأت الفكر عفواً ولا ابذل اقل عناء لحث مطايا الافكار

(١) وقد طرأ على الكاتب منذ سنتين ما اعجزه في يديه ورجليه مدة من الزمان الجأه الى حمل العصا ولبس القفاز فقال

مضى الزمن الذي قد كنت فيه   اقول كأنني في الناس عنتر
اخاف الشر من آلات شر   فلم احمل عصاً كي لا اغرّر
وما قيدت كره القيد كفي   بقفاز الفتى الحلو المقندر
فصرت اذا مشيت وقد رأتني   كلاب الحي مثل الاسد تزأر
تخاف يداي من خطرات ريح   ورجلي ان مشت بالظل تعثر
فقفازي حفاظ يدي ولولا   عصاي اخاف ان الظهر يكسر
وما انا حنظل بعصاي يخشى   ولا انا في حفاظ يديّ سكر

للجري في هذا المضمار فان اقبلت قابلتها بالترحاب وان ادبرت اوصدت وراءها الباب ولا اكلفك ان تقبل كلامي كالنقد في اليد اتناول تارة البحث في الحقائق قرّرت ام لم تقرَّر وطوراً اخوض عباب الاحلام احلام اليقظة واحلام المنام ولو كانت دون حلم القيصر مقاماً فقد جاء في كشكول ارباب السياسة ان احلام الملوك ملوك الاحلام وانا بعيد جداً عن هذا المقام

وكأني بالقيصر يدعو طوائف الحيوان من كل شرفاء ولود وصماء بيوض للاجتماع في مؤتمر تتفق فيه على نزع سلاحها فيقلم الاسد مخالبه كما تقلم السيدة اظفارها ويكسر الخنزير انيابه حتى اذا افتر يفترّ عن لؤلؤ رطب وعن برَد ويقص الفيل خرطومه لئلا يبقى كأنف ابن حرب ويتخلى كل واحد عما خصتهُ بهِ الطبيعة من سلاح يذود به عن حوضه فكانهُ يقول للانسان ضع حداً لقوى عقلك لتقف عن استنباط الوسائل التي هي عنوان قوتك وضمان استقلالك ولا تغتر بقول الشاعر

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يضرّس بانياب ويوطأ بمنسم

فان مثل هذا القول حديث خرافة اليوم وتنازل عن مطامعك وارض بما انت فيه صغيراً فقيراً فصغير فقير وغنياً كبيراً فغنيٌّ كبير فليرض كل واحد بحالته ولا يطلب الخروج عنها . ولو اصاب واضع منشور نزع السلاح لخفض من استبداده ودعا الى ذلك اخوانه في المعمور وبدأ باصلاح بلاده ورد من قفاره الشاسعة الافاً من النفوس واستخدمها في المنافع العمومية عوضاً عن قطعها من الهيئة الاجتماعية لذنوب سببها جور حكومة لم تعرف للجمهور حقاً تطالبها بالعدل فتقول عدلك ظلم لي وتطلب منها نشر العلم فتقول لك جهلك اضمن لحقوقي فكيف تريد مني ان اتنازل عن هذه الحقوق الموروثة التي تجعلك انت لي وانت تريد ان اكون انا لك اتجهل اني أنا الكل وفي الكل الست انا ظل الله على الارض فان مررت بي فلا ترفع نظرك اليَّ بل اخفض رأسك واضرب بجبينك موطئ قدمي وارفع عجزك فان بذلك احترام الملوك وان خالفت هذه الفروض الواجبة لي عليك وطالبتني بحقوق لا اعترف لك بها فان هناك قفاراً شاسعة تعلمك الادب هذا هو نظام تلك الحكومة التي تطلب اليوم نزع السلاح

ولعل القيصر يمزح او هو يمتحن عقول الناس وخصوصاً اصحاب الجرائد الذين يتهافتون على كل كلمة تسقط من افواه الملوك تهافت الجياع على القصاع ويستمسكون بها كأنها الدر والجوهر مثبتين انهم كسائر الناس ينظرون الى من قال لا الى المقال ولا يصح ان يكون القيصر قد قصد غير ذلك او ما يماثله مع بقاء احترامنا لمداركه لان مثل هذا القول ينقض ناموساً طبيعياً لا يستطاع نقضه ولو شرع فيه قيصر يحكم على الملايين من البشر لانهُ ناموس يحكم على ما هو اعظم واوسع من حكمه يحكم على الطبيعة من جماد ونبات وحيوان ألا وهو ناموس تنازع البقاء ويخطىء من يظن ان اعداد السلاح والتأهب للنزال والكفاح مضر بالهيئة الاجتماعية موقف لنجاحها بل هو بالضد من ذلك موجب لارتقائها فناموس تنازع البقاء في الطبيعة هو قاعدة ناموس النشوء والارتقاء وكلما قلّ التنازع وقفت حركة الارتقاء بل دار دولابها الى التقهقر والتاريخ الطبيعي بل تاريخ المجتمعات البشرية شاهد عدل على ذلك ألا ترى ان الامم التي صرفت قواها عن استنباط وسائل الدفاع كيف وقفت حركتها وقلت اختراعاتها وضعفت مصنوعاتها وطمست علومها وساد الجهل عليها حتى حل بها القضاء بحكم تنازع البقاء ومن ينكر ان الاستعداد للحرب منذ حرب السبعين قد بلغ مبلغاً لم يسبق له مثيل في التاريخ ومن ينكر مع ذلك ان تقدم الهيئة الاجتماعية في هذه السنين القليلة في العلوم والصنائع والشرائع يفوق ما حصل الانسان على ما يضاهيه في قرون كثيرة فطلب نزع السلاح مخالف للنظام الطبيعي من جهة وموقف لحركة الارتقاء من جهة اخرى ولعل قيصر الروس حسد امبراطور الالمان على نيل شهرته بالشدة فاراد ان يباريه في الحصول على هذه الشهرة باللين فطلب للناس عصراً لا يروى الا عن تخيلات المتقشفين واحلام الزاهدين

المقالة الحادية عشرة

المرأة والرجل وهل يتساويان (١)

مسألة كثر تحدُّث الخاصة بها وذهبوا فيها رأيين متضادين. وطالب القائل بتساويهما بحقوق المرأة المرتّبة على هذا التساوي والتي اهتضمها الرجل في زعمهِ من قانون البشرية صلفاً وعتوًّا او كما تقول المرأة لانهُ هو الذي سنَّ هـذا القانون فآثر نفسهُ فيهِ استبداداً حتى انكر عليهـا النفس التي يفتخر بها على سائر المخلوقات . وانكر هذا الحق من ذهب ضد مذهبهِ ونسب دعواه الى غيرة اعماها الهوى ورأي اضلَّهُ الوهم. ولقد شحذ المتباحثون في المسألة قرائح امضى من القواضب وجرَّدوا ألسنةً احـدَّ من الاسنة وبروا لها اقلاماً اقوم من قدود الهيف اذا اخجلت سمر القنا . وطعنوا بها طعناتٍ اوقع من لحاظهنَّ اذا رنّت سهامها في القلوب . وتجاروا في مضمارها تجاري خيل الطراد في يوم الوغى . فمن آخذٍ بناصر المرأة ارتفع بها الى اوج البشرية وقال ما هي بشرٌ ان هي الاَّ ملك كريم ومن متحاملٍ عليها انحطَّ بها الى حضيض البهيمية وقال ان هي الاَّ متاعٌ خُلق للرجل وليست بشراً سوياً . وكلاهما تجاذب في القول طرفي الافراط والتفريط وادعى نصر الحق وما اتبع في نصرهِ الا الهوى

ولم يفت نبهاء قومنا جولة في حومة هذا المجال فقد سمعتموهم في هذه الجمعية يتباحثون ويتناظرون مستمطرين دراري المعاني من سماء الالفاظ حتى كدنَ يلقطنَ باليد . وشهدتم مواقع نزالهم في حلبة المقتطف الاغر وغيره من الجرائد الوطنية ورأيتم كيف ان هذه الحرب قد اتقدت نارها في قلوبهم وحمي أُوارها في رؤوسهم ونعم المرام . الاَّ انهُ لا يؤاخذني كماة هذه الحرب وفرسانها اذا قلت انهم جالوا بنا الى غير محسم نزاع ووقفوا بنا على غير موقف هـدًى حتى تخيل للقارىء والسامع ان المسألة ككثير من المسائل الخلافية سلسلة لا تنتهي حلقاتها ودور لا يعرف طرفاه وما ذلك في اعتقادي الاَّ لانهم

(١) خطبة تليت في جمعية الاعتدال بالقاهرة ونشرت في المجلد الحادي عشر للمقتطف سنة ١٨٨٦

ولجوها من غير بابها ولذلك رأيت ان اقرعها من الباب الذي يُدخل منهُ وانحمها من الوجه الذي يختلف اليه

⁂

ذهبت طائفة من اهل النظر الى ان المرأة مساوية للرجل في العقل . وفي اعتقادنا ان المبحث طبيعيٌّ محض اعني انهُ من مباحث علم الحيوان المعروف بالزوولوجيا او بالحري من مباحث علم الانسان الذي هو فرع منهُ والمعروف بالانثروبولوجيا ولا يصح ان ينظر اليهِ من غير هذا الوجه او يقطع فيه حكم بدونهِ . والانثروبولوجيا لا كما يفهمهُ المتقدمون علم اقرب الى النظر والاَّ اتسع بنا مجال القول وتهنا في فيافيه ووقعنا في بلبال لا يجمعنا فيهِ سوى فوضى الاختلاف وخرجنا منهُ كما خرجنا اليهِ . وربما تشعبت المسألة دوننا الى فروع كثيرة افضى بنا الولوج فيها الى الاعراض عنها والتوغل في امور جدلية لا طائل تحتها كما هو دأب الذين لا يستندون في بحثهم الى اساس متين مرشد لبرهان المستطلع كابح لجماح الشططّ . ولكن كما يفهمهُ المتأخرون علم يبحث فيهِ عن الانسان من حيث كونهُ حيواناً وانساناً معاً في تركيبه وقواه وافعاله فمساق الكلام على هذا المنهج يسهل علينا فهمهُ ويقينا فيه عثرة الشطط فلا نرتفع بهِ محلقين الى « لا أوج » ولا نهبط بهِ سافلين الى « لا قرار » بل نضعهُ في مقامهِ الطبيعي

⁂

واولاً ننظر اليهِ في الانواع اي انواع الحيوان المختلفة . فمن المعلوم لاهل النقد من علماء طبائع الحيوان ان الانثى اشدُّ من الذكر في الحيوانات السافلة واضعف منهُ في الحيوانات العالية ومساوية له في ما كان بينهما وذلك قاعدة مطّردة الا في ماندر والنادر لا يعتدُّ بهِ . فانثى النحل والزنابير والفراش وكثير من الاسماك والحشرات اشدُّ من الذكر [1] وانثى الطير والحيوانات اللبونة وسائر ذوات الفقر العالية اضعف منهُ غالباً .

---

(١) وشاهدنا المقتلة التي تنشب في قفران النحل اي جماعاتها بين الاناث والذكور والتي تدور فيها الدائرة على الذكور لضعفها عن مقاومة الاناث . وهذه المقتلة البربرية على جانب من الحكمة والاقتصاد لانها تحصل من شهر حزيران الى شهر آب من كل سنة عندما لا يعود للذكور فائدة ويصير لوجودها ضرر وهو اكل جنى النحل . والحكمة لا تعرف الرفق ولا تشفق خلافاً لما يظن بل كثيراً ما تقضي بتضحية البعض حفظاً لحياة الجماهير كما هو شأن السياسيين ايضاً في الاجتماع البشري

ويستفاد من هذا ان امتياز الانثى على الذكر من صفات الحيوانات المنحطة في سلم النشوء وان امتياز الذكر عليها من صفات الحيوانات المرتقية . وسنبين اوجه الامتياز . وهنا الطريق وعر والمسلك صعب فأرجوكم ان تتبعوني فيهِ متزوّدين جانباً من الصبر

ففي الطيور والحيوانات اللبونة التغذية اقوى في الذكر منها في الانثى والدم أشدّ وفيهِ من الكريات الحمر الصالحة للتغذية اكثر مما فيها ومن الكريات البيض القليلة الصلاحية لها أقل (كوينكود وكرنيلوف) . وفي المليمتر المكعب من دم الرجل مليون من الكريات الحمر اكثر مما في دم المرأة (ملاسز)

⁂

والرجل يأكل اكثر من المرأة ولكنها أنهم منهُ اي انها تشره فيهِ اكثر منهُ . والتنفس أقوى في الذكر منهُ في الانثى واذا تساوى الرجل والمرأة في القد فتسع رئتهُ من الهواء نحو نصف لتر أكثر من رئتها . وهو يتناول من الاكسجين المطهر للدم اكثر منها وان كانت تتنفس اكثر منهُ وتزيده نفساً واحداً في الدقيقة من سن ١٥ الى سن ٥٠ (كواتلت) . وهو يفرز من الحامض الكربونيك المتحصل من احتراق الانسجة اكثر منها في جميع الاسنان (اندرال وغفرّت) . وحرارتهُ اكثر من حرارتها وكذلك حرارة الديك بالنسبة الى الدجاجة

وقوّة ضغط الدم اعظم في الذكر منها في الانثى وانما نبضهُ ابطأ من نبضها والفرق من ١٠ الى ١٥ نبضة في الدقيقة بين الرجل والمرأة و١٨ بين الاسد واللبوة و١٠ نبضات بين الثور والبقرة و١٢ نبضة بين الكبش والشاة

وعظام المرأة اخف من عظام الرجل. وفي عظامه من المواد الترابية اكثر ومن المواد الحيوانية أقلّ ومن كربونات الكلس اكثر ومن فصفاتهِ اقل مما في عظامها (ملن ادوار)

والرجل يستعمل يمناه اكثر من المرأة والمرأة تستعمل يسراها أكثر من الرجل (دلوني) . ومنكبها الايسر اعظم من الايمن بخلاف الرجل كما في فروع البشر السفلى (هرتين وليفون) والترقوة بالنسبة الى العضد اطول فيها منها فيهِ (بروكا) كما انها اطول في السود منها في البيض

والذكر أعظم من الانثى كما هو معروف في الحيوانات الاهلية . والرجل يزيد المرأة اثني عشر سنتيمتراً طولاً (توبينار) وهي أخف منهُ وان ظهرت اسمن لتغلُّب الشحم فيها الذي يكسب بدنها استدارةً وهشاشة ويستر عضلها بخلاف الرجل فانهُ قليل الشحم نافر العضلات صلب البدن . وهي بارزة الفكين اكثر منهُ في الشعوب الهندوجرمانية (توبينار)

وقدم المرأة اكثر انبساطاً واقل تحدباً من قدم الرجل (دلوني) وذلك يدلُّ على الانحطاط . وذوات الغنج والدلال يحاولنَ اخفاء ذلك بالاحذية المصنعة ذات الكعب المتطاول

وصوت المرأة أعلى من صوت الرجل . وكذلك اصوات اناث الحيوانات أعلى من أصوات ذكورها

وعضل الذكر اغلظ وأشدُّ من عضل الانثى كما في الحيوانات الوحشية والاهلية . وقوَّة المرأة من سن ٢٥ الى ٣٠ مقاسة بالدينامومتر ثلثا قوة الرجل في هذا السن. وحركاته أضبط من حركاتها ولهذا يفوقها هو ولا تدركه هي في فني الموسيقى والتصوير

وجمجمة الرجل اكبر من جمجمة المرأة (بروكا والجمهور) وسعتها في الرجل الابيض ١٤٤٦ سنتيمتراً مكعباً وفي امرأته ١٢٢٦ (هشك) . والجمجمة اقلُّ ارتفاعاً واطول في المرأة منها في الرجل (بروكا)

ودماغ الذكر اثقل من دماغ الانثى . فدماغ ذكر الكورلاً وهو نوع من القرود يزن ٥٤٠ غراماً ودماغ اناثه ٤٧٠ ومعدَّل وزن دماغ الرجل ١٣٢٣ غراماً والمرأة ١٢١٠ والفرق ١١٣ غراماً (بروكا) ولا يحمل هذا الفرق على صغر قد المرأة بالنسبة الى الرجل فان قامة المرأة بالنسبة الى الرجل هي كنسبة ٩٢٧ الى ١٠٠٠ وأما وزن دماغهما فهو كنسبة ٩٠٩ الى ١٠٠٠

وباجماع الانثروبولوجيين مقدم الدماغ الذي هو مقرُّ القوى العاقلة الرفيعة اصغر في المرأة منهُ في الرجل سواءٌ هذّبا او كانا على الفطرة وهذا الفرق ٥٤ سنتيمتراً مكعباً راجحة من جانب الرجل (هشك) . ومؤخر الدماغ الذي فيهِ مركز العواطف اكبر في

المرأة منهُ في الرجل ولهذا قيل ان المرأة تحيا بقلبها اي بعواطفها والرجل يحيا بعقله
ونصف دماغ المرأة الايمن اكبر من الايسر بخلاف الرجل وهذا يفهم منهُ لماذا المرأة تياسر اي تذهب ذات اليسار والرجل يامن اي يذهب ذات اليمين وهذا ظاهرٌ حتى في عرى ثيابهما وازرارها فان حركة التزرير في المرأة يسارية وفي الرجل يمينية كما يمكن تحققه من ارسال النظر اليهما . وهذا يدل على ان الاختلاف بين الرجل والمرأة من اصل الطبع. ودلوني اول من نبه النظر الى ذلك وقال ان حركة المرأة اليسارية او التقريبية كما يسميها ايضاً دليل على الانحطاط لانها تشاهد في الحيوانات كالقرود وفي فروع البشر السافلة وان حركة الرجل اليمينية أو التبعيدية كما يقول ايضاً دليل على الارتقاء

***

فهذا نظر تشريحي وفزيولوجي يبين منهُ هذا الفرق بين الرجل والمرأة وأما من الوجه الادبي فقد اختلفوا في هل المرأة انبل خلقاً من الرجل ام لا . وتوجد مؤلفات كثيرة في مدح المرأة وذمها وقد ذهب مؤلفون كثيرون الى ان المرأة أنهم من الرجل واكسل واشبق وابخل واكثر عجباً وكبراً وحسداً واشد حنقاً وحقداً . وفي العصور الوسطى طرح احد المجامع هذه المسألة مطرح البحث وهي « هل للمرأة نفس » ولا نظن ان احتقار المرأة بلغ هذا القدر في عصر من العصور او عند شعب من الشعوب . وجميع الحكماء والفلاسفة المتقدمين كابقراط وارسطو على ان المرأة احط من الرجل . ويضيق بنا المقام عن استيفاء جميع ما قالوه في ذلك من مدح وذم وتسنيع وتشنيع . فنحن لذلك نغفل اقوالهم ونعتمد لحل المسألة على مباحث المتأخرين المبني اكثرها على علم مقابلة أفعال الانسان المعروف عندهم بالدموغرافيا

من المقرر المتفق عليهِ ان المرأة اقل ارتكاباً للجرائم من الرجل . قال كواتلت والذي يمنعها من ذلك انما هو خجلها وحياؤها وحالها من الرضوخ وعوائدها التي تحجبها وضعف جسدها . وقال غيرهُ أن التسميم الذي هو سلاح الجبناء هو في الغالب سلاحها . وهي أحيل من الرجل وأخدع منهُ لانها أضعف منه والحيلة والخداع سلاح الضعيف . ان استقوتك استعطفتك ببكائها وان استضعفتك قتلتك بكبريائها . والجمهور على أنها محبة ومحسنة

اكثر من الرجل انما احسانها لا يغني ولا يطاق وقلما تفعله الاَّ لغرض ديني

وأما من الوجه البسيكولوجي أو العقلي فمن المقرَّر ان القوى العاقلة تابعة لحالة الدماغ أو بالحري لمركز هذه القوى فيهِ وهو في الحيوان العالي كما تقدم اعظم في الذكر منهُ في الانثى ولذلك كان الذكر اعقل من الانثى باجماع الحكماء والطبيعيين

وقد اتفقت جميع الشرائع على ان تعامل المرأة معاملة القاصر المحتاج الى وصي وسببهُ ما بها من الخفة والطيش . وأما زعماء المساواة فيدعون ان هذه الشرائع قد ضحت المرأة للرجل لان الذين سنوها انما هم الرجال . ووصف علماء الاخلاق المرأة بانها لاهية متقلبة مفرّطة اكثر من الرجل وجميعهم على انها مطبوعة على الخرافات والعناد والتشبه والتمسك بالعادات القديمة اكثر من الرجل وعلى انها مهذار مخواف اكثر منهُ . وقال بروكا العالم الانثروبولوجي ان المرأة أقل ادراكاً من الرجل وهو ايضاً رأي دروين كبير الطبيعيين في هذا العصر قال ما معناه ان الرجل والمرأة ان تجاريا فالسابق هو وهل يبلغ الظالع شأوَ الضليع

ونقل دلوني عن التجار والصناع ان المرأة تثابر على العمل اكثر من الرجل الاَّ انها أقل ادراكاً منهُ ويقرب عملها من ان يكون ميكانيكياً اكثر من ان يكون عقلياً . ففي المطابع تحسن اعادة صفَّ الكتب المطبوعة ولا تحسن صف الكتب المخطوطة كالرجال لانها لا تفهمها نظيرهم . وقال ايضاً اذا قيست المرأة بالرجل في اوروبا وجدت متأخرة عنهُ نحو قرن : فبينما الرجل يشتغل بالتاريخ والفلسفة والعلم تشتغل هي بمطالعة الاقاصيص وكتب الادب . نعم انهُ حصل اليوم في اوروبا واميركا ثورة في خواطر النساء فنهضنَ يطالبنَ الرجال بالاعمال التي انفردوا بها وينازعنهم المراكز العلمية وقد صار عدد غير قليل منهنَّ طبيبات غير انهُ لا يعلم انهنَّ سرنَ الا على خطواتهم مقلدات غير مخترعات وعلى المستقبل ان ينبئنا بما اذا كنَّ يستطعنَ اكثر من ذلك

والخلاصة من كل ما تقدم ان الذكر في الانواع العالية يمتاز على الانثى بشدة التغذية وبالنتيجة بالقوة العضلية والعقلية ايضاً لانه يوجد نسبة بين الحياة النباتية الخارجة عن سلطان الارادة وحياة النسبة الواقعة تحت هذا السلطان فالرجل لما كان يتغذى اكثر

من المرأة ويولّد قوة اكثر منها كان ضرورة اقوى منها جسدياً وعقلياً

ومما ينبغي التنبيه اليهِ هنا ان الفرق بين الذكور اشد منهُ بين الاناث وذلك يرى في الحيوان والانسان فان الرجال من الشعب الواحد بل من العائلة الواحدة يفرقون بعضهم عن بعض في القامات ولون الشعر والقوة العضلية والصوت والمشارب حتى الخط ايضاً اكثر جداً مما يفرق النساء بعضهنَّ عن بعض . وشدة التباين من علامات الارتقاء كما لا يخفى على علماء هذا المذهب

⁂

هذا نظرٌ في المسألة من حيث الانواع . واذا نظرنا اليها الآن من حيث الفروع البشرية أعني بالمقابلة بين الشعوب المختلفة فنجد نفس النتيجة التي وجدناها في الانواع أعني ان المرأة تحط عن الرجل كلما كان الانسان اعرق في الحضارة والمدنية وتساويه او ترتفع عنهُ كلما كان اقرب الى البداوة والخشونة جسدياً وعقلياً . وشهادات السياح التي تؤيد ذلك لا يحصيها عد فنقتصر منها على ذكر اليسير فراراً من التطويل : حكى بستيان في رحلته ان نساء همج افريقية اشد من الرجال وانهنَّ يسدن عليهم ويحاربنَ نظيرهم وهنَّ كذلك على شهادة مينرس في جزيرة كمشتكا وجزيرة جاقا وفي بعض قبائل اميركا الجنوبية وفي كوبا . وحكى فولي ان المرأة تسود على العائلة في بعض قبائل السود حتى انها تضرب الرجل

وقال بروكا ان طول عظم الزند في الاسود بالنسبة الى عظم العضد باعتبار طول العضد مائة هو ٧٩٫٤٣ وفي امرأتهِ ٧٩٫٣٥ والفرق ثمانية اجزاء من مائة جزء وفي الاوروباوي ٧٣٫٨٢ وفي امرأتهِ ٧٤٫٠٢ والفرق بينهما عشرون جزءا من مائة جزء وعليهِ فالاوروباي اعلى من امرأته اكثر من الاسود بالنسبة الى امرأته السوداء . والفرق بين الجنسين في حجم المنكب هو في الشعوب المتمدنة اعظم منهُ في الشعوب المتوحشة وهـذا الفرق يقل كلما نزلنا من الاصول العليا الى السفلى . والفرق بين الرجل والمرأة في القامة اقل في الشعوب السفلى منهُ في العليا ومعدله بين الاوروباويين ٨٦ مليمتراً حسب تعديل كواتلت و١٢ سنتيمتراً حسب تعديل توبينار وأما في الشعوب السافلة فهو اقل من ذلك جداً وفي

البوشمان والبتغون يكاد الجنسان لا يفرقان بالقامة

وأما الفرق في سعة الجمجمة بين المرأة والرجل فهو ٣٧ سنتيمتراً مكعباً من جانب الرجل لاهالي استراليا (دفيس) و ٥٩ لاهل الصين و١٢٩ لاهالي كلدونيا الجديدة (بروكا) و١٤٩ لقبائل الاسكيمو و١٥٠ لعموم سكان فرانسا و٢٠٣ لسكان بريطانيا و٢٢١ لسكان باريز على قول بروكا ورجحان هذا الفرق من جانب الرجل يكون اعظم كلما كان الشعب ارفع (هشك وبافيس)

***

وحكى بوشت ان النساء في السودان يشبهن الرجال في الصورة وذكر غيرهُ عن غيرهم ما يضاهي ذلك مما يستفاد منهُ ان اختلاف الصورة الظاهرة بين الرجل والمرأة يكون اقل كلما كان الشعب ادنى . وما هو كائن اليوم في القبائل السافلة الحاضرة كان ايضاً في القبائل السافلة الغابرة . ومما ذكره دلوني دليلاً على ذلك ان بعض الشعوب في القديم كان النساء يحكمنَ عليهم كسميراميس وكليوبطرا وزنوبيا الخ . ونحن وان كنا نعتقد صحة القاعدة وهي ان تغلب الرجل على المرأة من ضروريات الارتقاء والضد بالضد انما لا نعتقد صحة الاستشهاد الذي أتي بهِ عن الملكات المذكورات لانهُ لا يبعد ان تكون سيادتهنَّ قد استتبَّت لهنَّ لاسبابٍ اخرى إما لارثٍ ملوكي وإما لنبوغٍ غير اعتيادي وقيامهنَّ بعبء الملك ليس دليلاً قاطعاً على ان كل نساء شعوبهنَّ كنَّ أرقى من رجالهم والاَّ لوجب ان نطلق هذا الحكم على ضيوفنا الذين تحكم عليهم ملكة وهم ارفع جداً من ان يوصفوا في المقام الذي يضعهم فيهِ هذا القول بل هم ارفع من كل شعب آخر وهم هم السابقون في مضمار الارتقاء البشري بلا منازع . وذكر ديودوروس ان رجال الصقالب ونساءهم في القديم كانوا متشابهين وبخلاف ذلك اليونان والرومان فان الفرق بين الرجل والمرأة عندهم كان عظيماً جداً جسدياً وعقلياً

والغريب ان نساء الاجيال التي عاشت قبل التاريخ كانت نسبة سعة جمجمتهنَّ اعظم منها في نساء اليوم . قال بروكا وهذا يظهر منهُ ان المرأة كانت في ذلك العهد تقاسم الرجل الاعمال اكثر منها في هذا العهد . والخلاصة مما تقدم ان امتياز المرأة على الرجل

قد يرى احياناً في الشعوب السافلة الحاضرة والغابرة ولكنهُ لا يُرى البتة في الشعوب العالية وانما يرى فيهم عكس ذلك اي امتياز الرجل على المرأة دائماً

***

ولنتقدم الآن الى النظر في المسألة من حيث الاسنان . وهنا نجد ايضاً نفس النتيجة التي وجدناها في الفروع والانواع اعني ان الاناث يمتزنَ على الذكور امتيازاً الى أجل في اول سنيّ العمر ثم يستتب الفوز بعد ذلك لهؤلاء . فقد ذكروا ان البنات يفقنَ الصبيان في الطول من سن ١٠ الى ١٥ سنة . وبعض الانثروبولوجيين زعموا ان البنت من سن ١٠ الى ١٢ تكسب رطلاً اكثر من الصبي في السنة . وأما بعد السنة السابعة عشرة فالاناث يقفنَ والذكور يستمرون على النموّ . والحال كذلك ايضاً في العقل ففي المدارس التي يجتمع فيها الصبيان والبنات معاً رأوا ان البنات لغاية سن اثنتي عشرة سنة يسبقنَ الصبيان ويفقنهم ذكاء وأما بعد ذلك فالصبيان هم السابقون

ويستفاد مما تقدم ان المرأة في النمو اسبق من الرجل جسدياً وعقلياً وادبياً وهذا ما حمل بعضهم على ان يظنها اعقل منهُ . وقد علل بوفون الطبيعي الفرنساوي ابطاء الرجال بقولهِ « ان الرجال لما كانوا اكبر واقوى من النساء اعني لما كان بدنهم اشد واعظم وعظامهم اصلب وعضلاتهم اقوى ولحمهم اكثر مما في النساء كان من الضروري ان يكون زمن نموّهم اطول من زمن نموهنّ » وقال كابنيس « ان المرأة اسرع نمواً وانحطاطاً معاً من الرجل لا تلبث ان تشب حتى تهرم وليس بين انتقالها من سن الصبا الى سن الهرم فترةٌ تذكر »

والنمو السريع دليل على الانحطاط ويرى حسب مباحث دلوني في جميع الاناث كما يمكن تحققهُ من النظر الى سرعة نمو اناث الحيوانات الاهلية بالنسبة الى ذكورها . وانما كانت هذه السرعة في النموّ التي ترى في الحيوانات وفروع البشر السفلى علامة انحطاط لانهُ يعقبها وقوف النموّ دائماً . قال بخنر في كتابهِ الذي عرّبناه تحت عنوان شرح بخنر صفحة ٩١ ما نصهُ « ان في الطبيعة ناموساً عاماً وهو ان صغار الحيوانات والقرود والبشر الذين هم من ادنى جنسهم يتشابهون اكثر من البالغين في تكوين الجمجمة وقابلية العقل

فان صغار القرود خاصة يشبهون اطفال البشر جداً باستدارة جمجمتهم ولا تميز فيهم صفات القرد الأ مع السن وحينئذٍ تظهر المباينة فتبدو الانخفاضات والبروزات والشكل الزاوي وبروز الوجه عن الجمجمة وكذلك يحصل في الاخلاق فتزداد القرود شراسةً وقساوة ولا تذعن للتربية كلما زادت في السن وهكذا ايضاً اولاد السود كما يعلم من روايات يوثق بها فانهم يظهرون في المدارس ذكاء وقابلية للتهذيب لا مزيد عليهما فاذا بلغوا اشدهم تخلقوا باخلاقهم الوحشية وخسروا كل ما اكتسبوه بالتعليم كأن لم يكن شيء من ذلك » اعني ان الصفات الجسدية والعقلية تكون مشتركة بين صغار الانواع والفروع في اول سني الحياة ثم تتباين فيهم بمقدار تباين الانواع والفروع نفسها فيقف نموّ بعضها السافل او يسير في خطتهِ ويستمر نمو البعض الآخر المرتقي . والوقوف علامة انحطاط واستمرار النمو علامة ارتقاء

⁂

وفي الجملة فمعظم الفرق بين الرجل والمرأة يكون في الكهولة اي عند منتهى النمو واقله في سن الصبوة والشيخوخة سواء نظرنا الى البدن كله او الى كل عضوٍ من اعضائهِ فانهُ لا يوجد فرق ما بين الذكر والانثى في الحياة الجنينية ثم يكون الفرق قليلاً عند الولادة ويبلغ معظمهُ في الكهولة ثم يتناقص في الشيخوخة

فالطفل يكون اطول من الطفلة عند ما يولدان بسنتيمتر واحد فاذا بلغا منتهى النموّ اي متى صار هو رجلاً وهي امرأة زادها بستة وثمانين مليمتراً حسب تعديل بعضهم (كواتلت) وباثنى عشر سنتيمتراً حسب تعديل غيره (توبينار) ثم يميلان للتساوي بعد ذلك لان الرجل يقصر اكثر من المرأة

ولنا نفس النتيجة من مقابلة الوزن فان معدل وزن الطفل المولود حديثاً ٣٢٥٠ غراماً والطفلة ٢٩٠٠ غرام اعني ان الذكر يزيد الانثى ٣٥٠ غراماً وقلما يفرقان بعد ذلك الى ما بعد السنة الثانية عشرة ثم يزيد هذا الفرق جداً برجحان الذكر ويبلغ حسب تعديل بعضهم (كواتلت) من اربعة الى خمسة كيلو غرامات ثم يتناقص في الشيخوخة . وذكر بعضهم ان هذا الفرق بينهما كيلو غرام من سن ٢ الى ٧ و٦ كيلو غرامات من سن ١٤

سن الى ٢١ و ٧ من سن ٢١ الى ٢٨ و ١١ من سن ٤١ الى ٥٦ ثم يتناقص الى ٩ من سن ٥٦ الى ٦٣ والى ٨ من سن ٦٣ الى ٧٠

وأما حجم الجمجمة فحسب تعديل بعضهم (ليثر زيك) ان دائر جمجمة الذكر عند الولادة اكبر من دائر جمجمة الانثى بسنتيمتر واحد ثم يزيد هذا الفرق بعد البلوغ لاستمرار نمو جمجمة الرجل ووقوف نمو جمجمة الانثى بعد ذلك

وأما وزن الدماغ (فحسب تعديل كولكر) يزيد دماغ الذكر عن دماغ الانثى باربعين غراماً عند الولادة و٥٠ عند سن سنة واحدة و٧٠ عند سن ٣ سنين و١١٠ في سن ١٠ و١٥٠ من سن ٢٠ الى ٦٠ . ثم يتناقص هذا الفرق من بعد السن المذكور فينقص دماغ الرجل في الهرَم ٨٤ غراماً من معدَّل وزنهِ عند منتهى النمو ودماغ المرأة ٥٩ غراماً . وهذا الفرق التشريحي يرافقهُ فرق في القوى العاقلة والادبية ومنهُ يفهم لماذا يشترك الذكر والانثى بالالعاب في سن الحداثة ثم يفترقان كثيراً في العقليات في سن البلوغ ثم يتقاربان ثانية في الهرَم . وعلى هذه النسبة ايضاً يجري باقي الفروقات في شكل العظام والتغذية وتركيب الدم الخ. واما النبض فهو ١٣٦! في الجنين الذكر و١٣٨ في الجنين الانثى. وذكر بعضهم ان هذا الفرق اي زيادة نبض الانثى على الذكر هو نبضة واحدة من سن ٢ الى ٧ و٦ نبضات من سن ١٤ الى ٢١ و٧ من سن ٢١ الى ٢٨ و١٠ من ٣٥ الى ٤٢ و١١ في سن ٥٠ ثم ٩ من ٥٦ الى ٦٣ و٨ من سن ٦٣ الى ٧٠ . ويطول بنا الشرح جدًّا لو اردنا استيفاء باقي الفروقات مفصلاً لذلك نكتفي بما مرَّ

والخلاصة مما تقدم ان الانثى تفوق الذكر في بعض الامور في الاثنتي عشرة سنة الاولى ثم يفوقها الذكر بعد ذلك في الجمعيات المتمدنة الى منتهى النمو حيثما يبلغ الفرق معظمهُ وهذا يكون بين سن ٤٠ و٥٠ ثم يتناقص هذا الفرق في الشيخوخة والهرَم

وهذه الملاحظات المتقدمة المأخوذة من علم مقابلة الحيوان وتشريح الاعضاء ومنافعها تنبئنا لماذا يميل الجنسان اي الذكر والانثى لان يفترقا كلما صعدا من طبقات البشر السفلى الى العليا . ففي الطبقات السفلى تكون الصفات العقلية والادبية بين الرجل والمرأة متساوية لذلك كانا كلاهما اقرب الى الاتفاق من الاختلاف وليس الامر كذلك في الطبقات

العليا الرفيعة المدارك فانهُ لما كان فيها الفرق بين الرجل والمرأة عظيماً كانا اقرب الى الاختلاف لاختلافهما بالافكار والاحساسات والمشارب الخ وهو اكثر في سكان المدن منهُ في سكان القرى وآخذ في التزايد سنةً فسنة كما نبه الحكماء الى ذلك منذ زمان طويل

***

على ان زعماء المساواة يدَّعون ان هذا الفرق بين الرجل والمرأة جسديًا وعقليًا سببهُ عدم تساويهما في الرياضة والتعليم وانهُ اذا تساوت احوالهما المعاشية والتهذيبية تساويا في القوَّة والعقل . واذا دققنا النظر لا نجد هذا الاعتراض في محله . ففي العصور الغابرة حين كانت الامم غارقة في ظلمات الجهل لم يكن احد الجنسين يعلَّم اكثر من الآخر وفي هذه الايام نجد في البلدان المتمدنة عدداً وافراً من الجنسين متروكين على الفطرة بحيث لا يصحُّ ان يقال ان هذا الفرق نتيجة التعليم والتهذيب بل اليوم اذا نظرنا الى الفنون التي تعلمها النساء كما يعلمها الرجال واكثر منهم ايضاً كفنّ الموسيقى في اوربا فلا نجد من النساء من نبغنَ كما نبغ الرجال ومع ان عدد المتعلمات هذا الفن اكثر من عدد الرجال فلا تجد منهنَّ من ألَّفت فيهِ او استنبطت شيئاً جديداً بل جميع المؤلفين من الرجال . وما قيل عن فن الموسيقى يقال ايضاً عن فن التصوير وكذا صناعة الطبخ نفسها فحتى الآن لم يستطع النساء ان يبارينَ الرجال المتعاطين هذه المهنة مع ان عددهنَّ بالنسبة الى عددهم وافر جداً والمانع في هذا وسواه ليس عدم تساوي الرجل والمرأة بالوسائط بل عدم تساويهما بالقابليات كما ترى في المدارس التي يعلَّم فيها الصبيان والبنات معاً فان البنات كما تقدم يفقنَ الصبيان لغاية سن ١٢ سنة ثم يتقهقرن عنهم بعد ذلك مع ان الوسائط واحدة في الحالين وما سبب ذلك الاَّ لانهنَّ من طبعهنَّ اضعف منهم قابلية والاَّ لما وجب ان يتأخرنَ عنهم بعد هذا السن لو كنَّ من طبعهنَّ قادرات . وسبقهنَّ الصبيان في اول سني الحياة دليل على سرعة نموهنَّ بالنسبة الى نموّهم وهذه السرعة من علامات الانحطاط كما قلنا في ما تقدم

والخلاصة من جميع ما تقدَّم ان غلبة الانثى على الذكر لا ترى الاَّ في بعض انواع الحيوانات السفلى او في بعض فروع البشر السفلى ولا يرى تساويهما الا في ما كان فوق

ذلك قليلاً كما في بعض الانواع الحيوانية والفروع البشرية السافلة وكما في احداث الامم المتمدنة ومشايخهم اذ ان الطرفين يستويان في كل امر وأما في الانواع الحيوانية العليا وفي فروع البشر المرتقية وفي منتهى النمو فالغلبة دائماً للذكر جسدياً وعقلياً وادبياً ولا تكون غير ذلك الا اذا انقلب الموضوع وانعكس المطبوع . وعليه فنطلب في المستقبل ان لا يقدّر لنسائنا ان يتغلبنَ على رجالنا او يساوينهم ولا نظن ان نساءنا يرضينَ غير ما طلبنا بناء على ما عهدن من سنن الارتقاء

⁂

فهذا أيها السادة نظر عام يضع المسألة في مقامها الطبيعي ويرشدنا الى الحكم فيها حكماً صحيحاً عادلاً فلا نحقّر المرأة كما فعل شوبنهور الالماني احد فلاسفة هذا العصر حيث جعلها تحت العجماوات وقال انها من شر المخلوقات وهو قول فيلسوف قانط [١] ولا نبالغ في تعظيمها كما فعل ديدرو الفرنسوي احد فلاسفة العصر الخالي حيث جعلها فوق الرجل وقال ان الذي يتكلم عنها ينبغي لهُ ان يغط قلمه في قوس قزح ويرمّل خطه بغبار اجنحة فراش الحقل وهو تصوُّر شاعر غاوٍ بل نضعها في مقامها الحقيقي الذي يليق بها والذي جُعلت فيهِ أعني عضواً لازماً للهيئة الاجتماعية تابعةً للرجل في ارتقائه مساعدةً لهُ متممة ما نقص من كماله مخففة عنه مشاق الحياة الداخلية كما هو يذلل لها مصاعب الحياة الخارجية حاضنة اولادها تحت جناحي حنوّها وتدبيرها عن طبع وتهذيب كما هو يسهر على راحتهم بعين سعيهِ واقدامهِ عن سليقة ومعرفة . لا تنازعهُ هي ما لا تجديها المنازعة فيهِ نفعاً ولا يبخسها هو حقاً اعترف لها بهِ مقامها في الهيئة الاجتماعية متقاسمين الاعمال كلٌّ منهما في دائرتهِ غير متطاول الى دائرة سواهُ وبذلك يتم نظام العائلة البشرية التي هي ام الاجتماع الانساني

---

(١) وكان يعرف المرأة انها طويلة الشعر قصيرة الفكر

المقالة الثانية عشرة

المرأة والرجل وهل يتساويان * ردٌّ (١)

هم في ضميرك خيَّموا ام قوَّضوا ومنى جفونك أقبلوا ام أعرضوا
وهمُ رضاك من الزمان واهله سخطوا كما زعمتْ وشانك أم رضوا

ما بال ربات الحجال وذوات اللطف والدلال برَزْنَ من خدورهنَّ غضابى . وأوسعنني لوماً وعتاباً . وفتحنَ عليَّ حرباً أعـدى من حرب البسوس . واظلم من يومي سعدٍ وبوس . وما اتيت ضدهنَّ بمنكر . ولا ارتكبت في حقهنَّ ذنباً لا يُغفر

أو ماذا رأينَ في مقالتي « المرأة والرجل وهل يتساويان » من قصد التحامـل عليهنَّ والاجحاف بحقوقهنَّ حتى نفخنَ في البوق وهجنَ بنـات جنسهنَّ في الاقطار وتألَّبنَ عليَّ جماعات متفقات لاول مرة وتربصنَ في مناوأتي تربص الآساد وعهدي بهنَّ انفر من الظباء . وانا لم آتِ فيهنَّ الا بما قرَّره الواقع وشهد بهِ الحال انتصاراً لهنَّ من القوم الظالمين

أقصَّرت في مدحهنَّ ام لم ابالغ في وصف محاسنهنَّ ام لم اعترف بحقوقهنَّ . ألستُ القائل فيهنَّ « وبرَوا لها اقلاماً أقومَ من هدود الهيف اذا أخجلت سمر القنا . وطعنوا بها طعنات اوقع من لحاظهنَّ اذا رنّت سهامها في القلوب » . أفلا يعجبنَ بهذا الاطراء أو لست القائل ايضاً « ولا يبخسها هو (اي الرجل) حقاً اعترف لها بهِ مقامها في الهيئة الاجتماعية متقاسمين الاعمال كلٌّ منهما في دائرتهِ غير متطاول الى دائرة سواهُ وبذلك يتم نظام العائلة البشرية التي هي أم الاجتماع الانساني » أفلا يرضينَ بهذه المساواة

على اني أُجلهنَّ عن ان انزلهنَّ منزلة من يقول « ان النساء لا يرضيهنَّ شيءٌ » ولعل في الامر دسيسة يدٍ مبرقعة وما هي بذات برقع (سامحها الله) (٢) افترت علينا

(١) نشرت في المجلد الثاني عشر من المقتطف سنة ١٨٨٧ وهي رد على بعض السيدات اللاتي اعترضن على المقالة السابقة بكلام نشر في المقتطف ايضاً

(٢) اشارة الى ان الكاتب الحقيقي او المحرك رجل قصد تحريك الشر للمناظرة اوالمداعبة

ذلك فاقتضبت عباراتي وحوَّلت اشاراتي وابدلت قولي وغيرت منقولي اعتداء عليَّ وتملقاً لهنَّ وصلت بيننا نار هذه الحرب وهنَّ منها يشهد الله براء وانا لست منها في شيء بل تراني اقدّم فيها رجلاً واؤخر اخرى. والاَّ فهنَّ ارفع من ان يعدُدن تقرير الواقع تحاملاً والانصاف احجافاً

قد وقع الصلح على غلتي فاقتسموها كارةً كاره
لا يدبر البقَّال الاَّ اذا تصالح السنور والفاره

٭٭٭

رحما كنَّ سيداتي لو كان لي ان اصف المرأة كما اريد واشتهي لوصفتها كما قال احد شعراء الانكليز « ان الله خلق الرجل اولاً على سبيل التجربة ثم خلق المرأة أخيرا » لتكون من طينة ارق ولكن من اين لي ذلك وانا لم اتجشَّم البحث في هذا الموضوع واجعل نفسي هدفاً لسهام الاغراض الا منقاداً للعلوم الطبيعية لا للتصورات الجونية كمؤرخ يصف الوقائع ويشهد الاحوال ابتغاء رفع شأن المرأة في العمران بمعرفة مقامها الطبيعي فيهِ ولا ذنب لي الا ذنب الصادقين في الود المخلصين في القول والا فما المانع من ان تساوي المرأة الرجل ولماذا لم تتغلب عليهِ بل تركتهُ يسن الشرائع المجحفة بحقوقها ويقوى عليها من اول الامر

وأنَّى يمكن ان تكون بينهما هذه المساواة وهما مختلفان بالطبع من اصل الفطرة في التركيب والقابليات والواجبات . فطلب المرأة مساواة الرجل كطلب الرجل مساواة المرأة امرٌ مستحيل واني لاعجب كيف يحاول بعض الناس اثبات هذه المساواة وما مثله الاَّ كمثل من يحاول ان يساوي بين اعضاء الجسد المختلفة. ألعله يجهل ان اختلاف التركيب يوجب اختلاف القوى والافعال

فبقي علينا اذن وقد تقرر هذا الاختلاف كما تقرر بين اعضاء الجسد ان نعرف نسبتهُ فيهما ولا نبحث في ذلك من حيث اهميتهما في الجسم الاجتماعي فانهُ لا خلاف في ان كلاً منهما عضوٌ مهم شديد اللزوم لكمال الهيئة الاجتماعية كما ان كل عضو من اعضاء الجسد شديد اللزوم لكماله. وقد تداركتُ ذلك في مقالتي السابقة حيث قلت « بل نضعها

(المرأة) في مقامها الحقيقي الذي يليق بها تابعة الرجل في ارتقائهِ مساعدةً له متممة ما نقص من كماله مخففةً عنهُ مشاق الحياة الداخلية هو كما يذلل لها مصاعب الحياة الخارجية حاضنة اولادها تحت جناحي حنوّها وتدبيرها عن طبع وتهذيب كما هو يسهر على راحتهم بعيني سعيهِ واقدامه عن سليقة ومعرفة » بل نبحث في نسبة هذا الاختلاف من حيث تفاوتهما في القوى جسدياً وعقلياً

***

يعلم قراء المقتطف الاغر اني نشرتُ في عدديهِ السادس والسابع بتاريخ هذا العام مقالة تحت عنوان « المرأة والرجل وهل يتساويان » ضمَّنتها خلاصة مباحث الطبيعيين وعلماء الاخلاق المتأخرين وصرفتُ فيها النظر عن اقوال المتقدمين ولم اورد من اقوالهم الا شيئاً يسيراً على سبيل الاستطراد لا الاستشهاد وقيدت نفسي كل التقيد بعلوم الاختبار واقتصرت على ذكر الوقائع المقررة واجتنبت على قدر الطاقة التعرُّض للاسباب الاَّ فيما ندر . كل ذلك لكي احصر الموضوع في دائرة لا يجد فيها المتقولون محلاً لكثرة الظنون حسماً للنزاع وحرصاً على الحقيقة ان تحجبها غياهب الاوهام وتخدشها عواصف الاغراض اذ هي كما قيل

خطرات النسيم تجرح خدَّيـــهِ ولمس الحرير يدمي بنانه

وقد رأينا مما قرَّره علماء طبائع الحيوان كما قلنا في ما سلف ان الانثى اشد من الذكر في الحيوانات السافلة واضعف منهُ في الحيوانات العالية ومساوية لهُ في ما كان بينهما واستنتجنا من ذلك ان امتياز الانثى على الذكر من صفات الحيوان السافل وان امتياز الذكر عليها من صفات الحيوان العالي . وابنّا ذلك هناك مفصَّلاً بآيات بينات طبيعية وادبية وعقلية . وظننتُ ان هذا البيان كاف لان يكون القول الفصل لما فيهِ من الصراحة والوضوح والاستناد الى الادلة التشريحية والفزيولوجية والبسيكولوجية التي يقال عندها قطعت جهينة قول كل خطيب . وما قصدت الا ان اجعله قاعدة يختلف اليها عند البحث في هذا الموضوع وما اتيت فيه بحرف يشير الى وجوب تحقير المرأة واهمال تعليمها بل بالضد من ذلك قصدت ان ابين مقامها الحقيقي في الهيئة الاجتماعية وان انبه الى أهمية

هذا المقام لئلا يشغلها عنهُ شاغل يشمخ بها الى ما سواه فتقصّر فيهِ ويصيبها كما في قوله

حسد القطا فاراد يمشي مشيها فاصابهُ ضربٌ من العقّال

ولئلا يذهل الرجل عنهُ فلا يوفيها حقوقها فيسوء مصيراً وكل ذلك حرصاً على انتظام العائلة البشرية وتحسن حال الانسان في العمران بمعرفة كل من الرجل والمرأة حدَّهُ فيقف عنده . وكنت انتظر من السيدات ان يعددنني بذلك نصيراً لهنَّ وخير نصير

وصاحباً كالزلال يمحو صفاؤه الشك باليقين

وان ارى منهنَّ تصويباً ينشطني في الدفاع عنهنَّ اذ ادخل الموضوع من ابوابهِ لان المدافع عنهنَّ في غير اساليب الصواب يكون لهنَّ شر نصير . ولكن لا اعلم كيف اقابل حضرات السيدات اللاتي تصدّين للردّ عليَّ زاعمات انهنَّ وجدنَ في مقالتي مطاعن ففوقنَ نحوي سهام اللوم والتعنيف ولولا الخوف من ان يستحكم هذا الظن في اذهان جمهورهنَّ بمطالعتهنَّ مقالات نصيراتهنَّ ويتناسينَ حقيقة مقالتي لتقادم عهدها فينصرفنَ الى الوهم باني متحامل فيها عليهنَّ لاقتصرت على مقابلتهنَّ بالشكر لقاء اطنابهنَّ في مدحي واستغنيت عن هذا الايضاح الذي لا ارى والحالة هذه بدًّا منه ولاكتفيت مؤونة الرد على اعتراضاتهنَّ لقيام بعضها على الوهم وسقوط البعض الآخر من نفسهِ بمراجعة نفس مقالتي

* *

(١) انكرت عليَّ حضرة السيدة الفاضلة م . ا . ي . قولي ان الفرق بين المرأة والرجل في القوى انما هو من اصل الفطرة وذهبت خلافاً لي الى انهُ من فرق التعليم والرياضة والعادات وزعمت انها تؤيد قولها من كلامي المتناقض حيث قالت برشيق عبارتها « اجتري ، ان اقول ان بعض اقواله متناقضة ... أو ليس هو القائل مع العلامة بروكا : ان زيادة اتساع الجمجمة في النساء قديماً عما هو عليهِ حديثاً كانت (لان) المرأة كانت في ذلك العهد تقاسم الرجل الاعمال اكثر منها في هذا العهد » واستطردت من ذلك الى القول « فما المانع من انهُ لو دامت لها هذه المقاسمة الى هذا الزمان لبقيت مثله أو أسمى منهُ » اقول نعمَ النتيجة لو صحت المقدّمة ونعمَ الحجة عليَّ لو صح النقل عني فعفواً ايتها

السيدة لم اقل ذلك وهـذا قولي « الغريب ان نساء الاجيال التي عاشت قبل التاريخ كانت نسبة سعة جمجمتهنَّ أعظم منها في نساء اليوم قال بروكا وهذا يظهر منهُ (أنَّ) المرأة كانت في ذلك العهد تقاسم الرجل الاعمال اكثر منها في هذا العهد » لا «لانها» وهو على حد قولي ايضاً بعـد ما تكلمت عن تقارب الرجل والمرأة تشريحياً في اوائل الحياة وتباينهما في اواسطها ثم تقاربهما بعد ذلك « وهذا الفرق التشريحي يرافقه فرق في القوى العاقلة والادبية ومنهُ يفهم لماذا يشترك الذكر والانثى بالالعاب في سن الحداثة ثم يفترقان كثيراً في سن البلوغ ثم يتقاربان في سن الهرم » فعلى مقتضى قول حضرتها يجب ان يفهم من هـذا القول ايضاً ان اقتراب الرجل والمرأة وافتراقهما تشريحياً هو لاشتراكهما وافتراقهما بالالعاب والمفهوم بالعكس ولا يخفى ما بين القولين من الفرق في المعنى وان لم يكن بينهما الاَّ زيادة حرف واحـد في اللفظ فمفهوم كلامي نتيجة ومفهوم كلامها سبب وهذا الخطأ منهـا في النقل هو سبب هذا الوهم في نسبة التناقض لكلامي ولضيق المقام اكتفي بالتنبيه اليهِ لازالة هذا الوهم ولا اشك في انه من حضرتها خطأ سهوٍ

ولا أنكر بان التعليم والرياضـة والعادات الخ تؤثر جداً في حال المرأة ويجب أن تستخدم لخيرها ولكن لا اسلّم مطلقاً بانها اذا تساوت فيها مع الرجل ساوتهُ في القوى لاسباب أعدُّها جوهرية في تكوينها وقابلياتها وواجباتهـا هذا اذا كنا نسلم ان القوى والافعال مرتبطة بتكوين الاعضاء ألا ترى ان الاشغال التي تعلها النساء كالرجال واكثر منهم كفنّ الخياطة والطبخ والرسم والموسيقى لا تستطيع المرأة ان تساوي الرجل فيها كما قلت في مقالتي السابقة . على ان نفس مساواتها له بالتعليم والرياضة والعادات لو تأملناها جيداً لوجدناها الاَّ فيما ندر ممتنعة عليها من اصل التكوين فطلب المرأة والحالة هذه مساواة الرجل فرض مستحيل لا يجوز لها ان تضيع وقتها فيهِ وهـذا لا يحطُّ من قدرها لان عليها واجبات اخرى مهمة جداً اذا أحسنت القيام بها لم تعدم حقوقها في الهيئة الاجتماعية

***

(٢) اعترضت عليَّ حضرة الفاضلة السيدة ر . ح . اعتراضات شتى لا يسعني ضيق المقام الاَّ ان آتي الجواب عليها اقتضاباً لكثرة خصيماتي ووجوب الرد على كلّهنَّ صبّةً

واحدة لئلا يعتبنَ عليَّ اذ ان السيدات يصفحنَ عن كل ذنب الأَ ما تُشم منهُ رائحة التفضيل بينهنَّ

قالت : اني بحثت في المرأة والرجل بحث الطبيعيين لا بحث أهل النظر وعابت عليَّ ايرادي بعض امورٍ عن المرأة اقرب الى البحث النظري منها الى البحث الطبيعي مثل قولي « ان الرجل يأكل اكثر من المرأة ولكنها انهم منهُ وان الذي يمنعها من ارتكاب الجرائم انما هو خجلها وحياؤها وحالها من الرضوخ وعوائدها التي تحجبها وضعف جسدها وانها أحيل من الرجل وأخدع لانها اضعف منهُ والحيلة والخداع سلاح الضعيف » ولا انكر بان من هذه الامور ما هو اقرب الى علوم النظر الا اني أقول ايضاً اني لم التزم البحث في الوجه الطبيعي الأَ لكي اجعل للوجه النظري مجالاً اوسع وقيمةً أعظم بتمهيد السبيل له حتى يقل خطاؤه ويكثر صوابهُ اذ لا يخفى ان العلوم النظرية ليست الا الاستقراء والاستنتاج المبنيين على امور مسلمة هي عندهم كالحقائق فكلما كانت هذه الامور المسلَّمة اقرب الى الصواب كأن الاستقراء والاستنتاج المبنيان عليها أصح كذلك . وأي شيء اصح من العلوم الطبيعية التي هي في حكمها كالعلوم الرياضية ولذلك كان كثيرٌ من أحكام النظر المبني على هذه العلوم حكمه كحكم اليقين . على ان من الامور النظرية المتقدم ذكرها ما هو مبنيٌّ على المراقبة والاختبار فقول حضرتها « فباي مقياس قاسوا نهامة الرجل والمرأة حتى عرفوا انها أنهم منهُ » مردود عليهِ بالقول إنهم قاسوها بمقياس المراقبة وان لم يرضها ذلك فبمقياس « الاكل » ولا اعلم ما الذي ساءها من هذا القول وهو ليس قولي بل قول جمهور العلماء المتبحرين في درس طبائع الحيوان ومراقبة افعاله . وان لم يقنعها ذلك فنحن نأتيها بتعليل فلسفي ينطبق على هذا القول لعلها تقنع فلا يخفى ان بين عوائد الرجل وعوائد المرأة بوناً بعيداً فالرجل كثير الحركة كثير السعي . والاشغال التي تطلبها احتياجاتهُ شاقة وتطلب منهُ جهداً جهيداً وسعياً عظيماً خارج مسكنهِ فلا يتأتى له ان يتناول الطعام الا في اوقات متباعدة ولذلك كان لا يجلس على الطعام الا وقعات قليلة ويأكل كثيراً . بخلاف المرأة فان سعيها قاصرٌ على تدبير منزلها وحركتها بالنظر الى ذلك قليلة والاشغال المطلوبة منها وان كانت مهمة الأَ انها غير شاقة بالنسبة الى اشغال الرجل

همومهِ وهي دائماً في البيت وهو دائماً بعيدٌ عنهُ ولذلك كانت تأكل أقلَّ من الرجل وتجلس على الطعام وقعات اكثر منهُ ولهذا كانت أنهم منهُ

وأما كون الذي يمنعها من ارتكاب الجرائم « انما هو خجلها وحياءها وحالها من الرضوخ وعوائدها التي تحجبها وضعف جسدها » . فهو قول بعضهم وكنت اود ان اسلم مع حضرتها بان الذي يمنعها من ذلك انما هو « لانها اميل الى السلام وحب الاتفاق وكره المآثم والشرور » الى آخر ما قالت لاني اريد ان تكون لها هذه الصفات لولا ان هذا التعليل نفسهُ قاصرٌ ويحتاج الى تعليل آخر يعرف منهُ لماذا هي كذلك فلا شك انها كذلك لانها أضعف واذلُّ من الرجل وهذا يولد فيها الخوف ولانها محجبة وان لم تبقَ مقنّعة وهذا يولّد فيها الخجل والحياء وما ادلهما من صفتين لا ارضى للسيدات ان يخجلنَ منهما

وعلى نفس هذا التعليل يعلل لماذا المرأة احيل واخدع من الرجل لكن لما كانت حضرتها لا ترى وجه اقناع في قولي « لانها اضعف منهُ والحيلة والخداع سلاح الضعيف» كان لا بد لي من بسط الكلام عليهِ على وجه اعم تأييداً لهذه الحقيقة النظرية التي هي في ثبوتها كالحقائق الطبيعية المقررة ولا ننظر اليها في انواع الحيوان حيث نرى آلافاً من الامثلة التي تدلنا على ان الحيلة هي كل قوة الحيوان الضعيف لردع عدوان الحيوان القوي عنهُ أو لاخذه في شركه ولولا ذلك لما امكن بقاءه حياً مع خصمه القوي بل ننظر اليها في احوال الامم في العمران فلا يخفى ان الشرائع الحاكمة على الامم كانت في بدء الامر استبدادية ظالمة ولم تزل غير متساوية في كل الاقطار ومعلوم ان الاستبداد يورث الخوف في قلوب الرعية فلا تجد ما يحميها من غضب حاكمها المستبد سوى التملق له والرياء بهِ. والرياء يورث الخداع والكذب وما شاكل ويستحكم فيها ذلك بطول لبثها محكومة بالاستبداد وينتقل في نسلها بالوراثة خلفاً عن سلف حتى يصير فيها اخيراً طبيعةً لا تزول منها بالتعليم والحرية حتى يمرَّ عليها منهما بقدر ما مرَّ عليها من عصور الجهل والاستبداد ولذلك كنت ترى القوم الذين عاشوا تحت ظل الاستبداد واستحكم فيهم الرياء قوماً لا يصدقون ولا يصدّقون وقلّما تجد بينهم صديقاً مخلصاً ولو خرجوا الى نور العلم والحرية ولست تجد بينهم ذلك حتى يمر عليهم فيهِ بقدر ما مر عليهم محجوبين عنهُ . وما قيل هنا

يقال أيضاً عن الرجل والمرأة وكلامنا عام لا يجوز النظر فيهِ الى شعب من الشعوب أو امة من الامم بل الى عموم البشر في العمران فان الرجل لجهله استبد في أول الامر وخافتهُ المرأة فاستسلمت له واقبلت عليهِ متملقة كي تنجو من جوره ولا يكفينا ان ننظر الى نساء الشعوب المتمدنة بل فلننظر الى نساء الشعوب التي لم تزل غارقة في الجهل فلا نكاد نجد امرأة تخاطب زوجها الا كعبد ذليل امام سيده المستبد فكيف يمكن لهذه المرأة ان تكون غير محتالة ومخادعة . وكون المرأة احيل وأخدع من الرجل لا يحط من شأنهـا بقدر ما يحط من شأن الرجل الذي هو سبب ذلك فيها . على اني لا انكر بان هذه الصفات المذمومة في المرأة الجاهلة تنقلب — وهنا اوافق حضرتها — الى مزايا ممدوحة في المرأة المتهذبة بحيث تصير فيها فضيلةً واتضاعاً وطاعة وصبراً وطهراً وعفافاً ومحبة وشفقة وحنوًّا الى آخر ما وَصفتها بهِ من جليل المزايا وحميد السجايا

***

(٣) اني اشكر لحضرة السيدة الفاضلة م . م . الاولى على اطنابها في مدحي واوافقها على ان الرجل اذا كان يمتاز على المرأة بشدة البدن فالمرأة تمتاز عليهِ بجمالها واعتدال قوامها ولطف تركيبها وغضاضتها و بضاضتها اقول وبذلك قوَّتها وقد اشرت الى هذه الامتيازات في مقالتي السابقة خلافاً لقولها اني أهملتها ولا اخالفها في ان انبساط قدم المرأة وكونها تزرُّ ثيابها عن اليسار خلافاً للرجل مسألة مختلفٌ في مدلولها ولكني انكر على حضرتها نسبتي الى التحامل عليها والاجحاف بحقوقها ولا اسلم معها بامور ثلاثة وهي اولاً انكارها كون بطء النمو دليلاً على الارتقاء وسرعتـهِ دليلاً على الانحطاط ثانياً قولها ان حواس المرأة ارق من حواس الرجل ثالثاً كون ثقل الدماغ ليس دليلاً على كبر العقل

اما كون بطء النمو وسرعتهِ دليلين على الارتقاء والانحطاط فأمر مقرر واني استغرب كيف ان حضرتهـا ترتاب فيهِ ويكفينا للحكم فيهِ ان نلقي نظرنا الى ما حولنا لنتأكد صحتهُ في مواليد الطبيعة النبات والحيوان حتى الجماد ايضاً . ألا ترى سرعة نمو النباتات السافلة وبطء تكاثر الحيوانات العالية ولا اوجّه نظرها الى الاحياء المكروسكوبية التي تتكاثر ملايين وتنمو وتبلغ اشدَّها وتهرم وتموت في اقل من ساعة فان مراقبة هذه لا تتيسر

الا للخاصة بل الى الفرق بين النباتات المحولة كالاعشاب والنباتات المعمرة كالاشجار مما تعرفهُ العامة فاي فرق بينهما في سرعة نمو الاولى وبطء نمو الثانية . وما قيل عن النبات يقال ايضاً عن الحيوان وبهِ يعلل ايضاً سرعة نمو البنات وبطوء الصبيان اذ لا يخفى ان البنات يسبقنَ الصبيان لغاية سن ١٥ سنة ثم يقفنَ ويستمر الصبيان على النمو كما قلت في المقالة السابقة

واما كون حواس المرأة الخمس ادق من حواس الرجل فقولٌ مبني على ادلة تشريحية وفزيولوجية مغلوطة والذي اعلمهُ علم اليقين بناء على ما هو مقرَّر في هذين العلمين انها دون حواس الرجل ولنا على ذلك ايضاً برهان آخر عملي وهو امتياز الرجل على المرأة في جميع الاعمال التي تحتاج الى ارتقاء هذه الحواس حتى الاعمال الخاصة بالمرأة نفسها كفن الخياطة والرسم وما شاكل وقد اشرنا الى ذلك في ما تقدم فلو كانت حواس المرأة ارق من حواس الرجل حقيقة لاقتضى ان تمتاز عليهِ في هذه الاعمال بل في جميع الاعمال اليدوية والعقلية ايضاً لاحتياجها جميعها الى الحواس الظاهرة التي هي أبواب العقل على ان بناء هذه الحواس هو كبناء جميع المجموع العصبي ولا يخفى ان هذا المجموع أرقى في الرجل منهُ في المرأة . ولا يعلم سوى ان المرأة أشدُّ انعطافاً من الرجل أعني ان عصبها ينفعل اكثر من عصبهِ لذلك كانت تتأثر اكثر منهُ وشدة هذا التأثر العصبي ليس دليلاً على شدة العصب بل على ضعفهِ كما لا يخفى على علماء الامراض فكون اعصاب المرأة ألطف تركيباً وادق بنية شاهدٌ عليها لا لها

وأما مسألة العقل وارتباطهِ بحجم الدماغ فامرٌ مقرر خلافاً لما زعمت حضرتها والنظر في هذه المسألة كما في جميع المسائل لا يصح الحكم فيهِ الا بالنظر الى الكل لا الى الجزء والا فهناك اسباب كثيرة يكون فيها كبر الدماغ مرضياً لا فزيولوجياً فهذا لا يعوَّل عليهِ وهذا هو موضوع الخلاف في تلك المناقشة التي أشارت حضرتها اليها والتي وهمت منها ما ظنتهُ دليلاً على الضد . فكبر الدماغ الفزيولوجي يرافقهُ دائماً اتقان في نسيجهِ وارتقاء في بنائهِ . ومن المقرَّر المعلوم ان معدل ثقل الدماغ هو اقل في شعب سافل منهُ في شعب عالٍ وفي اقلّ الناس عقلاً منهُ في اعقلهم وفي النساء منهُ في الرجال وغير ذلك نادر والنادر

لا يعتد بهِ . ويوجد ايضاً نظر آخر هو سبب هذا الوهم فلا يخفى ان الدماغ لا يبقى حجمهُ ولا وزنهُ على معدَّل واحد في سائر اطوار الحياة فذلك الجاهل البليد وذلك العالم الفيلسوف المتقد ذهناً في بعض اطوار حياتهِ او في ابَّان صحتهِ قد يطرأ على دماغهما قبل موتهما او في مرضهما ما يغير تركيبهُ فاذا وزنتهُ بعد موتهما وجدتهُ اما كبيراً جداً خارقاً للعادة او اصغر مما يلزم فتحكم على ان القول بنسبة العقل الى كبر الدماغ خطاٌ ويكون الخطأ حقيقة في حكمك نفسهِ . وهذا هو سبب اكثر الخلاف في هذه المسألة والاَّ فلا خلاف اذا نظر فيها الى الكل

واما ما ذكرتهُ من فضائل المرأة وانها المعزية الحزين والمفرّجة المكروب والصابرة على مضض العيش ونغص الحياة والراضية بمشاركة الرجل في سرَّائهِ وضرَّائهِ الخ فاوصاف نسبية ولا تدلُّ على شيء مما نحن بصدده ويشترك الرجل فيها اكثر منها احياناً وقد تقدَّم الجواب عليها في الرد السابق وهي لا تثبت لها الا بالتهذيب الصحيح والا فتنقلب فيها الى ضدّ ذلك وتكون المرأة حينئذٍ بلوى الرجل المكدّرة صفوه والمنغّصة عيشهُ والزائدة حزنهُ والجالبة كربهُ والقاصفة عمره . فالذي يذكر لها تلك الصفات الحميدة ينبغي ان لا يذهل فيها ايضاً عن هذه الصفات الذميمة اقول ذلك لا بقصد التحامل عليها ولكن بقصد استيفاء الموضوع لاننا في معرض نحاول فيهِ تقرير الحقائق فكما ان المرأة المهذبة ملكٌ كريم هكذا المرأة الجاهلة شيطان ذميم وما احرى هذا القول ان ينبهنا جميعاً الى تربية المرأة والاعتناء بتهذيبها تهذيباً صحيحاً يزيد جمالها جمالاً لا تهذيباً مبهرجاً يزيدها شرًّا ووبالاً

٭٭

(٤) اني اقول رداً على خطاب حضرة السيدة الفاضلة م . م . الثانية انه لم يلجئني ملجىءٌ للتحامل على النساء ولكني قصدت في مقالتي تقرير الواقع ولا انكر ان المنتصرين والمنتصرات ضدي كثارٌ كما قالت ولكني اقول ان الحق لا تهوله الكثرة فكم فئة صغيرة غلبت فئة كبيرة باذن الله . واني اسلم معها بان المرأة على خفة عظمها ودقة عضلها لا يوقفها عن الدفاع عن نفسها صلابة عظم الرجل وغلظ عضله لاني لا اجهل ان لها سلاحاً آخر

غير سلاح القوة هو سلاح الحيلة والدهاء

سألت حضرتها ثلاث مسائل (١) هل كانت المرأة في اول عهد الاجتماع مساوية للرجل (٢) هل هي في الحالة الحاضرة مساوية له (٣) هل تكون مساوية له في المستقبل. واجابت على كل ذلك بالايجاب بل ربما توسمت فيها سبقاً عليه ايضاً . وانا اوافقها في جوابها على السؤال الاول وان كنت اخالفها في التعليل الذي يصرفني عن بسطه هنا ضيق المقام واخالفها كل المخالفة في جوابها على السؤالين الاخيرين.

اما كون المرأة مساوية للرجل في الحالة الحاضرة فليس لها عليه دليل سوى قولها « ان المرأة اقدر على اعمال الرجل مما هو على اعمالها بناء على ان من النساء من نبغنَ في الطب والفقه وحسن الملك » ولما كان الجواب على ذلك مستدركاً في مقالتي السابقة بقولي «لا تبعد ان تكون سيادتهنَّ قد استتبت لهنَّ لاسباب اخرى إما لارث ملوكي واما لنبوغ غير اعتيادي » . قالت حضرتها « فنحن لا نقول الخلاف لاننا نعلم ان الرجل منذ اتيح له وضع القوانين والشرائع وتفضيل نفسهِ على المرأة وهضم حقوقها وامتيازاتها لم يعد يتهيأ لها تولي المناصب العظيمة » فبمَ تجيب حضرتها يا ترى لو سألناها لماذا « اتيح له وضع القوانين والشرائع وتفضيل نفسهِ عليها الخ » ولم يتح لها ذلك . لا شك في انها تجيب لانهُ اقوى منها . وبذلك تجيب ايضاً لو قلنا لها عن طبيباتها وفقيهاتها « انهُ لا يعلم انهنَّ سرنَ الا على خطوات الرجال مقلدات غير مخترعات » وعن مليكاتها « انهنَّ لم يحكمن حكمهنَّ الا بمساعدة الرجال » ولا يحسن الملك بهنَّ الا اذا كنَّ فيهِ صورة لا حقيقة كما في مملكة ارقى الشعوب اليوم والا فيسرنَ بالملك الى الوبال كما دلت عليهِ التواريخ . واما قولها ان المرأة ستكون مساوية للرجل في المستقبل بل ارقى منهُ فهذا لا دليل لها عليه ومناقض لما علم من سنن ارتقاء الرجل والمرأة حيث تقرر ان الانثى اقوى من الذكر في الحيوانات السافلة ومساوية له في الحيوانات المتوسطة واضعف منهُ في الحيوانات العالية اللهمَّ الاَّ ان تكون تخاف على الهيئة الاجتماعية في المستقبل من الانحطاط فيتحقق قولها ولا اظن ان حضرتها تعد لمستقبل الهيئة الاجتماعية مثل هذا الشرّ

على اني اعجب غاية العجب من تحامل حضرات السيدات عليَّ وتوهمهنَّ بي سوءًا

وانا لم ابخسهنَّ شيئاً من حقوقهنَّ بل بالضد من ذلك بحثت في امرهنَّ بحثاً طبيعياً لتقرير مقامهنَّ في العمران وهـذا يعد انتصاراً لهنَّ لا تحاملاً عليهنَّ . او ماذا يقلنَ (وهنَّ لا يحتملنَ مني ذلك) في الشرائع التي يدنَّ بها والتي تجعلهنَّ تحت الرجل بدركات وتحظر عليهنَّ اموراً كثيرة لا تحظرها على الرجل . أليست هي القائلة فيهنَّ « المرأة ضلعٌ من الرجل والرجل رأس المرأة » حتى لا نأتي الا باخف ما قالت فيهنَّ . او ماذا يرغبنَ في مزاحمتهنَّ الرجال وطلبهنَّ المساواة بهم أيرغبنَ ان يشتغلنَ اشغالهم فان كان كذلك فلقد طالما جد الرجل وكد وسعى في طلب الرزق حتى كلَّ وملَّ والمرأة عائشة على نفقتهِ مرتاحة من اتعابهِ خالية من تجشم اهواله فلتتفضل حضرتها ان كانت تجد من نفسها قوَّة وتجند منها الجند وتؤلف العمال وتشيد الاعمال وتسعى وتجد وتكدح وتكد في طلب العيش فقـد آن لها ان تشتغل وللرجل ان يستريح فان كانت تستطيع ذلك فلتقدم عليهِ فيكون لها بهِ اجر المحسنين والا فلا تضيع الوقت الثمين في طلب المستحيل ولترض بمركزها فانهُ ليس اقل اهمية من مركز الرجل

٭٭٭

(٥) لقد طاب لي المقام وطال بي الكفاح والصدام في هـذه الحرب مع السيدات حتى صار الخروج منها الى حرب ذوي لحًى وشوارب[١] غبناً وايَّ غبن ولذلك اقتصر في الرد على جنـاب الاديب (خ . س) بالاشارة الى الوهم الذي جعله يعترض اعتراضه عليَّ في مقالتهِ التي وضعها تحت عنوان « الرجل والمرأة وهل يتساويان » حتى اذا انتبه اليهِ اصلحهُ وهو في قوله اولاً « والذي يلوح لي ان الانثى والذكر متساويان في القوة اصلاً ثم كلما ارتفعت في سلم النشوء انحطت قوَّتها الخ » وثانياً في قوله « ولمـا كان القائلون بامتياز الانثى على الذكر قوَّة في الحيوانات السافلة لا بدَّ لهم من مستنـد يقررون بهِ قولهم فنطلب الى الدكتور شميل ان يفيدنا عن بعض مستنداتهم هذه » فنجيب حضرتهُ على القول الاول بان المسألة ليست من قبيل اللوح حتى يلوح له بالحدس

(١) كان من الذين كتبوا في هذا الموضوع رجل فاضل نشر رده في ذيل ردود السيدات فقابله الكاتب بهذا القول من باب المداعبة

والتخمين ولكن من قبيل اليقين المقرر بالمراقبة والاختبار . وعلى القول الثاني بانهُ لو انتبه الى معنى قولنا « فمن المعلوم لاهل النقد من علماء طبائع الحيوان ان الانثى اشد من الذكر في الحيوانات السافلة الخ » لعلم ان المراد بهذه الشدة ان الانثى اكبر من الذكر في جسمها واشد في بنيتها وأقوى في قوتها كانثى النحل والزنابير والفراش وكثير من الاسماك والحشرات فهذه هي المستندات التي يطلبها حضرتهُ وفيما عدا ذلك فاني شاكرٌ لحضرتهِ على انتصاره لي واطرائهِ عليَّ والسلام ختام

المقالة الثالثة عشرة

« القضاء على القضاء (١) »

ما خلص الانسان من شباك علم اللاهوت وامتيازات الرؤساء حتى وقع في حبائل اشد وادهى وهي علم الحقوق او اللاهوت الاجتماعي كما صار اليه اليوم والثورة التي يقتضيها تغيير هذا النظام المقدس سيكون هولها شديداً لتأصله في قلب الاجتماع وامتداده الى اعماق نظاماته . ولكن اليوم الذي سيتخلص الاجتماع منه ويردهُ الى شكله البسيط سيكون نعمة عظيمة ايضاً اذ تنصرف القوى الضائعة فيه بذلك الى تمهيد السبيل القويم لسرعة ارتقائه الارتقاء الحقيقي

« لو انصف القاضي استراح الناس »

اليك اكتب أيها القارئ العاقل والعاقل المتأمل ولا اطلب منك علماً واسعاً وفلسفة بديعة وحكمة بليغة بل اطلب منك عقلاً حلت قيوده وتفتحت منافذه واقام التفكر مقام الاعتقاد والبحث مقام المقرر يقدر مستنتجات العلم قدرها ولا يبخس مستنبطات العقل حقها . فاعرني سمعك قليلاً ولا اكلفك حلماً طويلاً قبل ان ترميني بالاغراب لاستغرابك

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨

عنوان مقالتي وتقول من ذا الذي يريد قلب الموضوع وتغيير المطبوع لاني على يقين بانك اذا امعنت نظرك وسرت معي شوطاً غير بعيد في هـذا البحث الاجتماعي لم تعد ترضى بالوقوف عند الحد الذي أوقفتك عنده تعاليم وضعها الناس على ما بهم من الجهل والغواية وأدخلوها الى عقلك بالارهاب والترغيب حتى رسخت فيه وصارت في اعتقاده قضايا مسلمة لا تقبل التغيير وجرت على ألسنة الناس مجرى الامثال واعتبروها من الحكم الباهرة وهي لو تفحصتها وجدتهـا اوهى من نسيج العنكبوت يمزقها التمحيص تمزيقاً ولا تثبت على جمر الانتقاد بل لو دققت البحث فيها جيداً لاستغربت جـداً كيف يستطيع العقل ان يضل هذا الضلال ويحيد عن الجادة المثلى والامثلة التي امامهُ من الطبيعة كثيرة ترشده الى خلاف ذلك وتعلمهُ طريق الصواب . والطبيعـة هي الكتاب الوحيد المنزل الذي ينبغي ان يعول عليهِ وان نرجع في احكامنا اليه

***

جرى على ألسنة الناس مجرى الامثال قولهم « لو أنصف الناس استراح القاضي » وربما لم يخطر على بال احد انهُ سيقوم أناس يعتبرون مثل هذا القول خطأ ويرون الصواب في عكسه ويؤيدون قولهم بادلة تنطبق على العلم ويقبلها العقل ولا يجرحها الأ كثرة عدد الجمهور المستغرق في سبات الاقتناع والراقد على اديم التواتر

والعلماء والحكماء لا يهمهم ذلك ولو نالهم منهُ صدمة قوية زعزعت اركان مصالحهم . ولكنها لا تستطيع شيئاً على افكارهم والمستقبل لهم اي لمبادئهم فهؤلاء الناس يقولون «لو أنصف القاضي استراح الناس » ويريدون بالقاضي هنا القضاء عموماً لا الاحكام الخصوصية التي يصدرها القضاة احياناً كثيرة وتكون عرضةً للانتقاد كحكم المحاكم الاهلية في قضية الاختلاس الذي وقع في احدى مصالح الحكومة اذ افلتت القوي عملاً بقوله

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقي مربض المستأسد الضاري

وخففت العقاب على المرتكب الاصيل وشددتهُ على الشريك فمثل هذا الحكم لا يوجد له لفظة تقوم بوصفهِ في قاموس اللغة الفصحى ولا يوجد له ذلك الا في اللغة العامية واللغة العامية ولا يخفى تعبر احياناً كثيرة عن معانٍ لا تصل اليها اللغة الفصحى فالعامـة

تطلق على مثل هـذا الحكم اسم « حكم كربوني » وربما لم يعدم العلماء وصفاً لمثل هذا الحكم ينطبق على علم الاعصاب الحديث فاطلقوا عليه اسم (حكم هستيري) فمثل هؤلاء الناس يعتبرون ان عدم الانصاف كائن في القضاء نفسه وهو سبب متاعب الانسان في العمران

⁂

فالقضاء هو احدى الشريعتين العظيمتين اللتين تتوليان قياد الهيئة الاجتماعية وهما الشريعة الدينية والشريعة السياسية فبحسب حال هاتين الشريعتين تكون حال الانسان في العمران

وقد انقضى الزمان الذي كان الجهل سائداً فيـهِ على العقل والذي كان الانسان يقول فيه

اذا قلت المحال رفعت صوتي وان قلت الصحيح اطلت همسي

فليس للانسان شرائع منزلة الا ما انزل جهله عليهِ من الخرافات والاوهام فشرائع الانسان من صنع الانسان وهي تابعة لحاله من الانحطاط والارتقاء حقيقة توجب الفخار لقائلها بمقدار ما تجلب العار على مقاوميه

⁂

فالعقاب الذي هو اساس الشرائع عموماً والقضاء خصوصاً أثر من آثار الهمجيـة وبقية من بقايا توحش الانسان الاول وما دام هذا المبدأ الفاسد أساس القضاء فاصلاح الهيئة الاجتماعية بهِ امر مستحيل بل اذا دققنا النظر جيداً وجدنا انه سبب الشر «الكثير في العمران» كالقتل والسرقة وخصوصاً الكذب الذي هو اصل كل الشرور وان لم يكن سببها الحقيقي فهو السبب المساعد على انمائها قال هولباخ « إنا لا نرى هذا القدر من الجنايات على الارض الا لتضافر كل شيء على جعـل البشر اشراراً جانين فان دياناتهم وحكوماتهم وشرائعهم وتربيتهم والامثلة التي يرونها نصب اعينهم تدفعهم الى الشر فما عسى ينفع تعليم الفضيلة التي يذهب اصحابها غنيمة باردة في هيئات اجتماعية ترفع شأن الجاني وجنايته وتجل قدر المسيء واساءته ولا تقاص اقبح الذنوب الا اذا كان مرتكبوها

ضعافاً فان الهيئة الاجتماعية تقاص الصعاليك لذنوب ترفع شأن اصحابها اذا كانوا كبارًا وكثيراً ما تقضي بالموت على اناس لم يرتكبوا القبيح الا لفساد احكامهم بالاعتقادات الفاسدة التي تكون الحكومة قائمة بتعزيز شأنها »

فان هذه الشرائع التي لم ينظر فيها الاَّ الى العقاب للانتقام وهذه المعاملات التي لم يقصد منها الاَّ القسوة للارهاب هي التي ولدت اكثر الصفات الرديئة في البشر ولا نرجع الى العصور الخالية ونبش قبور الذين عذبتهم الغايات السياسية والمصالح الدينية ليس من الافراد فقط بل من الجماهير والامم لنثبت صحة هذا القول بل ننظر الى عصرنا الحالي فان الطمع الشديد المستحوذ على اهله والجنوح فيهِ الى استعمال الحيل والخداع والكذب دليل على انحطاط في تقرير الحقيقة والصدق وارتقاء مخيف في نمو الكذب وعلى من الذنب أليس على الهيئة الاجتماعية نفسها أليس الاطناب في تعظيم هذه الرذائل والارشاد اليها جاريًا على الالسنة مجرى الحكم كما في قول الشاعر

ان لم يكن عندك حظ فليكن عندك حيلة

وما هي الحيلة يا ترى أليست الخداع وما هو الخداع أليس الكذب وبلسان من عبر الشاعر بقوله

والصدق ان ألقاك تحت العطب لا خير فيهِ فاعتصم بالكذب

أليس بلسان الهيئة الاجتماعية نفسها حتى صار الكذب شيئاً لازماً في الحياة الخصوصية كما في الحياة الاجتماعية . في صناعة الحب كما في صناعة الحكم على الجماهير . ألسنا نحن الذين علمنا الانسان ان يكذب لانهُ رآنا نعاقبه على الصدق وان يسرق لانا حجبنا عنهُ ما يحتاج اليه فالكذب عادة الذنب في انتشارها على الهيئة الاجتماعية . وهو الذي يجرنا الى ارتكاب الجناية وهذه الهيئة التي تعلمنا ذلك وتجرنا الى ذلك هي التي تطلب معاقبتنا على ما اكسبتنا اياه بالعادة ومكنتهُ فينا بالوراثة

⁂

وانواع العقاب الكبرى ثلاثة القتل والحبس والتعذيب فبهذه العوامل البربرية الثلاثة يسطو القضاء على الهيئة الاجتماعية التي وكلت اليه صيانة مصالحها ومما يدلك على

ان هذه العوامل الثلاثة من آثار التوحش زوال بعضها وتلطيف البعض الآخر فان التعذيب الذي كان سلاح القضاء في عصور الخشونة كاد يزول من اكثر الممالك المتمدنة وقل القتل واصطلحت حالة السجون نوعاً فبعد ان كان الجاني يلقى في اعماق السجون المظلمة محجوباً عن الهواء والنور اللذين منَّ بهما الخالق على الاخيار والاشرار صار يسمح له بان يرى النور و يستنشق الهواء وهذا الاصلاح الطفيف المعيب الذي يفتخر بهِ القضاء اليوم هو عار على القضاء ووصمة تخجل منها الانسانية ولا يستطيع ان يفاخر بهِ اقل الاصلاحات التي حصلت في اقل الفروع المعاشية التي تهم الهيئة الاجتماعية

وما دام القضاء لا يتخذ مبدأ له دفع الشر عن الهيئة الاجتماعية وتوفير النفع لها عوضاً عن العقاب للانتقام فهو بعيد عن الغاية التي تطلبها منهُ هذه الهيئة وهي صيانة مصالحها وتمهيد طرق اصلاحها

و بما يكون دفع هذا الشر وتوفير هذا النفع أبالاعدام الذي هو نقص في الشرائع كما ان البتر نقص في الطب ولا يجوزان الا اذا تعذر الاصلاح ام بالتعذيب و بالاشغال الشاقة وهي معاملة خشنة تمكن الانسان من الاخلاق الوحشية وتبعده عن الانسانية ام بالسجون التي هي قبور في الحياة لا يكتسب الانسان فيها الا فساد صحته من سوء الغذاء وقلة الهواء والنور والنظافة وفساد اخلاقهِ لما بها من سوء المعاملة وعدم الاعتناء بالتربية الحسنة يأكل الانسان فيها ويشرب و ينام وقد يجتر كالحيوان و يقلّ عنهُ في انهُ لا يعمل عملاً مفيداً ولا يكتسب عملاً مفيداً سقوفها تمطر البق وارضها تنبت القمل وجدرانها تشف عن الرذائل أفي مثل هذه الاماكن المعدة في الاصل للانتقام نأمل ان نصلح الجاني وان توفر نفعهُ للهيئة الاجتماعية كلا ثم كلا فالهيئة الاجتماعية نظلمها واي ظلم اذا كنا نظن انها تطلب منا ان نقتص لها من جناتها انتقاماً منهم حاشا ثم حاشا ان تطلب ذلك من نفسها ضد نفسها وهي في صحة عقلها و بالحقيقة من هم الجناة أليسوا من الافراد الذين يؤلفون الهيئة الاجتماعية نفسها . فلقد انقضت تلك العصور الخشنة عصور الجهل التي كانوا يغفلون فيها مصالح الافراد ولا يدركون قيمة لهم كأن ليس لهم حق في الحياة الاستقلالية وليس لهم شأن في الحياة الاجتماعية ولا يستحقون رحمة بهم ولا عطفاً عليهم من الانسانية ولكن

نور العلم الوهاج الذي يزداد كل يوم نوراً والذي هو نبراسنا الساطع في ظلمات هذا الوجود ودليلنا الذي لا يضل في مجاهل هذه الحياة آخذ في تمزيق غياهب الضلالات التي اورثناها الجهل وكل يوم يهتدي بهِ العقل الى تعظيم شأن الافراد في الاجتماع الانساني كما هو شأنها في الاجتماع الطبيعي لتأييد دعائم الاقتصاد السياسي الذي هو نوع من الاقتصاد الطبيعي لان الافراد هم الاساس الذي تبنى عليهِ الجموع وتنشأ منه الجماهير وتتألف منهُ الهيئة الاجتماعية فالعبث بحقوق الافراد عبث بحقوق الهيئة الاجتماعية نفسها

***

ومن ينكر أن السجون على حالتها الحاضرة هي منشأ الجرائم والرذائل وكل الشرور التي تتأصل في الهيئة الاجتماعية فلا شك انهُ من القحة على جانب عظيم . وانه لعار على القضاء ان يكون الاخير في الاستفادة من مكتشفات العلم والصناعة وسائر معدات المتمدن ولئلا أرمى بالجسارة والتحامل اقول لنقابل بين المستشفيات في الماضي ومعاملة المرضى فيها والمستشفيات اليوم ومعاملتهم فيها وبين السجون في الماضي والسجون اليوم ومعاملة المسجونين فيها . فقد جاء في الكورسبوندانس مديكال بتاريخ ٣١ مايو من هذه السنة عن المستشفى المعروف باوتل ديو باريز الذي هو اقدم مستشفيات اوربا (فانهُ انشيء في سنة ٦٥١) نقلاً عن تقرير تنون في سنة ١٧٨٦ ما نصه . وكانوا يطبخون في قاعات المرضى الطعام المعد لهم وكانوا يضعون عدة اشخاص في سرير واحد حتى كان الداخل اليها يكاد يختنق »

***

بل ننظر الى معاملة المجانين في المارستانات في الماضي كيف كانوا يضربون ويعذبون ويهانون ثم ننظر الى ما صارت اليه المستشفيات والمارستانات اليوم من الاتقان البالغ الغاية القصوى من توفير اسباب الراحة والاعتناء بالصحة حتى صارت تحاكي قصور الملوك لننظر الى ذلك ونقابله بحالة السجون والمسجونين في كل المعمورة هل توجد نسبة بين الاصلاح المعيب الذي حصل في السجون والاصلاح البالغ الغاية في المستشفيات والذنب في ذلك على من . أليس على القضاء نفسه الذي لم يعرف ان يستفيد من اتعاب الانسان كما استفاد

سواه بل الذي لا يزال مستمسكاً بالقديم المنتقل اليه من عصور غلب جهلها على علمها معتبراً انهُ ما وجد الاَّ للارهاب والعقاب والانتقام وهو بذلك يزيد مصائب الهيئة الاجتماعية خلافاً لما يطلب منه وهو اصلاحها وتخفيف ويلاتها كأن اهل السجون لا يستحقون هذه العناية . فكيف استحق مرضى الاجسام اعتناء رجال الفضل والحكومات بهم ولا يستحق مرضى الاجتماع منهم ذلك لان اهل السجون ليسوا بالحصر الا مرضى في الهيئة الاجتماعية سواء كان بالمعنى الحقيقي او بالمعنى المجازي

⁂

بل اهل السجون هم مرضى بالمعنى الحقيقي مرضى في عقولهم مرضى في شهواتهم مرضى في ارادتهم مرضى في قوتهم المتصرفة فمعلوم لكل ذي عقل ولا نحتاج الى اقلاق العلماء والاستشهاد باقوالهم لاثبات ذلك ان اصحاب الجرائم قسمان قسم يرتكب الجرم بقصد الكسب او شهوة اخرى وقسم يرتكب الجرم مندفعاً اليه باسباب اقوى منه من دون أدنى روية أو تبصر في العواقب فالاول يسرق ويقتل ويرتكب الفحشاء ولا يستطيع القضاء غالباً ان يمد اليه يداً لانهُ عاقل يتخذ الاحتياطات اللازمة لستر جريمته فهذا المسئول عن عمله والذي يجب على القضاء ان يعاقبهُ فليبحث عنه لا في السجون وعلى مصاطب المحاكم بل في القصور على فاخر الرياش ووثير المهاد فالمجرمون ليسوا كلهم في السجون كما ان المجانين ليسوا كلهم في المارستانات وليس منهم في السجون الا المرضى بالمعنى الحقيقي فعوضاً عن ان نعاملهم كما يعامل اخوانهم في المستشفيات نرانا شاهرين فوق رؤوسهم سيف ديموقلس اي سيف النقمة للاقتصاص منهم وهم اولى برحمة الطبيب

⁂

اقول اولى برحمة الطبيب ولا ابالغ ولو عارضني معارض لهب لنصرتي من ارباب العلم والذكاء الوف كل واحد بمقام الاف من ابي الطب ابقراط المتوسد في قبره من عصور طويلة الى شركو وبال ولمبروزو من مشاهير علماء هذا العصر واتباعهم الذين يعدون اليوم بالآلاف وخصوصاً هذا الاخير الذي يرأس المدرسة الحديثة التي تبحث عن طبائع المجرمين فلنسمع ماذا يعلمنا شركو عن متشيطني الامس ومصروعي اليوم الذين

كثيراً ما يصيرون مجرمين . فقد كان الناس في العصور الخالية يعتبرون الهيستريات (اي المصابات بالهيستريا وهو مرض عصبي واللواتي يصنعون لهنَّ الزار في هذه البلاد) ان بهنَّ شياطين فكانوا يحاولون اخراج هذه الشياطين بكل ما لهم من الوسائل الدينية والسرية فان لم تنجح عمدوا الى تعذيب الاجساد التي كانوا يزعمون ان الشياطين حالة فيها بكل انواع العذاب كالجلد والصلب والتقليب على شوك الحديد والحريق بالنار بعد ان كانوا يقيدونها بسلاسل الحديد ويلقونها في اعماق السجون المظلمة هذا ما كان يفعله رجال الدين ورجال السياسة بمثل هؤلاء المساكين قبل شركو ومن تقدمهُ من افاضل المصلحين وما كان عدد المتشيطنين ليقل بهذه المعاملة الوحشية واما اليوم فمن فضل شركو الذي افاد الانسانية من هذا القبيل في سنين قليلة اكثر من كل الشرائع قبله صاروا يعتبرونهنَّ من طائفة المرضى الذين يجب الرفق بهم ومعالجتهم في المستشفيات البالغة الغاية القصوى من الاتقان وما زاد عدد المتشيطنين بهذه المعاملة الحسنة بل قلَّ جداً مما يدل على ان الشياطين انفسهم يذعنون للمحاسنة اكثر منهم للمخاشنة

***

و « بال » يعلمنا ان المجانين ليسوا كلهم في المارستانات فان افعال العقل المختلفة قد تختل من جهة مع بقاء الجهات الاخرى سليمة مما يمكنهم ان يعيشوا بين الناس بحالة لا تختلف ظواهرها عن حالة العقل السليم فاذا طرأ عارض هيج الجانب الضعيف ظهر الاختلال في العقل وربما جر ذلك صاحبه الى ارتكاب الجناية وسيق الى الحاكم . قال « ماريليه » « يوجد بين الذين تحكم عليهم المحاكم عدد كبير من المختلي الشعور واذا دققنا النظر نجد ان اكثر الجرائم صادرة عن اناس غير مسئولين فالمعتوهون وضعفاء العقول والذين بهم حؤول ورأْي واصحاب الصرع واصحاب الهذيان المزمن قد يصيرون مجرمين اذا عرضت لهم الفرص بسبب ما بهم من الخلل في القوى العقلية وهذه الفرص كثيراً ما تعرض لهم فيغتنمونها »

ولا ريب بانهُ سيكون للمبروزو في المستقبل في اصلاح المجرمين نفس الفضل الذي كان لشركو في معاملة اصحاب الامراض الهستيرية ولا نبعد كثيراً عن الزمان الذي

سيضطر فيه القضاة ان يتموا دروسهم الشرعية بالاقامة ولو سنة في مستشفيات الامراض العصبية ليروا بأعينهم ويجسوا باصابعهم اوجاع الانسان ليعرفوا كيف يجب ان يحكموا فيها

***

والحاصل مما تقدم ان القضاء ما دام أساسه العقاب وما دامت السجون لا تحول الى مدارس تعلم فيها الصناعات وتهذب فيها الاخلاق وتحول فيها قوى المجرمين الى منافع والى مستشفيات يعالج فيها مرضى الاجتماع كما يعالج فيها مرضى الاجسام مدارس ومستشفيات بالغة الغاية القصوى من الاتقان فهو عار على الانسانية وعقبة كبرى في سبيل اصلاح الهيئة الاجتماعية

المقالة الرابعة عشرة

﴿ القضاء على القضاء [1] ﴾

﴿ استئناف ﴾

العادة ان الكاتب اذا نشر شيئاً في احدى الصحف ولو كانت سيارة يمس شخصاً آخر سواء كان انتقاداً أو مدحاً او طعناً ان يرسل نسخة من العدد المنشور فيه ذلك الى صاحب الشأن افتراضاً منه انه غير مشترك في تلك الجريدة او تنبيهاً له اذا كان مشتركاً

وكثيراً ما وقع لي مما دلني على ان هذه العادة الحميدة المتبعة في البلاد المتمدنة غير مرعية في هذه البلاد بين كتابنا وخصوصاً عند جرائدنا ولا يخفى ما يوجب ذلك من المؤاخذة ومن ضياع الفائدة احياناً كثيرة . وما حملني على التنبيه الى ذلك الان الا ما وقع لي مع جريدة السلام الغراء التي تطبع في الاسكندرية فانها نشرت مقالة لحضرة الكاتب البارع الشيخ نجيب الحداد ردَّ فيها على مقالتي « القضاء على القضاء » التي نشرت في احد اعداد البصير الاغر ولم يبلغني خبرها الا بعد نشرها بثلاثة ايام ولم يتيسر

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨ وهي رد على راد

لي الحصول على العدد المنشورة فيه الاً في اليوم الرابع اذ قصدت ادارة جريدة الاخبار البهية وسألتها ان تنيلني هذه الامنية وقلت في نفسي هذا عقابي على محاولتي نقض العقاب ولم ادرِ انه اخف العقابين

فاغتنمت هذه الفرصة لابداء ملاحظتي من هذا القبيل ورجائي ان كتابنا وجرائدنا عموماً يقبلون ذلك مني من وجهه الحميد ويضموا هذا الواجب الى ما لهم من الفضل في اعلاء شأن الكتابة والصحافة في بلادنا العربية

***

وقد تصفحت هذه المقالة بما يجب على كل امرء من الاعتبار للافكار والاحترام للاشخاص تاركاً الاعراض والاغراض متمسكاً بالجوهر . وشكرت حضرة الكاتب على حسن ظنه بي واطرائه عليَّ بما توهمهُ بي من قوَّة الحجة وحسن البيان وحب الخير والاحسان وان لم يشفق عليَّ في انتقاده ولم يعترف لي بشيء من صحة البرهان اذ عد مقالتي نسيج اضاليل واباطيل وزخارف اوهام تجوز على بعض الافهام وتناقضاً من أغرب ما ورد عليهِ وضعف نتيجة مما تكفي افهام القراء للحكم فيه ولا عجب فان الناس ينظرون الى الاشياء كل واحد من الجهة التي ألفها وانا لم اكن اشك لما كتبت ما كتبت وخالفت فيهِ من خالفت ووافقت من وافقت اني ساصادف عقبات تميد لها الجبال الرواسي والتي مقاومات تشيب لها النواصي فليس من السهل هدم بنيان راسخ تنزل اسسهُ الى أصل الانسان وتمتد الى الحيوان وتقطيع سلاسل تربطه اليها من يوم هام في الاوهام وحل عقائد صقلت عقدها لشد ما تقادمت حتى صارت كالعروة الوثقى ومنشأها اضغاث احلام واصل كل ذلك فيه بعيد واثره فيه حتى اليوم شديد

نعم لم اكن اشك في ملاقاة كل هذه الصعوبات ولم انخدع بحكم الجمهور الصارم في امري ولكن الذي لم اكن أتوقعهُ صدور مثل هذا الحكم القاسي ممن هم في مقام الخاصة كحضرة الشيخ الفاضل والخاصة هم قادة العامة وواسطة مرقاتها من حضيض الجهل الى ذروة العلم اذ لا فكر للعامة الا بهم ولا رأي لهم الا منهم

وغاية ما كنت اتوقعهُ مخالفتي في بعض الاوجه مع الموافقة ولو على البعض الآخر

واقل ما كنت انتظره ان تحدث مقالتي في العقل تأثيراً يحدث فيه تفكيراً يزحزحهُ عن مألوفه المتقادم عليه ويطلقهُ من عقاله المربوط فيهِ ويجيز له النظر في كل شيء وانتقاد كل شيء ويسهل له سبيل الارتقاء والخروج عما الفه بالعادة وتمكن فيهِ بالوراثة وصار في اعتباره من البديهيات التي لا تقبل النقض لانا ان لم نطلق العقل من عقاله كيف نطمع بان نزحزحه عن ضلاله

الا ان حضرة الشيخ لم ينظر الى مقالتي هذا النظر ولم يرَ فيها هذا الرأي ولم يرُق له ما فيها من المبادئ ولا ما يترتب عليها من النتائج فلم يرُق له قولي « ان العقاب الذي هو اساس القضاء أثر من آثار الهمجية وبقية من بقايا توحش الانسان الاول بل هو سبب الشر الكثير في العمران » واغفل قولي « ان لم يكن سببهُ الحقيقي فهو السبب المساعد على انمائه » فكنت بذلك في نظره « كالذي يثبت ان المقدمة تزول اذا زالت النتيجة وهو عكس القياس العقلي تماماً لان الشر في الدنيا انما كان اولاً ثم كان العقاب من بعده فهو كالداء الذي لم توجد له الدواء الا بعد وجوده والفاضل الشميل يقول اذا منعنا العقاب منعنا الشر اي اذا كسرنا زجاجة الدواء زال الداء » اه

ه

ولا نصعد الى اصل الانسان في الحيوان لنبين كيف تولد الشر لان حضرة الشيخ ربما كان لا يوافقنا على ذلك وان كان من الحقائق المقررة اليوم بل نكتفي بالقول ان الانسان وجد في اول الامر على الارض وكل شيء مباح له ويصعب ان يكون كثير الشر في هذه الحالة طالما يجد كوخاً يأويه وارضاً تخرج نباتاً يغذيه وماء يرويه ثم حظر على الضعيف ما نالته يد القوي والحاجة تدفع الضعيف الى السعي وراء رزقه والاثرة تحمل القوي على الاستبداد بما ملكت يداه فنشأ عند ذلك الملك بوضع اليد عن قوة وكيف يستبد المالك بملكه ان لم يحمهِ بمعاقبة كل من مد اليه يداً ثم كيف يسع الضعيف ان يقصر يده عن ان يمدها الى ما بهِ قوام حياته فنشأت السرقة ثم اخذ يتفنن في الشر كلما زاد علماً وزاد صاحب الملك استبداداً فيه ومن هذا نستفيد فائدتين اولاً الاستبداد والعقاب صنوان وهما قديمان في الانسان غريزيان فيه يوم كان اقرب الى الحيوانية وثانياً هما سبب

اكثر الشرور التي لجأ الانسان اليها في اول الامر دفعاً للظلم ورضوخاً لحاجات ضرورية لا يسعهُ ان يصم اذنيه عنها

فالعقاب لم يوضع في اول الامر ردعاً للشر لان الانسان الذي يسعى وراء رزقه لا يعتبر سعيه شراً وسعيه في اول الامر كان وراء رزق مباح ما لبث ان حظر عليهِ باستبداد يد أقوى من يده فيه وهو من آثار التوحش كما رأيت ثم كثرت المحظورات بتكاثر عدد الناس وانتظامهم في جمعية كبرى وتسلط القوي على الضعيف ووضعت الحدود على ما شاء الاقوياء ونظمت الشرائع على هذا المبدأ ثم ألفها الانسان بالعادة وسوّى نفسهُ عليها لان الانسان في استطاعتــه ان لم يستطع ان يغير الاحوال له ان يغير نفسه لها وهكذا بعد ان كان العقاب سبباً للشر صار بحكم هذه الحدود رادعاً له

* *
*

فبهذا الاعتبار يزول ما نسبهُ اليَّ حضرة الشيخ من تقديم النتيجة على المقدمة ويستوي القياس العقلي ولا اخال حضرتهُ الا يعلم حقيقة الاسباب والمسببات فالشيء الواحد يكون سبباً أو نتيجة بحسب الوجهة التي تنظر اليه منهــا . ومهما يكن من ذلك فان ضربه مثل كسر زجاجة الدواء لشفاء الداء فيهِ شرود فان هذا المثل لا يصح الا اذا صح قياسه وصح ان العقاب هو الدواء اللازم الذي لا يقوم مقامه دواء لشفاء امراض الاجتماع لان نسبة القضاء الى امراض الاجتماع انمــا هي كنسبة الطب الى امراض الجسم وما نسبة العقاب اليهِ الا كنسبة الدواء الى الطب والاختبار يدلنا على ان الدواء متغير وسير الهيئة الاجتماعية في امر العقاب دليل قاطع على انه يمكن الاستغناء عنـه واستبداله بطرق تدفع عن الهيئة الاجتماعيــة شر الجاني وتوفر لها منفعته باصلاحه لا بالعقاب بل بمعاملتهِ معاملة الجاهل والمريض معاً كما ابنّا في مقالتنا السابقة

على ان العقاب لا يسعهُ ان يصلح الجاني ولا ان يقوم اعوجاج الهيئة الاجتماعية لا بصورته القديمــة ولا بصورتهِ الحاضرة وهو في كلا الصورتين وحشي ونسبتهُ الى الهيئة الاجتماعية واحدة فلما كان يتناول العذاب والقتل للتشفي والانتقام كان الانسان في حالة من الهمجية تبعده جداً عنه اليوم فاذا كان العقاب قــد تلطف اليوم فالانسان قد ترقى

كذلك فاذا كنا اليوم نرمي الاقوام الذين تقدمونا وكانوا يستعملون العقاب على صورتهِ القديمة بالتوحش فسيقوم ابناؤنا من بعدنا ويرموننا في العقاب الذي نستعمله اليوم بالتوحش كذلك . بل العقاب على صورته الحاضرة ما زال مفسداً للاخلاق مساعداً على انماء الشر يدخل بهِ الجاني الى السجن بشرّ ويخرج منهُ بشرور وخوف العقاب لا يردع جانياً عن جنايتهِ ولا يرد فاسداً عن فساده بل يحمله على الكذب خصوصاً وفي الشرائع الاجتماعية ينبغي ان تكون وجهة الشارع اصلاح الفاسد لا حمله على التفنن في اساليب الفساد خوف العقاب ولو جاز لي ان أسرّ اليك ما تخاطب بهِ ربك عند اعترافك له بخطاياك لأبنت لك ان الانسان يخجل من ان يكون الدافع له نحو ربه خوف العقاب أو الطمع في الثواب (لا خوفاً من جهنم ولا طمعاً في النعيم بل حباً بك يا رب) او يكون مثل هذا القول كذباً

* *

ولا ادري باي قياس عقلي جاز لحضرته ان ينكر ان خوف العقاب هو الذي علَّم الانسان ان يكذب وكيف يفهم قوله « انا لم نعاقب المجرم لانه يصدق بل لانهُ يقر بذنبهِ في ذلك الصدق » ومتى علم الانسان انهُ اذا صدق في اقراره بذنبه يعاقب ألا يرى حضرتهُ انه يحاول حينئذٍ عدم الاقرار بهِ وما هو الكذب يا ترى غير ذلك وأليس خوف العقاب من قول الصدق في ذلك الاقرار هو الذي حمله عليهِ ام لا يجوز لنا ان نقصد النتيجة البعيدة من قولنا ألسنا نحن الذين علمنا الانسان ان يكذب لانهُ رآنا نعاقبهُ على الصدق » وهل يجوز ان يفهم منه غير ما تقدم أما كان يغنينا هذا الفهم عن التلاعب بالالفاظ حرصاً على المعاني . فمهما يكن من ذلك أليس خوف العقاب هو الذي يدفعنا الى الانكار فاقل شرور العقاب الكذب وهو امُّ المعاصي ألا ترى الطفل الصغير قبل ان نعوج طبيعته المستقيمة أو نزيد اعوجاجها اذا كانت عوجاء بتربيتنا له التربية السيئة كيف يميل الى قول الصدق ولا يعدل عنهُ الى الكذب الاَّ خوفاً منا ومن عقابنا فاذا كسر ابنك صحناً او زجاجة دواء ولو فارغة وسألتهُ بانسٍ أقرَّ لك بالحقيقة فان بادرتهُ بالتهديد والوعيد او كنت قد عاقبتهُ على ذنب سابق فانا اضمن لك انهُ لا يقرُّ لك مطلقاً ويحاول بكذبهِ النجاة من غضبك ولهذا السبب ولسوء معاملة الوالدين لاولادهم كان

اكثر الاطفال ينشأون كذابين . فهل ينكر هنا تأثير العقاب في افساد طبائع الاطفال

* *
*

ام بأي قياس عقلي يرى التناقض في هذه الحقيقة الواضحة في قولي « ألسنا نحن الذين علمنا الانسان ان يسرق لانا حجبنا عنهُ ما يحتاج اليه » وهل له ان يفهمنا كيف تولدت السرقة في الانسان اولاً ولا نخاله الا يسلم بأن السرقة نشأت في الاصل عن احتياج الانسان الى شيء حجب عنهُ وهذا الشيء في اول الامر كان من الضروريات لحياته لان احتياجاته الاولى كانت بسيطة جداً لسد جوع أو ارواء ظمأ وقد أبنّا في ما تقدم كيف حجبت عنهُ هذه الحاجات الضرورية وكيف اضطر ان يسلك للاستحصال عليها بالالتجاء الى السرقة وغيرها من الوسائل التي صارت ذنوباً ووضعت لاجلها الحدود وسنت الشرائع ولا نريد من ذلك الرجوع بالانسان الى الاباحية التي تجعل كل شيء مباحاً له وانما غرضنا ان نبين ان الشرائع التي وضعت في الاول لصيانة حقوق القوي التي صارت حقوقاً بالطرق التي تقدم بيانها لم تستدرك مراعاة حقوق الضعيف فلم تفرض على القوي ما يكون بمثابة تعويض للضعيف على ما اهتضم من حقوقهِ ولا ذنب له الاّ ضعفه بل جعلت كلها لصب جام النقمة على رأسهِ وهذا الذي يسعى رجال الاصلاح في كل الاقطار لتحويل الانظار اليهِ لاستداركه

وأما الماعة في عرض ذلك الى ذكر الفوضوية والاشتراكية وذكرهما على اسلوب يوهم القاريء انهما وصمة لا يريد ان ينسبهما اليَّ لئلا اتلطخ بعارهما فلا اريد منهُ ان يخجل عني منهما اذا فهمهما بمعناهما الحقيقي وكما افهمهما أنا فما هما الا اخوات تلك الجمعيات أو بناتها — ومنها الجمعيات المسيحية في اول عهد النصرانية — التي ما فتيء الانسان يؤلفها منذ صار عقله قادراً على ان يفهم مبدأ الشرائع وما فيها من الحيف والتي ليس لها غرض سوى مقاومة أصحاب السلطة وتحويلهم عن اعوجاجهم وحملهم على السلوك في سبيل اقرب الى مصلحة العموم ولولا فضل هذه الجمعيات في كل العصور على اختلاف اسمائها واتفاق معانيها لما تزحزح الانسان شبراً عن المكان الذي اجلستهُ فيهِ شرائعه الاولى والفوضوية او الاشتراكية لا تطلب حقيقة الا ما نراه كل يوم في نظام الطبيعة

الصامتة من اشتراك الجمهور في مصلحة الجمهور واعتبار الافراد ضروريين للجمهور والزام الجمهور بمراعاة مصلحة الافراد فلو وجد في الحكومات (وسوف يوجد في المستقبل) نظام مثلاً ينظر الى مصالح الافراد بحيث يجعل الجمهور ينتفع من قوى كل فرد ولا يضيع أقوى فرد ويجعل هذا الفرد ينتفع كذلك مما فيه من اقوى ألا كنت تظن ان الحالة الاجتماعية تكون أصلح مما هي الآن فتقل مصائب الافراد وتقل الشرور وتكثر منافع الجمهور. ولا يخدعنا في غايات هذه الجمعيات ما نراه من الوسائط المشجوبة التي يعمد اليها اكثرها فنظنها الغاية المقصودة منها فما هي بالحقيقة الا سلاح الضعيف لمقاومة القوي وتحويل الافكار اليها وايقاظ العقول الخامدة وتنبيهها الى التبصر والافتكار

***

ثم دفع قولي ان العقاب من آثار التوحش القديم قال وكان دليله على ذلك تعديل القصاص وتلطيف انواع العقوبات والعذاب فكأنهُ بذلك يستدل على ان كل شيء يجري فيهِ الاصلاح بعد حدوثه يكون فاسداً في اصل وضعهِ وان القضاء ما دام يمكن اصلاحه فهو فاسد الوضع وان العقاب ما دام يصلح ويلطف فهو ظلم من اصله ولا وجوب له في هيئة الاجتماع فاذا قلنا له ان الطب ممكن الاصلاح دائماً (وهو في مقالتهِ قد شابه بين الطب والقضاء) فهو اذاً من آثار التوحش الذي لا وجوب له في هذا العهد الخ » ففيه من التكلف والاضطراب ما لا يخفى ويجرنا الى مبحث يصرفنا الاشتغال فيهِ عما نتوخاه في بحثنا من المعاني فانا لم اقل ان القضاء لا وجوب له وهو للاجتماع كالطب للابدان وهل يجوز ان يستنتج ذلك من طعني في العقاب ام هل العقاب هو القضاء نفسه ام ليست نسبة العقاب الى القضاء كنسبة الدواء الى الطب فاذا حكمنا بفساد الطرق العلاجية (والطب قديم وقد تغيرت هذه الطرق فيهِ جداً) بدليل تعديلها او تبديلها فهل يلزم من ذلك ان نستنتج ان الطب لا وجوب له وهنا يعذرني حضرة الشيخ اذا اظهرت منتهى استغرابي ورحم الله الشيخ جمال الدين الافغاني فانهُ كان كلما عرضت له مشكلة من هذا الطراز لا يجد جواباً عليها احسن من قوله « سبحان الله »

وأما كلامه في السجون فلا يختلف عن كلامنا فهو يوافق على اصلاحها انما يخالفنا في

غايتها فهو يريدها ان تبقى محلاً للعقاب ويزعم ان الاصلاح لا يتم بدون ذلك وهو بذلك متفق مع نفسه لاعتباره العقاب الدواء الافضل لتقليل الجرائم ونحن نريدها مدارس ومستشفيات لتهذيب الاخلاق وتقويم المعوج من الطبائع وغرضهُ ان يدفع الشر عن الهيئة الاجتماعية ولو بتضحية هذه الهيئة لقلة اعتداده بالافراد وغرضنا دفع الشر عن هذه الهيئة مع توفير المنفعة لها بتوفير اعضائها وقد تقدم ان العقاب بمعناه وطرقه لا يفي بذلك بل هو عقبة كبرى في سبيله . هذا واني في الختام اشكر حضرة الشيخ الفاضل لان مقالتي لم تذهب عنده من دون صدى وان كان على غير ما احب فلكل منا فكر يلزم اعتباره فهو يرى ان ليس في الامكان ابدع مما كان وانا ارى ان في الامكان ابدع جداً مما كان

المقالة الخامسة عشرة

﴿ احناء وانحاء (١) ﴾

اشتد القرُّ . واقرسني البرد . وبيوت القاهرة لا للحر . ولا للصرد . فلجأت الى وقود الفقير . وهو في الشتاء دفا وفي الصيف سعير . فقمت امشي متثاقلاً كأني من اسد الشَّرى . او من صيد الشَّرى . ومالي من بأس ولا شرًى . فيتهمني الناس بالعُجب وانا ارمقهم بالعَجب . كأني لا ادرك ما بهم من العامة وكأنهم يجهلون ما بي من الوصَب . وما زلت أنحو نحوي واراهم كأنهم ينُحون عليَّ . حتى شعرت كأن سلطان غلهم قد افرغ اليَّ . فتذكرت . ما قلت :

مصر هل أنت غير ما هنَّ ان لنَّـــا شداداً وان قسونا ركاكا
ذاك خلق من صنع فرعون لما شاد اهرامها تناغي السكاكا

ولكم نصرتهم في معمعة . فذكرت قول ابن صعصعة :

فاقطع لبانة من تعرض وصله ولشر واصل خُلة صرَّامها

(١) نشرت في الصاعقة (٢٢ محرم سنة ١٣٢٦)

ولولا خوفي ان يشكل الايماء . حتى على واضع رسالة الغفران . ومجيز الشعراء في الجنان. لما ذكرت هنا البيت . ولاكتفيت . بالتلميح عن التصريح — وما ضرب صاحبها على هـذه الغنّة . الا ليقول لنا ان الشعراء قد يكونون من اهل الجنة . وحولهم الحور والولدان . والقيان والدنان . يغترفون من انهارها بمرافد من عسجـد . وهم فيها متكؤن على ارائك من زبرجد . وكأني ارى عليها حافظاً واحمد (١) . هذا يسيغ وذاك يزرد

وما كدت افرغ من هـذا الانحاء . ومن التأمل في ما في الاخلاق من الاحناء . حتى عارضني من صدّني عن الطريق القويم . وارجعني من سماء ما كنت فيـهِ أهيم . فرفعت نظري واذا انا بصديق قديم . فقلت من اين . والى اين ؟ فقال اليوم اتيت من غربتي . ونزلت الى الشوارع افرج كربتي . فهل لك ان تقبلني معك في الطريق . فقلت له نعم الرفيق . — واذا بصوت يصدع . تتبعهُ حوافر تقرع . وشيء كالصندوق قائم على عجل يشق هذا المجتمع . فقال لي ما هذا الذي أرى ؟ رجل يسابق الجياد فاين السبق؟ (٢) قلت هذا باق من عصر سبق . وكأنهُ من بقايا عصر الصوان . لمـا كان الانسان . في مقام الحيوان . وهذا الصندوق يصون مفترشاً لاكبر عين من الاعيان . ولكن ذلك قد قلّ . لان عندنا اليوم ما هو أجلّ . واذا بصفير يكاد يمزق اذن الاصم . وشيء مندفع كالسهم . فقال ما هذا ؟ قلت من السيارات . التي امطرتنا سماء المضاربات . والذي عليها ولا يغرّنك حسن بزتهِ لص ولكن انظر الى الناس كيف يرفعون لهُ القبعات و يغترفون بها الثرى . لانهُ أثرى كما ترى . قال وهذا الذي اراه . كانه في نعمى تفوق نعماه ؟ قلت هو من سلالة الوزراء . ولكن عرشه اليوم في الصحراء وعلى الماء

ثم علت الضوضاء فقال ما هذا الصخَب . كأن الناس في شغب . فنظرت واذا بالناس يتجمهرون ثم ينفضون والمركبات وقوف. والكل عجِل ملهوف . فقلت هذا موكب الامير فهش وبش . وتهيأ للسلام فقلت مهلاً وقد يمر الربع والنصف قبل ان يركب . وقبل ان يمر الموكب . وما هـذا الأ تمهيد الطريق للمسير . قال وكيف ؟ أفي هذا التعقيد تمهيد ؟ أما ترى ما في هذه المصادرة . من المنافرة ؟ وكأني ارى هناك ان بين بعض الناس

(١) شاعرا مصر حافظ ابرهيم واحمد شوقي (٢) اشارة الى « المجري » الذي يعدو امام الخيل

ورجال الحفظ مهاترة . هؤلاء يصدونهم عن الطريق. واولئك يتذمرون من هذا التعويق. ألا ترى ان الامير لو اخذهم فجأة لراءهم على ما هو احب . والمفاجأة ادعى لاظهار الحب . فقلت له لعل الامير لا يعلم لانهُ يُحِب شعبه ويريد ان يُحب

وما زلنا نسير . ويسألني عن القليل والكثير . حتى اقبلنا على بناء لا بالفخيم ولا بالذميم . وقبل ان يبادرني بالسؤال . قلت له هذا ملهى تمثل فيه مختلقات الخيال . من الوضع المناقض للطبع . ولولا مناجاة النفوس بالحان الموسيقى . لكانهُ كل ما فيه ملفقاً على الطبيعة تلفيقاً

ثم التفت وقال وما هذا الذي ارى الناس فيه يدخلون ويخرجون . ألعله مصلّى . قلت كلاَّ . ثم قلت له مـه وصه . ثم همست في اذنهِ وقلت . هناك اناس جالسون على منصاتهم كالارباب . يقضون في مصالح الناس بلا ارتياب . يلبسون اردية كاهل المساخر . حتى اصبحوا في كل اعمالهم يستمسكون بالاعراض ويعرضون عن الجواهر . مفتونون بقانون ليس للعدل فيهِ ام ولا اب . وبنظام أعقد من ذنب الضب . هذا يصعب الدخول فيهِ والخروج منهُ على العالم الفِطَحل . وذاك يتيه فيهِ صاحب الحق ويصول فيه صاحب البطل . والطريق الوعر صعب المسالك والطريق السهل اقرب الى العـدل . — فقال دعني من التحكك بهم واني لغني عنهم باذن الله . قلت لا يعلم ذلك الا الله

ثم قفلنا راجعين فاذا بهِ يقول فما هذا النقض . فاذا الناس كأنهم في شجار . ونقار . يرتفعون بعضهم فوق سنام بعض . كأنهم من خلف . ذلك السلف . قلت هذا معهد في الصورة صغير . وفي المعنى كبير . فهو نادي اخوان . اكتشفوا سراً ولا سر « مركوني » وقد يشبه سر « لموان[١] » فيلعبون على الهواء من غير حبل البهلوان . وهذا سبب ما ترى في البلاد من الرخاء . قال واين الرخاء . قلت قل اذاً من البلاء والخسران

⁂

واذ نحن في التجوال . رأينا جمعاً يموج كالبحر الزاخر . تجلله السكينة والوقار والمهابة والجلال . حتى انك لتحسبنه ساجياً وهو مائر . فقال . وهذا الجمهور . قلت هذا يوم تجلي

(١) محتال زعم انه اكتشف سر صنع الالماس . والمراد بالنادي البورصة

الشعور . ولعله اعظم يوم في تاريخ مصر . من اول الدهر (١) . فسلام على الروح التي في الحياة مثلهُ . والف سلام على الامة التي بجليل هـذه المظاهرة احيتهُ . ويا حبذا تلك المنابذة . من جمهور التلامذة . ويا حبذا ذلك النفور

***

ولكي تعلم الفرق بين ما ترى وما تقدم . اذكر لك ما كان عليه القوم . قبل اليوم . اذ كانوا يصادرون . فلا يفوهون . كأنهم لا يشعرون . واذا احس احدهم فكأنه ملجم . حتى قلت يوماً من كلام ظاهره الهزل وباطنه الجد . وبالضد يتبين الضد . وذلك في أوائل الاحتلال على عهد اشتداد الخصام . بين المقطم والاهرام

في مصر قامت ثورة　　بين المقطم والهرم
من عهد عادٍ ما سمعـــنا مثلها بين الامم
جاشت عليه «جيوشه»　　حتى اذا كادت تهم
لاقت عنًى من «هوله»　　كادت تشيب لها اللمم
. . . .
وتساقط الاشلاء واصـ　　ـطبغت مياه النيل دم
تلك المياه واين من　　محمرّها صافي الديم
كست الطبيعة حلةً　　خضراء فاضت بالنعم
حربٌ ولكن نارُها　　برد لايقاظ الهمم
وتنبهت من بعد طو　　ل رقادها تلك الرمم

قال نعم الانقلاب . ثم قال وما مصير الاحزاب . بعد هذا المصاب . قلت له مادام « دنلوب » . لا يقال ولا يأوب . فلا خوف عليهم ان يفقدوا ناصرها . فهو كل يوم يشدّ لهم اواصرها . ولاجله فليحمدوا الاحتلال . في كل حال

ولما اعيانا التعب . وكنت قد دفئت قمت اداري ما بي من الوصب . فركبنا عربة عند الاصيل . وقصدنا النيل . إله مصر المحيي . وغيثهـا المروي . حتى وصلنا الى النهر .

(١) اشارة الى ما كان عليه مشهد المرحوم مصطفى كامل من المهابة والجلال

فوقفنا بين الجزيرة والجسر . والمركبات تمر امامنا مرور السهم . فتذكرت قول علي بن الجهم [١] . واذا بصاحبي يقول وما هذا القصر ؟ القائم على ضفة النهر . فقلت هذا قصر العميد الجديد . قال وهل كان قبله عميد ؟ قلت كان قبله قرم عنيد [٢] . قال وهذا ؟ قلت لا رخو ولا شديد [٣] . كأنهُ يسير بقوة الاستمرار . او بالاتكال على الاقدار . وليس فيهِ شيء من تلك الاثرة . كانا معهُ في زمن الفترة . فاما ذلك منهُ دهاء . ووراءه نقمه . واما صفاء ووراءه نعمه . واما اليوم فلا حديث للناس على عهده الا بالازمة [٤] اه

المقالة السادسة عشرة

﴿ الاذكار والاناث [٥] ﴾

ان نظر ديوزن اليوم في سبب تولد الذكر والانثى يقرب جداً من نظر القدماء فقد قال الامام فخر الدين محمد بن عمر الرازي في عرض كلامهِ على تولد الاجنة « ان من الناس من يولد اناثاً فيستحيل ان يولد ذكوراً وذلك بسبب استحالة المزاج لا بسبب ان الزرع تارةً خرج من الذكر وفيهِ اجزاء عضو الذكر وتارة خرج من الانثى وفيهِ اجزاء عضو الاناث » وهو قول صريح بان اختلاف جنس المولود ناشيء عن استحالة في الزرع لاستحالة في المزاج لا عن سبب آخر وهو من أعجب ما وصل الينا عن القدماء في شأن القول بالتحول . ولا يخفى ان استحالة المزاج انما تكون بالتغذية وهو عين مذهب ديوزن والتغذية حاصلة في الزرع ايضاً والقدماء علموا ذلك فقد قال محمد بن زكرياء « ان الزرع في غاية القلة فلا بد من قوة غاذية تزيد في جوهره حتى يصير بحيث يمكن تكوُّن الاعضاء منهُ » . وهو عين مذهب الفيزيولوجيين اليوم

(١) عيون المهى بين (الجزيرة) الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث ادري ولا ادري

(٢) اللورد كرومر (٣) السير غورست (٤) اشارة الى الازمة المالية التي اقتضت على مصر على اثر الشركات الكثيرة التي انشئت فيها حتى تناولت الارض الجرداء والماء وكادت تحتكر الهواء وعلى اثر المضاربات باوراقها الموهومة والحكومة ناظرة لا « تهش ولا تنش »

(٥) نشرت في المقتطف سنة ١٨٨٢

وقد علل الرازي ذلك بما لا يختلف عن تعليل ديوزن معنى وان اختلف عنهُ لفظاً قال: « ان السبب الاصلي للذكورة سخونة الزرع والانوثة برده » ولا يخفى ان سخونة المزاج وبرودتهُ حالتان من احوال التغـذية . والبرودة او كما يقال الرطوبة أيضاً تكثر في أصحاب خصب البدن المفرط وبعكس ذلك السخونة او اليبوسة فانها تغلب في القضيف وهذا هو نظر ديوزن حيث قال ان كثرة الغذاء سبب الانوثة وقلتهُ سبب الذكورة . ثم ذكر لهذه السخونة اسباباً منها « ان يكون زرع الاب غالباً في الكيفية والكمية على زرع الام » وهو كقول ديوزن « كما غلبت قوة احد الوالدين التناسلية على الآخر غلب ان يكون النسل من جنس الغالب » ومنهـا ايضاً « حصول هذه السخونة بسبب الاغذية والبلدان والفصول والاعراض النفسانية والحركات البدنية أو ما يتركب منها » وهو يعم ما يتناوله مذهب ديوزن على الاطلاق لانهُ اذا ثبت ان التغذية سبب الاذكار والايناث فلا يعود في الوسع انكار ما للاحوال الخارجية والنفسانية من التأثير في ذلك بناء على ما لها من التأثير على القوة الغاذية نفسها . وبناء على ما لهذه الاسباب من الاثر البيّن وعلى كثرتها واختلاف نتائجها باشتراكها مع سواها ومع بعضها وقال ايضاً « واذا تعددت اسباب الذكورة لم يلزم في من اشبه اباه في الذكورة ان يشبهه (في الصورة) بل ربما اشبه الام او ربما اشبه جدًّا بعيداً (١) وليس يبقى له زرع فقد حكي ان واحدة ولدت من حبشي بنتاً بيضاء ثم ان تلك ولدت ابناً اسود (٢) ومما ذكره في المشابهة مما يحل النظر فيهِ عنـد المتأخرين قوله « واما المشابهة في الصورة والشكل فقد عرفت ان زرع المرأة ليس فيهِ الاَّ القبول وزرع الرجل ليس فيهِ الاَّ التأثير فانهُ اطاع زرع المرأة لقبول صورة الاب ومادة الاب لا شك انها تقتضي تلك الصورة لا جرم يخرج الولد على صورة الاب وان كان لا يقبل الاَّ صورة الام اضطرت القوة الفاعلة الى ان تفيدها تلك الصورة فلا جرم يخرج الولد على صورة الام وان كان لا يقبل لا هذه الصورة ولا تلك حصلت صورة اخرى استعدت المادة لقبولها بحسب اسباب معدة جزئية لا يحصى عددها » وقد بسط

(١) وذلك ما يعرف في مذهب دارون بناموس الرجعة او الاتافيسم (٢) مراده ان تلك البنت ولدت من ابيض ابناً اسود

الكلام على هذه الاسباب قال « وقال قوم من العلماء ان من اسباب الشبه ما يتمثل عند العلوق في وهم الرجل او المرأة من الصور الانسانية تمثلاً متمكناً اقول (والقائل الرازي) والذي يدل على صحة ذلك وجوهٌ احدها إنا نرى الحيوانات البرية قريبة التشابه بعيدة عن الاختلاف ونرى الصور الانسانية قوية الاختلاف بعيدة التشابه ونرى الحيوانات الاهلية متوسطة في ذلك وما ذلك الا لان الانسان بسبب احساساته وتخيلاتهِ الكثيرة تختلف صور اولاده واما الحيوانات فتخيلاتها قليلة جداً فالحيوانات البرية لما كانت محسوساتها قريبة التشابه لا جرم كانت احساساتها كذلك وكانت صورها متشابهة واما الحيوانات الاهلية فلما كانت محسوساتها مختلفة وتخيلاتها قليلة كانت في التشابه والاختلاف في حد التوسط وثانيها إنا نرى الانسان تختلف احوال بدنهِ بحسب اختلاف احوالهِ النفسانية من الغضب والفرح وامثالها فما المانع ان يكون لذلك اثر في اختلاف الزرع وثالثها ان الرعاة يشهدون لاختلاف حال الانعام بحسب اختلاف محسوساتها في الالوان والاحوال واذا صحَّ ذلك ثبت ما امر بهِ الصادق المصدق من ان الانسان ينبغي ان يتخيل حال المباشرة صور الصديقين الصالحين » . ومثل ذلك قال ابن سينا في كلامهِ على الاذكار حيث ذكر ان الاذكار هو في حرارة زرع الذكر وغزارتهِ وثخنهِ اي في غلبتهِ على زرع الانثى وفي البلد والفصل ومما قاله في ذلك « ان الريح الشمالية تعين على الاذكار والضد على الضد » وما قال ذلك الاَّ لاعتقادهم ان الريح الشمالية تجفف الابدان . ثم ذكر تأثير الاحوال النفسانية واستحضار الصور في الذهن عند المباشرة على نحو ما ذكره الرازي قال « ويكون الانسان في اسر حال واطيب نفس وابهج مثوى ويفكر في الاذكار ويحضر ذهنهُ الذكران الاقوياء ذوي البطش ويقابل عينيهِ بصورة رجل منهم على اقوم خلقهِ وانبل هيئتهِ » وليس في هذا الامر شيءٌ من الغرابة اذا اعتبرنا ما تقدم من تأثير الاحوال النفسانية وسواها في التغذية انما لا ينبغي ان يطمع فيهِ باكثر مما تقتضيهِ الاحوال لكثرة الاسباب التي تعترض ذلك وثانياً لان اثر الاشياء وان يكن ينطبع على الاعضاء انما لا يثبت فيها الاَّ على مقدار ملازمة عاملهِ لها ويضعف كلما كان مفارقاً

ومما ذكر الرازي في ذلك قوله « والذكر من الاجنة تمام تكوُّن خلقتهِ اسرع من تمـام تكوُّن الانثى وذلك لان الذكر اقوى حرارة واقل رطوبة فالزرع الذي هو مادتهُ يكون كذلك » وهو نتيجة لازمة لما قدمهُ هو وديوزن في سبب الاذكار والايناث ولعل علم تولد الاجنة يثبت ذلك فان المولودين في الشهر السابع يغلب كونهم ذكوراً نقول ذلك عن ظن لا عن يقين

واعلم ان التغذية المفرطة وقلة الحركة ربمـا اورثا العقر ايضاً لما ينشأ عن ذلك من احتباس العضلات وضعف القوة الحيوية ودليلنا قلة نتاج الحيوانات المسمنة التي لا تعمل في الارض بخلاف القضيفة المجهودة في الاعمال الشاقة فانهـا كثيرة النتاج غالباً ولذلك كان يكثر العقر في المتنعمين القليلي الرياضة المكثرين من الغذاء ولهذا كان احسن علاج لهم الاقلال من غذائهم والاكثار من حركتهم حتى تنشط ابدانهم وتعتدل قواهم وتحسن افعالهم اي تنتظم وظائفهم

﴿ وفي هذا المعنى ايضاً [1] ﴾

قال بقراط « لكل شيء سبب طبيعي وبدون سبب طبيعي ليس يكون شيء » وكلما تعمق العلماء في مباحثهم تحقق لهم صدق هـذا القول . ولقد طالما عدَّ الناس تولد الذكر والانثى من الاسرار التي يقصّر العلم من ادراكها والظاهر ان هـذه المسألة كسواها من المسائل الطبيعية لا تخرج عن هذا القيد فقد ذكر هكل من عهد غير قريب في كتابهِ الانثروبولوجيا وكتابهِ تاريخ الخلق الطبيعي ان التذكير والتأنيث من افاعيـل التغذية . وقـد ذكرت الجرائد في هذه الاثناء كتاباً لاحد العلماء المدعو ديوزن طرق صاحبهُ فيهِ باب البحث عن سبب التذكير والتأنيث وقال فيهِ ان زيادة الغـذاء وشدَّة التغذية سبب تولد الانثى وقلة الغذاء وضعف التغذية سبب تولد الذكر وقد اورد على ذلك براهين كثيرة وادلة مختلفة . وقد ذكر المقتطف في عدده الماضي تحت عنوان «سرُّ التذكير والتأنيث » ملخص هـذا الكتاب باوفى بيان واحسن اسلوب ومرادنا هنا ان نذكر ثلاثة ادلة ترجيحاً لهذا القول وهي

(١) نشر في المقتطف سنة ١٨٨٢

اولاً ان النحل اذا ماتت ملكتهُ عمد الى نحلة من النحل الجاني الذي ليس بذكر ولا انثى وحوَّلها الى انثى تقوم مقام الملكة التي ماتت وذلك بوضعها في بيت خصوصي اكبر من سائر بيوتهِ وبالاعتناء بغذائها والزيادة فيه. ومعلوم ان بيض النحل الغير الملقوح يولّد الذكور والملقوح يولّد الاناث ومعلوم كذلك ان البيضة من الكائنات الحيـة التي تغتذي وان اللقاح من الغذاء وهذا كلهُ دليل بيّن على ان الجنسية نتيجة التغذية

ثانياً قد تبين من امتحانات دُرْن ويونغ على دعاميص الضفادع ان الدعاميص التي يكثر غذاؤها يغلب تحوُّلها الى اناث والتي يقل غذاؤها الى ذكور

ثالثاً ان في الحمل التوأمي ثلثي التوائم ذكور كما يعلم من علم الامبريوجنيا اي علم تولّد الاجنة وسبب ذلك قلة الغذاء فاذا استوت تغذية التوأمين كأن لم يكن لهما سوى كيس واحد ومشيمة واحدة متصلة اوعيتها بعضهـا ببعض كانا كلاهما من جنس واحدٍ اما ذكرين واما اثنيين . فان كانت المشيمة مزدوجة فتختلف تغذية التوأمين غالباً ويكونان غالباً من جنسين مختلفين وكل ذلك يوافق ما ذكره ديوزن من ان كثرة الغـذاء تولّد الاناث وقلتهُ تولد الذكور . وهنا ايضاً ترى الاسباب الطبيعية تقوم مقام الاسباب الغائية

المقالة السابعة عشرة

﴿ فكرة الخير والشر (١) ﴾

قال الشاعر العربي :

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفـةٍ فلعـلة لا يظـلمُ

وقال المقتطف : « كنا نراقب في هذه الاثناء ولدين صغيرين صبياً وبنتاً عمر الصبي نحو سنتين وعمر البنت نحو اربع سنوات فرأيناهما يكذبان ويخدعان ويحتالان . ولو رآهما علماء الفلسفة الادبية الذين يقولون ان اصول الآداب مودعة في نفس الانسان ولا تنفك عنها البتة لغيروا اعتقادهم »

(١) نشرت في المقتطف سنة ١٩٠٨

وذهب فريق الى ضد ذلك فقالوا ان اصول الآداب مودعة في الانسان فهي في نفسهِ وعقلهِ وان فكرة الخير عامة مطردة في البشر وهي لازمة ضرورية وغير ممكن ان تنفك عن القوى البتة

قرأت ذلك في المقتطف وتذكرت المثل : «النفس امّارة بالسوء» وقلت في نفسي: لماذا هذا الاختلاف العظيم بين جمهور المفكرين فلا بد ان يكون هناك اسباب جعلت كلاً من الفريقين يرى رأياً مضاداً للآخر . فما هي هذه الاسباب

كل انسان علت مداركه او انحطت تراه اثنين في آن واحد يحدّث فيأمر بالمعروف ويعظ فيحث على الفضيلة ويكتب فينهى عن المنكر ثم يفعل فتجد افعاله في الغالب مناقضة لاقواله . ويشتد هذا التناقض اكثر عند النظر الى هذا المعروف الذي يأمر بهِ والمنكر الذي ينهى عنهُ بحسب الوجهة التي ينظر اليها منها . فلا بدَّ لذلك من سبب جوهري يغفله الباحثون في هذا الموضوع

اكثر الباحثين في افعال البشر ينظرون اليها كأنها افعال مجردة وقلما ينظرون الى العلاقة التي بينها واذا نظروا اليها فمن اطرافها البعيدة وهي شديدة الاختلاط كثيرة التضاعيف كالحلقات المتسلسلة يحار العقل فيها ان لم يردها الى بسائطها

افعال الانسان قائمة على مبدأ مشترك بين سائر الكائنات فناموس الالفة في الجماد وحب الذات في الانسان من مبدأ واحد وغايتهما واحدة اي حفظ كيان كل واحد منهما وافعالها البسيطة اي المجردة عن كل روية واحدة ايضاً في دفع الاذى وجلب المنفعة وتسمى طبيعية في الجماد وبديهية في الحيوان والانسان وهي كائنة ايضاً في النبات ولا عبرة بالاسم وانما العبرة في ان كلاً من العوالم الثلاثة من جماد ونبات وحيوان خاضع لنفس هذا الناموس في حفظ كيانهِ فاذا نظرنا الى هذه الافعال والغاية المترتبة عليها وهي حفظ الذات لا يسعنا الاَّ ان نقول ان الغاية الاولى منها ليست الشر بل الخير . وخير المحبة ما ابتدأ بالذات كما في المثل المعروف

ولا ينكر ان هذه الافعال يترتب عليها حدوث الشر ايضاً فان الجماد الذي يفك ائتلاف سواه لخيره الذاتي انما يضرُّ بذلك السوى اذا اعتبرنا مثل هذا الحلّ اضراراً

وكذلك النبات الذي تنطبق اوراقهُ على الذباب الواقع عليهِ حتى يموت . والحيوان الذي يفتك بسواهُ لمصلحة نفسهِ . فان مثل هـذا الفعل المترتب عليه الخير الذاتي لم يقع بدون اضرار . فان كان القصد من البحث في هذا الموضوع معرفة الفكرة الاولى المرتبة عليها هذه الافعال فلا يسعنا الا ان نقول انها الخير لان الشرّ حدث معها عرضاً ضرورةً لتعذُّر وقوع ذلك الخير بدونهِ . واما اذا كان القصد الخير مجرَّداً والشر مجرَّداً فالبحث حينئذٍ يستنفد قوانا ولا يأتي بطائل لان الخير والشرّ مجردين ليسا في هذا العالم

وفي أفعال الانسان تختلط الامور كثيراً جداً لاشتراك الروية فيها وتختلف ايضاً لاختلاف هذه الروية وما استفادتهُ من الاختبار ولكنها لا تختلف في الغاية التي تصبو اليها وهي حفظ الذات حتى ولو انكر الانسان نفسهُ واتى أفعالاً تخالف هـذا المبدأ في الظاهر فلا ينكرها من جهة الا حبّاً بها من اخرى خوفاً من عقاب او طمعاً بثواب

ومهما اختلفت الروية فمحورها واحد . هنا اثنان كلٌّ منهما ينظر الى مصلحة نفسهِ فهذا تدلهُ مداركه على ان مصلحتهُ لا تتأتى له مع مصلحة سواه فيستأثر بالمنفعة او ما يظنهُ كذلك ويتعمد الاضرار بسواهُ ويقدم عليهِ مطمئن الضمير معتقداً انهُ يفعل خيراً كما في منازعات الاديان والاوطان مثلاً . وهذا يرى باختياره ان مصلحتهُ لا تقوم الا بمصلحة سواه فلا يخطئها وهو عالم كما في مسائل العمران عموماً

وأما الاستشهاد بالطفلين وكذبهما واحتيالهما وخداعهما فليس بالدليل القاطع فالكذب ليس من طبيعة الطفل ولا من موجب له لديه فالطفل يصدق حتى يعلم ان صدقهُ قد يجني عليهِ فيعمد الى الكذب دفعاً للضرر . فالكذب عارضٌ على الطفل من جنس تربيتنا له . خذ طفلاً ارتكب ما نعده نحن ذنباً ولم يعرض له في نفسهِ ولا شاهد في سواه ما يحملهُ على التروّي قبل الاقرار واسأله من عمل هذا ؟ فلا شك انهُ يجيبك على الفور بقوله أنا فاذا عاقبناه عليهِ كما هو الغالب أفتستغرب بعد ذلك اذا لم يصدقك اذا اتى أمراً غير جائز في عرفنا نحن لا في عرفهِ هو لان الطفل لا يعرف الجائز من غير الجائز في اول الامر ولا يعرفهُ الا منا وكيف يعرفهُ منا الا بالعقاب ولا يرى نجاتهُ حينئذٍ الا بالكذب فيكذب ويكذب حتى في ذنب ارتكبهُ على مرأى منك وهذا ما حملني على القول في بعض مباحثي

« نحن الذين علمنا الانسان ان يكذب لانا عاقبناه على الصدق » وأنا لا اظن ان هذه القاعدة تخلُّ اذا احسنا المراقبة جيداً وعلى فرض انها أخلّت فلا يكون ذلك حجة على هذا المبدأ بل تأييداً لناموس آخر هو ناموس الوراثة اذ لا يخفى ان الصفات الادبية حسنة كانت أو ردية تنتقل بسهولة في النسل . ومن الجاني حينئذٍ على هؤلاء الاطفال الابرياء ألسنا نحن الذين نعاقبهم على ذنب تطرَّق اليهم منا

ويا ليت الامر اقتصر على ذلك بل نحن في كل اعمالنا أمامهم مثال رديء وهم اطوع من ظلنا في تقليدنا واشد طواعية من الشمع في انطباع أفعالنا فيهم نكذب أمامهم ونكذب عليهم ونعلمهم ان يكذبوا عنا ونروّعهم ونمنيهم بكل ما يتبين لهم كذبهُ بعد قليل فماذا تنتظر من طفل ينشأ في مثل هذا الوسط . على ان الكذب على ما يظهر قد صار شراً لازماً في هيئتنا الاجتماعية كما هي فهو عدة التاجر الماهر والسياسي المحنك والامام الهادي والقاضي العادل والمحامي الفاضل والطبيب النطاسي والصحافي الصادق والوطني الغيور وقد حلق الشاعر فوقهم بقوله

الصدق ان القاك تحت العطبِ   لا خير فيهِ فاعتصم بالكذبِ

المقالة الثامنة عشرة

﴿ لطمة على خد العالم [1] ﴾

حكم على دريفوس فساء قال قوم وسرَّ آخرون ولا ندري هل جار القضاة في حكمهم ام عدلوا والذي ندريه ان الناس كثيراً ما يرون بعيني اهوائهم لا بعيني عقولهم قضاة كانوا ام حكاماً ام من عامة الشعب . وذهب قوم الى ان الحكم جاء بنتيجتهِ برداً وسلاماً على الامة اذ وقاها من شر ما كان يخشى من القلاقل لو كان على ضد ذلك

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٩ على اثر تهديد مصانع انكلترا انها لا تشترك في معرض فرنسا الشهير اذا لم يبرأ دريفوس

واسترسل في القول الى ان الحكم وان لم يكن عادلاً فهو حكم سياسي يريد بذلك ان فيهِ من الحكمة ما يربي معهُ النفع على الضرر وتضحيــة الافراد للجماهير تجوزها نواميس العمران كما هي جائزة في نواميس الطبيعة الصامتة وزعموا بذلك ان البلاد وقيت شر ما يتأجج في صدور الامة من نيران الاحقاد والضغائن وان الحكومة أمنت على نفسها من القلب والوزارة من الابدال والذين يرون هذا الرأي لم ينظروا الا الى الاسباب القريبة وذهب عنهم ان الاسباب الجوهرية ابعد من ذلك واعرق في قلب الامــة فالخطر على الحكومة لا يزول بانقضاء قضية دريفوس على اي الوجهين وقلق الامة لا يهدأ بذلك . فالامة الفرنساوية لا تزال كما كانت من عهد مائة ســنة لسان شعوب اوروبا تنطق عن حاجاتهم وتمثل عواطفهم فاوروبا اليوم على وشك وقوع ثورة تمثلها فرنسا اشبه بالثورة التي كانت من عهد مائة عام واسبابها فساد نظام الاحكام وتقصها عن احتياجات الهيئة الاجتماعية

هذا هو سبب القلق الحقيقي المستحوذ على اوروبا كافة والذي نراه اليوم في الغاية القصوى في فرنسا ومن يقول فرنسا يقول عصب اوروبا الذي تحسُّ بهِ وعقلها الذي تفتكر بهِ ولسانها الذي تنطق بهِ خلافاً لاولئك الذين يرون في حوادث فرنسا المتابعــة منذ سنوات ما يطلق لسانهم المعقول وعقلهم الخامل ونظرهم القصير فيجورون عليهــا في الحكم اذ يرمون رجالها بالطيش وقلة الروية وعــدم التبصر بالعواقب ولماذا لان طبائع رجالها المتحركة تخالف طبائعهم الميتة وعقولهم المتنورة تخالف عقولهم المظلمة ونفوسهم المتهيجة تخالف نفوسهم المستميتة في الذل والخاضعة للظلم والغريب ان هؤلاء الذين كان امثالهم يجورون في الحكم على فرنسا في الثورة الاولى يعترفون جهارة اليوم بانهُ لولا تلك الثورة لما ارتقى الانسان واصطلح نوع الاحكام الى ما هما عليهِ الآن ليس في فرنسا وحدها بل في اوروبا كلها بل في العالم قاطبة . وهؤلاء الذين يعترفون بذلك اليوم يؤاخــذون شعب فرنسا على عدم رضاه من نظام احكام كانت تصلح له من مائة عام ولم تعد تصلح له اليوم لان الهيئة الاجتماعيــة المتمدنة ارتقت كثيراً عما كانت عليهِ من مائة سنة مع بقاء نظام الاحكام على حاله فجمهورية فرنسا كما هي اليوم والحكومات الملكية في سائر الممالك ليست

بالحكومات التي تصلح اليوم لشعوب اوروبا ولن تصلح لهم في المستقبل فاضطراب فرنسا وعدم رضاها من نظام جمهوريتها لا يفيدان كما يتوهمهُ قصار النظر انها تميل للرجوع الى الملكية او انهُ اذا قام فيها ملك حازم يستطيع ان يقبض عليها يد من حديد ويسير بها كيف شاء . فهذا حلم يجوز على عقول الاطفال ولكن لا يجوز على الذين يدركون بعض الشيء من أسرار العمران ففرنسا لن تعود الى الملكية كما ان اوروبا ستنتقل الى الجمهورية ولكن الجمهورية التي تطلبها فرنسا عن حاجة في النفس مندفعة اليها بالطبع لا عن اجهاد في قوى العقل والتي تتوقعها اوروبا هي الجمهورية الحقيقية الديموقراطية التي تصبح فيها الامة الكل والحكومة لا شيء بخلاف حكومات اوروبا وجمهورية فرنسا اليوم فانها كلها متقاربة في نظاماتها متساوية في نقصها ولو اختلفت في اسمائها وكلها مقصرة عما تتطلبهُ الهيئة الاجتماعية اليوم وفي المستقبل القريب واقرب الحكومات الموجودة اليوم الى الحكومة المطلوبة جمهورية اميركا ولو كانت دون المطلوب

فمسألة دريفوس سواء انقضت ام لم تنقضِ فالقلاقل لا تزول من فرنسا لان أسبابها أعم من ان تقتصر على فرد او تختص بحزب فالايام حبالى ولا بد من ان تلد ثورة لا تذكر معها ثورة القرن الماضي تشترك فيها اوروبا لا كما اشتركت في الماضي بقيام الدول كلها على فرنسا وانقياد بهائم شعوب تلك الايام الى دولهم انقياداً اعمى لنصر الجهل على العلم والظلم على العدل والتقييد على الحرية اي لنصر ظالميهم على انفسهم فالثورة المستقبلة والتي تتمخض بها الايام اليوم لا تكون لقيام الامم بعضها على بعض ونشوب الحرب بين الدول خلافاً لحلم قيصر الروس الطالب نزع السلاح والانقياد فيها الى تمويهات مؤتمر لاهاي الطالب تأييد السلام واذا اصبحت الحرب بين الدول المتمدنة ممتنعة اليوم فليس السبب احلام القياصرة ولا ضخم ملكهم ولا مداولات أقطاب السياسة في ذلك المؤتمر السخري بل السبب الحقيقي في ان الحرب اليوم أصبحت تدميراً وتخريباً على المتحاربين الفائز فيها والمخذول والمهاجم فيها والمدافع والمعتدي والمعتدى عليه يمحقان محقاً ويسحقان سحقاً لكثرة الآلات المهلكة التي استنبطت في الربع الاخير من هذا القرن وقوتها في التدمير وامم اوروبا لم تعد اليوم عمياء البصيرة والبصر حتى تقدم من دون تبصر بايعاز

دولها على هذا القضاء المبرم والفناء المحتم ولذلك يصح ان يقال هنا الحرب أنفى للحرب

فالثورة المنتظرة والتي لا بد منها هي ثورة تنفصر الشعوب فيها بعضها بعضاً والامم بعضها بعضاً ينصرون بعضهم على حكوماتهم ونظاماتهم لقلبهـا وابدالها بما يكون اوفق لروح العصر واحفظ لمصلحة الجمهور ولا سيما ان الاسباب الداعية اليوم الى النفور من نظامات الهيئة الاجتماعية واحكامهـا هي أثقل جداً على عاتق الامم مما في عصر الثورة الاولى فالثورة الاولى اسبابها الاستئثار بالاعناق والارزاق لشرف المولد وقد كان الناس قليلهم يدرك حق المساواة وأما اليوم فالثورة هي بين العمال واصحاب المال أي بين قوى العقل المستنبط واليد العاملة و بين فساد نظام الاحكام واستئثار رجال المال حتى اصبحت مستنبطات العقول واعمال الايدي خادمة لاولئك يستفيدون منها هم وقلما يستفيد منها هؤلاء والناس قل من لا يدرك منهم اليوم هذا الاجحاف

وكان في الامكان تدارك الشر لو ان الحكومات لا تنقـاد انقياداً اعمى لاصحاب الاموال او كان هؤلاء يخفضون قليلاً من كبريائهم و يعترفون بحقوق من لولاهم لبارت تجارتهم وقل استثمار اموالهم ولكن الله لمـا اراد بمعسكر فرعون شراً قسى قلب فرعون ولا اظن شيئاً يثير هذه الاحقاد و يبلغ بها الدرجة القصوى مثل النبأ البليد الذي جاء كاللطمة على خد الانسانية والذي وافتنا بهِ شركة روتر كي تنبيء العالم اجمع بان المساعي بين اصحاب المعامل والاموال متجهة الى احباط اعظم معرض في العالم اعظم معرض تتجلى فيهِ المدنية بابهى مجاليها اعظم معرض يفتخر بهِ العلم على الجهل اعظم معرض يتباهى بهِ الانسان بما استنبطهُ عقلهُ وصنعتهُ يده فكأن اصحاب الاموال يتهددون العالم اجمع بقحة لا تماثلها قحة بانهم سيطمسون بما اوتوه من سلطان المال انوار العقل و يعيدون عصور الجهل لقد ساء فألهم وما هم بذلك الا خاسرون يحثون عن حتفهم بظلفهم فان هذا النبأ الشنيع سيكون له تأثير شديد في الجمهور كما كان له ذلك في الافراد و يعجـل تلك الثورة المنتظرة التي تقلق الهيئة الاجتماعية منذ سنين والتي بلغت اقصاها في هذه الايام ولا بد من ذلك لقوم يعقلون

المقالة التاسعة عشرة

﴿ القتل الاجتماعي [1] ﴾

الناس في كل أطوارهم على مبدأ واحد فهم لا تنبههم الحوادث بنفسها مهما كانت شنيعة ولاتنبههم الا بمصاحباتها فالقتل باشنع صوره جارٍ في كل يوم بين افراد الناس وفي الحروب بل في الرعايا الآمنين وفي كل ذلك قلما تنتفض اعصاب الهيئة الاجتماعية انتفاضها لقتل رئيس امة كسلطان او ملك أو رئيس جمهورية ولعل هذا هو السبب الذي لاجله يتعمد الفوضويون وسائر الناقمين على نظامات الهيئة الاجتماعية قتل احد هؤلاء الرؤساء لا انتقاماً منهُ او تشفياً من هذه النظامات وقد يكون المقتول من افضلهم والاشرار منهم آمنون بل تنبيهاً بهِ للافكار واثارة لحركة الخواطر فلا يقف البحث حينئذٍ على الفعل نفسهِ بين استحسان وتشنيع بل يمتد الى أبعد من ذلك كثيراً فيتناول موضوعات كثيرة اجتماعية تتناسى معها الجناية الاولى الصغرى وينتبه فيها الى تلك الجنايات الاخرى الكبرى التي تجلبها تلك النظامات الحائفة التي تضحى فيها الافراد والجموع وتبذَّر القوى وتصد عن استعدادها للنفع ان لم تدفع الى التخريب والراضي عنها الجمهور المستغرق في سبات الاقتناع بقوة العادة او الاكتفاء او المطامع الميسورة حتى لا يظن ان في الامكان أبدع مما كان . فزحزحة الافكار عن هذا الاعتقاد السقيم الذي هو سبب جميع مصائب الاجتماع هي غاية كل مصلح في الهيئة الاجتماعية يسعى اليها عقلاء المصلحين بالاين كبث الافكار السامية والحث على نشر التعليم والانتقاد وكل ما من شأنهِ ان يدعو الى الاصلاح بالطرق السلمية البطيئة بنتائجها في كل الاحوال ويسعى اليها الناقمون منهم الذين فرغ صبرهم بالعنف ولو ان فيهِ تضحية انفسهم على مبدأ دفع الشر بالشر لما يحدث ذلك من الرعدة التي يقصدون بها نخع أعصاب تلك الهيئة البالية من حاكم ومحكوم وظالم ومظلوم فيهب اصحاب الحقوق المهضومة كمن نشط من عقال للمطالبة بما هضم من حقوقهم

(١) نشرت في البصير سنة ١٩٠١ على اثر مقتل الرئيس ماكنلي

فوق ارض اصبحوا فيها كأن لا حق لهم ان تقلهم وتحت سماء كأن لا حق لهم ان تظللهم وينتبه الظالمون فيخففون من وطأتهم ولا تعميهم مصالحهم عن مصالح سوهم

ومن ينظر الى تاريخ العمران من يوم نشأته الى اليوم لا يسعهُ الا التسليم بان مطالب الناقمين في كل عصر حق مهضوم ولولا ذلك لما سار الاجتماع مرتقياً باقرار الفريقين على النحو الذي سار عليهِ تارة بالسكينة والهدو وتارة بالثورات والقلاقل جرياً على سنن ناموس النشوء والارتقاء الطبيعي حذو القذة بالقذة . والاصلاح المطلوب لا تزال الحاجة اليه ماسة اليوم كما كانت من قبل والفرق ليس الا نسبياً فقط فكما ان الحاجة الى الارتقاء في العالم الطبيعي لم تقف بعد كذلك الحاجة الى الارتقاء في العالم الاجتماعي اي العمران لم تنتهِ أيضاً فلا يجوز لعاقل ان يقف عند حد قول الخاملين او المكتفين او الطامعين المتفعين بانه ليس في الامكان ابدع مما كان

فقتل ما كنلي رئيس جمهورية الولايات المتحدة قد شغل الجرائد ودار على السنة الناس واقلق الرؤوس المتوَّجة اكثر من قتل شعب آمن يؤدي الجزية لحكومتهِ وهو صاغر او قتل الالوف المؤلفة في هذه الحرب الجائرة الجارية في جنوبي افريقيا واكثر من قتل مصالح الجمهور في كل يوم وفي كل حكومة من حكومات الدنيا ولو انها في اعلى ذرى الاصلاح . شغلهم جميعاً لا للبحث في ادواء الاجتماع ومداواتها بازالة ما يسببها من المطامع والمظالم والمغارم بل للضرب على ايدي الظالمين يعنون بذلك الفوضويين حتى اجتمع العاهلان العظيمان اللذان يقبضان اليوم على دفة الدنيا واخذا يفكران لا بالخفض من كبريائهما واصلاح شأن الجماهير بما يدفع البلوى ويقلل الشكوى بل بالوسائل التي تضمن لهما صولجان الملك ليسوقا بهِ الانام كالانعام وتضمن لفئة من لصوص الاجتماع اسباب السلب والنهب يصادرون ويرابون ويجمعون المال بالاحتيال للاستئثار بمنافع الاعمال التي لا ينال القائمون بها الا ما يتبلغون بهِ من العيش . لصوص يسرحون ويمرحون وتحميهم الشرائع التي تعززها الحكومات

على انه وان كان الجمهور قد نظر الى هذه الفعلة الشنيعة بنفسها من حيث شناعتها فقط الا ان اناساً وان كانوا قليلين نبهت فيهم الخواطر للبحث في اسبابها بما دعا

الاجتماعيين لتعيين مواطن الداء لوصف الدواء وتقريب الشفاء ولو ان هذا القريب بعيد جداً في تاريخ الاجتماع ولكنهُ اقرب من الابعد وكل خطوة فيه الى الامام تعد نقضاً لحجر من ذلك البنيان الهائل الذي شادتهُ ايدي الظالمين على مناكب الغافلين

المقالة العشرون

﴿ كتاب فوضوي [1] ﴾

حكم « جوري » محكمة السين باريز على الفوضوي اتيفان بالاعدام لمحاولتهِ قتل اثنين من رجال الحفظ . واتيفان المذكور هو في ما نعلم اول فوضوي متعلم واسع الاطلاع بعيد النظر الفلسفي حاول ارتكاب الجناية بنفسه كما يظهر من الكتاب الآتي الذي كتبهُ الى احد اصدقائه بعد القبض عليهِ بايام قليلة . وفي نظرنا ان المحكمة ارتكبت جناية في حكمها عليه بالاعدام كما يتضح من تدقيق النظر في الكتاب المذكور . ولو كانت ادق نظراً في الامور واوسع اطلاعاً في علم الاخلاق لوجدت لها مخرجاً يحفظ الرجل ويصلح ما بهِ من الضعف للانتفاع بما بهِ من القوة . ولكن الجوري كما ان له حسنات في حل قيود القانون له سيئات في ان رؤوس اكثر اعضائه غالباً فارغة من الافكار السامية وفي ان احكامه متناهية تتناول احد الطرفين وليس فيها شيء من احكام القانون التي بين بين . والكتاب هو معرباً

باريز في ٣٠ يناير سنة ٩٨

صاحبي العزيز

اخذت كتابك الذي تخبرني بهِ عن اضطرارك الى تغيير عنوانك واشكرك على زيارتك لوالدي فقد اخبرني ان زيارتك وزيارة باقي الاصدقاء كانت اعظم معزٍ لقلبه في وسط احزانه

---

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨

تقول ان الفياري مصيب وانا لا انكر ان في كتابهِ في « الحكومات الظالمة » افكاراً كثيرة جليلة الأ انهُ ليس بينها في ما اذكر سوى فكر واحد صحيح وهو قوله « ان الخطر من القول او الفعل سواء في عصرهِ وفي الحكومات الظالمة » على ان هذا الرجل المتعشق للعدل نظير سائر فلاسفة عصره ربما كان يستقبح وجود اناس متهالكين في سبيل الحرية مع انه كان يدعوهم . ولكن الذي لا اقدر ان أسلم بهِ قوله ان اليونان والرومانيين كانوا بالحقيقة رجالاً . وهم لم يكونوا رجالاً اكثر من معاصري الفياري ولا اكثر من رجال هذا العصر

والثورة الفرنساوية التي بلغت فيها المنازعات لاجل الحرية السياسية مبلغ جميع منازعات العصور القديمة بل فاقتها بعظمتها دليل واضح على ما اقول . وهب انه لم يقل ذلك الأ عن اليونان في غزوتها مقدونيا وعن الرومانيين في عهد الجمهورية فانه مخطيء في ما يقول

وبالحقيقة فان الفياري كسائر فلاسفة عصره كان يسير نحو المستقبل وعيناه متجهتان الى الماضي . والانسان الذي يمشي على هذه الكيفية قد يتقدم وانما تقدمه يكون صدفة لا يعرف الى اين يسير هل يسقط في حفرة ام لا فهو لا يدري اذا كان يمشي الى الامام ام يدور على نفسه ولا يدري حتى يعود من حيث اتى

وهذا عين الذي تمَّ في الثورة فان الثورة لوقوع ذمامها في ايدي اناس كانت انظارهم شاخصة الى بلاد اليونان وروميه كان يقتضي ان تفسد فان جميع الذين تقدموها كانوا مغرمين بالقدماء . ألم يصرخ سان يوسف من اعلى المنبر قائلاً « العالم خالٍ من ايام الرومانيون ونابليون انما أتى ليملأه بارجاعه ملكهم » والفياري كان مولعاً بالحرية القديمة كالآخرين وان كنت تريد ان تعرف ماذا كانت تلك الحرية فاسأل اسرى السبرطيين

فاذا كنا نريد ان نسير الى الامام واذا كانت الانسانية تريد ان تسير الى السعادة والى الحرية فلتنظر الى ما حولها ولتتعرفهُ جيداً ثم فلتختر غرضها ولتسر اليه دون ان تعرج الى هنا والى هناك غير مهتمة بما وراءها ولا بما يفتكره عن ذلك الاقدمون

والعلوم تكاد تكون جميعها قد تحررت بفضل الطريقة الاختبارية من قيود التقليد

الأ علم واحد يهمنا اكثر من الجميع وعليه تتوقف سعادتنا وهو علم السوسيولوجيا اي علم الاجتماع فانه بقي واقفاً لاننا لم نشأ تقطيع هذه القيود احتراماً لما تناقله الخلف عن السلف وهذا هو السبب الذي نحن لاجله لا نزال تعساء

ولقد بقي كبلر يبحث ١٥ سنة حتى وجد نواميس حركة السيارات لانه لم يستطع ان يحرر عقله من التقيد بقيود النقل

فقد راق لارسطو في القديم ان يثبت — ولا يعلم لماذا — ان الكواكب كائنات كاملة وان الحركة المستديرة حركة كاملة فكان يلزم ان تكون حركة الكواكب كذلك

وبقي علماء الفلك قروناً عديدة يجهدون العقل ويخالفون الواقع لكي يثبتوا صحة ما اثبته استاذهم من قبلهم ولم يجسر احد منهم ان يتساءل لماذا الكواكب هي اكمل من سائر الكائنات وبماذا الحركة المستديرة هي اكمل من سائر الحركات

وبسبب هذا الاستمساك المقدس باقوال المعلمين وهذا الاحترام للاقدمين بقي كبلر خمس عشرة سنة يحسب ويعيد الحساب حتى وجد ان السيارات تتحرك في اهليلجيات تشغل الشمس احد محترقيها

واذا علمنا ان نيوتون اكتشف ناموس الجاذبية العام بتبحره في نواميس كبلر لتعليلها وانهُ من هذا الاكتشاف العظيم يبتدىء تاريخ اعظم العلوم العصرية اعني علم الفلك الرياضي نرتعد جزعاً من عظم العاقة التي كان تعليم ارسطو يقيمها في سبيل تقدم الانسانية لو مات كبلر بعد اربع عشرة سنة من ابحاثهِ

ففي علم السوسيولوجيا كما في كل شيء اخر اذا كنا نريد التقدم بسرعة ينبغي علينا ان ننظر الى كل شيء وان لا نحترم شيئاً غير ما يعلمنا اياه الاختبار

نعم ان التعاليم القديمة تضغط علينا فان جميع شرائعنا وعاداتنا وتعاليمنا الدينية والادبية والسياسية والاقتصادية منتقلة الينا من الماضي وتمنع المستقبل من ان ينفتح لنا

جميع هذه التعاليم اصولها في الماضي القديم ليس في القديم العلمي فقط بل في التوحش الاول من الحيوانية

واسبابها جميعها افكار مسلم بها عموماً وهي بعد ان ولدتها ساعدت على نموها وحفظها

وهـذه الافكار تظهر لنا من المراقبة ان اصولها موجودة بحالة بداهة في الحيوانات التي تكوينها يشبه تكويننا . فالحذر من ان نأخذ امثلتنا عن الاقدمين كما فعل الفياري وفلاسفة العصر الماضي اذا كنا نريد ان نبلغ السعادة في الحرية التي لا حد لها . انتهى

هذا هو الرجل الذي حكمت عليه محكمة باريس بالاعدام لمحاولته القتل كأنها ارادت في حكمها ان تثبت على نفسها ما جاء في كتابه من الحقائق التي سيؤيدها المستقبل ويحكم عليهـا لاجلها بالقتل ادبياً فان الافكار المنطوي عليها هذا الكتاب كلها حقائق لا يرتج منهـا الا ضعاف العقول وما ذنب كاتبه في محاولته ارتكاب الجناية الا زيادة التحمس قبل زيادة بلادة الهيئة الاجتماعية والتحمس كثيراً ما يؤدي الى التهور والذنب انما يكون على هذه الهيئة وحدها

المقالة الحادية والعشرون

« الاشتراكية[1] »

في كتابك لي على صفحات « المؤيد » طلبت مني ان اثبت حقيقة وادفع شبهة . طلبت ان ابين لماذا ادافع عن الاشتراكيين وان اتوسع في الموضوع « لان ما كتبتهُ على صفحات « الاخبـار » لم يكن مقنعاً » وان أدفع عن نفسي « سوء الظن بي » كأن الاشتراكية وصمة وأنا قد تلوثت بحأتها وانت لا تريد لي ذلك او انك تريد ان ابين الحقيقة الناصعة وان أخرج منها طاهر الذيل. فشكرتك على حسن ولائك ولو اني اعجبت اكثر بدهائك

كنت افهم قبل اليوم ان الاشتراكية في نظر خصومها مطالب بعيد المنال فاذا هي فوق ذلك وصمة تعرض صاحبهـا لاقبح المظان ليس في نظر الجمهور فقط بل في نظر الخاصة أيضاً

---

(١) نشرت في المؤيد سنة ١٩٠٨ رداً على خطاب من سليم افندي سركيس على صفحات المؤيد

لخفف عنك أيها الصديق فما هي باول وصمة الصقت بي ثم عاد الناس الى الهدى

من ربع قرن نشرت في اللغة العربية مذهب دروين ولم يكن معروفاً فيها من قبل فقامت القيامة عليَّ من كل صوب كأني جئت امراً ادًّا حتى بلغ التحمس من بعضهم ان قصدني للتعرف بي لا للسلام والكلام . ولكنهُ ضل السبيل فقصدني في غير المكان الذي أنا فيهِ واعترضتهُ البحار فاطفأت منه جذوة تلك النار ثم مرت السنون والناس بيننا يرتقون حتى صار مذهب دروين بيننا (او كاد) كمذهب كوبرنيخ في الكون او غليلي في الارض وحتى بلعهما في جوفهِ

وما الاشتراكية كما يرميها خصومها باضغاث احلام ولا أصحابها ظلام طغام فهي لا تركب بمطالبها متن الخيال وتحلق بالانسان الى جنات النعيم ولا تكبله بحبال الخبال وتزجه في قعر الجحيم بل تريد ان تمهد له سبل السعادة على هذه الارض فتسترد له الفردوس الضائع تسترده من ايدي مردة الاجتماع وأبالستهِ فتخفض من كبرياء وترفع من نفوس وتقرب بين صولجان الملك وعصا الراعي حتى يتم تكافؤ الفضل بينهما

أراني ركبت متن الخيال في قولي انها تريد ان تمهد له سبل السعادة على هذه الارض والاولى ان اقول انهـا تريد ان تقلل من ويلاته فتضمن له حاجاته وتصون حقوقه بعد ان تفرض عليهِ واجباته وترفعهُ من تحت مواطىء الاقدام الى مقامه كانسان وتعلمهُ انه عضو من الاجتماع لا يجوز ان يبقى عالة عليهِ غير نافع وانه عامل فيه لا يجوز ان يبقى غير منتفع وان تبادل المنفعة ينبغي ان يكون على قدر العمل

هذا هو مبدا الاشتراكية ومن ظن غير ذلك فهو واهم وهذا هو المبدأ الذي أدافع عنهُ فهل فيه مأخذ عليَّ لعاقل أو مظنة بي لجاهل ؟

والاشتراكية ترجمة لفظة سوسياليزم الافرنجية وضعها كتابنا الاولون وجرى عليهـا الجمهور وهي خطأ في التعريب جر معـهُ خطأ اعظم في الفهم والصواب الاجتماعية من الاجتماع أي العمران واصحابها الاجتماعيون ولكننا جاريناهم هنا عملاً بالمثل القائل خطأ مشهور خير من صواب مهجور

وهي ليست مذهباً من المذاهب بل هي نتيجة لازمة لنظر الانسان في الاجتماع وهي

قديمة كالاجتماع نفسه ومثبوتة في تعاليم الفلاسفة وسائر المصلحين في جميع العصور وكلما ارتقت مدارك الانسان وزاد اختباره زادت انتشاراً واقتداراً . وهي لا تعلم اقتسام المال (كن مطمئناً على ثريوتك او ثريتك ما شئت وما شاءت النحاة تصغير ثروة) بل العدل في تقسيم المنفعة بين العمل ورأس المال

ولا بد لي قبل التوسع في الموضوع ان أزيل وهماً وقع لك واحذر ان يجرك ذلك الى وهم آخر لا اقصده فلا أعود اعرف كيف أتخلص منك وانت كشبكة الصياد

فانا لم أقم « في الاخبار » للمدافعة عن خطة بل عن مبدأ اعتبره مشتركاً بين سائر المصلحين – والاشتراكيون أعظمهم اليوم – وهو اصلاح مركز الانسان في العمران وما دفعني الى ذلك الاَّ ما كتب هناك مما يوهم ان الاجتماع على هدى وان الاشتراكيين يدفعونه الى الضلال لئلا يكون لذلك تأثير سيء في الافكار المتقلقلة التي تحتاج الى تنشيط فيجبنها عن التوغل في فيافي هذه المباحث ويرميها في الجمود

ولذلك لم اقف عند الاسماء ولم ابخس احداً حقه فساويت بالفضل بين جميع الذين ناهضوا الاجتماع في سائر اطواره بقصد الاصلاح من الفلاسفة المصلحين الى دعاة الاديان أنفسهم ولم انكر فضل اولئك الذين تطوعوا في هذا الجهاد فكانوا كالاعضاد فيه ولو انهم اتوا أحياناً أعمالاً مشجوبة قضت عليهم وذهبوا فيها شهداء نظام الاجتماع

ولا ريب ان الاشتراكية هي الدعوة المنصبة نحوها الافكار والمعقودة عليها الامال اليوم وهي وان كانت متفقة في الغاية الا ان فيها اختلافاً كثيراً في الاراء شأن كل فئة في دعوة مثل هذه كثيرة العقبات واي مذهب من المذاهب الكبرى علمياً كان او فلسفياً أو دينياً لا تكثر فيه المسائل الخلافية من دون ان تمس جوهره بشيء

ولذلك رأيت ان البحث في هذا الموضوع الشاسع الاطراف البعيد المرمى لا يأمن صاحبه الزلل والخبط في تيه فيافيه ان لم ينخ من اقوم السبل واصحها وأي اصح من رد الشيء الى اصله ووضعه في محله

فالاجتماع طبيعي هو وكل ما فيه مستفاد من الطبيعة والنواميس التي تسوس نظامه هي نفس نواميسها واعظم هذه النواميس اثنان احدهما يوجب التنازع وهو تكافؤ القوى

في العمران كتكافؤها في الطبيعة والآخر يوجب الارتقاء وهو تكافل العمران بتوفير قواه كتكافل العالم اجمع بتوفير قواه في ارتقائه

فالاجتماع شديد التنازع قليل التكافل لشدة ما فيه من التبذير في القوى التي له ولذلك لا يزال منحطاً جداً بالرغم عن اندفاعهِ البديع في القرن الماضي لانك كيفما جلت بنظرك فيه رأيت اموراً يأنف منها الطبع وينكرها العقل وقد ينفر الانسان منها حتى لا يقدر ان يضبط نفسهُ عن القيام ضدها . تراها في شرائعهِ ونظاماته وعاداته ومعاملاته في كلياتها من حيث الغاية منها والباعث عليها وفي جزئياتها من حيث تطبيقها على كل فرد من أعضائه حتى ان البحث فيها لا ينضب

أو ليس من العار على الانسان الذي يمتاز عما سواه من الكائنات بقوة العقل والاكتساب بالاختبار ان ينتظر ارتقاءه من الطبيعة نظيرها وهو القادر ان يتصرف فيها بما له من المدارك لمصلحته ؟ ويا ليتهُ اقتصر على ذلك ولكنك تراه دائماً يستخدم هذه المدارك لاقامة العقبات في سبيل ارتقاء العمران ولكم صده عنهُ وقضى عليه بالتقهقر لشدة التباين بين اعضائه في العقل والعلم والقوة وقامت الأثرة مقام تبادل المنفعة فارتفع قوم الى الاوج وانحط آخرون الى الحضيض وكلما قل هذا التباين قلت العقبات لاقتدار الاضداد حينئذٍ ووجوب الاصاخة لهم

وهل العمران كما هو الآن يستفيد من قوى كل فرد أو يعرف ان يستفيد منها أو ليس هذا هو التبذير بعينه . وان كان لا يعرف أفلا يكون هو الذي يدفع هذا الفرد الى الاضرار بنفسهِ وبالمجموع كلهِ عملاً بناموس هذا التكافؤ

كثيرون يطرقون هذا المبحث ويكثرون فيهِ من المن على الانسان فيطلبون الاصلاح له . لضعيفهِ وسقيمه ومن لم تمده الطبيعة بالقوة الكافية للحصول على ما تستقيم بهِ أموره . يطلبونه له رأفة بهِ وشفقة عليهِ . أما نحن فنقول ان الانسان في الاجتماع في غنى عن رحمة الراحمين وشفقة المشفقين فلا نطرق هذا البحث بتحريك العواطف ولا ندع للانسان على الانسان منّاً لاننا ننظر في ذلك الى المصلحة المشتركة . ففي العمران كما في الطبيعة لا يضيع شيء ولا يضيع تأثيره . والتأثير الذي يحدثه الفرد في الاجتماع لا يدرك

أهميتهُ الا الذي يقدر ناموس تكافؤ القوى في الطبيعة قدره . فكم من تأثير اذا نظرت اليهِ مباشرة يتراآى لك عديم القيمة ثم بالانتقال والتفاعل يتحول مع الزمان و يصير ذا شأن عظيم في الطبيعة ولنا في الافعال المتجمعة مثال محسوس مثل الشرارة للبارود وعليهِ المثل « سبب النار شرارة وسبب الشر كلمة » ومن هذا القبيل الزلازل وسائر نكبات الطبيعة الفجائية

فعلى هذا الناموس تتمشى افعال الانسان في العمران فاذا احسنا أو اسأنا الى الاجتماع فانما نحسن ونسيء الى انفسنا . وما نصنعه في سوانا يرده لنا هذا السوى « بفرطه » كما يقال في لغة الماليين — فالاجتماع كما ترى اكبر مراب ولكن على عكس المرابين فهو يرد لك كل شيء تنفحهُ بهِ برباه ولو تبرعت بهِ تبرعاً ووهبتهُ له هبة خذ مثالاً لذلك الامراض . هنا اناس جمعوا بذ كائهم او دهائهم الاموال على ظهور العمال فسكنوا الاحياء الفسيحة الارجاء تنفذها الشمس ويلعب فيها الهواء وتحف بها الحدائق و بنوا فيها القصور يمرحون فيها على وثير المهاد وفاخر الرياش وتحوطوا بكل ما تصح بهِ الاجسام وتنفى الاسقام . وعلى قيد قصبات منهم اكواخ متراكمة بعضها فوق بعض كالتلال يزدحم السكان فيها كالذباب لا شمس ولا هواء ولا ماء الا ما يكفي للاختمار وجعلها بورة البوار ومعمل الدمار حيث تجد الامراض مرتعاً خصيباً — فماذا يقيك من شر ما جنيت أيها المطمئن بعزلتك وانت شريك جارك في الماء والهواء والغذاء حمالة الامراض ونقالة الوباء

وهذا مثال آخر من امثلة كثيرة يضيق عنها الحصر وتتجدد امامك كل يوم وتدلك على نقص نظامات تلك الشرائع القائمة على مبدأ تأييد القويّ وارهاق الضعيف . غنيّ يتقاضاك مالاً لا يزيد في غناه بلغة والله يعلم من اين اتى وكل ما في مسكنك من المقتنيات لا يفي بسداده وانما يكفي ليصون عيالك . فالقانون الذي لم يعرف كيف يستفيد من عملك لينتفع بك و ينفعك يقضي عليك ولو ادى ذلك بك و بعيالك ان يأويكم العراء و يصدر القاضي وقد مات منه الضمير — حكمهُ مصدراً باسم مليك البلاد الخ . ثم يصب البلاء على العباد — فعلى من اللوم اذا تراكمت امثال هذه الافعال بناء على هذا الناموس واحدثت تأثيرها المتجمع في الجموع فقاموا يصادرون الاجتماع و يحدثون الثورات كالثورة

الفرنساوية وثورة العمال القائمة اليوم والتي سيكون هولها اشد من تلك ان لم تدفع بالحكمة لانحصار تلك في بقعة من الارض وفي شعب من الشعوب ولانتشار هذه في كل العالم المتمدن . بل على من اللوم اذا تمادوا وركبوا متن الغلو ولسان حالهم يقول

ماذا يهمني اذا خربتا ما دمت خرباناً أنا وانت
منعم تبيت فوق الريش وذا انا ابيت في الحشيش
ان لم يكن على الحصى في البرد تحت الشتاء وغطاي جلدي

ولولا نهضة رجال الثورة في الماضي وسريان روحهم الحية في اعقابهم لبقي الانسان يرسف في قيود الجهل حتى اليوم ولتقهقر الاجتماع عما كان عليهِ ايضاً بالرغم عن ناموس الارتقاء العام اما وقد بلغ التنبه في الافكار مبلغهُ اليوم فلا خوف عليهِ ان يتقهقر لانتشار العلم وانتشار مبدأ الاشتراكية بسبب ذلك واقتدارها على تنفيذ مطالبها بل كلما تقدمنا ستزداد هذه الحركة الارتقائية سرعة وتقرب الامم بعضها من بعض فتقل الحروب ويتفرغ الانسان للاشتغال لمصلحة العمران والغريب ان كل واحد منا في حديثهِ وكتاباته كل يوم يخدم دعوة الاشتراكيين ولا يدري وقد يخدمها من حيث يريد مناهضتها ايضاً . ولعل هذا التمهيد الوجيز كاف لان يقنعك ايها الصديق بأن مبدأ الاشتراكية ليس مما يخجل منه ولا هو مما يجب ان يحجم عنه

المقالة الثانية والعشرون

﴿ المريض [1] ﴾

عركت صروف الزمان وجسست باصبعي مصائب الانسان فلم أجد اشقى من المريض

رأيت الفقير في أقصى الفقر يسكن كهفاً كالقبر او يتوسد الغبراء ويلتحف بالسماء

---

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٩ وكان قد اصاب الكاتب روماتزم حاد اضناه اله المبرح

فلم اجد أشقى من المريض

رأيت الفاعل يشتغل في الحرّ والعرق يتصبب من بدنهِ كالقطر ليطعم سواه من جناه ولا يناله من ذلك الأ نزر يسير لا يفي بحاجة زوجتهِ العارية ولا يخمد صوت اولاده الجياع فيطوون الليل على الطوى ملتفين على انفسهم و بعضهم على بعض ضاغطين معدهم بايديهم ليخففوا ما يعانونهُ من ألم الجوع وليس لهم ما يتدفأون بهِ من البرد غير حر انفاسهم رأيت ذلك فلم اجد أشقى من المريض

رأيت الكريم وقد اخنى عليهِ الدهر واسقطهُ الى أدنى مهاوي الفقر فلم أجد اشقى من المريض

رأيت الام تبكي ولدها والزوجة بعلها والاخ اخاه والابن اباه فلم اجد أشقى من المريض

رأيت الجاني المحكوم عليهِ بالقتل واجف القلب مشتت العقل فلم اجد أشقى من المريض

ذقت ذل السؤال بعد عزّ الافضال وعرفت خيبة الآمال وصبرت على تغطرس أصحاب المال فلم اجد أشقى من المريض

رأيت المفضول فوق الفاضل والفصيح يداجي الابكم والعالم يخضع للجاهل والعاقل يخاطب من لا يفهم فلم اجد أشقى من المريض

رأيتك تصنع المعروف فتجازى بالمتلوف وتصادق من يخدعك وتسمع من لا يسمعك فلم اجد أشقى من المريض

رأيت الغني الشبعان يبلع الجمل ولا يتستر والفقير الجائع يتلصص لسرقة رغيف من الخبز الاسمر والقانون يكافيء ذاك برفع القبعات و يعاقب هذا بالسجن سنوات فلم اجد أشقى من المريض

رأيت معالم الظلم تشاد فوق الناس تحت لواء العدل ودعوى الهداية والعالمية تسري عليهم تحت قلانس المكر وعمائم الجهل فلم اجد أشقى من المريض

رأيت الحرّ يرى كل ذلك ولا يجد بداً من الصبر عليهِ فلم اجد أشقى من المريض

وأيُّ اشقى ممن اظلمت الدنيا في عينيه وارتجت الارض تحت رجليهِ وصغرت نفسه حتى اصبحت الحياة المحبوبة عبئاً ثقيلاً عليهِ اذا شرب الماء الزلال المعقم وجده مرًّا كالعلقم أو ذكر اشهى الطعام لديه جاشت نفسه عليهِ او توسد وثير المهاد فكانهُ يتقلب على شوك القتاد مفكك الاوصال اذا كلف قطع خيط القطن خائنهُ القوى مقطع الامال اذا قدمت له خزائن الارض أعرض عنها ورآها هي والعدم على حد سوى ليله طويل بما يعانيه من الآلام التي تحرمهُ لذة المنام فاذا طلع النهار زال ما كان قد امله فيهِ من زوال الاسقام

الاصحاء يحلمون بالاموال يحشدونها والمدن للكسب يفتحونها والمراتب العالية ينالونها يحلمون بالزوجات والبنين والبنات والقصور الشاهقة والاملاك الواسعة والحدائق الغناء ولا يقفون في احلامهم عند حد والمريض المسكين لا يطلب الا امراً واحداً يفديهِ بكل حطام الدنيا يفديه بماله يفديه باميالهِ يفديه بكل ما له من المطامع من واقع وغير واقع يفديه حتى بجزء من عمره بل بعمره كله اذا وجد ان لا خلاص له من الاسقام الا بتجرع الموت الزؤام يطلب ما لا يراه الاصحاء ولا يراه الا هو يطلب الصحة التي هي تاج على رؤوس الاصحاء لا يراه الاَّ المرضى. بل اي رجل تجوز عليهِ الشفقة اكثر ممن تمكن منهُ الداء وعزّ بهِ الشفاء غنياً كان او فقيراً صعلوكاً كان او اميراً حتى لم يبق عنده في قوس الامل مِنزع ولا في النفس مَنزع فاذا كان هـذا حال المريض الامير فما قولك في حال المريض الفقير. فالفقير المعدم والجاني المكبل بالحديد والثكلى التي لا تريد ان تتعزى والرجل الذي اخنى عليهِ الدهر بعد العز والحر الذي يصبر على مضض البلوى يجدون في نفس شكواهم مصرفاً لهمومهم وفي قواهم الصحيحة منعشاً لآمالهم فالجائع اذا اعيتهُ الحيل تطاير الشرر من عينيهِ وشدَّ حبلاً من مَسَد على حقويه ونهض على ساقيـه يطارد بهما الغزلان وشمَّر عن ساعديه يتسلق بهما الجدران ولبس من ظلام الليل ثوباً يقيهِ كالحجاب من عين كل مرتاب يتلصص تارةً ويسرق اخرى منتقماً لنفسهِ من ظلم الانسان ومن فساد ما سنهُ من الشرائع في العمران والثكلى تتناثر دموعها الحرَّى فتخفف ما بهـا من ألم الجوى كأنها تبدد بها سحب الهموم كما يبدد مطر السماء سحب الغيوم واما المريض المسكين فلا تفيده الشكوى الا زيادة البلوى وقد يخفت صوته فلا يقوى عليها وقد تشل

حركاته حتى لا يستطيع ان يعبر عنها فيرسل اليك نظراً منكسراً ذليلاً يقطع الصلب وينفذ القلب يقطع صلباً لا من صلب الحديد بل من عصب وعظم وينفذ قلباً لا من قلب الحجر بل من لحم ودم

فيا ايها الذين لا يزال بهم بقية تأثر اكثر قليلاً من الحجر والذين لم تضرب مطامعهم على ابصارهم غشاوة ولم يختم الله المال على قلوبهم ان كنتم من اهل الاحسان الذين يريدون التقرب حقيقة الى الله المعبود او من اهل الفخر الذين يفاخرون باشياء هذا الوجود فدونكم واغاثة اخيكم المريض بل اغاثة انفسكم — فمن منكم يضمن لنفسه السلامة من الداء — بتخفيف مصابه وتقليل اوصابه بما في وسع الانسان بحسب تدرجه في العمران وليس لذلك اصلح من المستشفيات والاكثار منها على ما بلغت اليوم من الاتقان فهي قبل المعابد ان كنتم تفقهون وكأني بكم جميعاً تؤمنون على ذلك ولكن لا اعلم لماذا لا تفعلون أينقصكم فيها المجد وهي عنوان المجد والفخر ام الاجر وهي منتهى الاجر فلينهض منكم بضعة اناس من علية القوم يؤلفون جمعيات متفرقة من كل جنس ومذهب وموطن تجمع المال بالاكتتاب من الفقير قبل الغني كل حسب مقدرته كما تفعلون في بناء المعابد التي تخدمون بها مطامع الانسان اكثر مما تخدمون بها ارادة الله وانتم ايها الاغنياء خاصة فاني اعرف منكم الغني الكبير الذي جمع من المال القناطير ومات ولم يترك سوى ذكر الاختلاس من اموال الناس او الذي بنى شاهق القصر الذي لا ينفع لا للسكن ولا للقبر ألم يكن مثل هذا الاحسان افضل ذكرى وادعى الى الفخر وامام من تريدون ان تتفاخروا أليس امامنا فاذا ذممناكم فالذنب عليكم ورحم الله من قال

ومن يكُ ذا فضل ويبخل بفضله   على قومه يستغنَ عنهُ ويذممِ

المقالة الثالثة والعشرون

﴿ بمعزل عن الناس ﴾

أو

﴿ حلم في اليقظة او يقظة في الحلم[1] ﴾

صدَّر المشير هذه المقالة — والعهدة عليه — بالكلام الآتي قال :

محرر المشير حرامي

سرقة جائزة

« الدكتور شميل في السماء »

اعترف لقراء المشير اني ارتكبت في هذين اليومين جريمة اللصوصية « ولعل ذنبي لا يكون اعظم من ذنب حواء وآدم فانهما سرقا تفاحة لانها كانت لذيذة الطعم وانا سرقت مقالة من منزل الدكتور شميل لانه كان بخيلا بها . فاذا وصل هذا العدد من المشير الى صديقي الدكتور الفاضل وذهب الى مكتبه وفتش على ما كان فيه فلم يجده وتحقق ما اقول فارجوه ان لا يعاقب البواب او الخادم . انه هو الذي فتح ابواب منزله لطالبي فضله والى القراء البيان

بلغني من مقالة قرأتها في المقطم بقلم الدكتور شميل انه مصاب بحدار (روماتيزم) فهرولت الى منزله العامر اعوده نحو الساعة السادسة مساء فقال الخادم ان الطبيب خرج في عربة للنزهة فدخلت الى مكتبة الدكتور وجلست بين الكتب والاوراق التي بخط حضرته في عربنه واردت ان اسلي نفسي بالقراءة ريثما يعود ثم حانت مني التفاتة الى مكتبه واذا هناك اوراق مبعثرة مكتوبة فدلتني سليقة الصحافي التي عندي انها اصول مقالة يكتبها الدكتور وحملتني الوقاحة المذمومة في كل انسان الا الصحافي على الاطلاع عليها ونظرت الى ما حولي فلم ار من يراقبني فاخذت تلك الاوراق وقرأتها واذا هي مقالة بدأ بها الدكتور شميل وكتب منها ثلاثة اوراق لا غير وبدأ بالرابعة ثم الظاهر ان الحدار اصابه وهو يكتبها فتركها على ان ينجزها متى شفي . والمقالة المذكورة بيان مفاوضة بين الروح الاسمى والدكتور فلما قرأتها ذكرت ما ورد في التوراة عن يعقوب اذ صارعه الله وضرب حق فخذه فانخلع . فقلت في نفسي ان يعقوب لما صارع الله ضربه على فخذه فخلعه وهذا صديقنا الدكتور صارعه اليوم فضربه بحدار حتى لا يتمم مقالته ولكن جاءت الضربة الاخيرة على الفخذين . اما انا فاخذت اوراق المقالة ووضعتها

---

(١) نشرت في المشير سنة ١٨٩٩ ولها علاقة بمقالة « المريض » السابقة

في جيبي قائلا للخادم ان الطبيب تأخر وانا لا استطيع الانتظار . وها انا اتحف القراء بما بدأ بكتابته الدكتور شميل ولم يتمه فان عاد يوماً ما فرضي عني ارجوه ان يوافينا بما كان يريد ان يجعله تكملة لها

وهذا نص المقالة المسروقة :

دع رجال الصحة يطاردون الطاعون . والناس من وجهه يهربون . فاما هم غالبون واما هم مغلوبون . فالعالم قديم والناس يمرون فيه مرَّ السحاب بلا حساب . والفوز ليس دائماً من العلم او العمل . فقد يكون من الصدفة وقوم يقولون من القدر . وما هو علم الناس وما هم يعملون . دعهم في ضلالهم يعمهون

واعتزل الناس ومجالسهم وهواجسهم ووساوسهم واركب معراج الفكر في سماء الخيال محلقاً الى ما وراء المحسوس واغمض عينيك لئلا يستوقفك بهاء الكواكب اللامعة ويسحرك جمال الشموس الساطعة . واسدد اذنيك لئلا يستهويك حفيف الافلاك في دورانها . فتلتبس الحقيقة عليك بين آثارها واعيانها . فاذا قطعت كل هذه العقبات . وقطعت كل صلة بينك وبين الكائنات . دخلت في العالم الاعظم عالم القوات . بل اصبحت والقوة الاولى متداخلين تعلم ما تعلم . علماً بكل ما يجهل الناس والله اعلم

ذلك صوت سمعتهُ وانا في سنة الكرى . اتقلب من الحمى على جمر الغضا . فراعني ما سمعتهُ في المنام . لئلا يكون نذير الحمام . ولكن شاقني جداً خبر ما سأرى . فتجلدت وقلت في نفسي ما هي الأ رقدة اسرعت ام أبطأت فلعلَّ في الامر هدى . فلا تدع الصوت يذهب من دون صدى . ولا تجبن كأبيك آدم يوم عصى

ثم قلت ايها الصوت المتصل اليَّ عن غير طريق الحواس الظاهرة لاني اسمعك وحدي ولا يسمعك سواي كأنك مني او كأني فيك من انت ألعلك الضالة التي ينشدها الناس في كل زمان . ألعلك صوت مدبر هذه الاكوان . ألعلك انت الله الديان ؟ ولكن قل لي ما الذي اوجب بي هذا الاهتمام واوجب خرق النظام . حتى جئتني قبل يوم الحمام . لاني وان لم اكن من سكان القصور . فلم اصر بعد من سكان القبور . ألعلك استبطأتني فاتيت اليَّ كانك تريد ان تحاسبني قبل يوم الحساب . وقبل ان يزال عن النفس الحجاب كأني وحدي مخطيء والناس كلهم مصيبون . لكني لا ارى اصابتهم ملأت العالم خيراً

ولا خطائي جلب عليهم ضيراً . فانا غير آسف على الدنيا لاني لم ارَ فيها يوماً واحداً حبب اليَّ الخلق . وانت تعلم ـ اذا كنت كما يصفون ـ اني اقول الحق. واني لم اكذب في عمري الا من حيث كذبتني امالي . ولم اسيء الى احد ولو ساءت بِهِ حالي (١) . وما ذنبي الا لاني وضعت ثقتي في غير محلها . وصدقت ما بي من القوة فصرفتها في غير اهلها . بل انت تعلم اني كنت احسن الناس نية . واسلمهم طوية . فقومي يقولون ان عثرتي من عدم التكافؤ . وقومك يقولون انها منك وذهلوا عن تبعة ما نسبوا اليك من مثل هذا التواطؤ . كأنك لم تعطني القوة الا لتعظم عليَّ ألم السقوط من شاهق. ولم تجعل كل هذا الامتياز الا لترميني من حالق . فانا لم اقصد ذلك لاحد من الورى . فانا احسن منك اذا كنت انت كما الناس يرى . ـ وانا غير خائف من الاخرى لانهُ اذا صح قول قوم فالعدم خير من هذا الوجود الذي لا يستطيع العاقل الا ان يرى فيهِ صغر الموجد والموجود . واذا صح قول آخرين فانا لست بخائف اذا انتصب الميزان . لاني ادفع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان . ام لا يجوز في محكمة الله الديان . ما يعد العدول عنهُ اليوم استبداداً في محكمة الانسان . فانا لا اخاف من الوقوف امام محكمة العقل الاول . ألم تقل لنا انك عدل بل رحمة في كلامك المنزل . وان كنت قد ملأتهُ من التهديد والوعيد . ما لا يليق بالخالق مع العبيد . لانك اردت ان تجعلهم مسئولين عما انت وحدك مسئول عنه. وتنسب اليهم ما هم في شرع الحق براء منهُ . . . . .

فقال الصوت مهلاً ايها المعجب بجنانه . المغالي بقوة برهانه وحسن بيانه . المدعي القوة والضعف ملء جوارحه . والمتظاهر بعدم الخوف والجبن ملء جوانحه . يدل على ذلك ما اتيتهُ من الاسراع في الدفاع . قبل ان تعلم حقيقة الصوت ايها المرتاع . فانت ما

(١) قلت ذات يوم اعارض المعري في قوله :

هذا جناه ابي عليَّ   وما جنيت على احد

بقولي هذا :

فلو ارتضيت بما جنا   هُ ابي عليَّ وما انفرد
لم اشكُ الا دهرنا   وبذاك تعزية الولد
لكن جنيت انا عليَّ   وما جنيت على احد

زلت بعيداً عن هول يوم الموقف . فابق دفاعك الى ذلك اليوم ان كنت ترجو فيهِ من منصف

فقلت من انت اذاً ايها الصوت الذي اشكل عليَّ امره . وعظم لديَّ سره . فقال الصوت انا صوت الشعور العام . وتهيأ لتتمة الكلام . فأصابتني رعدة خلتها القاضية على حياتي . وارتني مماتي قبل يوم مماتي . ثم افقت واذا انا في عالم تحار في وصفه العقول لانها لم تألف ما فيهِ من المناظر . وتقصر دونهُ الالفاظ والمعاني لان معانيهُ لم تمر من قبل بخاطر . فأخـذت امسح عينيَّ لاجلو بصري وانا لا احس يدي ولا اهتدي الى عيني . وافرك جبيني كي استحضر فكري وانا لا اهتدي الى جبيني . فقلت ما هذا ايها الدليل اهدى ما ارى ام تضليل . فأنا اشعر بنفسي اني موجود . ولكن اين أنا من الوجود . فقال الصوت انت قد قطعت الآن عالم الكائنات . ودخلت في العالم الاول من عالم القوات

المشير — الى هنا وصل الدكتور في مقالته ثم اصابه الحدار كما اصاب فخذ يعقوب من قبل وفي عدد ٢٤ يوليو نشرت في المشير جواب الدكتور شبلي على كتاب ارسلته اليه اسأله فيه اذا كان حاقداً عليَّ واسأله ان ينجز المقالة وهذا نصه :

مصر في ١٨ يوليو سنة ١٨٩٩

حضرة الفاضل صاحب المشير المحترم

اخذت كتابك . أما انا فغير حاقد عليك لسرقتك لي . والسرقة جائزة اذا لم تكن مضرة واذا نفعت مع ذلك فهي لا تعد جريمة كما يعدها القانون المفتون بهِ اناس كثيرون ولكنني انا لست بهِ بمفتون . فاذا كانت سرقتي كما تقول قد افادتك شيئاً فانا لم تفرني بشيء . اما طلبك تتمة المقالة المسروقة فانت تعلم انما وصلت يدك اليه منها انما هو مسودة كتبت على نية التنقيح والاتمام ثم فاجأني الداء فقطع حبل افكاري ولم استبلَّ منهُ الا من بضعة ايام ولكني اراني بهِ قد رددت الى عالم الحقيقـة وصرفت عن عالم الاحلام . فانا الآن منهمك بالماديات ولا ادري متى يجوز لي الاشتغال بالروحانيات فاجابة طلبك ليست ميسورة في الحال ولا استطيع ان اعدك بها في الاستقبال ولا سيما ان مصارعة الالهة ليست بالامر السهل . وها انا شاهد من بعـد ويعقوب شاهد من قبل . على اني وان

طمعت بحلم الآلهة فلا اطمع بحلم البشر . ولذلك جاء في الامثال . ليس كل ما يعلم يقال . ولا كل ما يكتب ينشر [1] . فها قد بسطت لك امري . فاقبل عذري

الدكتور شبلي شميل

المقالة الرابعة والعشرون

﴿ الانتحار [2] ﴾

« بحث اجتماعي بسيكولوجي »

لقد تعددت حوادث الانتحار في هذا القطر في الايام الاخيرة خصوصاً في الاسكندرية ومصر حتى خيف من انتشار هذه الآفة الاجتماعية بالاقتداء بين شباننا الشديدي التأثر القليلي التبصر كأنها مرض ينتشر بالعدوى

بل هي مرض حقيقي من امراض الاجتماع . فالاجتماع كما وصفه بعض علماء السوسيولوجيا جسم يشبه جسم الحي في تكوينه ووظائفه واطواره وله نظيره امراض تشبه امراضه باسبابها ونتائجها وطرق انتشارها والفرق بينهما نسبي فقط في كبر الجسم وطول العمر فالاجتماع حيوان هائل والوف السنين ليست بالشيء الكثير في حياته

والبحث في امراض الاجتماع هو بحث بسيكولوجي سوسيولوجي يتناول البحث في قوى العقل واميال النفس والاسباب الاجتماعية التي تؤثر فيهما غريزية كانت كالوراثة العامة الراجعة الى الاجتماع نفسه والخاصة المتعلقة بالاهل او مكتسبة كالتربية البيتية والمدرسية ونوع التعليم مما يجعل هذا البحث وعر المسالك

فالانتحار مرض من امراض الاجتماع يهم المجتمع الانساني باسبابه ونتائجه فهو ينزع من هذا المجتمع اعضاء هم غالباً في مقتبل العمر والموجود مهما يكن خير لهذا المجتمع من

(١) ومن اراد الا المزيد فعليه برسالة المعاطس لابن جلا جعلتها صدى رسالة الغفران للمعري

(٢) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨

المفقود خصوصاً اذا عرف المجتمع بشرائعه ان يستفيد من قوى هذا الموجود النافعة لان الاضرار بهذا المجتمع ليس من اصل الطبع في نظام هـذا الكون بل من الامور العارضة بالنسبة الى تطبيق الوضع على الطبع . فالانتحار مرض عارض لعدم تطبيق الموضوع على المطبوع واسبابه في نظامات هذا الاجتماع وتعاليمه

فالانسان ليس كائناً واحداً في جسمه وطباعـه وعقله واخلاقه بل هو ابن الفطرة وابن المكان والزمان ايضاً . فالانسان الفطري ليس لنا مثال يمكننا من وصفه وصفاً ثابتاً وغاية ما يقال فيهِ انه معد اعدادا تاماً لقبول تأثير المؤثرات فيه طبيعية كانت او ادبية . ولا يمكن لنا ذلك ولو رددناه الى الحيوان لانه في هذه الحالة ايضاً يبقى متأثراً ولو لعوامل المكان انما بالتجريد يمكننا ان نتخيله بصفاته البسيطة الشاملة لعامة هذا الكون واول هذه الصفات فيهِ حب الذات وأبسطهُ اي حب الذات ما كانت الغاية منهُ المحافظة على الحياة . فالانسان الفطري هو اذاً محافظ على حياتهِ المادية لا ينوي لها شراً ولا يبغي بهـا بدلاً . فالانتحار ليس من طبع الانسان ولا هو من طبع الحيوان وما نسب الى بعض الحيوان من ذلك على ندرته لا يجوز ان يحسب من هذا القبيل وا كثره عن جنون حقيقي يصيب الحيوان كما يصيب الانسان وقتل النفس فيه نتيجة لا غاية مقصودة كما هو في الانتحار

بل لو بحثنا في طبقات البشر السفلى التي هي اقرب الى الفطرة لم نجد ما يحملنا على الخروج عن هذا المبدأ . فالانسان المتوحش اذا اوذي بمصلحته او عورض في ارادته يحاول ان ينتقم لنفسه لا بقتل نفسه بل بقتل من حال دونه وتصدى لايذائه وان خاف على حياته من خصمه ولم يجد مفراً لنجاته من يده يفضل ان يقع صريعاً وهو يدافع عنها املاً بالنجاة وطلباً للانتقام من ان يقتل نفسه بيده

فالانتحار ليس في صفات الانسان الفطرية ما يحمل عليه ولا هو معروف عند الانسان المستغرق في الهمجية بل هو طارىء عليه من نوع التربية والتعليم . ويلزمنا ان نصعد الى عصور الجاهلية الفاصلة بين عصر التوحش وعصر التمدن بمعنى انها آخر الاول واول الثاني حتى نجد بعض حوادث منهُ من وقت الى آخر بعيد وفي ظروف خصوصية نادرة . فلا يخفى ان الصفـة الاولى التي تنبهت في الانسان في هذه العصور اي عصور

الجاهلية هي الانفة ولذلك كانت حوادث الانتحار في هـذه العصور متتصرة على امر واحد ليس فيه شيء من صغر النفس او قلة العقل كما نرى اليوم كأن يقع الانسان في اسر عدوه او يخشى الوقوع في اسره وقد سدّت في وجهه سبل الدفاع وهو هالك في الحالين فيفضل ان يقتل نفسه بيده ليحرم عـدوه من لذة الايقاع به وهو في كل ذلك لم يتخط حب الذات فمدافعته عن نفسه يحمله عليها حب ذاته وقتلها بيده لئلا تهان بيد عدوه يحمله عليه حب ذاته ايضاً

ثم جاء عصر التمدن بما خالطه من التعاليم المتباينة والمبادىء المتناقضة من اجتماعية ودينية وادبيـة فقوّى في الانسان عواطف وامات عواطف وحوّل عواطف فقوّى في الانسان الخيال واضعف فيه الثقة بالنفس والاعتماد عليها وصرفه عن الحال بالمآل فصغرت الحياة الدنيا في عينيه حتى احتقرت الحياة المادية وعظمت الحيـاة الاخرى حتى صارت تفضل عليها الحياة الادبية

ولم يقتصر الانسان على بسيط هذه المبادىء والا لم يكن الشر عظيماً خصوصاً اذا كانت النتائج متفقة معها بل وقع تناقض كلي في تربيته وتعاليمه فبعد ان بذلوا الابدان الى حد التقشف ورفعوا الآمال الى مقام الاماني عادوا فرفهوا الابدان الى حد الترهل مع التصرف بالمبادىء الادبية بما لم يضعف من قوتها بل حوّل وجهتها وافسد غايتهـا فضعف الجهاز العصبي المستولي على العواطف بالتربية المرهـلة للابدان وتمادى العقل في الخيال حتى تناهى في الضلال وكثر التناقض بين الحياة النظرية والحياة العمليـة فكثر الانتحار بين الموسرين لاسباب أدبية تهيج بها العواطف متطرفين فيما تربوا عليه من ان قتل الآمال لاشد من قتل الاجساد وكثر بين الفقراء لاسباب اجتماعية تضيق عليهم المذاهب فعمدوا اليه متعزين بقول الشاعر

والموت اطيب من حياة مرة   تقضى لياليها كتقضم الجلمد

ولا يفهم من ذلك ان الانتحار من آفات التمـدن بدليل ما نراه اليوم بل التمدن الصحيح ينبغي ان يزيل اثره بالكلية من المجتمع البشري باصلاح التربية وتقويم المبادىء بل هو من آفات تمدننا الحديث لما فيه من النقص والتذبذب في كل شيء فنحن حقيقة

في دور من ادوار ارتقاء الانسان ينبغي ان يعد في تاريخ المجتمع البشري طور الانتقال فنحن في هذا الطور لم نبق على همجيتنا البسيطة ولم نبلغ مقام التمدن الصحيح ولقد مرَّ علينا في هذا الدور قرون ونحن نتقلب متذبذبين بين الوقوف والتقهقر واستئناف السير وسيمر علينا قرون كثيرة ايضاً قبل ان نبلغ هذا المقام . وادوار الانتقال في حياة الجموع كما في حياة الافراد شديدة الخطر فكما ان الخطر على حياة الافراد يشتد في طور انتقال الطفل من الرضاع الى الفطام وفي التسنين هكذا الخطر يشتد على حياة الجموع في انتقالها من طور الى طور وكثيراً ما يعرض لها في هذا الطور ما يوقف سيرها ويوجب تقهقرها وتاريخ الاجتماعات البشرية مشحون بالادلة على ان هذا الوقوف وهذا التقهقر حصلا لها في حياتها مراراً عديدة فاضطرت ان تستأنف السير والله يعلم ما يلزم لذلك من الزمان الطويل

ويطول بنا الشرح لو اردنا ان نبين اوجه النقص في تمدننا الحديث الذي نتباهى بهِ اليوم كأنا بلغنا بهِ القدح المعلى وما يعترضهُ من المخاطر التي يخشى منها على حياة العمران مما يوجب وقوفه وتقهقره احقاباً طويلة . ولا نطيل الوقوف على هـذا التمدن « النيء » في حياة الافراد في حركاتهم المصطنعة التي ليس فيها شيء من الرجولة التي هي منتهى الادب الحقيقي كأن يثبت الانسان رجليهِ على اطراف قدميه ويحني رأسه الى الامام ويبرز بعجزه الى الوراء ويبسط كفه لا الى حد العطاء ويضم اصابعه مبالغة في العياقة ويمد ذراعيهِ على زاوية لا هي بالمنفرجة ولا هي بالقائمة ويثبت كتفه كأن بها حدوراً تؤلمها الحركة يظن بذلك انه بلغ منتهى الكياسة وما بلغ بهِ الا انحطاطه الى مقام اجداده القرود أو كأن يقف صنماً على كلتا قدميـهِ ويثبت ساقيه ويأخذ بعجزه وجزعه يطول ويقصر وينحني وينبسط باسطاً كفه بسط المستجدي ماداً يده الى الارض ورافعها الى رأسه وفمه مكرراً ذلك بسرعة تخطف الابصار كأنه يغرف بها شيئاً من احد طرفيهِ ليضعهُ في الطرف الاخر وما يغرف بها الا جهله ليدل بهِ على قلة عقله (اشارة الى السلام الافرنجي والتركي)

وهذا التصنع الذي يعده بعضهم من التمدن ويا حبذا التوحش عنده لا يقتصر على حركاتهم فقط بل يتناول حديثهم ومعاملاتهم وصداقتهم ان صحت ان تسمى صداقـة وسائر آدابهم بجميعها لا يتجاوز حد التكلف ومبدأهم فيهـا التبطن على حد قول المثل

الفرنساوي « جعل الكلام لتضليل الافكار » او على حد قول الشاعر العربي

يعطيك من طرف اللسان حلاوة   ويروغ منك كما يروغ الثعلب

ولا يخفى ما في ذلك من الرخاوة العديمة الطلاوة ومن النقص في الاداب الخصوصية والعمومية معاً ومن افساد اخلاق المجتمع البشري عموماً واقل اضرار ذلك التضليل لفقد الحرية الدالة على الشهامة وعلو النفس

واذا نظرنا الى هـذا التمدن المشحون بالمبادىء المتناقضة في حياة الجموع تبدى لنا هذا النقص جلياً في نظاماته واحكامه وتعاليمه مما يجعل الخطر على التمدن الحقيقي من الوقوف والتقهقر شديداً جداً . فلولا هذه النظامات الناقصة والاحكام الفاسدة والتعاليم المضللة لما رأينا المئات من الالوف يذهبون جوعاً وبرداً وقتلاً بالسيف والامراض . ولما رأينا هـذا التأفف من الهيئة الاجتماعية بسبب ذلك وهذا التحفز منها لقلب هذه النظامات انتقاماً للضعيف الرازح تحت عبء الظلم من القوي السابح في بحور الغرور ولا يخفى ما في ذلك من الخطر على المجتمع نفسه . ولا نظن ان عصراً من العصور بلغ فيهِ توتر العلاقات التي تربط اعضاء هذا المجتمع بهذه النظامات مبلغهُ في هذا العصر لاتساع الفهم فاما ان تنقح هذه النظامات الى ما يكون اصلح للحال واما ان تقطع رباطاتها لزيادة الشد فيقع المجتمع في اواخر هذا القرن او اوائل القرن القادم في هرج لا تذكر معهُ ثورة اواخر القرن الماضي بشيء

وقـد يتوهم القارىء ان اسهاب الكلام على التمدن الحالي ونظاماته وتعاليمه وسائر آدابه كما تقدم خروج عن الموضوع وغلو في النظر والحال ان اعتبار ذلك امر لازم في مثل بحثنا لان اسباب انتحار الافراد تمتد اعراقها الى اصل المجتمع البشري وتتخلل كل طبقاته فاداب الافراد من آداب الاجتماع واخلاقهم من اخلاقه وقواهم العقلية وعواطفهم من قواه العقلية وعواطفه فالاجتماع مسئول عن كل ضعف يظهر في الافراد ولا شك ان الانتحار ضعف في العقل يجر الى صغر في النفس سببهُ تقوية بعض العواطف بسبب التربية واماتة البعض الآخر وتحويلها الى غير وجهتها الحقيقية بالتعاليم المتناقضة وعدم انطباقها على العمل فبهذه التربية التي يفرط فيها اصحاب اليسار في البيوت والمعلمون في المدارس والتي

يفرط فيها اصحاب العسر كذلك يرهل البدن وتضعف اعصابه فيصير سريع التأثر ولذلك كان يكثر الانتحار في سن الصبا ما بين خمس عشرة سنة وخمس وعشرين سنة اذ يكون الجسم رطباً رخصاً فالتربية البيتية تضعف البدن بالترفه والتربية المدرسية تقوي العواطف وتفسح المجال واسعاً للخيال الى حد الضلال مع عدم مراعاة تطبيق ذلك على المعاملات فيخرج الشاب من بيته ومن المدارس وهو على هذه الحال من وهن المبادي‌ء الى المجتمع البشري حيث يصادف كل شي‌ء على عكس ما قد تربى وضد ما قد تعلم فتشتد فيهِ الانفعالات وتعظم عليهِ الصعوبات ولا سيما اذا كان ممن قد تعلق على قراءة كتب المجون التي يبالغ اصحابها في تجسيم ما بني على المخيلة وتعظيمه مع بعده عن الواقع حتى يصبح الانسان اثنين متناقضين انساناً بالوسط الذي يعيش فيهِ وانساناً بما تربى عليهِ فيصير بذلك متأثراً لاقل سبب واحياناً لغير داعٍ . وكتب المجون هذه شديدة الضرر في تهييج عواطف الانسان على ان نهج بعض الكتبة فيها في اواخر هذا القرن النهج الطبيعي لتقرير الحقائق كما هي خطوة حميدة ستقلل الضرر الناشي‌ء عنها

والانتحار يكثر في الاحداث لاسباب عشقية تسهل مداواتها ومعاكسات لاتصعب ملافاتها لو كانوا اقوم تربية واكثر خبرة ولذلك هو يقل جداً بعد سن الاربعين واذا حصل حينئذٍ فلغير هذه الاسباب . لاسباب يزعمون انها تمس الشرف كما لو تورط انسان مستقيم لزلة قدم فاستعمل مالاً ليس له بناء على ان يرده لصاحبه بعد ان يصلح زلته فيبدد المال ولا ينهض من عثرتهِ ويخشى افتضاح امره فقد يقتل نفسه او وقع في مرض عضال تأكد عدم شفائه ولم يعد يطيق عذابه فقد ينتحر فراراً من العذاب واذا كان للانتحار مسوغ فربما كان هذا الاخير اي المرض اصدق مسوغ له

وفلسفة الانتحار يختلف تعليلها بحسب الاسباب والسن ففي العشق يقصد المنتحر التخلص من عذاب ليس في طاقتهِ احتماله وربما قصد بانتحاره ارضاء حاسة وهمية هي قهر الحبيب اذا كان يعتقد ان حبه شاغل مكاناً من قلبه او كان يعتقد فيهِ وجود عاطفة الشفقة فقط وقلما ينتحر لمعشوق يعتقد فيهِ الخلو من هاتين العاطفتين اصلاً وفي معاكسات الاهل يقصد تكديرهم كانه ينتقم لنفسه منهم على عدم مجاراتهم له في اهوائه واما الذي يبذل

حياتهُ صوناً لشرف نفسه فيقصد بذلك ترضيتين احداهما تخليص وجدانه من عذاب ما تجلبهُ عليه الاهانة . والثانية تلطيف هذه الاهانة بما يظن انه يهيء لها من الاعذار لدى الجمهور

والمنتحر ليس بمجنون حقيقة كما ربما يظن البعض لانه في انتحاره يعقل اي انه يفعل افعالاً مغيّاة لا تخرج كلها عن حب الذات فاذا بذل حياته المادية فلاعتقاده ان الحياة الادبية افضل او لان عذابه تجاوز حد طاقته او لاسباب اخرى ذاتية والدافع له الى ذلك ضيق في العقل وصغر في النفس للاسباب الاجتماعية السابق ذكرها ولو اصلحت تربيتهُ على المبادىء المتينة لعلم ان الشرف الحقيقي لا يكون بقتل النفس ولو بعد زلة كما يظن من لا حزم عنده وتساعده التربية الاجتماعية بل بمصادمة الطوارىء بعزم ثابت وجأش قوي لعله يستطيع ولو في المستقبل البعيد ان يعوض على من اضاع عليهِ متاعه والا فيكون قد جاهد جهاد الابطال ولم يمت موت الانذال وان الشهامة التي يزعم الاحداث انهم يأتونها بانتحارهم لمعشوق زاد دلالاً او قهراً لابوين لم ينيلاهم منالاً ليست شهامة بل الشهامة في تلقي الصعوبات بصدر رحب وقلب لا يهاب للتغلب عليها

وأما الانتحار الذي يكون سببهُ الفقر فما الباعث عليهِ الا ضيق المذاهب على الانسان فتقل حيلته في تحصيل رزقه وفطرته لا تساعده على ما عدتهُ الهيئة الاجتماعية جنايات فهو لا يجد من نفسه ميلاً للسرقة او اللصوصية . فتصغر همتهُ بازاء الصعوبات الكثيرة فيطلب النجاة من الذل بالموت

والانتحار هنا يكون غالباً مقروناً بالقتل فيقتل الرجل معهُ امرأتهُ واولاده كأنه يريد ان ينجيهم مما هو واقع فيهِ معتقداً انهم يشعرون شعوره في مركزه وربما حملتهُ محبة نفسه عن شعور مبهم على ان لا يدع نفسه يترك هذه الحياة من دون شريك له في مصابه فيعمد الى قتل من هم اقرب اليهِ وقتلهم اسهل عليهِ . والمسئول في هذه الجناية الفظيعة نظامات الهيئة الاجتماعية بلا ريب . وربما وضعنا مقالة في فرصة اخرى ابنّا فيها كيف يمكن ملافاة نقص هذه النظامات بما تقل معهُ مصائب الانسان ولا يخرج عن حد الامكان في هــذا الزمان حتى لا يظن قصار النظر اننا نهيم في الاوهام وان مباحثنا اضغاث احلام وحتى يتضح لهم انهم هم انفسهم ليسوا في يقظة بل في منام

المقالة الخامسة والعشرون

﴿ رجال الغد [1] ﴾

اذا شئت ان تعرف مستقبل امـة فابحث عنه في اطفالها فهم تاج الماضي وعنوان المستقبل ابحث عنهُ في صحتهم وفي تربيتهم وفي تعليمهم من يوم يحبل بهم اجنة الى يوم يولدون ويربون في حجر امهم الى يوم يخرجون من المدارس وينضمون الى الهيئة الاجتماعية اعضاء عاملين . فعلى صحتهم وكثرتهم يتوقف نمو الامـة وعلى حسن تربيتهم وتعليمهم يتوقف نجاحها . فالام اول عامل يؤثر في الطفل واهمهُ وتأثيرها فيه اشد من تأثير الاب فهي تغذيه من دمها اشهراً وتسقيه لبنها اشهراً وتربيه في حجرها سنين وما يكتسبهُ الطفل من امه بالاعداد الطبيعي والتربية الادبية والتعليم العقلي قد لا تقوى عليه المؤثرات اللاحقـة ومهما قويت فلا تزيل أثره . تصور اماً حمقاء لا تعرف من قوانين الصحة الأ الاكل حتى على الشبع ومن آداب التمدن الا البهرجة والتزين بالحلى العاطلة وهي عاطلة من حلى الآداب الحقيقية ومن العلوم غير ما تقوى بهِ الاوهام وتفسد معهُ الاحكام عقلها اوسخ من بدنها تدفع العين عن طفلها بالقذارة وتمنعهُ عن اتيان ما لا يجوز بتخويفه بالغول والبعبع بعد الاب والطبيب وتدفع بهِ بعد ان تغذيه بدم الجهل وتسقيه لبن الحمق الى مرضع لا تفضلها في شيء من هـذا القبيل وتنقص عنها في فقدان الحنو الوالدي الذي هو من العواطف التي تؤثر في اللبن تأثيراً عصبياً وتكيفهُ تكيفاً حسناً يستمريء بهِ الرضيع . فماذا تكون حالة هذا الطفل المسكين صحياً وادبياً وعقلياً . لا شك انها تكون رديئة جداً . ثم قابل هـذا الطفل بطفل ام هي على نقيض ما تقدم عاقلة متهذبة متعلمة متحلية بالاداب الصحيحة عالمة ان نبلها قائم ببساطتها في معيشتهـا لا ببهرجتها وان جمالها قائم بترتيبها ونظافتها لا بطلي وجهها ليس للاوهام عليها سلطان يدفعها الى الاستمساك بالخرافات وزرعها في رأس طفلهـا حتى يشب على الاعتقادات الفاسدة والاحكام الباردة بل تربيه

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨

تربية تجعل عقله حراً غير مقيد بقيود الجهل والاوهام تحافظ على صحتهِ بالمبالغة بنظافة جسده وملابسهِ والاعتناء بطعامه وشرابه ونقاوة هواء غرفته متحاشية التأنق الذي يجر الى الرفاهة المرهلة للابدان والآداب حافظة له شيئاً من الخشونة الجائزة المقوية للاجسام والاخلاق فان مثل هـذا الطفل يشب صحيحاً اديباً عاقلاً ليس فيهِ شيء من ميوعة المترهلين او خشونة الجافين متحلياً بالرجولة التي هي من صفات الحازمين مقداماً ولو زلت قدمـهُ جليداً ولو خارت همهُ سخياً ولو نضبت كفهُ كريم الاخلاق يملكه المعروف ولا يلتئم للمتلوف يعذر حيث يجب العذل . فالجهل عذر لا يفوت ذوي الفضل

كريم يقيم العذر في موضع العذل فالجهل عذرٌ لا يفوت ذوي الفضل
اذا ما رأى المعروف في بذل نفسه جفاها ولم يقبل فداه سوى البذل

والحكم بين الطفلين كالحكم بين الامين لا يقبل التردد وهـذه النسبة تختلف بين اطفال امة واحدة لاختلاف الامهات والغلبة حينئذٍ للاكثرية كما انها تختلف بين اطفال امةٍ وامة والغلبة هنا للامة المتمدنة فاذا خرج الطفل من حجر امه الى المدارس صادف هناك عقبات كثيرة كثيراً ما تهدم جسمهُ وتطفئ نور عقله من سوء المعاملـة في التربية وفساد التعليم وهذه المسألة المهمة جداً في مستقبل الاطفال ومستقبل كل امة تحتمل بسطاً واسعاً اذا اردنا الالمام بكل اطرافها والمقام لا يحتمل ذلك فنقتصر فيها على كلام اجمالي يكون تمهيداً للتوسع في هذا البحث لمن اراد ولا نطيل الوقوف على المدارس الصغرى فان عدمها افضل من وجود كثير منها ونحصر كلامنا في المدارس الكبرى فنقول ان التعليم على ما هو شائع وخصوصاً في مدارس المشرق ناقص جداً فنظام المدارس في التعليم والتربية قديم لا ينطبق في جملتهِ على احتياجات العصر ومقبولات العقل وسنن الارتقاء فالاسباب الصحية مهملة في اكثرها للغاية من حيث نظافة الهواء والماء والمآكل والملبس فان القائمين بهذه التربية اكثرهم لا يعتنون بذلك وربما عدَّهُ بعضهم من الامور المخالفة للمبادئ القائمين بتأييدها فعدوا القـذارة نوعاً من التقشف الفضيل والنظافة افراطاً في الترهل الذميم وكثيراً ما يكون ذلك سبباً لامراض تؤدي الى الموت بعـد الاعتلال . خذ مثلاً لذلك من امثلة كثيرة وهو مثال السكين والملعقة والشوكة التي يستعملها التلامذة

في طعامهم فان كثيراً من المدارس حتى اليوم لا يسمح بغسل هذه الاواني الا مرة في كل اسبوع

والتربية ناقصة كذلك واكثر القائمين بها اناس يجهلونها فيعدون العقاب ومعاملة التلامذة بالخشونة والقساوة من القواعد الاساسية ويساوون فيها بين العموم لا يفرقون بين تلميذ وتلميذ جاهلين الحكمة من قول الشاعر

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى   مضر كوضع السيف في موضع الندى

اي ان استعمال العصا حيث يمكن الاكتفاء بالتوبيخ اللطيف مضر كاستعمال هذا في موضع ذلك والامثلة على ذلك كثيرة وكل واحد منا في وسعهِ ان يذكر كثيراً منها واروي لك مثالين وقعا لي في مدرستين متباينتين في التربية وبينهما فترة طويلة احدهما اني كنت ذات ليلة قبل ميعاد النوم واقفاً مع صفي في مكان مكشوف للهواء وفي ايام الشتاء فخانني الصبر من طول الانتظار وقرصني البرد فتأففت من ذلك طالباً العجلة فلم يرُق ذلك في عيني الملاحظ علينا وكان رجلاً احمق اسمهُ الاب يانكي احق بهِ مستشفى المجاذيب من مدرسة يتولى تربية الصغار فيها فعاقبني للحال عقاباً اوسخ من عقله فاعترضت فشدد العقاب فرضخت للظلم لصغر سني وضعفي وحفظت الغل في قلبي حتى اليوم ولو كان لي حينئذٍ قوة تمكنني من الدفاع عن نفسي لنتفت ذقنه شعرة شعرة ثم وقع لي بعد ذلك بسنين في مدرسة اخرى ما اخجل انا نفسي من ذكره فاني طلبت يوماً ما وانا على المائدة طعاماً غير موجود وكان ذلك جائزاً لنا فأباه العشي عليَّ فغضبت لذلك جداً وقمت من عن المائدة واندفعت الى المطبخ كالآلة العمياء وتناولت الشيء الذي طلبتهُ ثم رميت بهِ الى الارض ودستهُ تحت قدمي . ثم رجعت الى مكاني وانا انتظر العقاب على ذلك واقله الطرد . وكان للمدرسة رئيس من افاضل الرجال عاقل حكيم اسمهُ الدكتور بلس اطال الله بقاءه فابلغوه الامر فكأنه نظر الى سوابقي الحسنة وربما راعى اجتهادي في الدرس كذلك فامهلني يومين ولم يقابلني وانا انتظر من دقيقة الى اخرى ان يطلبني فلما كان اليوم الثالث كنت في ساحة المدرسة وحدي فرأيتهُ مقبلاً عليَّ وبيده كتاب فجمدت في مكاني وعلاني اصفرار الوجل وخفق قلبي فلما دنا مني تبسم ومال الى اذني

كأنهُ يريد ان يسر اليَّ امراً وقال لي بصوت منخفض « اذا غضبت مرة اخرى فلا ترتب على غضبك عملاً الا بعد اربع وعشرين ساعة » وتركني فبقيت جامداً في مكاني لا اتحركُ وعلاني احمرار الخجل واستولى عليَّ الدوار ولا اعلم كم بقيت في هذه الحالة لا انتقل من مكاني وانما الذي اعلمهُ انني اعتبرت بهذا العقاب كثيراً وحسبتهُ اشد من الضرب والطرد وادعى الى الاصلاح

واي قساوة وحشية تفوق ما ارويه لك عن معاملة المعلمين للتلامذة في بعض هذه المدارس الكبرى فاني يوم كنت تلميذاً وسني بين ١١ و ١٢ سنة كان ملاحظ غرفة منامتنا كلما رأى تلميذاً مكشوفاً وهو نائم يوقظهُ بضربه بعصا رفيعة على رجليهِ عوضاً عن ان يغطيه كما كان يفعل ابوه او امه مع ان عمل الضرب لا يوجب على حضرته صرف قوة اقل مما يوجب عمل التغطية فماذا يفعل هذا الطفل المسكين القاصر عن معرفة الجائز وغير الجائز وعن معرفة متى يكون مسئولاً ومتى لا يكون اذ يرى مثل هذا الوحش المتولي امر تربيته يفعل ذلك سوى ان يقوم في اعتقاده ان تكشفه في نومه ذنب لا يغتفر ولكنهُ ذنب ليس في طاقته ان يجتنبهُ فتقل ثقته بنفسه ويقع في رعب قد يؤدي بهِ الى الخمول . واذكر اني كي اتقي هذه المعاملة الوحشية عمدت الى اللحاف وثبتهُ في السرير ثم فتقت ملحفته وصرت ادخل جسمي بين اللحاف والملحفة كأني في كيس ولكني كنت حينئذٍ كالمستجير من الرمضاء بالنار فقد اتقيت بهذه الحيلة عصا الرقيب ولكني وقعت بين انياب البق لان مسامير اللحاف كما يسمونها كانت ملآنة بقاً

ولذلك ينبغي ان يكون المعلمون من الذين تربوا جيداً وبرعوا في علم الاخلاق حتى يدرسوا طبائع كل تلميذ ويعاملوه بحسب طبيعته وينبغي ان يكونوا كذلك من النبهاء ليلاحظوا ميل كل تلميذ وقابلية عقله ليردعوه عن الفاسد وينشطوه في الاستعداد الحسن والاكثرون لا يفهمون مقدار الضرر الناشيء عن عدم مراعاة ذلك فان عقولاً كثيرة من اذكى العقول ينطفي نورها كل سنة في المدارس من سوء المعاملة ومقاومة اميال العقل ولا ريب عندنا ان المستقبل سيجعل فن سياسة الاطفال فناً قائماً بنفسه تؤلف فيه المؤلفات ويتلقنه المعلمون في مدارس خصوصية تجيز لهم التعليم كما يفعل اليوم للاطباء والمشترعين

اما التعليم في المدارس فقسمان العلوم الادبية والعلوم الطبيعيـة اما العلوم الطبيعية ويدخل تحتها العلوم الرياضية فلا يعترض عليها لانها واحدة في كل المدارس وهي من اصدق العلوم وتأثيرها في العقل جيد جداً اذ تربيه على القياس الصحيح

اما العلوم الادبية فواسعة جداً ويدخل تحتها علوم اللغة لا من حيث وضعها ونشؤها فان ذلك من المباحث الطبيعية الحسنة والمهملة في المدارس بل من حيث تعليلها والمنطق والفلسفة العقليـة وعلم الاداب والسياسة واللاهوت الى غير ذلك من اجتهادات العقل واوضاعهِ ففيها كثير من المبادىء التي يدخلونها في رؤوس التلامذة قسراً كانهـا قضايا مسلمة وكثير منها ما يكون مغلوطاً ويربون العقل عليها حتى يفقد ما له من القوى الذاتيـة ويصبح كانهُ مصنوع على قالب معلوم وناهيك بهذا المصنوع المبني على المغلوط وبعد ان يصنموه على هذه الصورة يفرغون فيه العلوم حيث تبقى فيهِ عقيمة او تظهر بمظاهر متناقضة ولذلك كان اكثر الذين يقيمون في هذه المدارس زماناً طويلاً ويدرسون دروسها القانونية يخرجون منها متعلمين كثيراً ولكن فاقدين كل امتياز ذاتي في عقولهم واكثر الناس الذين امتازوا بخاصـة ذاتية في عقولهم هم من الذين لم تسمح لهم الاحوال اما لمرض وإما لسبب آخر باتباع هذه الدروس القانونية على النسق المعوَّل عليهِ في اكثر المدارس ونجوا بذلك من الوقوع تحت سلطان هذه التربية العقلية فالمدارس لا يجوز لها ان تضغط على العقول لتصنعها على قالب معلوم وتضيق عليها المذاهب بل يلزم لها ان تعدها اعداداً عاماً وتوسع لها المنافذ حتى يسهل عليها التصرف في العلوم التي تعلمها والبحث في جميع الاشياء التي تعرض لها وبين المـدارس الموجودة بيننا فرق عظيم في ذلك وافضلها ما هجر الخطة الاولى وكان اقرب الى الخطة الثانية والفرق بين تلامذة المدرستين واضح وارجحية الجانب الواحد لا تحتاج الى بيان ولو كانت حكومات المشرق من الحكومات المرتقية لاهتمت بهذا الامر جداً على الاسلوب الذي ألمعنا اليهِ والذي يحتاج بسطه الى تفصيل طويل

ولو كنت ناظراً للمعارف — لا اقول ذلك من باب التمني — لا كثرت التردد على المدارس لا في الحفلات الرسمية للاكل والشرب والطرب على نغم الموسيقى واستماع خطب

المدح الباردة ومبادلة العبارات الفارغة بل للوقوف على احوال التلامذة في ادق امورهم في مائهم وهوائهم وغذائهم ونظافتهم ومطبخهم واسرتهم وملابسهم فضلاً عن طريقة تعليمهم بل للوقوف على حال المعلمين من ذلك ايضاً فاني اذكر ان معلماً من معلمي المدارس الكبرى حضر مرة للتداوي عندي فلما كشفت لباسه الاسود كدت اتقيأ ما في معدتي من شدة سواد قميصه لشدة قذارته فكيف يرجى ممن هو بهذه القذارة في جسمه ان يكون انظف من ذلك في عقله وان يكون مرشداً لهؤلاء الاطفال الى ما يصح به جسمهم ويذكو عقلهم وتسمو آدابهم

ولا ريب ان بعض المدارس اصلح من البعض الآخر في هذه الامور وان كثيراً منها اصطلح جداً عما كان عليهِ من عشرين سنة خصوصاً في اوروبا الا ان البعض الآخر لم يزل كما كان عليهِ من عهد اربعين او خمسين سنة خصوصاً في سوريا ومصر من البلاد التي يهمنا التعليم فيها . والاصلاح الذي حصل في المدارس في النصف الثاني من هذا القرن هو في جملتهِ دون الممكن ودون المطلوب خصوصاً اذا قسناه بالاصلاح الذي حصل في المستشفيات والفنادق ولا ندري كيف تصبر الهيئة الاجتماعية والحكومات المتمدنة على ذلك مع علمها ان هؤلاء الاطفال هم رجال الغد فعلى صحة ابدانهم يتوقف نماء الامة وعلى صحة عقولهم يتوقف نجاحها

واهمال الرحمة بالاطفال بالغ الغاية القصوى في بلاد المشرق واذا القينا نظرنا الى الاطفال في هذه البلاد خصوصاً ضاق علينا قاموس اللغة لوجود الفاظ تعبر عما يجيش في النفس من الاحتقار لرجال الاحكام ولهيئة البلاد نفسها ولا سيما بعد ان عدوا انفسهم في عداد الحكومات والامم المتمدنة يتقلدون كأنهم لا يعقلون فيؤلفون الجمعيات للرفق بالحيوان كأنهم استوفوا ما يلزم لنوع الانسان مع ان الحاجة الى اقامة الجمعيات للرفق بالاطفال خصوصاً في هذه البلاد اشد واولى . فلا نظن ان العاهات التي تشوه الابدان والوفيات التي تذهب بالارواح بالغة في بلاد مبلغها في هذه البلاد . فالرفق بهؤلاء الاطفال من اول واجبات الامة وواجبات الحكومة اذا كانتا تريدان ان تعملا عملاً معقولاً مشكوراً ولا اقلّ من ان تنشأ لهم المستشفيات الكافية . ولا تستغرب ايها القارىء اذا

قلت لك ان في كل تركيا ومصر لا يوجد مستشفى واحد للاطفال فالحكومة تعتذر من عدم وجود المال (الا اذا شاءت) وغالب اغنياء الامة ليس فيهم من يفهم قوة هذه الاعمال لجهلهم وقلة عقلهم مع ان الذي انفقتهُ حكومة تركيا ومصر على سياحة امبراطور غني كان في امكانه ان يسوح على نفقتهِ وما تنفقهُ الامة من وقت الى آخر على الاحتفالات الصبيانية البليدة كان وحده يكفي لانشاء مستشفيات تأوي فيها اطفال البلدتين معاً

والمضحك المبكي ان الحكومة والامة اللتين لا تهتزان لهذا الامر الجلل تنتفض اعصابهما رعباً لعمل مشجوب يأتيه بعض الرعاع من وقت الى وقت آخر بعيد كالايقاع بعظيم يسهل تعويضه لهوس تسهل مداواته ويأس تسهل ملافاته فتقوم قيامتهما وتبثان العيون والارصاد وتأخذان البريء بجريرة المذنب كأن القيامة قد قامت ويوم الحشر قد دنا . واغرب من ذلك ان هذه الغيرة قد امتدت الى جرائدنا في هذه الايام فقامت تجسم الاوهام وتؤكد المزعوم وتحذر وتندد وتنبه رجال الاحكام الى خوف بعيد عنها قريب منهم كأنها احرص منهم على حياتهم واشد استمساكاً منهم بنظاماتهم مع بعدها عن امتيازاتهم منادية بالويل والثبور ذارة الرماد على مسترسل سطورها كأنها خافت على قصور اصحابها ان تنسف واموالهم ان تسلب وارواحهم ان تنهب وهم منها افرغ من فؤاد ام موسى حتى ارواحهم لم يبقوا على استقلالها مدفوعة بعوامل لا يصح ان تسمى الانعطاف لان هذه الحاسة النبيلة كثيراً ما نخونها في حوادث اشد من اعمال الفوضويين ضرراً واكثر منها مساساً بهم فكم نرى الحاكم الواحد يضحي مئات الالوف من النفوس والملايين من الاموال على مذابح الطمع والجهل ولا تبس ببنت شفة فلو كانت هذه الحاسة الشريفة هي التي تدفعها الى ذلك لوجب ان تظهر فيها على نفس النسبة وحينئذٍ لملأت العالم ضجيجاً وعجيجاً فالحكمة تقضي في مثل ذلك ان يبحث عن السبب لملافاته من اصله فالفوضوية والاشتراكية وكل الجمعيات المقاومة للنظام الحالي بقطع النظر عن كونها صالحة أو غير صالحة دليل على ان الهيئة الاجتماعية تشعر بتعب موجود حقيقة تقصر النظامات الحاضرة عن تداركه فاصلاح هذه النظامات لازالة هذه الاسباب احق واولى . وما اهمال تربية الاطفال الذين فيهم بحثنا من جانب هذه الهيئة والنظامات الا سبب واحد

من اسباب كثيرة اجتماعية داعية الى تأفف الهيئة الاجتماعية

فلعل جرائدنا تجد في هذا الموضوع ما يشغلها البحث فيهِ اشهراً وسنين فتفيد وتستفيد وخصوصاً نحن الشرقيين الذين نشعر بثقل وطأة الاجنبي ونحاول التخلص منهُ فهذا لا يتم لنا الا اذا وجهنا كل قوانا الى الاعتناء باطفالنا الذين هم رجال الغد حتى نستطيع ان نناظر بهم من هم ارق منا وحتى لا نبقى بهم كما قال الشاعر

صبياننا في القبح مثل شيوخنا وشيوخنا في العقل كالصبيان

المقالة السادسة والعشرون

﴿ الاشتراكيون (١) ﴾

قرأت مقالة في الاشتراكيين وغاية ما فهمتهُ من الانتقاد عليهم ان شكواهم من نظام الاجتماع فارغة ومطالبهم افرغ وهي على ما بها من الوهن غير واضحة حتى يهتدى بها

وقائل ذلك لم يقل لنا رأيه في نظام الاجتماع نفسه كما هو اليوم وكما كان في الامس . والمتبادر الى الذهن من سياق الحديث انه حسن في العهدين

على ان نظام الاجتماع كما هو اليوم ليس الذي كان بالامس فهو اليوم اصلح نوعاً منهُ في الماضي ليس في كله بل في بعض المجتمعات التي عليها مسحة من التمدن ونسميها نحن متمدنة — والا فهناك حتى اليوم مجتمعات كثيرة يود الانسان لو لم يكن من اعضائها

فلماذا تغير هذا النظام ويتغير مع الاجيال من اردأ الى رديء ومن رديء الى حسن بالتدريج — وما هو الباعث على هذا التغيير

وما هو كذلك شأن مثل هؤلاء الناقمين على هذا النظام في هذا التغيير فوضويين كانوا او اشتراكيين أو مقلقين او مصلحين او فلاسفة الى دعاة الاديان انفسهم على اختلاف منازعهم وحسب كل عصر . ولعلَّ المدقق يوافقني على ان شأنهم في ترقية الاجتماع عظيم

(١) نشرت في الاخبار سنة ١٩٠٨ وهي المشار اليها في مقالة المؤيد المار ذكرها

وليس شأنهم هذا بالنظر الى تعاليمهم ومبلغها من الصحة والموافقة بل بالنظر الى موقفهم تجاه الاجتماع فان هذا وحده كاف لايقاظه ومنعهِ من التقهقر وتمهيد سبل الارتقاء له

ولذلك كان اول خاطر يجب ان يخطر للباحث المدقق عند ذكر الناقمين ليس الطرق التي يتذرعون بها والخطط التي يسنونها لمقاومة نظام الاجتماع اذ قلما نجد حينئذٍ اثنين متفقين . ولا ما يخامر بعضهم من المطامع فالنفس امارة بالسوء وكل مصلح اذا استبد يحتاج الى مصلح يصلحهُ لذلك كان وجود الضد في نظام الاجتماع من أعظم مقومات الاصلاح وكلما اشتد الضد اشتد التنازع واشتد التغير ايضاً سنة العوالم في نشوئها . بل الخاطر الذي يجب ان يخطر له هو لماذا هذا القلق المستحوذ على الاجتماع والذي لا يفارقهُ في كل اطواره كما يدل عليهِ تذمر المتذمرين وثورات الثائرين في كل العصور فلا شك ان السبب هو نقص نظاماته عن توفير الراحة له . وارتقاء العمران في الاجيال يدلنا على انه يمكن اصلاح هذا النقص

فالى هذا يجب ان يتجه اولاً خاطر الباحث المفكر والمصلح المدبر عند ما يسمع ذكر مثل هؤلاء الناقمين لا الى شجبهم وتقريعهم وتسفيه تعاليمهم مما يوهم لاول وهلة ان الاجتماع كما هو على هدى وهم يدفعونه الى الضلال . واذا انتقدناهم فللتنبيه الى ما قد يكون اصلح لفائدة الاجتماع . ولا يجوز لنا ان نرمي مطالبهم بانها اضغاث احلام قبل التثبت . فكم من مثل هذه الاحلام المزعومة في الماضي صارت حقائق رائعة اليوم . ولا ان نؤول تعاليمهم على غير الحق اضعافاً لها : فلقد طالما قال لنا خصوم مذهب دروين ان مذهبهُ يعلمنا ان الانسان متسلسل عن القرد اي ان القرد نفسه سيرتقي حتى يصير يوماً ما انساناً نظيرنا والحال ان مذهب دروين لا يعلم ذلك بل يعلمنا ان القرد والانسان من اصل واحد وان القرد اقرب الحيوانات اليه

كذلك خصوم الفوضويين والاشتراكيين وسائر الناقمين على الهيئة الاجتماعية يقولون لنا بعد ان يوسعوهم من التقريع واللوم ان اكثر مطالبهم احلام لا يمكن تحقيقها ويجعلون في رأس هذه المطالب اقتسام المال — والمال احب الاشياء الى الانسان — يريدون بذلك ان ينفروا الناس تضليلاً لهم لئلا يهتدوا فتسوء مصالحهم . لان مطلب

توزيع المال بالسواء لو وجد في تعاليمهم كما يريده خصومهم لدل على سخافة ما بعدها سخافة وكيف تمكن المحافظة على هذه المساواة لو امكن هذا الاقتسام

فتعاليم رجال الاصلاح تتناول غاية اعظم وتستند الى مبادىء ارسخ وكلها حقائق ممكنة كما يدل على ذلك درس احوال العمران في اطواره المختلفة

فكيف نطبق بين ارتقائه في العصور واعتراضنا على الناقمين وهو عليهم واحد في كل العصور

فالمصلحون الاجتماعيون الطبيعيون يرمون في نظام الاجتماع الى غرض طبيعي ممكن هو توفير قوى هذا الاجتماع حتى لا يذهب منها شيء سدى وحتى لا يبقى فيهِ احد غير نافع ومنتفع معاً . فهم يطلبون من الانسان ان يفعل في نظام اجتماع الانسان ما يفعلونه اليوم بقوى الطبيعة نفسها بتوفيرها والانتفاع بها وهذا ما نسميهِ « ناموس الاقتصاد الاجتماعي الطبيعي » ولولا ان هناك اناساً نظريين ربما جاز ان يطلق على نظامهم «ناموس الاقتصاد الاجتماعي القانوني » لما قلنا هنا « الطبيعي » لان الاجتماع في الحقيقة طبيعي هو وكل نواميسهِ مستفادة من الطبيعة فاذا رددناه اليها فانما نكون قد رددنا الشيء الى اصله ووضعناه في محله

فهل في نظام الاجتماع اليوم ما تتوفر معهُ هذه الغاية ام هل في شرائعهِ مع ما هي عليهِ من سخافة المبدأ وقلة الاحكام ما يؤملنا ان يبلغها في عهد قريب . ولا نستنصر الكثرة والشهرة فالناس مهما عظمت مكانتهم على ضلال حتى يهتدوا . أفلا نرى ان القيام في وجه هذه النظامات واجب لزحزحتها عن مألوفها ودفع الاجتماع في السبيل السوي لبلوغ الغاية منه ؟ ام لا نرى الفائدة من وجود مثل هؤلاء الناقمين على نظام الاجتماع وقيامهم على اختلاف منازعهم لمصادرته في نظاماته وشرائعه تارة باللين واخرى بالعنف هذا بالترغيب وذاك بالارهاب هذا بالجحيم وذاك بالنعيم هذا بمقاومة الجهل وذاك بنشر العلم ؟ او لا تروعنا مخاطرتهم بارواحهم وتعريضهم مصالحهم للعبث بها حتى لقد يبلغ التحمس ببعضهم الى حد الهوس ولو ان لكثيرين منهم من وراء ذلك احياناً كثيرة مطامع قريبة

فهل مثل هؤلاء يجوز لنا ان نسميهم كسالى لانهم لم يحركوا سوى قلمهم او كبار البطون لانهم يطلبون للاجتماع مرتعاً اخصب او صغار العقول لانهم يطلبون له مطالب تتراءى للجمهور في حينها انها احلام ثم يرتقي الاجتماع فتبدو حقائق باهرة

بل ما القول في الفلاح الذي يحرث الارض ويكد حتى يسمن سواه وليس لخدمتهِ من خدمة سواه له مكافيء بل ما القول في ذلك الجندي الذي يسرح في النهار كالسائمة ثم يرد في المساء الى زريبتهِ نظيرها ولو عقل اكثر منها لما رضي ذلك لنفسه . أولا يُظن ان الذود عن الاوطان حتى واكتساح البلدان يمكن بغير التجنيد على ما هو مألوف ؟ ولا يخفى ان كلامنا في العمران عموماً ككلامنا على نواميس الكون لا على عالم من العوالم والا اختل التوازن

انا لا انكر ان الطرق التي يتذرع بها الناقمون احياناً كثيرة مشجوبة الا انهُ يظهر ان مثل هذا الهز لازم لاحداث التأثير المطلوب وهو ايقاظ الغافل وتنبيه الفكر للبحث . بدليل ان نظام الاجتماع نفسه على ما هو عليهِ اليوم فيهِ من الفظائع ما هو مشجوب اكثر ولكننا أَلِفناه فلا تحرك له

وليُعلَم اني لم اقف عند الاسماء لان مرماي الغرض ولم اسهب البحث في الجزئيات لان المقام لا يسعها اولاً ولانها العرض واذا ضللنا السبيل مرة فلا بأس من طرق سواه ولاني قبل كل شيء — وهذا المهم — اريد ان اقرر كلية كبرى حاصلة واخرى ممكنة أما الاولى فنقص نظام الاجتماع كما هو عن توفير مصلحته كما ينبغي ان تكون . واما الثانية فتكافل العمران بتوفير قواه . وكل مسعى في هذا السبيل من اين اتى فهو محمود ويلزمنا ان ننظر فيهِ نظر الباحث المستفيد لا ان نقف في وجهه لصده واذا وقفنا فلتحويله الى ما يتراءى لنا انه الاصلح

المقالة السابعة والعشرون

الاشتراكية (١)

قرأت في المقطم شذرات مختلفة في الاشتراكية بعضها مناقض للآخر بحسب نظر كتابها فيها

الناس ينتقدون الاشتراكية كما يفهمونها لا كما هي او كما يجب ان تكون شأنهم في اكثر المسائل الاجتماعية

الاشتراكية او كما سميتها الاجتماعية ايضاً قلما نظر الكتاب فيها حتى زعماؤها انفسهم من الوجه الوحيد الذي يجب ان ينظر اليها ولهذا كثرت الاراء فيها وكثر الاختلاف بينهم وكثر انتقادها ايضاً . لان الجميع نظروا فيها الى المسائل الفرعية ولم ينظروا الى الاصول التي يجب ان تقام عليها الفروع

الاشتراكية كما يجب ان تكون ليست مذهباً فلسفياً اجتماعياً حتى يجوز لكل واحد ان ينظر اليها كما يشاء او كما يدله فهمهُ

الاشتراكية نتيجة لازمة لمقدمات ثابتة لا بد من الوصول اليها ولو بعد تذبذب طويل

الاشتراكية كالاجتماع نفسه ذات نواميس طبيعية تدعو اليها

ولكن الاجتماع نفسهُ هل يبحث فيهِ الباحثون اليوم جميعهم بحثاً طبيعياً . ما خلا كبار الطبيعيين الذين يعدون على الاصابع هل ينظر العمرانيون الى الاجتماع نظراً طبيعياً بحتاً ؟

الباحثون في الاشتراكية وفي الاجتماع نفسه اكثرهم من اصحاب النظر او من قصاره في تاريخ الاجتماعي الطبيعي

متى اتصل الناس في مباحثهم الاجتماعية والفلسفية الى رد كل شيء الى هذا الاصل الطبيعي سهل تفاهمهم وقل خلافهم واسرعوا الخطى في ارتقائهم

---

(١) نشرت في المقطم سنة ١٩٠٨ تعليقاً على كلام في ذلك ورد فيه

مضى على الناس عصور تضيع اصولها في اقصى ظلمات التاريخ قبل ان يستقروا في مباحثهم على هذا المبدأ الطبيعي

هذا المبدأ الطبيعي هو بالحقيقة ابن امس لانهُ منذ امس فقط اصبح من العلوم الثابتة وكم يلزمهُ من الزمان حتى يهدم علوم الناس النظرية

ومع ذلك فهو قد زعزعها بما لم يتسنَّ لعصر قبله ان يفعله بالقوة التي زعزعها بها

العلوم النظرية ليست نظرية بالحقيقة الاَّ بالنسبة الى كونها اقيمت واتسعت على مبادىء اختبارية قليلة ومغلوطة غالباً . والا فليس هناك فلسفة نظرية محضة حتى ولا الدينية نفسها

الفرق بين الفلسفة النظرية والحقيقية او العملية هي ان هذه بنيت على معرفة اتم بالطبيعة واختبار اعمَّ في ارتباطها بعضها ببعض . والفلسفة النظرية جهلت ذلك او تجاهلتهُ وخصوصاً اهملت هذا الرابط

وسوف تلتقيان في نقطة واحدة تردهما الى الطبيعة . فالمصلح الطبيعي ليس حالماً او واهماً او متمنياً . واذا خانهُ علمهُ احياناً كثيرة فلا ينفي ذلك صدق ادراكه الذي يدله على ان في الامكان اصلح مما كان

الاشتراكية لا تضرُّ الاجتماع لانها تطلب للاجتماع ما تطلبهُ نواميسهُ نفسها بل بالضد من ذلك تنفعهُ اذ تؤيد الفضيلة وتصد عن الرذيلة باتباعها سبل الاجتماع القويمة لان الفضيلة ليست الا انطباق اعمال الاجتماع على نواميس الاجتماع والرذيلة مخالفة هذه النواميس

الناموسان العظيمان اللذان يسوسان الاجتماع هما تكافؤ القوى في العمران وهذا يوجب التنازع والثاني تكافل العمران بتوفير قواه وهذا يوجب استخدامها كلها لمنفعتهِ

فالاشتراكية لا تطلب سوى ان تسير في الاجتماع على هذين الناموسين بحيث لا يضيع فيهِ شيء من قواه يمكن صرفهُ الى منفعتهِ

لا شك ان الاشتراكية اذا اريد بها الاشتراك بالمنفعة من غير الاشتراك في العمل تكون حلماً بارداً

واذا كانت الاشتراك في هذه المنافع على غير نسبة الاشتراك في العمل فلا شك انها تكون جوراً ومميتة لكل اجتهاد

ولكن اذا كانت الاشتراك في العمل والاشتراك في المنفعة على نسبة هذا العمل ألا تكون حينئذٍ عدلاً واكبر حاثٍ على الاجتهاد ؟

ما قولك في رجل ينال اجراً معلوماً على عمله وآخر ينال فوق هذا الاجر كذا في المائة من الارباح على نسبة العمل واهميتهِ فايهما يجدُّ اكثر من الآخر وهل تقل ارباح رأس المال بذلك

ما قولك في رجل بهِ كفاءة لان يأتي اعمالاً نافعة جمة ولكنهُ ينقصهُ شيء اداري كمعرفة وجود العمل مثلاً وهذا ليس بالشيء النادر في الاجتماع . فمثل هذا الرجل المهم قد يموت جوعاً اذا ترك وشأنه وهذا اقل الشرور منهُ لولا انه يخشى ان ينقلب عضواً شريراً في الاجتماع كثير الضرر كما هو الغالب

فلو كان في الاجتماع نظام يعرف كيف يستفيد من مثل هذا الرجل وينفعهُ معاً ألا يكون ذلك اصلح لحال الاجتماع

ما قولك في نظام اجتماعي يهتم بشؤون الافراد فينشيء ادارات تهتم بوجود اعمال لكل العمال كل حسب طاقتهِ — وهذا ليس من الاحلام — ويقيم المستشفيات على نسبة السكان ويوفر وجود الماء للجميع على حد سوى ويقدم الصابون والكساء الاول البسيط لكل معوز (لان الموسر لا يقبل ذلك) تيسيراً للنظافة التي هي اول دعائم الصحة . فهل افراد الاجتماع الذين يتكفلون بذلك كل على حسب طاقتهِ يغبنون من عملهم هذا . أفلا تربو ارباحهم عموماً على خسارتهم ماديًّا وصحيًّا وادبيًّا من توفير وسائل العمل للعمال . ألا يزيد هناؤهم في صحتهم وصفاؤهم في راحتهم ؟ ألا يقل التذمر في الاجتماع حينئذٍ ؟ أو لا يصبح الاجتهاد عنوان الفضل الصحيح ويكون ذلك اكبر حاثٍ على العمل والجدّ ؟ وهذا ليس حلماً الأ في رؤوس الذين تستثقل طباعهم الخروج عن المألوف . وهذا النظام ولا ريب نظام الاجتماع المستقبل

وما قولك ايضاً في نظام المحاكم عموماً كما هي اليوم فكأن واضعها ظن ان الانسان

ما خلق الا لكي يقضي عمره كلهُ في دعوى تعرض له في حياتهِ كأن ليس له شغل آخر

وما هي النتيجة ؟ ان الدعوى الواحدة تؤجل من شهر الى آخر ومن سنة الى اخرى حتى ينقضي عمر صاحبها فيها وربما تركها ميراثاً وحيداً لاولاده . و بئس الميراث تصرف فيهِ قوى الانسان الى جهة واحدة واية جهة !

ألا ترى ان المحاكم لو كانت موزعة في كل مدينـة بل في كل بلد على نسبة سكانهِ بحيث ان دعاويهم تنقضي في اقصر الاوقات لهم او عليهم اما كان ذلك اربح حتى للخاسرين انفسهم ؟ او ليس هذا تبذيراً قبيحاً في هـذه القوى ومنعها عن الانصراف الى شؤون اخرى انفع للاجتماع . ام ذلك من الاحلام التي يحلم بها حالمو الاجتماع ايضاً؟

الاجتماع كما كان في القديم وكما لا يزال حتى اليوم ليس نظاماً طبيعياً وكل موضوع ومشروع فيهِ مخالف لهذا النظام . ولكنهُ بحكم نواميسه الطبيعية التي هي اقوى من كل ناموس وضعي سائر بالضرورة الى هذا النظام . وانما هو سائر اليهِ بعد اضطرابات وثورات وقلاقل قد تكون فيها مئات السنين كأمس الدابر بسبب نظاماته الموضوعة

ولكن هذا السير قـد يسرع ايضاً بناء على ناموس تجمع القوى . وهنا يظهر فضل عقل الانسان . فكلما ارتقى الانسان وزاد اختباره استخدم هذا الاختبار لتقصير هذه المدة

ولا ريب ان القرن الماضي هو الذي امتاز باكتشاف سرّ الاجتماع وتقرير قضايا العلوم الطبيعية وهو الذي امتاز ايضاً بوضع الفلسفة العملية على قواعد علمية متينة

وسيكون تأثير هذه الفلسفة عظيماً في اصلاح الاجتماع وستقيهِ من التذبذب الكثير وتمنعهُ من التقهقر وتدفعهُ في الارتقاء بسرعة تمشي فيه على نسبة حسابية لان القضايا القائمة عليها هذه الفلسفة اليوم ثابتة وفي حكم القضايا الرياضية نفسها والاضطرابات التي نشاهدها اليوم ليست الا لنفض الغبار القديم

المقالة الثامنة والعشرون

﴿ الحزب الاشتراكي [١] ﴾

« على المبادىء الطبيعية »

ايها الوطن الاغر (المصري)

تمنيت عليَّ — وما كنت حالماً — ان اؤلف حزباً اشتراكياً يزج بنفسه في ما بين الاحزاب في هــذه البلاد فصدعت بالامر ودعوت اليَّ العقل والحجى والنهى والعلم والمعرفة والاختبار فانشأوا في الحال الحزب المذكور وقرروا بروغرامه وهذا اهم ما جاء فيهِ من الكليات :

﴿ القسم الاول ﴾

« تقويضي تمهيدي »

اولاً ان تجمع كل الكتب السقيمة التي يضيع اولها في آخرها والتي يضيع الانسان عمره فيها وهو يقرأ ولا يفهم وتوضع على ظهور حملتها ويشحن الجميع في بالون يسير بهم الى القطب الشمالي لعلهم يؤلفون هناك مملكة يكون بردها على نسبة واحـدة بين ذلك الاقليم وتعاليمهم

ثانياً ان تلغى مدرسة الحقوق وتمزق كتب القوانين وكتب الاقتصاد السياسي وسائر العلوم الكلامية

ثالثاً ان يوقف تنفيذ بروغرام الجامعة كما قرروه لئلا تزيد معاهد العلم النظرية واحداً فتزيد البلوى

رابعاً ان تلغى المحاكم المختلطة لان شرها مركب من اساسها ومن نظامها فلا يطل

---

(١) نشرت في الوطن سنة ١٩٠٨ رداً على اقتراح فيه على الدكتور شميل ان ينشيء حزباً اشتراكياً وكأن المقترح ركب متن المزاح فاجابه الدكتور من معدنه بكلام ظاهره الهزل وباطنه الجد

علينا قضاتها من سماء اولمبهم حتى يعودوا اليهِ مسرعين ولا يزالون هكذا بين لقاء ووداع وتأجيل في الدعاوي وتأخير الى ان تنقضي اعمار أصحابها . وهل تهمهم مصالح الجماهير اكثر مما كانت تهم حياة الناس ذلك الحاكم المصريّ الذي يحكى عنهُ انه قال ذات يوم العبارة الآتية «وهل نحن استلمناهم بعدد» استدراكاً لخطأ ذهبت فيهِ نفوس كثيرة ظلماً

خامساً ان تلغى المحاكم كافة على صورتها الحاضرة ما دام مبدأها ذلك العلم الاقتصادي الذي يعلّم ان تبذير قوى الاجتماع من دعائم ارتقائه

سادساً ان تلغى شركة احتكار المياه وسائر الشركات الاحتكارية التي تمس المنافع العمومية

سابعاً ان تلغى الجرائد السياسية التخريفية وان يناقش اصحابها الحساب على كل كلمة تغرير وتضليل من مثل قولهم مسلم وقبطي ودخيل ونزيل حتى يبرزوا الحجة التي بيدهم والموقعة بختم محكمة السماء والتي تخولهم حق الاستئثار بملك الله دون سواهم من عباده وان يجلد اصحابها جلدة على كل كلمة سخافة وقلة عقل . وقرروا ان الجلد يكون بخيوط ناعمة جداً ومن يد طفل واعتبروا ان هذا العقاب كافٍ وربما لا يقوون عليهِ لكثرة التكرار

القسم الثاني

« انشائي بنائي »

اولاً ان ينشأ معهد علمي كبير يعلَّم فيهِ علم نشوء الارض والاجرام السماوية وعلم الاحداث الجوية والاقاليم واختلافها وتأثيرها في الانسان وفي العمران . الخ

ثانياً ان يقام على انقاض مدرسة الحقوق مدرسة للكيمياء والطبيعيات والميكانيكيات والرياضيات وعلم الافلاك

ثالثاً ان تنشأ الجامعة لتعليم التاريخ الطبيعي والاجتماع الطبيعي والاقتصاد الطبيعي وتطبيق ذلك على الانسان والطب وسائر العلوم الحيوية والانثروبولوجية

رابعاً ان تنشأ هيئات قضائية على غاية البساطة في كل مدينة وفي كل بلدة على نسبة سكانها بحيث لا يتأخر الفصل في الدعاوي مهما كانت مهمة (وحينئذٍ لا تبلغ هذه الاهمية)

الا أياماً معلومة حرصاً على مصلحة المتداعين وعلى مصلحة الاجتماع نفسه . لئلا ينمو فيهم حب التداعي الى صرف قواهم كلها في هـذه الجهة فيخسر الاجتماع بهم بقدر ما تزيد فيهم هذه الملكة

خامساً ان يتولى الاجتماع نفسه توزيع المنافع العمومية الضرورية من مثل الماء مثلاً مجاناً على عموم الناس

سادساً ان تنشأ كتاتيب في كل مدينة وفي كل حي وفي كل قرية على نسبة السكان يعلم فيها الاطفال مبادئ العلوم الطبيعية البسيطة يفهمون منها طبائع الماء والهواء والجماد والنبات والحيوان ويوضع لهم شبه تعليم طبيعي يعلمون منهُ حقيقة الانسان ومركزه في الارض

سابعاً ان تنشأ جرائد تعلّم الناس كيف يجب عليهم ان يكونوا نظافاً في اجسامهم في ملابسهم في مآكلهم . في مساكنهم وخصوصاً في عقولهم . وتعلمهم ان كل نظام حولهم في الارض والسماء . في الجماد والنبات والحيوان خاضع لنواميس طبيعيـة لا تزعزع وان سيرهم على هذه النواميس يقيهم عثرات كثيرة في معايشهم صحياً ومادياً وادبياً . وان ادابهم يجب ان تكون مستفادة من آداب الطبيعة نفسها . يعلّمون كل ذلك لكي يعلموا ان كل عضو في الاجتماع له حقوق وعليهِ واجبات وان الاشتراك في المنفعة يحتم له على قدر اشتراكه في العمل وان المكافأة انما هي للاجتهاد لا للصنيعة وحينئذٍ يظهر الفضل الصحيح وينتفي الفضل الكاذب

هذا أهم ما جاء في هذا البروغرام وسأوافيكم بما يجد من هذا القبيل

أرأيت الآن يا صاحبي كيف ان المجون يصير جداً وكيف ان الاحلام تصير حقائق وكيف ان التي يسمونها اليوم يقظة هي الحلم بعينه ولكنهُ يا للاسف حلم وسخ

المقالة التاسعة والعشرون

﴿ وكما تكونون يولّ عليكم[1] ﴾

« تركيا الفتاة وتركيا العجوز »

من دقق النظر في تاريخ الاجتماع البشري رأى ان نصيب الامم من تقدم ووقوف وارتقاء وانحطاط وانتشار وانقراض يتوقف على عوامل طبيعية يضمها ناموس عام يسمى « تنازع البقاء » يؤدي ضرورة الى ناموس آخر يسمى « الانتخاب الطبيعي » فما من امة قامت او انقرضت ارتقت او انحطت الا كانت عوامل هذين الناموسين هي القاضية في ذلك . فان كانت الارض على سعتها قد ضاقت بالانسان الاول وهو اثنان على قول البعض حتى قام الواحد على الآخر وقتله او كان طوائف متفرقة على سطحها قامت على بعضها حتى ذلّ البعض وفاز البعض الآخر على قول الآخرين فما ذلك الا لان الانسان كسائر الاحياء لا يستطيع ان يفر من حكم هذين الناموسين فالتنازع سنة هذا الكون والانتخاب نتيجة هذا التنازع . هذا شأن الانسان في العمران منذ اول عهده وما زال هذا شأنه حتى اليوم ولن يزال كذلك حتى المنتهى

والحكومات مظهر من مظاهر الامة وهي تختلف باختلاف الامم فكلما ارتقت امة في العمارة ارتقت حكومتها كذلك . وهو معنى قوله « وكما تكونون يولّى عليكم » فلا ينتظر ان تكون الحكومة اصلح من الامة التي نشأت فيها بل لاتلام الحكومة اذا داست باخمصها رقاب الرعية وهل تداس رقاب تأبى ان تداس وان من ينتظر الاصلاح عفواً من اية حكومة كانت يجهل لا شك تاريخ نشوء الامم في العمران . وها التاريخ امامنا يعلّمنا ان الحكومات في كل زمان ومكان هي آخر من يذعن للاصلاح اذ لم تتم العقبات في سبيله . وهل بلغت امم اوربا مبلغها من التمدن اليوم بفضل حكوماتها لا لعمري انما بلغتهُ ولا تزال مجدة فيه بفضل تألبها واتحاد كلمتها ورفع الرؤوس المطأطأة وتقويم الظهور

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨

المقوسة والمشي على الاقدام لا الزحف على الركب وربط حكوماتها كما تربط القرناء واتلالها كما تتل السائمة وجرها وراءها قوةً واقتداراً . والامم التي لم تستطع ذلك لعدم توفر اسباب القوة فيها عفاها الدهر واستغرقها التنازع ولم يبقِ لها الا آثاراً او لم يبقِ لها اثراً وتركها خبراً مسطوراً

***

واسباب القوة في العمران كثيرة وترد الى اربعة تعد دعائم اثنان طبيعيان وهما العدد والجنس واثنان اديبان وهما الدين والعلم ولا ريب ان كل امة كثر عديدها ولم يشب جنسها اختلاط وتوحد دينها وبلغ العلم فيها اقصى مبلغهِ في عصره بلغت من القوة مبلغاً حقق لها الفوز في ميدان التنازع والضد بالضد . فوحدة الجنس ووحدة الدين لازمتان لاتحاد الكلمة والأكثر الانشقاق وهو من دواعي الضعف والعلم ضروري جداً لاتقان الصناعة والزراعة وسائر الفنون التي تكثر معها الثروة والثروة عصب الاجتماع كما يقول الافرنج . وزد على ذلك ان العلم باتقانه الصناعة يتفنن باختراع الآلات التي تكسب المنعة في الدفاع وتحقيق الفوز في المهاجمة وهو اعظم العوامل لتقليل الانشقاقات الناشئة عن الاديان فاذا علم ذلك لم يصعب علينا الحكم على مركز كل امة في الحال وما هو مقضي لها او عليها في الاستقبال

***

فالامة العثمانية — وكلامنا فيها — اذا نظرنا اليها من هذا القبيل وجدنا جميع الاسباب السلبية متوفرة فيها مما يجعل مركزها في الحاضر حرجاً ومستقبلها مشكوكاً فيهِ ولا نقول ان صعوبة مركزها من عددها فان عددها وان لم يكن كثيراً جداً الا انه ليس بالقليل فلا يصح ان يكون سبب الضعف ولكنها مؤلفة من اجناس مختلفة فمنها التركي والعربي والارمني والكردي والبلغاري واليوناني الخ . واديان مختلفة فمنها المسلم والمسيحي واليهودي والدرزي والمتوالي وتحت كل منها قبائل وطوائف مما يجعل اتحاد الكلمة بينها في حكم المستحيل ولاسيما اذا اعتبرنا حالة العلم فيها فانه يكاد يكون شيئاً لا يذكر والقسم الاعظم من الامة في جهل عميق ولو كان العلم منتشراً فيها انتشاراً كلياً لقلت جداً

الانشقاقات الناشئة عن اختلاف الاديان والشعوب وكبر الامل باتحاد كلمتها وتوسمنا خيراً في مستقبلها وتزيد قيمة ذلك كلهِ اعتباراً في نظر الباحث اذا قسناها بالامم المجاورة التي هي معها بحكم ناموس الاجتماع في تنازع دائم فاي فرق بين معدات الامة العثمانية من هذا القبيل ومعدات باقي الامم وهي حقائق محزنة لا يسع المؤرخ الصادق الا الاعتراف بها

واذا كان هذا حال الامة العثمانية فهل تستطيع المقاومة زماناً طويلاً والتنازع بينها وبين الامم الاخرى في حد حدّته ومعظم شدّته وهي بعيدة عن التكافؤ والتفاضل انما هو عليها لا لها واذا كانت لا تستطيع المقاومة فما هو مصيرها يا ترى وهل يرجى نهوضها وباي الطرق يكون ذلك

***

يعلم الباحثون في طبائع العمران ان كل امة مهما كان امرها مرتقية كانت ام منحطة لا بد ان تتنازعها قوتان غريزيتان فيها احداهما تركن الى المحافظة على الحالة الراهنة والاخرى تميل الى الطفرة عنها واصطلح السياسيون على ان يطلقوا على الاولى اسم حزب المحافظين وعلى الثانية اسم حزب الاحرار ويؤلف الحزب الاول من الهيئة الحاكمة ومن تابعها من الشعب والثاني ينشأ في الهيئة المحكومة ويكون في اول الامر مؤلفاً من افراد قليلين وهذان الحزبان يختلفان قوةً بحسب حال الامة من العلم فهما متكافئان غالباً في الامم المتهذبة ومتفاضلان في الامم التي يكون العلم فيها غير موزع على السواء ويكون الفوز كله للمحافظين اي للحكومة في الامم المستغرقة في الجهل حتى قد لا يشعر بوجود حزب آخر سواه . ولقد مضت القرون الطوال ولا يسمع في الامة العثمانية صوت غير صوت الحكومة وربما لم يسمع سواه زماناً طويلاً ايضاً لقلة انتشار العلم في الامة لولا ان اسباب التمدن الاوربي انتشرت انتشاراً عظيماً في هذا العصر بحيث لم يعد في الامكان اقامة الحواجز ضدها ومنع تأثيرها ان لم يكن في العموم ففي الافراد وما يسمى اليوم حزب تركيا الفتاة دليل على ان هذا الحزب الذي بقي صوته خافتاً لقلة عدده وضعف عدده قد دبت فيهِ روح الحياة حتى صار له صوت يسمع وطبل يقرع . وكنت اود ان اتحاشى الكلام في هذا الحزب لولا ان كثر فيهِ اللغط وركب فيهِ كل كاتب مركباً يسير بهِ على هواه

حتى كثر فيهِ الضالون وقلّ المهتدون وظن البعض انه ألعوبة كأبواق الصابون تملأوها الانفاس فاذا انفجرت لم يكن من ورائها نار حتى ولا هواء يزيد النار اشتعالاً اذا اصابت ناراً اطفأتها او حياةً اماتتهـا ويحق له ان يظن هذا الظن اذا اخذ الاشياء بظواهرها وقاس الحقيقة على المجاز وخلط بينهُ وبين بعض الذين يكثرون من الجلبة والصياح فاذا برق الذهب ولاح وهطل غيث الدينار الوضاح تراكضوا الى المراح والسابق السابق منهم الجواد فهؤلاء ليسوا حزب تركيا الفتاة وانما هم حزب المارقين المنافقين الذين اتخذوا اسم هذا الحزب وسيلة لشفاء حزازات في الصدور وقضاء لبانات في النفوس وهم بعملهم هذا قد جاروا على دعوة هـذا الحزب بجرأتهم المتجاوزة الحدَّ في الخصام واحجامهم على ايسر سبيل عند نيل المرام . ولكنهُ اذا تدبر الامور تدبر العاقل الخبير علم ان هذا الحزب موجود حقيقة فهو مؤلف من كل عاقل هذَّبه العلم وعلَّمهُ الاختبار ودرس الامم درس المقابلة وعلم أسباب القوة في العمران فرآها متوفرة في الامم الناجحة فحمدها وغير متوفرة في امتهِ فاسف عليها والعقلاء في الامة كثيرون فالحكومة تخطئ اذا كانت تظن ان هذا الحزب قاصر على بعض الافراد الذين ركبوا متن الحدة في المقاومة وجانب منهم غير مخلص في الدعوة كما تبين لنا وتخطئ اكثر اذا كانت تظن انها باسترضاء هذا البعض الساخط تتمكن من ملاشاة هذا الحزب فالحزب نشوءه في الاجتماع ليس عارضاً حتى يسهل استئصاله بل هو نشوء طبيعي جارٍ على مقتضى نواميس طبيعيـة ولن ترى لنواميس الطبيعة تحويلاً . وان كانت تظن ان استرضاء هذا البعض يضعف حجة هذا الحزب عند الآخرين من الامـة الذين لا افكار لهم الا ما يفتكره لهم الغير حتى لو قام غيرهم وحذا حذوهم لم يصدقهُ الناس فربما كان ظنها مصيباً بعض الاصابة وانما ربحها من هذا الجانب لا يوازي خسارتها من الجانب الآخر اذ ينتقض عليها المتزلفون لها عن غير اقتناع وهم الاكثر لانهم يرون ان سخط غيرهم كان ادعى لاستدرار النعمة من تزلفهم فينقلبون ساخطين ومهما يكن من ذلك كله فما هو الا امور عارضة لا تؤثر شيئاً في حقيقة الدعوة نفسها

***

ولكن هل يفوز حزب تركيا الفتاة . فهذا هو الامر الجوهري الذي يهم كل عثماني

ان يعلمهُ . وللجواب على ذلك لا بد لنا من القاء النظر الى الامـة عموماً وما تدخره من المعدات وما يكتنفها من الموانع . فاذا نظرنا الى الدعوة من حيث كونها صفة من صفات الاجتماع نقول ان الفوز محقق له لان الذي يدركه البعض لا بد ان ينتشر على تمادي الزمان ويعم الامة كلها لانتشار العلم الذي لا بد منهُ واذا انتشر العلم وكثر عدد المتهذبين من الامة حتى اصبح العدد الاهم سقطت الحواجز التي تفصل بين عناصر الامة المختلفـة وخصوصاً الترفض الديني فاجتمعت كلمتها وقويت حجتها ولكن الذي يروع عقلاء هذا الحزب طول الزمان اللازم لوصول الامة الى هذه الغاية وهو يخشى قبل ذلك ان يتحقق فيها قول المثل « قبل ان يصل الدواء من العراق يكون العليل قد فارق » وهذا هو السبب الذي يحمل القسم الاعظم من عقلاء الامـة على ان ييأسوا من نهوض الامة الى اصلاح حالها مع حفظ استقلالها لشدة التنازع الذي لا تنفك عوامله تعمل فيها من خارج وهي لا قبل لها على المقاومة فالامة العثمانية في نظرهم مقضي عليها بحكم النواميس الاجتماعية التي هي في صرامتها كالنواميس الطبيعية بالتشتت والانفصال فقد ادركتها الشيخوخة والمريض قد اشرف على الموت فلا يقيها دهاء تركيا العجوز ولا تخبط تركيا الفتاة دهاء وتخبط لا يفيدان الا تعجيل الانحلال بزيادة الاختلال

المقالة الثلاثون

﴿ انحطاط الشرق [١] ﴾

« الادبي والعقلي »

الشرق لفظة تعم بلاداً واسعة واقطاراً شاسعة مختلفة الاطوال والعروض والحرّ والبرد والخصب والجدب تضم فيهـا امماً وشعوباً وقبائل متبايني الاصل والفصل مختلفين في الشكل وفي قابليات العقل تجمعهم اليوم جامعة واحدة هي تراخي النظام وفساد الاحكام

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨

وانحطاط المدارك العقلية وفساد المبادىء الادبية لا علم يقيهم ولا عمل يحميهم فهم بحكم تنازع البقاء معرضون للذل والشقاء يعملون لاسيادهم اهـل الغرب واسيادهم بهم يعيثون فينقادون اليهم صاغرين الى يوم يمحقون لان ناموس التنازع في الطبيعـة صارم لا يرحم فالضعيف مقضي عليهِ امام القوي بالمحاق او الضياع بالاستغراق . فجدير بكتاب الشرق ان يرثوه فهو ميت في صورة حي واذا ابنوه فلا ينصفوه لئلا يشددوا عليهِ الملام والضرب في الميت حرام بل فليشفقوا عليهِ وان كان الاشفاق لا يرضاه اهل الاستحقاق لان فيهِ من اعتقاد المسكنة بالمشفق عليهِ ما تأباه النفوس الكبيرة . فمقاومة عدو لي يعترف بفضلي احب اليَّ من اشفاق يأتيني من اهلي

فيا وطني ما خانني فيك خائن   من الحب او أني رضيت بهِ ندًّا
اريدك في عزٍّ ولكنني ارى   على غير ما ارضى ارى العز قد ندًّا
فان جرت في حكمي فما انا جائر   فما انا الاَّ باحث لم يجد بدًّا

جرى علماء الاخلاق اليوم مجرى اكثر الطبيعيين القائلين بالنشوء فعدوا الانسان الادبي والعقلي كالانسان الطبيعي ابن الفطرة وابن المكان والزمان ايضاً فاعتبروه قابلاً للارتقاء والانحطاط في آدابه وفي قواه العقلية بحسب العوامل المختلفـة التي تؤثر فيهِ من طبيعية وادبية . والفطرة ليست بالحصر الا استعداداً مكتسباً في الاصل من طبيعة المكان

والشرقي كما نريد بهِ هنا يدخل تحتهُ الصيني والهندي والافريقي والعربي والتركي والعجمي ايضاً وان اختلفت مراكز البلاد التي يقطنها بعض اللاحقين بهـذه الاجناس مما يجعلهم في مركزهم الجغرافي واشتقاقهم الانتروبولوجي اقرب الى اهل الغرب منهم الى اهل الشرق الا انهم تجمعهم اليوم جامعة الوقوف والتقهقر في تاريخ العمران . ويطول بنا الشرح جداً لو اردنا استيفاء وصف كل من هذه الاجناس بحسب طبيعة بلاده وشرائعه وتعاليمه لانه وان كان الجامع اليوم بين هذه الاجناس واحداً وهو التقهقر الادبي والعقلي الا انهم يختلفون فيما بينهم كثيراً في ذلك و يختلفون كذلك في الاصل وقابليات العقل بحسب طبيعة البلاد و يختلفون أيضاً في مركزهم الاجتماعي بحسب شرائعهم وتعاليمهم

ولا شك ان طبيعـة البلاد اثرها في الانسان شديد كما ذهب الى ذلك ابقراط في

كتاب الاهوية والمياه والبلدان حيث قال في الفرق بين أهل اسيا وأوربا ما خلاصتهُ :

« ان أهل اسيا تغلب عليهم السكينة ورقة الطباع لما هم فيهِ من رغد العيش بسبب خصب بلادهم واعتدال فصولهم ولذلك لم يكن لهم شجاعة الرجال ولا الصبر على المشقة ولا الثبات في الاعمال ولا علو الهمة وطنياً كان اصلهم ام غريباً و يغلب فيهم حب اللذات على كل شيء بخلاف اهل اوربا الذين هم معهم على طرفي نقيض من هذا القبيل لصعوبة اقليمهم وقلة خصب بلادهم »

ولكن الاقتصار على هـذا الاثر لا يكفي في مثل بحثنا فان الانسان وان يكن ابن المكان فهو ابن التربية والتعليم ايضاً وقد فطن الى شيء من ذلك ابقراط نفسه حيث قابل بين حكومات اوربا وحكومات اسيا فقال ان اهل أوربا اشد نجـدة للحروب من أهل اسيا بسبب طبيعة بلادهم وبسبب نوع احكامهم ايضاً فان أهل اوربا تحكمهم شرائعهم وأما اهل اسيا فتحكمهم ملوك وشتان بين النجدة التي يقوم بها من يدافع عن نفسه والنجدة التي يظهرها من يدافع عن غيره

ولا ريب ان أثر العوامل الادبية في الانسان شديد جداً وربما كان اشدّ من أثر العوامل الطبيعية حتى ذهب الباحثون في طبائع الحيوان الى ان الانسان لم يتغير في بدنهِ كثيراً من يوم اتخذ الكساء واصطنع السلاح وبنى البيوت يريدون ان يثبتوا بذلك ان الانسان قادر على مقاومة الطبيعة بالصناعة . واهم هذه العوامل العلم قال لتري معقباً على ابقراط ما نصهُ ان ابقراط يقول ان طبيعـة الاقليم والشرائع هي التي تجعل اهل أوربا أشد نجـدة للحروب من اهل اسيا ومعلوم إنا رأينا على تراخي الايام ان الفرس الذين غلبهم اليونان لم يقدر عليهم الرومان بعـد ذلك وان اليونان ضعفوا جداً في عهد سقوط سلطتهم وذبول شوكتهم وان العرب اتاهم يوم كان لهم فيهِ نصر في الحروب مبين وشرف ينطح السماك بروقيه وعز يتقلقل الجبال . فمثل هذه الامثلة تكفي لان تبين ان النجدة للحروب لا تختص باقليم دون آخر وكذلك يقال عن الاحكام فان النجـدة لا تتوقف عليها كما انها لا تتوقف على الاقليم بل على النظام وعلم الحرب فان نفراً قليلين منظمين من الاسوجيين ظهروا على الروس الكثيرين الغير المنظمين في موقعـة بلتاوا والانكليز قد

جندوا من الهنود جنوداً شديدة البأس في سنين قليلة وقد كان للمصريين على عهد محمد علي جنود باسلة فالاقليم والحكومات اثرها في نجدة الحرب قليل والنظام والعلم هما اللذان يفعلان كل شيء . وهذا القول معا فيهِ من الانحياز الى جانب دون آخر كما ابنا ذلك في محله صحيح باعتبار ان العلم من اقوى الوسائط المؤثرة في الانسان والمغيرة له ولنا مثال حديث في اليابان اليوم وما اظهرتهُ من النهضة الاجتماعية والحربية في سنين قليلة حتى ظهرت على الصين التي تزيدها نحو عشرين ضعفاً في عدد السكان بفضل العلم

فطبيعة بلاد الشرق بما توجب من الراحة للبدن تفسح للعقل مجال الخيال ولذلك كان الانبياء كلهم من المشرق وطبيعة بلاد المغرب بما توجب من المشقة على البدن تربي فيهِ النهضة والاقدام ولذلك كان اكثر الفاتحين من المغرب الا من قام من الشرق لدعوة دينية تدخل في حكم المؤثرات الادبية ولذلك ايضاً كان اهل الشرق كما قال الشهرستاني ميالين للبحث عن ماهيات الاشياء وحقائقها واهل الغرب ميالين للبحث عن طبائع الاشياء وكيفياتها اي ان هؤلاء اهل عمل وأولئك أهل نظر قد يجر الى الكسل وربما كان هذا من الاسباب الطبيعية التي لاجلها لا يستطيع الشرق ان يناظر الغرب اذا تساوت عندهما المعدات الادبية

فالشرق اذاً لا يستطيع ان يناظر الغرب الا اذا فاقهُ في المعدات الادبية على ان الشرق اليوم —ونحصر كلامنا في الاقوام الذين تجمعنا واياهم جامعة الوطن والسياسة— متقهقر جداً عن الغرب في هذه المعدات لقلة العلم فيهِ وثقل وطأة الوهم عليهِ ولا يخفى ما لذلك من الاثر السيء على العقل والآداب ولذلك كانت قوى العقل في الشرق اليوم ضعيفة والاداب متراخية ونعني بالاداب هنا لا كما يفهمها البعض تلك الاداب الذاتية الرخوة التي لا تجاوز النفس ولا ينظر فيها الى الكل كالصوم والصلاة مع تربية الضغائن والاحقاد ضد من لا يصلي صلاتك ولا يصوم صومك فينسيك ذلك الجامعة الوطنية والسياسية في جنب الجامعة الملية في بلاد كثر فيها تفرق المذاهب والاديان او تلك الاداب السطحية المنتقلة الينا من سفساف اداب المغرب كالهشاشة والبشاشة والمفاخرة باللباس والطعام وايلام الولائم والتأنث في الحركات وسائر انواع المجاملة التي لا تجاوز حد اللفظ مع التبطن

والوباء المتصلة الينا اما بالوراثة واما بالتقليد مع التوآء المقصد منها علينا لتمسكنا بالظواهر والاعراض واغفالنا الجواهر والاغراض بل نريد بها تلك الاداب الرفيعة الاجتماعية التي تدل على ارتفاع المدارك والتي ينطبق عليها قول المثل «عدو عاقل خير من صديق جاهل» كالحزم والعزم والشهامة وكرم الاخلاق الحقيقي والصدق والاخلاص ومحبة النفس من وراء محبة الغير ومحبة الوطن فوق كل شيء مما يبعث الى التعاون والتعاضد للقيام بالاعمال الجليلة العمومية التي يقوى بها الفرد لانه ينظر فيهـا الى قوة الكل ومعرفة اقدار ذوي الفضل منا للانتفاع بما خصوا بهِ من المواهب لتنشيط هذه المزايا في الجمهور لا قتلها فيهم لقتلها فيهِ حسداً ولؤماً والاغضاء عن الهفوات في جنب الحسنات لا تحقير هذه وتعظيم تلك تشفياً من الاجتهاد وانتقاماً من الذكاء فان الفرق بين الغرب والشرق في ذلك كالفرق بين اعمـال الرجال واعمال الاطفال . ذكروا ان لامارتين الشاعر الفرنساوي الشهير بلغت ديونه نحو ثلاثة ملايين فرنك فقامت الامة ووفتها عنهُ بجمع المال بالاكتتاب ولم يمنعهُ ذلك من تجديدها ولا منع هذه الامة من تجديد الاكتتاب لوفائها . فكيف لا يقوم بين امة هذا اعتناؤها برجالها رجال كلامرتين واعظم من لامرتين بطبقات وولطر سكوت خسر اموالاً طائلة في التجارة وانكسر عليهِ نحو خمسين الف جنيه فعمد الى التأليف ووفاها من كتاباته لانهُ كتب لقوم يقرأون ويدفعون ثمن ما يقرأونه بل لنعتبر بمثل بطل السودان وما صادفهُ من العناية البالغة الغاية القصوى من امتهِ وحكومتهِ مما لا يزال صداه يرن في الاذان ولنقابله بمعاملة حكومات الشرق وامه لابطاله اذا ظهر فيهِ ابطال فاقل عقاب لهم على اجتهادهم وامتيازهم الاقصاء الى الاقطار الشاسعة او الوضع تحت القفل والمفتاح حيث يطمس ذكرهم ويتناسى فخرهم . فكيف لا يقوم من اولئك رجال يبذلون قواهم ودمهم لخدمة وطنهم وامتهم وكيف لا تنمو فيهم مواهب الذكاء والاقدام على جليل الاعمال وكيف لا ينزوي هؤلاء في بيوتهم متقاعدين عن خدمـة وطنهم بل كيف لا تموت فيهم همم الرجال

والغريب ان انحطاط الاداب في شرقنا بلغ مبلغاً لا يعهد له نظير في سوانا فترى الصعلوك منا يظهر بمظهر الامارة على امير قومـهِ والامير منا يتناهى في الحقارة والدناءة

لدى صعلوك اجنبي فالواحد منا جبار على ابن جنسهِ ولو فاضلاً وذليل لدى الغريب ولو انه أذل من بيضة البلد . فمتى بلغت الامة هذا المبلغ من الدناءة فاي خير ترجو منها . واي نهضة علمية او ادبية أو اجتماعية ترجو من مثل هؤلاء الاقوام الذين لا تجمعهم جامعة ولا تقوم لهم قائمة الا بسيف كسيف محمد او بونابرت يعمل في رقابهم ويسوقهم سوق الانعام

ولا شك ان حكومات الشرق هي التي ساعدت على فساد الاخلاق الى هذا الحد فقد تقدم ان الفرق من عهد ابقراط الى اليوم بين حكومات المغرب وحكومات المشرق ان تلك تحكمها شرائعها وهذه تحكمها ملوك وان تعدلت الاحكام في بعض ممالك الشرق اليوم فما تعديلها الا صورة لا معنى فان ملوك الشرق ما زالوا فوق شرائعهم فاماتت حكوماتهم من الامة عواطف الشهامة والاقدام بما ثقلت بهِ على كواهلهم من الاذلال وسائر ما يجر اليهِ الاستبداد وقوّت فيهم كل الصفات الدنيئة الهادمة لصروح الاجتماع بما اخمدت من قوى العقل باطفائها نور العلم واثر ذلك فيهم لتقادم عهده شديد وزواله منهم بعيد فلا عجب بعد ذلك اذا رأينا الغرب باسطاً فوق الشرق يديه طامحاً ببصره اليهِ مزمعاً ان يقبض عليهِ سنة الطبيعة في التنازع ولن ترى لسنة الطبيعة تبديلاً

المقالة الحادية والثلاثون

سيادة الامم ومستقبل الملوك[1]

رأيت ان اتشبه بالانبياء وانا اجهل صناعتهم لكي اقول قولاً يكثر مجازه ليتسع تخريجه فلا تكذبهُ الوقائع وترضى بهِ العقول الحريصة على المأثور ولو انها تائه في تأويله كالمعضل فانبأت منذ ربع قرن ان اوروبا لا ينقضي عليها القرن التاسع عشر حتى لا يبقى فيها ملك يلبس البرفير والارجوان ويحمل الصولجان ويسوق بها حمر الانسان .

(١) نشرت في البصير سنة ١٩٠٨

وها نحن الآن في العقد الاول من القرن العشرين والملوك كالالهة على عروش مجدهم والناس كالسائمة في حقول جهلهم . فكنت بنبوتي الكاذبة نبياً كاذباً حلت له احلامه فاعتبرها حقائق . واثبت بذلك على نفسي جهلي بطبائع الناس كما اني اثبت عليها خلوها من الذكاء الشرقي فلم اراع اثر الدهور في مقوسي الظهور ولا وطأة المداس في مطأطئي الرأس كما اني لم اراع في مقالب الدهاء نعومة ملمس الرقطاء لاستطلاع مناجع الكلاء

على اني لا اكون عادلاً اذا جرت كل هذا الجور في الحكم على نفسي . لان نبوتي ان لم تصح كلها صورة فقد صح جلها معنى وما خطائي الأ في ضربي الاجل وتعييني الزمان ولو قلت بعد زمان لا يطول لامنت الانتقاد ولحاكيت بالحصافة ارباب السياسة ولكن الناس طبائع فهذا يستمسك بالاعراض وذاك لا ينظر الا الى الجواهر وانا ممن لا يقفون عند الصور بل ينظرون الى المعاني لا كما ينظر بعض كتابنا من قادة الامة فيستحصلون من التبر تراباً ثم ينبشون القبور ويسيغون من السم شراباً يخدرون بهِ اعصاب الامة لئلا تنشط من العمى فتبصرهم في صور اجدادهم قبل العصر الحجري قروداً تقهقه وعجائز يلطمن . بل انا انظر من خلال ذلك الى الزبد ولو انها كما في الخرنوب درهم دبس في قنطار خشب . فكأنني حر كاحرارنا ولكني غير دستوري فلا اقيد الحرية بالقانون ولو سنّ القانون لها لئلا اكون بهِ حراً في استبداد او مستبداً في حرية . وما اغرب هذا القول في هذا العصر الدستوري خصوصاً بعد هذا الانقلاب الاخير الذي كنت اول المتمنين له ولكن آخر الحالمين بهِ حتى قلت فيهِ لشدة يأسي منهُ — في مقال عنوانه وكما تكونون يولّى عليكم — « لا يأتي الدواء من العراق حتى يكون العليل قد فارق » وهذه نبوّة ثانية لي كاذبة — على الاقل الآن — فكأني العاطوس في معطس الدهر فكلما قلت قولاً كذبتني الحوادث حتى صرت اتمنى ان تنفتح لي ابواب الجحيم لاكون على يقين من الفوز بجنات النعيم

وهذا هو السبب الذي لاجله لم اقبل ان انتظم في جمعية مشروعة انتظاماً قانونياً ولو انضممت الى مبدأها وكنت في طليعة الذائدين عنهُ لاني اريد ان تبقى لي حرية القول والعمل للبلوغ اليهِ غير مقيد فيهِ بنظام او زمان ولقد غرَّ بي بعضهم من كتاباتي في اول

نشأتي وظن ان الذي يكتب ما اكتب لا يمكن الا ان يكون عضواً في تلك الجمعية الكبيرة السرية التي عنا جوهرها تقادم العهد ولم يبق منها اليوم الاَّ تلك السخافات التقليدية والتهويلات الارهابية والتي فاقت في الاحتفاظ بها كل تقليد فكتب اليَّ يطلب مني ان ادخله في الفرع منها الذي انا منهُ وما كان اشد حيرتي حينئذٍ للجواب بما يدحض الظن ولا يؤلم العواطف لان تحويل الظن نفسه جرح وان كانت الكهولة لا تتألم منهُ الا انه في الناشئة أليم فكتبت له واقتصرت على هذا القول كأنهُ جملة انشائية « اما انا فلا اختص بجمعية دون اخرى وانما انا عضو في جمعية كبرى من ضمنها جمعيات » فلم يبطيء ان كتب اليَّ ان ادخلني في هذه الجمعية فكان استغرابي حينئذٍ اشد من حيرتي وفضلت هجر الصمت على ألم التقويم بالرد والرجل لا اعرفهُ ولا أعرف اسمهُ اليوم فليطمئن من ذكر الحادثة

وما ذكرتها الاَّ بياناً لسطوة النظامات الموضوعة على العقول ولو المتنورة حتى انه ليزول جوهرها ولا يبقى الاَّ عرضها ولا يزول سلطانها فكم من نظام وضع لمبدأ حسن ثم كان النظام نفسه مزيلاً لحسناته مطفئاً لنوره وبقي نظامهُ راسخاً لا يتقلقل حتى تهب عليهِ عواصف الثورات فتقتلعهُ عنوة كما تقتلع الاعاصير بواسق الاشجار من جذورها ولكن بعد اضاعة الزمن الطويل اي الى ان تبلغ الافعال المتجمعة ضده مبلغها الهائل من الانتشار والشدة ولولا ذلك لسار الاجتماع في ارتقائهِ على وتيرة واحدة مع الطبيعة في نظامها الطبيعي الذي هو بالحصر لا نظام الا قدر المنفعة . وسرعان ما اسمع المعترضين من احرار ومتقهقرين مقيدين وغير مقيدين دستوريين وغير دستوريين الا الذين استهواهم نظام الطبيعة المطبوع ولم يفتنوا بنظام الاجتماع الموضوع يصخبون ويقولون متعوذين كأنك تدعو الاجتماع الى ان يكون الناس فيهِ فوضى لا سراة لهم وما هي الا الفاظ وضعوها هم وآباؤهم ما انزل الله بها من سلطان والا فالانتظام الذي تدعو اليهِ ليس بدعة اوَ ليس هو رائد ابدع قوى الطبيعة كما هو شأن الحياة او ليست مركباته أبدع مركباتها كما هو شأن الاحياء فكما ان الطبيعة ترقى اليهِ فالاجتماع لا بد من ان يتحول كلهُ اليهِ وما قوفنا في سبيله بمحض ارادتنا وبنظاماتنا الا جناية فوق جناياتنا الاخرى عليهِ

وعدم احتفالي بالاعراض هو سبب عدم احتفائي بالنظامات الموضوعة غير ناظر من خلالها الا الى المبدأ والجوهر ولا يراد من ذلك اني أبدي احتقاري لها في غير مقام الانتقاد بل بالضد انا من اشد الناس احتراماً لها في مواقفها فاني لادخل الجامع والكنيس والكنيسة وفي نفسي تأدب فوق خوف المتقين ومع ذلك فلم اسلم من شرها فقد وقفت مرة امام قاضٍ — غير موقف المتهم — فما عتم ان نظر اليَّ مقطباً فبسطت له وجهي لعله يحل قطبة من قطب جبينه وكأنه استعظم سلطته فاراد ان ينتقم بها لاجداده عن خمس عشرة الف سنة مضت فانتهرني كأني اجير في باب امير وما علمت اني اسأت الادب بحضرته الا بعد ان دلني على ان يدي التي كانت هنا يجب ان تكون هنا فصدعت بالامر صاغراً صوناً لكرامتي من اعظم في هذا المأزق الحرج ثم مرَّ بخاطري بسرعة البرق التاريخ الطبيعي والاجتماعي واثر الماضي في الحال وسرعة هذا الانتقال وترحمت على الخليل فعذرته وعلمت لاول مرة ان التأدب غير الادب الحقيقي

واللانتظام الذي ندعو اليهِ ليس كاوس الاقدمين ولا فوضى المحدثين وانما هو نظام ايضاً ولكنهُ متحرك فلا يستقر على مر الاجيال حتى تضيع بهِ الغاية التي وضع لاجلها بل يتغير لكل حال صوناً لهذه الغاية ولو راعى الناس في شرائعهم ذلك لما بدا فيها كل هذا الوهن ولما سببت كل هذه الحروب بين منكر ومقر وكافر ومؤمن وناقم وراض و بين الشيع من كل حزب ولما بدا مصلح الامس رزءًا على مصلح الغد . ولكن هي الاعراض أربت على الجواهر وكان ضررها في الاجتماع اشد لان الاجتماع عاقل فاضاف الى تباطيء سير الطبيعة المطبوع تثاقل نظامه الموضوع

ولكن نواميس الاجتماع كنواميس الطبيعة مصيرها فيهِ الى الارتقاء ولو ادت بهِ الى الوقوف والتقهقر احياناً وسرعتها فيهِ كسرعتها بالقاب كمربع البعد واستخدام الانسان قوى عقله الصائب فيهِ تزيد هذه السرعة سرعة على نفس هذه النسبة . ومن يوم خطت اوربا خطاها في سبيل العلم الحقيقي واخذ ظل الاوهام يتقلص من العقول صار الامل كبيراً بسرعة هذا الارتقاء ولا نريد بهذا القول انها على وشك بلوغ الغاية القصوى فيهِ وانما هي اليوم على فجر النهضة الحقيقية ولا ريب في انها ستكون الاولى في الاستفادة وسيكون

شأنها شأن المنارة التي يستضيء العمران بها في العالم اجمع لسهولة ارتباط بعضه ببعض وسيطرة بعضه على بعض اليوم بفضل مكتشفات العلم ومخترعات الصناعة واول خطاها في هذا السبيل ستكون تأييد سيادة الامم سيادة حقيقية وسقوط سيادة الملوك ولا يستتب لها ذلك على قواعد متينة حتى تنتشر وتتأيد فيها الاشتراكية الصحيحة المبنية على تقاسم المنفعة على نسبة الاشتراك في العمل لا كما يفهمها البعض من خصومها . وان من يقابل بين حالة اوربا قبل حرب السبعين وما آلت اليه بعهدها من الارتقاء الحقيقي في كل شيء يرى ان سيادة الملوك في احتضار من ذلك اليوم . بل من يقابل بين حالة الشعوب الجرمانية من عهد غير بعيد وما هي عليه اليوم من الاشتراكية العظمى يستعظم مجرى الافكار فيها لخلع تلك السيادة ولا يتوقف تقريب اجل ذلك الا على حركات عاهلها اليوم لان شدة الضغط تسرع الانفجار وهي حركات لو كانت في عصر نابليون لالهبت العالم ولسجد لها كل معجب بسلطان الفرد ولكنها اليوم حركات يزدري العاقل بها وقد لا تضر الا مؤتيها

المقالة الثانية والثلاثون

﴿ حلم هو الحقيقة[1] ﴾

بت ليلتي وعوامل متناقضة تتنازعني . قليلها يوجب الشكر ويجلب الهناء . وكثيرها يلهب الفكر ويمزق الاحشاء . واذا بي كأني في قاعة تسطع فيها شموس الانوار وتجعل الليل ابهى من النهار . مكتظة باناس طلوا الظاهر فما زادهم الطلاء الا نميمة شفّت عما في الباطن . وهم يشهدون تمثيلاً من عالي الوضع . ولكن مبتذل الطبع . رأيت الحب يتضرم فيقدم . ويتألم فيحجم . ثم يتهتك فيشين . وينقم فيخرب العالمين . والناس يعجبون ويصفقون ثم يقولون هذا هو الادب الرائع . فسألت فقيل لي هذا ملهى الرجال . فقلت بئس الاطفال وخرجت

(١) نشرت في البصير سنة ١٩٠٩

واذا بي في قاعة مظلمة كأنها الليل الدامس ثم انبثق نور لامع مزق سجفاً من ذلك الليل المدلهم واذا الجبال والاودية والانهار والبحار والمناجم والمصانع والحيوان والنبات والانسان والبلدان والمدن تمور موراً وتنتقل بي وانا في مكاني بين الاقطار الشاسعة . والاعمال النافعة . فقلت ما هذا قيل ملهى الاطفال . فقلت نعم رجال المستقبل ثم خرجت

واذا بي في قاعة كأنها القطب البارد قام فيها رجال يتكلفون الجلال . ويحدثون بانواع الكمال واذا بهم في قرون الجهل والضلال يصفون الكلام بانسجام ليلهوا الناس عن الحاضر بالغابر . فالتفت مع الملتفتين ومددت رجلي مع المادين . وما انتبهت الأ وعنقي من التلفت الى الوراء يكاد ينحر . ورجلي امامي تتعثر . فصرخت من الالم ما هذا فقيل لي الجامعة قلت ما هي اذن بالنافعة

ثم انتقلت واذا دوي يصم الاذان كأن فولكان القدير يتهدد البشر بصواعقه وشرر يتطاير كأن جهنماً استبطأت الناس فتهادت اليهم نارها . فاوغلت واذا انا في مكان رهبت منه رهبة اجلال اذ رأيت هراقلة البشر يغالبون الطبيعة فيغلبونها تعصف بالنار رياح كيرانهم كأنها نفخ الافاعي فيذيبون بها الحديد كالشمع ويصبونه صباً كالزيت ثم يصنعون منهُ اسلاكاً ادق من لعاب العناكب وينهالون عليهِ بمطارقهم فيدعونه صفائح ارق من دين الكافر فقلت ما هذا قيل لي « ورش بولاق » فقلت نعم المسجد

ثم انتقلت واذا انا في بناء فخيم يملأ اربع زوايا المسكونة مزوق الظاهر مزخرف الباطن فنظرت واذا في جهاته الاربع اقوام يتشاوسون يطولون ويقصرون ويقومون ويقعدون وغيرهم ينوحون ويتخبطون او يستطيبون ما يكرهون فخرجت ولم اسأل وقلت الجهل بهم خير من العلم

واذا بعاصفة حملتني ثم وقفت بي على شاطىء بحر رمله كحصباء الدر فاجلت طرفي من « مفتش الموج الى مبسم الثلج » وقلت سلام عليك ايها الوطن الحبيب . واذا اكمة كأنها كرسي الجوزاء قائمة تطل على ذلك البحر وعليها بناء فخيم او هو سلسلة بنايات تناطح السحاب سمواً وكأني فيها فرأيت ميازيب العلم تتدفق منها كالبحر الزاخر علوم المعادن والحيوان . علوم النبات والانسان . علوم الطبيعية والكيمياء . علوم منافع الاعضاء

وطب الابدان . علوم الفلك والاحداث الجوية وعلوم اللغات بقدر ما يستطيع الانسان ان يفهم ما يعلم وان يعبر عما يفهم . فذكرت عهداً مضى وقلت هذه مرضعة العلم الصحيح وذكرت قولي فيها يوم فصالي عنها

ايا نسمات الريح مني تحمّلي سلاماً على ربع اطال تغزلي
ويا ربع بلغ في حماك تحيتي عروساً بكأس العلم في الشرق تجلي
عزيزة امثال ودانٍ وصالها تقول وقد ماست بثوب التدلل
لقد طالما القى الرحيق محرماً ألا فاشربوا من ذا الرحيق المحلل

فسلام عليكِ ايتها المدرسة الكلية والف سلام
ثم صحوت — واذا الحقيقة كالمنام

المقالة الثالثة والثلاثون

﴿ الزلازل غضب الآلهة ؟ [1] ﴾

لا ريب ان الانسان كما كان وكما هو اليوم لا يستحق رحمةً من خالق ولا عطفاً من مخلوق . نهمٌ جشعٌ ظميٌ لا يرويه شيء يلهمهُ فتاك غدَّار سفَّاح لا يردعهُ دين او أدب . ولكنهُ مخلوق . . . . فهل خلق مستودعاً للشر وقارورة للفساد ؟ ولماذا لم يخلق وديعاً كالحمل وطاهراً كالحمامة وهما دونهُ في مراتب الخلق ولم يخصَّا بما خص هو بهِ من حلو آمال وجميل مآل . . . حتى قام عليهِ إله ابرهيم واسحق ويعقوب المنتقم وامطرهُ ناراً وكبريتاً ونسف بهِ الارض حمماً لذَّاعاً ودفنهُ حياً تحت التراب يقاسي هول العذاب . وكان في امكانه ان يخفف عنهُ مشقة هذا الغضب ويخفف عليهِ عذاب هذا المصاب لو جعلهُ اقوم خلقاً واصلح خُلقاً . وما ذنبهُ وهو ليس كذلك ؟ بل ما ذنب هؤلاء المساكين الذين فتكت بهم الطبيعة العمياء فانشقت الارض بهم وابتلعتهم وجرفهم الماء الى قعر

(١) نشرت في البصير سنة ١٩٠٩ بعد زلزال سيسيليا رداً على اولئك الذين زعموا انه عقاب من الله

البحار ؟ ولماذا كانوا عبرة لسواهم ولم يكن سواهم عبرة لهم ولا فضل لسواهم عليهم ؟ ولماذا لم يكن الحق شاملاً وهو عين الصواب لو صح القول ؟ . . . فاتقوا الله يا دعاة الله وكفوا عن نسبة مثل هذه المظالم اليهِ واعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ولا تجمعوا فيهِ بين النقيضين وتعيدوا لنا بهِ عصر تيمورلنك وملوكنا الجبابرة السفاحين فلا تجعلوا الزلازل من غضب الآلهة وهي من الطبيعة الغشيمة وشرها اعمى . فليرحم الانسان الانسان ولا يشدد القضاء عليهِ في مصابه وهو ليس اصلح في نجاته منه في نكباته

هل دريتم بما جنيتم فظلو مون انتم وانتم الظالمونا

المقالة الرابعة والثلاثون

« نظرة هامة في مسألة عامة (١) »

« انتقادية فكاهية »

مالي اراك ايها القلم تتعثر وعهدي بك اجرى من السيل وتتلثم وعهدي بك امضى من السيف . افراغ جيبك افرغ جعبتك وفراغ الجيوب املاً لوطاب العقول وافسح لمجال الافكار . ام تراكمت دونك العقبات فخشيت قول الشاعر «الجود يعدم والاقدام قتال» ونسيت قوله في صدر البيت « لولا المشقة ساد الناس كلهم » ام لعلك نسيت قولك

ربَّ ساعٍ بالعزم وهو ضئيل دك طوداً من راسيات الجبال

ام كبرت عليك المطامع فثبطت منك الهمم او لست انت القائل :

ربَّ ساعٍ بالحزم وهو ضئيل صار قيلاً من اعظم الاقيال

ام راعك ان قراءك لا يبلغون نصف العشر ولا نصف نصفه (٢) فتذكرت قولك :

قد يني المرء لاقتضاء استواء ووفاق لسائر الاحوال

وذهلت انك انت القائل

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨ (٢) كما ظهر من الاحصاء الذي عمل في ذلك الحين

غير ان الانسان يفعل في الاحـــوال ما قد يفعلنَ في الاشكال

ام تزاحمت عليك المواضيع وانهالت عليك الافكار فوقفت بينها حائراً كما وقف حمار « بوريدان » بين حزمتي الحشيش (١) لا تعرف باي تبدأ ولا ايا تختار . أتبـدأ بقولك « الانكليز يصلحون فلماذا يكرهون » كانك تريد ان تثبت هنا حقيقتين متناقضتين ولو بحثت عن السبب لزال منك العجب فالاصلاح واقع لانه ينطبق على مبادئ هـذه الامة العظيمة وحكومتها لا يسعها الا ان تسير على رغائب الامة لان قيادها في يدها . فمصر تحت سيطرة الانكليز انتظم ريها واتسعت زراعتها واثرى فلاحها وصارت حياته ذات قيمة وانتظمت ماليتها حتى صارت موضع ثقة العموم و بلغت الحرية فيهـا مبلغاً تفتحت له ابواب السجون . فالاصلاح حقيقي ولو ابتلعت (٢) بواخرها في البحر واغرقت بسنديلتها في البر فالبواخر في البحر معرضة للحيتان والارض في البر معرضـة للطغيان ويقال ان ستبقى رأية مصر تخفق في البواخر فوق رأية الانكليز كطربوش صاحب المؤيد فوق قبعة القبطان (٣) واما كرههم فحقيقي ايضاً وله سببان الاول طبيعي فهم دخلاء في البلاد والدخيل لا يحب ولو جلس في اخريات الناس فكيف بهِ اذا جلس في صـدر البيت على ان هذا السبب ليس بالجوهري فهو غالباً يزول اذا رأى اهل البيت في الدخيل كفاءة وامتيازاً وانسوا منهُ حسن معاملة وصلاح حال . والسبب الثاني وهو سبب هذا الكره الحقيقي عتو بعض افراد الانكليز وصلفهم واستبدادهم وتغطرسهم واساءتهم الى الذين تربطهم بهم روابط المصلحة في دوائر الحكومـة فالحق يقال انه يوجد بين هؤلاء الافراد من لو شد الى قرن لم يقوَ عليه ... اثنان على انه كما يوجد فيهم عتاة يوجد فيهم ايضاً من لو وضعتهُ على جرح لكان كالبلسم كما في كل امة . وقـد تعود الناس اذا رأوا اساءة من فرد ان يطعنوا على هذا الفرد بالطعن على جنسه حتى يظن الذين يسمعونه ان كل ابناء جنسه من طرزه فيتوهمون ان اعمال هـذا الفرد المغايرة تنطبق على سياسة حكومتهِ

(١) مثل فرنساوي للدلالة على الحيرة (٢) اشاره الى صفقة البواخر الخديوية واراضي بسنديلة التي باعتهـا الحكومة يومئذ الى شركة انكليزية (٣) اشارة الى ان الرأيتين الانكليزية والمصرية ستخفقان معاً فوق الباخرة في آن واحد

ورغائب امته وهو خطأ فان حكومة الانكليز وامتهم لا ترضيان عن سلوك مثل هذا الفرد لو علمتا به والذي يزيد عتو هؤلاء الافراد الذين هم على امتهم شرٌ من الاعداء جبن مرؤوسيهم وانقيادهم لتحكمهم حتى تمادوا في احتقارهم وعندنا ادلة كثيرة على ان اللورد كرومر لا يسمح باهتضام الحقوق الى هذا الحدّ ويكون جذلاً مسروراً اذا كان الناس يرفعون اليه شكاويهم ولا شك انه ينيلهم حقهم اذا كانوا محقين . فلو جرى الناس والجرائد على هذه الخطة عوضاً عن الطعن العام الذي يوغر الصدور لخدموا الامتين امة الانكليز لانها تعلم مكان الضعف فتداويه والامة المصرية لحصولها مع الاصلاح العام على احترام الحقوق الشخصية فتقوى روابط الالفة بين الامتين وانقياد فردٍ لفرد وأمة لامة قضاء طبيعي فالمجاملة والحالة هذه خير من المخاصمة العقيمة فقد قال امام الشعراء

ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى عدواً له ما من صداقته بدٌّ (١)

ام اتكلم في موضوع « كثرة الوفاق نفاق » هؤلاء يقولون ان الانكليز كل اعمالهم سيئات واولئك لا يرون لهم الاَّ حسنات ومهما حاول كل من الفريقين تأييد رأيه فلا نظن ان ذلك ينطبق على الواقع والعقل لا يسلم بامكانه فتقع الريبة وتسوء الخدمة التي يتوخاها كل واحد من خطته ونعني بهذه الخدمة الخدمة العمومية وقد لا نشك نحن بان كلاً من الفريقين قد يكون مخلصاً في دعواه ولكن زيادة التحمس كثيراً ما تؤدي الى تجسيم الوهم على حد قوله

وهمناك ان تعطي فلو لم تجد لنا لخلناك قد اعطيت من شدة الوهم

الا ان عموم الناس لا يفهمون ذلك فتغرهم الامثال والامثال ولا يخفى تجري مجرى الحكم ويشجعهم خصوصاً انطباق السجع فيقولون « كثرة الوفاق نفاق »

ام اتكلم عن السجون فقد مرَّ بك ذكر هذه اللفظة عرضاً وهي موضوع يستحق الالتفات كيف لا أليست السجون المكان الذي نختاره للراحة من عناء الاشغال وتبلبل

---

(١) انا لا اشك اليوم ان سياسة الوخز والمكز التي استمرت بين المحتلين واهل البلاد مدة طويلة هي التي ولدت هذا الكره الشديد وعدم الثقة بنيات الحكومة حتى صارت الامة تنظر الى كل مشروعات الهيئة الحاكمة بعين الريب

البال اذ تضيق بنا الحال فالاهتمام بامرها مما يهم كل انسان فهي بين الفنادق والمستشفيات ومن يضمن لنفسه كبيراً كان او صغيراً أميراً او صعلوكاً غنياً او فقيراً عالماً او جاهلاً انه لا يحل يوماً ما ضيفاً على الحكومة في هذه البيوت المروِّضة للابدان المروِّقة للافكار . ونحن في عصر بلغ فيهِ التأنق والاعتناء بالفنادق والمستشفيات مبلغاً عظيماً وما ذلك الأ لان احوال البشر اقتضت ذلك لانه لسوء الحظ او لحسنهِ زادت احتياجات الانسان بالتمدن حتى صار انتفاء اسباب الراحة التي تعودها يجلب له الضرر ولسوء البخت كذلك الناس في الهيئة الاجتماعية طبقات فلا يقاس العالم بالجاهل ولا يعامل المتعود على التأنق بالمعيشة كالمتعود على قشف العيش فانزال الرفيع الى مقام الوضيع لا يناسب احياناً كثيرة والعكس جائز هنا . والسجون وجدت لحبس الرجل عن الشر وترويض افكاره مدة سجنهِ فاذا لم تستجمع كل الوسائل الصحية والادبية انقلبت فائدتها وزادت الاخلاق فساداً اذا كانت فاسدة وربما افسدتها اذا لم تكن كذلك وكما ان الذنوب التي يرتكبها البشر درجات فالعقاب يجب ان يكون درجات كذلك لا في مدة السجن بل في نوع السجن ايضاً ومن الذنوب ما هو ارفع مقاماً من سواه ولو عاقب عليهِ القانون فالذنوب السياسية والكتابية غالباً قلما يعد السجن فيها اهانة حقيقية تلبس صاحبها وصمة عار لا تمحى ونعني بالذنوب الكتابية الذنوب التي يرتكبها كتاب لهم شأن معدود في عالم الكتابه لا الكتاب المتطفلون الذين لا شأن لهم مطلقاً فحبس مثل هذا المذنب مدة لا يراعى فيها مقدار ذنبه والضرر الذي نشأ عنهُ والضرر الذي يلحق بهِ في حبس واحد مع القاتل والسارق والمرتكب بل حبس المتعلم والمتهذب مع من لا تربية له ولا خلاق وفي مكان غير متوفرة فيهِ اسباب الراحة والصحة كما هو شأن اكثر السجون[١] . لا شك انه مفسد للصحة مفسد للاخلاق ولا نظن ان القصد من السجن ادخال الامراض على الجسد والعقل لقتلها وقتل مستقبل الانسان خصوصاً لذنوب كثيراً ما تكون هوائية واني اتصور في نفسي انه لو وقع لي مثل هذا الامر واخذت الى السجن لسقطة قلم او زلقة لسان[٢]

(١) سجون مصر كانت حتى هذا العهد سيئة جداً ولم يكن قد تم فيها شيء من الاصلاح اليوم
(٢) كان ذلك على اثر سجن بعض رجال الاقلام

وعوملت هذه المعاملة لخرجت من السجن وعيناي تقدحان شراراً لا اطلب الا الانتقام واؤكد للجميع بان طباعي الحقيقية تأبى الاضرار عمداً حتى بالحيوان بل اميل جداً الى تحمل الضيم وامثالي في الدنيا كثيرون فلماذا نفسد اخلاق مثل هذا الانسان ولا نحاول اصلاح جانب الضعف فيهِ والانتفاع بما فيهِ من القوة فالعقاب يلزم ان يراعى فيهِ اشياء كثيرة غير مستدركة لا في السجون ولا في القانون

والقانون وما ادراك ما القانون مجموع شبهات وظنون في ما هو كائن وما لا يكون بل هو عقبة في سبيل تقدم الانسان في العمران ولو اغضب ذلك سادتنا القضاة والمشرعين ورموني بالجهل وعدوني متأخراً عن عصري خمسة الاف سنة او متقدماً كما يريدون وقد عده الناس لبونابرت الحسنة الوحيدة بين سيئاته الكثيرة وهو شر ما جنت يداه على الانسانية فلا قتله الالوف المؤلفة من البشر ولا تخريبه المعمورة مدة ربع قرن يقاس بشيء من اضرار هذا القانون الثابت فالشريعة ليست من العلوم الرياضية حتى تدوَّن في بنود كقضايا مسلمة تجري مجراها ولا تنقح حتى يتفاقم ضرها ويكثر شرها فالشرائع لا تعاقب ذنوباً بل مذنبين كما ان الطب لا يداوي امراضاً بل مرضى فهي ابسط من ذلك جداً في اصولها واشد اختلاطاً في فروعها فالاحكام الاجتهادية افضل جداً من الاحكام القانونية ولا نظن ان البلاد التي تعول في احكامها على الاجتهاد لا على القانون كبلاد الانكليز اسوأ حالاً من البلاد القانونية ان لم تكن اصلح منها بكثير اقول ذلك ولا اقصد به امراً معلوماً او اناساً معلومين وارجو ان لا يحمل الناس كلامي على ما بين طائفة الاطباء والقضاة مما بين السنور والثمثم (كلب الصيد) خصوصاً بعد حكمهم الجائر في باريس على المنكود الحظ الطبيب « لابورت » (١) مما اثار غضب الاطباء عموماً على المحاكم وسلقوها في جرائدهم بالسنة حداد

وعلى ذكر الاطباء اقول ان هذه الطائفة — وقاك الله شرها — كثيرة النفع كثيرة الضرر اذ يتوقف عليها صحة الابدان وحياة النفوس فاصابة منهم قد تحيي وغلطة قد تودي وهم من هذه الجهة يتشابهون كثيراً مع القضاة والفرق بينهم كما قال بعضهم ان

(١) كانت حكاية الحكم على هذا الطبيب في فرنسا شائعة يومئذ كثيراً ومستنكرة جداً

الاطباء يدفنون اغلاطهم في الارض والقضاة ينشرونها في الهواء (اشارة الى دفن الميت وتعليق المشنوق) وهم لو اقتصروا على ما سنَّهُ لهم ابوهم ابو الطب ابقراط حيث قال « على الطبيب ان يتوخى منفعة مريضه فان لم يستطعها فليجتنب الاضرار بهِ » لوجدوا لهم من انفسهم عاذراً ولما استحقوا كبير ملام لان الطب كما قال احد حكمائهم « يشفي نادراً ويسكّن غالباً ويعزّي دائماً » ولكن الاطباء بشر كسائر الناس يختلفون نظيرهم في العقول والاخلاق فهذا يعتمد على البساطة في طبه كما يكون بسيطاً في لبسه ومعيشته وذلك على ذر الرماد في عيون المرضى كما يذره في عيون سائر الناس في سائر احوال معيشتهِ فلكي يصف لك قدح ماء يستقطر البحر ويستمطر السحب ويستسيل الجمد ومنهم من ينظر الى مريضه شزراً ويجلس الى جانبهِ ويعيره ظهراً [1] وربما اراد ان يدل بذلك على خفة الداء لا على قلة الاعتناء ومنهم وكنت اود ان لا اذكر ذلك من يقصد تكثير الربح كأنه شريك الصيدلي (اعوذ بالله من شر الصيادلة فهؤلاء يلزم لهم فصل مخصوص) فعوضاً عن الدواء البسيط يعدل الى المركب وعوضاً عن ان يصف لك بعض قمحات في مقدار من الماء يمزجها ويقسمها اوراقاً او حبوباً او برشانات تزيد على المائة عداً ويشغلك يومك وليلك في تجرع هذا الدواء على الساعات والدقائق والله اعلم بالعواقب . والحق يقال ان الذنب ليس كله عليهم فالناس لا يرضون عن طبيب الا اذا قلبهم ظهراً وبطناً في ما يلزم وما لا يلزم وعادهم صباح مساء وظهر عشاء وكتب لهم من الدواء ما يخرج بهِ من عند الصيدلي مستغيثاً بالحوذي ومركبته فعن الاول يقولون انه « معتن » ولو لم يفهم شيئاً وعن الثاني انه « شاطر » ولا يصفحون عنك ولو فهمت حالة المريض من مجرد تحديق نظرك فيهِ وشفيتهُ بدواء لم تتعدَّ بهِ دائرة المطبخ فانهم لا يزالون يرمونك بالاهمال والجهل ولا يريدون ان ينسبوا ذلك الى نظرك الدقيق . على ان الاطباء مهما بالغوا في الدهاء فالمرضى يفوقونهم في ذلك فكثيراً ما لا يكافئونهم بغير تمزيقهم بلسانهم وانا انصح لك كلما سمعت احداً يذم طبيباً ان تسأله اذا كان دفع له حسابه فغالباً تجدانه لم يدفع لان الذين يدفعون قلما يذمون . وزد على ذلك ان الاطباء اشبه شيء بالضرائر ليس بينهم عصبية تحمي

(١) اشارة الى مسلك الكاتب في الاحوال التي كان يتحقق خفتها مما كان يجلب عليه الانتقاد

مصالحهم فليس لهم رأي عام كما يقولون ولو كان لهم ذلك لما تجاسر القاضي الذي حكم على « لابورت » المذكور ان يصب عليهِ ذلك الحكم الجائر فقد قال بعضهم لو اعتصب الاطباء بعد الحكم على لابورت ثلاثة ايام امتنعوا فيها عن تأدية وظائفهم لرأيت القضاة على ... ابوابهم يستسمحون

وعلى ذكر الرأي العام اقول ان كثيرين يذهبون الى ان الرأي العام في الشرق اسم بلا مسمى كالغول والعنقاء ومع ذلك فنحن نسمعهُ في الجرائد كثيراً ونفاه بعضهم عن المصريين بحجة قلة انتشار التعليم بينهم وفي الامر نظر (١)

المقالة الخامسة والثلاثون

« شواغل (٢) »

انقطعت عنك ايها البصير زمناً طويلاً او قصيراً حسب اميال كل قارئ ووقع كتاباتي عنده موقع الاستحسان او الاستهجان لشواغل تهون لدى البعض وتعظم لدى البعض الآخر . والناس يختلفون فيما بهِ يتأثرون . فهنا رجل يخوض بحار الافكار ويصادم تيارها الجارف ويقف سداً في وجه الحوادث كأنه الطود الراسخ لا تقلقله ريح زعزع ولا اعصار ينسف الرمال ويقتلع الاشجار وينتصب مخروطاً يصل السماء بالبحار كأنه التنين الحرّان ولكن رأسهُ في السماء ورجله في الماء . يصادم كل ذلك بجنان لا يرتاب وقلب لا يهاب ولكن يحار ويتعثر لشيء يذكر ولا يذكر قد لا يعتد به سواه ممن ينوء

(١) هنا بقية حذفت لعلاقتها بامور خاصة واعلم ان الرأي العام المصري الذي كان مشكوكا فيه يوم كتابة هذه المقالة اصبح اليوم شيئاً مذكوراً . وان الناظر اليوم الى حالة الامة المصرية من هذه الجهة يسر سروراً لا يوصف اذ يرى سرعة تكون هذا الرأي فيها وتعاظمه سنة عن سنة حتى صارت تفهم جيداً مزايا التضامن في العمران

(٢) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨ والعنوان من كلمة وردت في كلام لبعضهم في الكاتب نشر في ذلك العهد في جريدة الاخبار بتوقيع « اتوس » تحت عنوان كتاب العربية في مصر

نحت عبء اقل القليل مما ذكرناه . شواغل غير الشواغل التي اشار اليها « اتوس [1] » في وصفه لي وصفاً عقل لساني واطلق فيض قلبي فلم يبق لي غير دمعة شكر اسالتها عيني على دمعة فكرٍ اسالها قلمهُ البليغ . شواغل لو قام لها الحريري من قبره ونظر الى ما حوله لبدل قوله :

اصطاد قوماً بوعظ وآخرين بشعرِ
واستفزَّ بخلٍ عقلاً وعقلاً بخمرِ

بهذا القول

اصطاد قوماً بمالٍ وآخرين بمالِ
واستفزَّ بمالٍ عقلاً وعقلاً بمالِ

ولكسر القلم وانشأ مقالة سماها « رثاء القلم في بلاد الرمم » افتتحها بقوله :

مالي اراك حزيناً ايها القلم هل مات قومك يا مسكين كلهمُ
ماتوا ويا ليتني ما عشت بعدهم اما تراني وحولي كلهم رممُ

قف ايها القلم قبل ان تتهور من حالق فما عهدي بك ممن يتجر بالكلام هل غرَّك ان المثالب تشرى وتباع وتهتز لها عروش الملوك في الاصقاع [2] ونسيت قولك «الناس مذاهب والنفوس مراتب » ام خشيت الملام [3] وما قلت حتى اليوم غير الحق وما نطقت بغير الصدق يعترف لك بذلك العدو قبل الصديق ونفسك من وراء ذلك لا ترتاب لانك في كل ما تقول تعرض عن الاشخاص ولا تشدد الطعن الا على المبادىء فما انت ممن يحب في البحث التعرض للآحاد بل تتصدى للمجموع ولا الوقوف على الجزئيات بل تتخطاها الى الكليات تشهد بذلك مباحثك كلها والكتابة مرآة الافكار والافكار

(١) هذا هو كلام « اتوس » قال في الختام ما نصه « والرجل ربعة القامة مائل الى القصر اسمر اللون ممتلىء العضل كهل عزب ولعل عزوبته كانت اعظم مساعد على اظهار مواهبه هذه حيث يتفرغ الفكر عن « شواغل » العائلة وينصرف الى الامر الذي يلذ له وكذلك كان غالب المشاهير » اه

(٢) اشارة الى خطة بعض الكتاب ولا سيما على عهد حكومة عبد الحميد في هز خزائن العروش لاستدرار الاموال « ثمن سكوت »

(٣) اشارة الى نشر مراسلة بينه وبين بعض المراجع العالية بلغه ان المراجع المذكورة استاءت منها

صور الاميال فلا تخالف اميالك لان الشرّ في الدنيا انما نشأ عن مخالفة هذه الاميال لاعتقاد الاوائل ان العنصر الغالب في الانسان هو الشر فحاولوا في تعاليمهم كلها مقاومة امياله الغريزية وعلموه ان يخالفها فاكتسب صفات غير صفاته الطبيعية صفات مشوهة يجهد الانسان نفسه لتطبيقها على طبيعة مختلفة عنها في المبدأ تنقلب شرًّا اذا خلا بنفسه عن نظر الرقيب مما يدلك على انها صفات مصطنعة لا طبيعية . ولا يصح هذا المبدأ حتى يصحّ ان جمال الصناعة افضل من جمال الطبيعة « وليس التكحل في العينين كالكحل » حتى صارت كل اعمال الناس مصانعة تنطبق على قوله

اراثيك فليغفر لي الله زلتي بذاك ودين العالمين رياء

فالانسان لم يكذب الا لانهم عاقبوه على الصدق ولم يسرق الا لانهم حجبوا عنهُ ما يحتاج اليه . ولا ريب ان كثيرين يستغربون هذا القول واستغرابهم له هو الباعث على ذكره لان استغراب الشيء يحدث في العقل رجة كثيراً ما تكون في اول الامر ضد هذا الشيء والمنبه اليهِ الا انها لا تلبث ان تحمل هذا العقل نفسه على التفكير والبحث وهذا يزحزحهُ عن مألوفه المتقادم عليهِ ويطلقهُ من عقاله المحمول فيهِ والكتابة ان لم يكن فيها ما ينبه الافكار بسطاً او الماعاً ويفسح للعقل مجال البحث لم يكن فيها شيء مفيد وكانت كبيت الشعر المستوفي قواعد الوزن والاعراب الخالي من المعنى اي كاكثر اشعار هذا العصر (١)

وهذا الميل في الانسان الى تشويه الاخلاق اي الصفات الادبية ظاهر فيهِ ايضاً في تشويه الخلق اي الصفات الطبيعية مثل تشريح الخدود عند الزنوج والوشم عند اكثر قبائل الشرق وتشويه الرجلين عند الصينيين وذكر ابقراط جيلاً من البشر كان يطلق عليهِ اسم المكروسفال اي الرؤوس المتطاولة كان يشوه رؤوس اطفاله حتى تتطاول وذكر شعباً من الصقالب كان يشوّه صدور بناته بازالة ثديهنَّ الايمن بالكي بالنار وهنَّ طفلات (٢)

(١) لم تكن النهضة الشعرية اخذت مأخذها البليغ اليوم على لسان نوابغنا المعروفين بل كانت الجرائد تنشر قصائد وتواريخ مبتذلة في حركات الخديوي خاصة مما حملني على القول لو ان الخديوي يجيز اصحابها بقرع العصا لوقى الاذان من شر قرع مثل هذا الشعر

(٢) ليمكنوهن من احكام اسناد القوس لتسديد الرمي

وقد جرى الناس في تشويه الاخلاق مجراهم في تشويه الاجسام وهم في الحالين يحسبون انهم يحسنون صنعاً. الا ان تشويه الصفات الطبيعية قلما يكون له اثر يتجاوز الواحد من الناس وقلما ينتقل بالوراثة فلا يخشى تأصله ولعل صعوبة انتقاله بالوراثة هو الذي صرف الناس عنهُ بسرعة اعظم من سرعة انصرافهم عن تشويه الاخلاق حتى قلَّ ذلك اليوم وانتفى اكثره من بين الجمعيات المتمدنة وانطفأ اثره بانطفاء المشوَّهين انفسهم . واما تشويه الاخلاق فارسخ اثراً واسهل انتقالاً بالوراثة واصعب انتباهاً اليهِ ولذلك لا يزال اثره شديداً حتى اليوم في اعظم الجمعيات المتمدنة. ولهذا نرى الناس في تعاليمهم الدينية والادبية حتى الطبيعية حاولوا ادخال هذا المبدأ فعلموا قهر النفس وعدوا ذلك من الفضائل والمداجاة وعدوها من حسن السلوك والدهاء ومن قهر النفس الى انفجار غضبها وارتكاب المنكر ومن المداجاة الى الرياء والكذب لا يوجد الاَّ خطوة فتولدت في الانسان اميال لم تكن فيهِ واكتسب عيوباً كثيرة كان يمكن ان لا يعرفها وكثير من الامراض العصبية نشأ وتأصل وانتقل في نسله بسبب ذلك ولم يقتصر ذلك على العلوم الادبية بل العلوم الطبيعية نفسها لم تسلم من هذا المبدأ . فلقد طالما عدوا اميال الطبيعة ضلالات فاجتهدوا في مقاومتها فكم من مريض بات يتقلى على جمر الحمى فلا يسمحون له حتى ولا بالهواء ويشكو الظمأ فلا يجودون عليهِ بجرعة من الماء وربما اكثروا له من الدثار واوقدوا في غرفتهِ النار

وان العقل ليحار كيف تولدت هذه التعاليم وكيف تمكنت من الناس حتى صار التمسك بها يعد فضيلة وصواباً والخروج عنها رذيلة وخطأ وربما لم يكن الوقوف على اصلها متعذراً والعلم بنشوئها ممتنعاً الا ان الافاضة في ذلك تدفعنا الى مبحث يطول به الكلام ولا يسمح به المقام وربما عدنا اليهِ في فرصة اخرى

المقالة السادسة والثلاثون

﴿ القضاء المبرم (١) ﴾

« في اليد والقبلة والدرهم »

(صحية فكاهية)

لا نقصد بذلك يد الظالم التي يمدها للفتك بك . ولا قبلة المداجي الخائن الذي يبيعك بابخس الاثمان . ولا درهم جاسوس السوء الذي يتقاضاه ثمن هدر دمك . وانما المراد بهِ امر عادي جار كل يوم في المعاملات بين الناس وهم على تمام الولاء والاخلاص غافلين عما قد يجره عليهم احياناً من السقم والبلاء

ذهب الاطباء الى ان امراض الانسان ناشئة عن اجسام حية تتوالد وتنمو كما ينمو الحيوان والنبات صغيرة جداً لا ترى الأ بالآلات المعظمة سمّوها مكروبات منتشرة في الهواء الذي نتنفسهُ والماء الذي نشربه والارض التي نطأُها وعالقة بكل شيء لنا بهِ اتصال واذا نجونا منها احياناً فلضعف فيها او لقوة فينا . فالهواء الاصفر الضارب اليوم في البلاد على اسلوب غريب لم يسبق له مثيل في تاريخ الاوبئة والحمى التيفوئيدية التي تفتك بنا كل سنة فتكاً ذريعاً . والتدرن الكثير الذي لا يبقي ولا يذر والدفتيريا التي هي طاعون الاطفال وغيرها من الامراض الكثيرة الخفيفة والشديدة اسبابها مكروبات خاصة بها تصل الينا غالباً عن طريق الفم بالطعام والشراب . وقد عرفوا ايضاً طرق اهلاكها فهي لا تقوى على النار التي تطهر كل شيء فاذا نقّي الطعام والشراب منها مع ما في عصارات المعدة من الحوامض المفسدة أمن الناس شرها . ونقاوة الماء تكون بالترشيح وافضل من ذلك غليهُ ونقاوة الطعام تحصل بالطبخ الجيد . تلك امور لا نقصد الافاضة فيها هنا وقد صارت معلومة اليوم . ومرادنا فقط ان ننبه الى انتقال جراثيم الامراض بواسطة

(١) نشرت في المشير في عدد رأس سنة ١٨٩٦ بتوقيع « طبيب المشير »

ثلاثة عوامل مهمة وهي « اليد » « والقبلة » « والدرهم »

فاليد اهم اعضاء الانسان في المعاملات يمدها الى كل شيء ثم يردها الى فمهِ وعينيه فان لم تكن نقية كانت سبباً لنقل العدوى . وهي العضو المستعمل للسلام مصافحة والسلام باليد عادة لا نبدي رأياً في قبحها او حسنها وانما نقول انها شديدة الخطر اذ ان الناس يتفاوتون في الاعتناء بنظافة ايديهم وقد يحملون بها جراثيم امراض كثيرة وربما استغربوا اذا قلنا لهم ان السلام مصافحة قد يكون سبباً لإيرادهم حتفهم ولإتلاف عضو من اعضائهم كالعين . ولاتقاء ذلك على الناس جميعاً ان يعتنوا بنظافة ايديهم وما ضنَّ الله عليهم بالماء فالفقراء والاغنياء (ونستثني من ذلك سكان مصر والاسكندرية) في التمكن من الحصول على ذلك سواء فلا يعذرون . ونعم ما فرضتهُ عليهم بعض الشرائع لو انهم يفعلون ونعم العادة المصطلح عليها اهل الشرق وهي غسل ايديهم قبل جلوسهم على الطعام وافضل منها غسلها كلما تمكن الانسان من ذلك

والقبلة وما ادراك ما القبلة . صلة القلب بين العاشق والمعشوق وصلة النفس بين الام والولد وربما توسعوا فيها بين الصديق وصديقه وهي هنا صلة لا نعرف لها اسماً اذ انها غير طبيعية . فامراض الفم والرئتين كثيراً ما تنتقل بواسطة القبلة . فكم من طفل بريء اصيب بداء رديء بقبلة من مرضعته . وكم من عاشق اخذ الداء بقبلة من عشيقته وهنا نستميح العفو من سادتنا الشعراء فليس برد الانياب دائماً ريح الخزامى او نشر القطر كما في قوله : كأن المدام وريح الخزامى وبرد الغمام ونشر القطر

يعلّ به برد انيابها اذا غرّد الطائر المستحر

ولا الريق دائماً بالشهد كما في قوله

فقمت ارشف من شهد اللمى وانا اقول « هذا شفاء فيهِ للناس »

على ان الشعراء يتبعهم الغاوون وهم في كل واد يهيمون وكثيراً ما ينطقون بما لا يصدّقون فالحذر من القبلة فكم تورث الجسم علّة والقلب دبلة

واما الدرهم المفرق بين الام والولد فلا مشاحة في انه عصب الهيئة الاجتماعية كما يصفهُ الافرنج اذ تتوقف عليهِ قوة الافراد والامم . وكما انه عصبها سيكون يوماً ما سبباً

لتمزيقها ايضاً بما سيحدثه من الكوارث والقلاقل بين الشعوب لانحصاره في جانب وانحساره عن الجانب الآخر وهو الاكبر ولسوء البخت هذا الحصر آخذ في الزيادة يوماً عن يوم بما لم يسبق له مثيل في تاريخ العمران وهو علة الاضطرابات الداخلية الحاصلة في كل مملكة وتألف العصابات لمقاومة اصحاب المال وان لم يتدارك ذلك ارباب السياسة بالحسنى لا بالعنف يخشى ان يكون سبباً لخراب الممالك هذا بالنظر الى الاقتصاد السياسي واما اذا نظرت اليهِ طبياً فانك تراه يصدق عليهِ قول الحريري

تبّاً له من مارق ممازق اصفر ذي وجهين كالمنافق

فان الدراهم يتداولها الناس بايديهم ويضعونها في جيوبهم ومنهم من يضعها في فمه فتحمل جميع المكروبات التي تصادفها في طريقها وتنقلها من واحد الى آخر مكتسبة كل مرة مكروبات جديدة على حد اكتسابها بالربا . ومن العادات السيئة اعطاء الدراهم للاطفال فانهم لا يتأخرون عن ان يضعوها في فمهم فاذا كان عالقاً بها جرثومة مرض كالزهري او الدفتيريا او السلّ فتصور الضرر العظيم الذي يقع على الطفل من ذلك

فهذه ايها القارىء اللبيب عوامل ثلاثة لنقل الامراض مهمة جداً نبهناك اليها حتى اذا عرفت الداء سهل عليك الدواء راجين لك بذلك النجاة من شر المكروبات وهذا افضل ما نتمناه للقراء الكرام على رأس هذا العام

المقالة السابعة والثلاثون

﴿ لحس الاصابع (١) ﴾

« نصيحة طبية »

رأيت فتى يلعب بالنرد وهو كلما اراد نقل حجر ارسل اصبعه (السبابة) اولاً الى فمه ولحسها بلسانه وهكذا كان يفعل قبل نقل كل حجر . وكان يفعل ذلك بسرعة وخفة

(١) نشرت في الاخبار سنة ١٩٠٨

لا يحاكيهِ فيهما سوى ذوات الايدي الاربع كأن الامر فيـهِ عادة مألوفة ليس للروية فيها ادنى دخل وهذا ما استلفت نظري اليهِ خاصة لاني رأيتهُ وأنا مار في الطريق فذكرني ذلك عادة كثيرين من الناس تراهم دائماً يشركون ألسنتهم في كل ملموسات ايديهم فالقارى في كتاب يلحس اصبعهُ عند تقليب كل ورقة من اوراقه والبائع يلحسها عند فرز كل بضاعة واللاعب عند تناول كل ورقة من اوراق اللعب وبعض الكتبة يلحس الحبر عن الورق كلما اراد محو شيء كتبهُ للفور

وهي عادة قبيحة جداً وقذرة وبعضها مناف لآداب المجالسة وتجعل مجالسك يتقزز منك وهي على العموم مضرة بالصحة وقد تكون واسطة لنقل امراض قد يكون بها القضاء على الحياة اذ لا يخفى ان الامراض تنتقل بسهولة عن طريق الفم كالسل والحمى التيفوئيد والهواء الاصفر وسائر الامراض البسيطة والوبيلة

ولا يخفى ان اليد اقذر عضو في الانسان فهي التي يصافح بها عند التسليم ويتعرف بها كل ما يقع تحت نظره من الملموسات ويقبض بهـا كل انواع العملة . والعملة اقذر ما يتعامل به البشر لانتقالها في الايدي الكثيرة ومن فم الى فم كما يفعل اكثر السوقة من الناس وكما يفعل الاطفال انفسهم كلما وقع اليهم شيء منها . واذا تحرينا جيداً نجد ان العدوى بالامراض عن سبيل اليد هي على نسبة اعظم جداً منها بواسطة الطعام والشراب في الذين لا ينتبهون الى هذه الصلة بين اليد والفم

ولعل هذه الاشارة الوجيزة تكفي لحمل الذين يصل اليهم علم ذلك على الاقلاع عن هـذه العادة المزدوجة القبح بقذارتها وضررها بالصحة ولعلها تكفي ايضاً لتربية الانسان نفسه على الحذر من يديه واعتبارهما من حين ما يخرج من بيته الى ان يعود اليهِ عدوتين له لا يأمن على نفسه منهما فلا يقربهما من فمهِ حتى يغسلهما جيداً بالماء والصابون ويكثر من الغسل كلما تيسر له ذلك

ويا ليت الناس يقلعون عن المصافحة باليد التي هي من شر العادات ويستغنون عنها اما برفع اليد الى الرأس او برفع العمارة عنهُ اذا كانت قبعة يسهل رفعها

واليد اذا لم يتق الانسان شرها هي اعظم جان عليـهِ فهي التي تجره الى مواقف

الردى في المحاكم والامراض ولذلك اذا وجب على الانسان ان يحذر لسانه مرة وجب عليهِ ان يحذر « يده » الف مرة

المقالة الثامنة والثلاثون

ضحايا الجهل [1]

أو

« الانسانية المظلومة »

لو تجرد الانسان مما غرس فيهِ من بواعث التفريق بعلة الاديان لما اتى منكراً بحق اخيهِ الانسان

على ان الاديان تنهى عن المنكر وهي كسائر الشرائع التي يقصد منها اصلاح العمران تعلم العطف على الانسان

ولكن الاديان كسائر مخترعات البشر تحول من النفع العام حتى تصير وسائل للمكسب في ايدي اولئك الذين اتخذوها تجارة لجذب الدنيا ولو بالقضاء على الانسان

رؤساء الاديان من كل دين وملة علموا الناس حتى اليوم غير ما تأمرهم بهِ الاديان وكم قاموا يبيعون دينهم بدانق وفرطوا بمال الايتام وكم خدموا بهِ اغراض عتاة حكامهم ليقتسموا معهم الدنيا ولو داسوا الدين بالاقدام

قامت النصرانيــة في العصور الوسطى بفظائع تقشعر لها الابدان حاشا للانجيل ان يكون الآمر بها وما قام بها الأ اولئك الذين هزأوا بالدين ليسحقوا بهِ الانسان بالاتفاق مع الحكام الظلام

ولو كانت النصرانية تأمر بهذه الفظائع لما رأيناها في الممالك التي ارتقت بالعلم شديدة العطف على الانسان . الا التي لا يزال الجهل مخيماً فيها والتي لا يزال اليهود يذبحون فيها

(١) نشرت في الاخبار سنة ١٩٠٩

على مذبح الجهل ذبح الاغنام مما يجعل الذنب كل الذنب على اولئك الرؤساء الطغام

الاسلام دين اجتماعي ينهى عن كل شر لا يقاتل الا الذين يقاتلونه ولا يعتدي على الانسان ويأمر بالذود عن المستأمنين الآمنين في ظله وحاشا ان تأمر بغير ذلك شريعة القرآن . فالقرآن بريء من الفظائع التي ارتكبت وترتكب كل يوم بعلة الدين في مملكة بني عثمان

فيا مقلنسي الجهل ومعممي الضلال اين رأيتم في اديانكم ما يسمح لكم ان تزرعوا في رؤوس اتباعكم الجاهلين التفريق بين الناس الى حد التباغض والتقاتل حتى قامت اليوم قيامتهم يقتلون بعضهم تقتيلاً في الوطن الواحد يعتدون على الآمنين لخلاف لا علاقة له بالدين

لو قامت الانسانية في كل الدنيا ونسرت لهم رؤساء الاديان الذين هم وحدهم المسؤولون عن كل الفظائع التي ارتكبت ولا تزال ترتكب باسم الدين نسرة نسرة لما وفت حق الانتقام منهم لما جنوه حتى اليوم على الانسان

عفوكم ايها الانبياء الكرام على قول ويا ايها الرجال العظام على قول آخرين مما جناه باسمكم على الانسانية هؤلاء الجهلة الطغام الذين قلتم فيهم ان لهم عينين ولكنهم لا يبصرون واذنين ولكنهم لا يسمعون صم بكم عمي فهم لا يرجعون

المقالة التاسعة والثلاثون

﴿ الامم والحروب [1] ﴾

الارض واسعة جداً وحتى الآن لم يملأها الانسان فهذه قارة افريقيا على سعتها تعد اقل القارات سكاناً واضعفها فيهم نسبة ومجاهلها الواسعة غنية جداً ولكنها لا تزال على الفطرة بكراً حتى اليوم لم تطأها رجل فاتح ولم تبقر بطنها يد عامل فخيرها محفوظ في

(١) نشرت في البصير سنة ١٩٠٨ وكانت غيوم السياسة الاوروباوية متلبدة بسبب المطامع في البلقان بعد اعلان الدستور العثماني مما كان ينذر بالحرب الا ان الكاتب كان يعتقد غير ذلك

تربتها لا محراث يشقها وكنوزها مدفونة في جوفها لا معول ينبشها

وهـذه بلاد روسيا على ضخامة ملكها وكثرة شعبها لا تزال متسعة جداً للانسان وصحراء سبيريا لا تزال موطناً للدببـة تسرح فيها وتمرح ومنفى لمساكين الاشقياء وللاحرار الذين عبثت بهم ايدي الظلام فقطعوهم عن جسم الانسانية ليهنأ لهم العيش ورموهم هناك في جب العزلة يلبسون المسوح من جلود الدببـة ويقتاتون بيابس العشب وصديد القديد و يعاملون ولا معاملة الانسان للحيوان بل اشد من معاملة الحيوان لعدوه الحيوان الى ان تموت نفوسهم او يقضى عليهم جوعاً و برداً وعرياً بعد آلام في النفوس هي اشد من عذاب الاجسام

وهذه بلاد الصين فمع انها تعتبر منملة البشر فمساحتها فوق ما تضم من الناس بكثير

وهذه بلاد الهند فخراجها لا تزل ملجأ وحوش الغاب واوديتهـا مواطن الافاعي ومستنقعاتها موارد الحتوف

وهذه قارة اميريكا وحكومتها ارقى الحكومات وشعبها ارقى الشعوب فاتحة ابوابها لكل عامل نافع تجود عليه بالارض ليعمل فيها و يزيد في عمرانها

وهذه المملكة العثمانية تستطيع ان تأوي فيها فوق ما فيها من السكان اضعافاً مضاعفة

وهذه اوروبا المتمدنة اليوم المتضايقـة اكثر من سواها لم تبلغ الدرجة القصوى من العمارية

فانت ترى ان الارض لا تزال واسعة جداً على الانسان رغماً عن تشاؤم المتشائمين واحصاء الاحصائيين تقوم بأوده مهما زاد في عـدده الى ان يتاح له ركوب متن الهواء لافتتاح السماء والمهاجرة الى الاجرام والسفر اليها بمراكب الحقيقة بعد مطايا الاحلام

فالتنازع بين الانسان ليس سببهُ المدافعة عن القوت والحروب ليس الدافع اليهـا الخوف من الجوع . وانما هي المطامع تحمل الانسان على قتل الانسان والمطامع هي جوع النفوس وهو أشد هولاً من جوع الاجسام

ألا ترى ان الانسان كما جاء في اساطير الاولين وفي كتب الدين ما صار اثنين حتى قام قايين على هابيل وقتله لانه ظن ان الله فضله عليه اذ خصه بالضرع وهو لم يخصه الا

بالزرع والتفضيل مشكوك فيه . لا غرو اذا بقي الانسان حتى اليوم اعرق في المطامع واميل الى الشر لانه بحكم الرواية من نسل قايين اللعين

وهي حكمة عرفها السلف عن طبيعة الانسان في حب التنازع لانه ابن هذا التنازع في ناموس الوجود فعبر عن هذه الحقيقة الصادعة بذاك المجاز الرائع

واعمال الانسان في جاهليتهِ الاولى لم تخرج عن ذلك فلم يكن الواحد يهب من رقاده حتى يعلو ظهر جواده متأبطاً شره للنهب والسلب والتمثيل بعدوٍ له لم يره قبل طعنه بسنان رمحه او ضربهِ بحد سيفهِ ولا يزال يرود في طلب غنيمته بين الطعن والمضارب ولا يرجع الى الخيام الا تحت جنح الظلام ولا يهنأ له عيش حتى ينام على اثم . حتى صار ارتكاب مثل هذا الوزر عنوان الفخر الذي لا يعلو عليهِ فخر فدبج الاصمعي قصة عنترة عبس العرب ونظم هوميروس ملاحم اخيل اليونان هذا يفتخر بانهُ جندل اعداءه حتى تركهم كما في قوله

وقرا الطير والكلاب القيولا

وذاك بوصفه ابدع حقيقة في ايراده عدوه اشنع مورد حيث يقول :

تحوم عليـهِ عقبان المنايا وتحجل حوله غربان بين

فوصفها كما رآها في حقيقة حالها تأكل منهُ حتى تشبع وتحجل حوله حتى تجوع ونهمها لا يدعها تفارقهُ . ولم يزل هذا شأن الانسان حتى في انضمامه اسراً وقبائل وامماً تربطهُ بعضهُ ببعض صلة الرحم فالمنبت فالمصلحة

وما انقضاض الاسكندر المكدوني بجحافله على الشرق ونابليون على الغرب وانيبال في اقتحامهِ الاهوال وقطعهِ الجبال وما نهم كسرى في مجده وتعسف نيرون في ظلمهِ عن ضيق في الارض او شظف في العيش وانما هي مطامع افراد ضاق بنفوسهم فسيح الغبراء حتى لو افتتحوها لوقفوا يفكرون في كيف انهم يفتتحون السماء

ملوك سودتهم نفوسهم وهوَّنت عليهم ركوب الاهوال واقتحام المخاطر فاندفعوا ورؤوسهم على اكفهم مقامرين غير هيابين وساعدهم جهل الجماهير فسادوا عليهم ورموا بهم من كل حالق فاندفعوا يدفعون بارواحهم ثمن مجـد سواهم . يحصدهم الموت بمنجله وملوكهم يتمتعون بثمـار فوزهم ويرفعون على جثثهم قباب مجدهم . هكذا كان شأن الملوك

في كل العصور من كل عصامي جبار الى كل عظامي بليد يوم كان الملوك كل شيء وكانت الامم لا شيء. لا غرو اذا كانوا كل حين في مطمع وكل يوم في حرب . وكم اثاروا حروباً هدرت بها دماء الرجال ورملت النساء ويتمت الاطفال لقضاء شهوة بهيمية وحمر الناس يظنون انهم يقضون واجباً عليهم . ما ارفع الانسان اذا عزّ وما ادناه اذا ذل . ذاك يناصب آلهةُ العدوان وهذا ينحط الى ان يحاكي الحيوان . وما زال ذلك الى ان انقضى زمن الخاصة او تداعى وقامت سيادة العامة او كادت فتنبهت في الامم عاطفة المصلحة تجمعهم فيها تارة جامعة الاديان وطوراً جامعة الاوطان واثاروا لاجلهما حروباً تشيب لها الولدان وقد ضعفت تلك اليوم كثيراً في مجامع الامم الراقية ولكن جامعة الاوطان ما زالت عزيزة الجانب يتذرعون بها الى اثارة الفتن بين الامم وحملها على تقتيل بعضها بعضاً على انهُ كلما ارتقى الناس قلت الحروب وزاد الحذر منها بزيادة معداتها اذ ليس امنع للحرب من الاستعداد للحرب ولذلك قل الخوف من الحروب بين الامم المنيعة وكلما ارتقى الانسان ادرك ان التساهل والتسامح ادعى لمصلحة العمران وان الحياة اغلى ثمناً من ان تضحى على مذبح التوحش والجهل فان لم يكن هذا السبب الاخير هو الذي يصد الدول عن الاشتباك في حرب تراها تبرق لها وترعد اليوم فلا شك ان الذي يصرفها عنها خوفها مما لكل واحدة منها من الحول والطول فليس من امة من امم اوروبا الراقية اليوم ترضى بان تضرم فيما بينها حرباً ليست الحروب الماضية بالنسبة اليها الا كالالعاب النارية التي تطلق اليوم في الاعياد وكل هذا التهديد والوعيد ليس الا دعوة لاجتماع تتوازن فيهِ مصالح الجميع وسينتهي عما قليل كغيوم الصيف تحل بالندى (١)

(١) وبالواقع انتهت المشكلة المذكورة بعد ذلك ولم يجرد فيها حسام

المقالة الاربعون

« ا ب ت ث[١] »

نشر البصير في احد اعداده المتقدمة مقالة عنوانها ا ب ت ث فاعجبني العنوان وقت اطالعها وانا انتظر ان يكون موضوعها كما قام في ذهني الحث على تعلم القراءة البسيطة لعموم الاهالي خصوصاً بعد ما ظهر من الاحصاء الاخير ان البلاد في تأخر عظيم من هذا القبيل فان سكان القطر يبلغون زهاء عشرة ملايين وعدد الذين يقرأون لا يبلغ نصف مليون نصفهُ من الغرباء الذين اكثرهم يحسن القراءة . وهذا العدد قليل جداً ويضعف الامل بنهوض البلاد من خمولها في زمن قريب . واذا هي مقالة بليغة تبحث في اصل الحروف الهجائية تهم المتبحرين في علم اللغات بعيدة عما قام في ذهني عنها في اول الامر.

غير ان نفس العنوان افادني ان نبه افكاري الى هذا الموضوع المهم اعني وجوب نشر القراءة بين الاهالي قبل ان نعم بينهم تلك المباحث التي لا يفقهها الا العلماء الذين أوتوا من العلم شيئاً غير قليل لئلا نكون كالكاتبين على صفحات الماء او الخاطين في الصحراء

ولا يخفى ان العلم اليوم دخيل في الشرق اي انه لم ينتشر فيه على قواعد سنن النشوء والارتقاء فلم ينشأ في الامة عن ميل عام فيها اليهِ دفعها الى الترقي فيهِ شيئاً فشيئاً بل جاءها من خارج مفاجأة لاسباب طبيعية واجتماعية هي تقريب المسافات بين الممالك بالاختراعات العظيمة وسهولة اختلاط امم المغرب بامم المشرق بسبب ذلك فألفت من الاولين جمعيات لنشر العلم بين الآخرين ومقصدها من ذلك نشر لغاتها وترويج مصنوعاتها وبسط حماياتها . وبالطبع لم يتيسر لهذه الجمعيات ان توفد وفودها الى جميع الاماكن على حد سواء فحيثما تمكنت من هذا الامر انتشر العلم الى درجة تعادل انتشاره في اوروبا مع بقاء البلاد الثانية في ظلمات متلبدة من الجهل وهذا القول يصح خصوصاً على الممالك العثمانية فان وفود هذه الجمعيات تمكنت من بعض البلاد تمكناً عظيماً وبلغت

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨

في نشر العلم فيها اقصى مبلغهِ في اوروبا نفسها كما في بلاد سوريا وخصوصاً ولاية بيروت وجبل لبنان وقد استفاد من ذلك المسيحيون اكثر من سائر الطوائف فانك لا تكاد تجد اليوم مسيحياً هناك لا يقرأ مهما كان فقيراً للمناظرة الشديدة التي قامت في تلك الجهات بين المرسلين الاميركانيين والمرسلين اليسوعيين . ولكن اذا كان قسم من البلاد هناك استفاد كثيراً في ملة من مللهِ فجهات كثيرة من الممالك العثمانية لا يزال اهاليها على الفطرة لا يعرفون الالف من المأذنة ولا الياء من القصعة ومثل هذه الحال تجعل مركز الفريقين صعباً جداً ومركز الجامعة الوطنية من احرج المراكز . وحكومات البلاد لم توفق الى احسن من ذلك لانها قامت من الاهالي فلا يصح ان تكون في استعدادها اصلح منهم ولكن حب التظاهر الذي يكون في الضعيف ابلغ منهُ في القوي حملها على ان تجاري نظائرها من الحكومات الاخرى التي تعتقد فيها الارتقاء في الصورة فقط لا في الحقيقة وفي الظاهر لا في الباطن فاخذت عنها كل ما رأتهُ عندها على سبيل التقليد ووضعتهُ في صدر البيت للزينة والتباهي لا للفائدة والقوة فشادت في عاصمة بلادها معالم للعلم كالقبور المكلسة تخدع العين ظاهراً بحيث لو رآها الغريب الذي يكتفي بالظاهر ولم يسبر اعماق البلاد بالوقوف على سائر احوال الامة لحكم بان البلاد كسائر الممالك المتمدنة لا ينقصها شيء من معدات التعليم ولكنهُ لو طاف البلاد وزار القرى والدساكر وخبر احوال الاهالي لضحك من سخافة عقول الحكام على هذا الفخار الفارغ لعدم توفر المدارس البسيطة التي تعلم الناس ان يقرأوا ا ب ت ث

ولهذه الاسباب كانت احوال الاهالي في ممالك الشرق متباينة جداً غير متناسبة كارض مختلط غورها بنجدها فانك لتجد فيها العالم الكبير بجنب الرجل الذي لا يزال على الفطرة مما يجعل منظر البلاد مشوهاً كالوجه المشوه عينان جميلتان وانف كانف ابن حرب ومركزها الاجتماعي مضطرب جداً لعدم تقارب الجمهور في الافكار والاميال واذا امتنع التناسب من امة في القراءة والعلم خفت صوت الجرائد ولم يلتفت الى مطالبها لان الحكام كسائر البشر ربما ثقل عليهم الارشاد فضلاً عن انهم في مراكزهم التي نالوها ببذل النفس والنفيس احياناً لا يطلبون بعد تحقيق الامل الا الراحة من العمل ان لم يخشوا

عصا الامة وكيف تخشى عصا امة لا تقرأ ما يطلب لها ولا تعرف ما تحتاج اليهِ ولذلك كانت اصمخة آذان اكثر حكام المشرق مسدودة الا عما يخدش مسامعها الشريفة البالغة الغاية القصوى في الاحساس من هذا القبيل فقط

واذ قد بسطنا الكلام على الداء وجب علينا البحث في الدواء ولا يكفي ان تقول ان الدواء نشر التعليم فهذه الكلمة قد اكثرت الجرائد من ذكرها حتى ألفتها الاذان وصارت تمرّ على مسامع الخاص والعام من دون ادنى تأثير يحدث في العقل اقل تفكير واذا كررت السؤال وحددت الكلام بادهك اصحاب الشأن بين تقليب الشفاه وتقطيب الجباه بقولهم انا عارفون بما يطلب منا وقد عملنا كثيراً ونحن في غنى عن تطفل امثالك قالوا ذلك اذا تنازلوا لمقابلتك وسماع كلامك واذا قرأوه في جريدتك قالوه في وجه جريدتك آسفين انهم لا يستطيعون ان يقولوه في وجهك . وما يقول هذا القول الأ جاهل واجابته مخدوع بنفسه آمن سيطرة الرقيب والدليل على صحة ذلك انه لا يجسر ان يقول هذا القول بل ينقلب كلهُ اذاناً ناصتة في البلاد للجمهور فيها رأي يعتد بهِ تلك هي اخلاق البشر عموماً والشاذ لا يعتد بهِ . بل يلزمنا ان نبسط الكلام على اقرب الطرق التي تنيلنا ذلك

ولا ريب ان حكومة مصر من هذا القبيل اصلح نوعاً من اكثر حكومات المشرق قلنا اكثر حكومات المشرق لان اليابان اصلح منها . فقد عملت اشياء ولكن لا يزال ينقصها اشياء ربما كانت الاهم لانها الاساس . بنت للعلوم العالية معالم لا ينقصها شيء من المعدات اللازمة لاتقان العلوم والفنون ولكنها اهملت التعليم البسيط الى الغاية القصوى والانكليز مع اتيانهم للاصلاح في جميع الفروع الادارية لم يأتوا في امر التعليم اصلاحاً عظيماً كما ينطق بذلك احصاؤهم بعد خمس عشرة سنة من احتلالهم للبلاد والسبب هو ان الحكومة الانكليزية في فتوحاتها قلما تهتم بالتعليم ولا تجرد الحسام الا لتفتح طريقاً لنشر ثوب الخام توسيعاً لنطاق تجارتها لتحويل ثروة الامم الى خزائنها . وان من يقابل بين آثار احتلالها لمصر العلمية كل هذه المدة مع توفر اسباب السلم وآثار الاحتلال الفرنسوي على عهد بونابرت مدة سنتين فقط مع كثرة الحروب الداخلية والخارجية .

يتعجب من اعمال اولئك الرجال كأنهم كانوا من نسل انقرض اليوم حتى من نفس الذين هو منهم يسمى نسل الجبابرة فان اعمال الحملة الفرنسوية العلمية لا تزال حتى اليوم موضوع اعجاب اصحاب الافكار في كل الاقطار

على ان نشر معرفة القراءة في مصر غير صعب وممكن بسرعة ايضاً اذا ارادت الحكومة ذلك يمكن فيها رفع عدد الذين يقرأون الى ٦٠ و٧٠ في المائة في زمن اقصر جداً مما يظن وذلك بجعل العلم اجبارياً كما ان التطعيم للجدري اجباري ايضاً واقامة المدارس البسيطة في كل المدن والقرى على نسبة عدد الاهالي . مدارس يعلم فيها ا ب ت ث وشيء اكثر من « بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين » يعلّم فيها المعلمون غير الجلبة والصياح وهز الرؤوس والظهور في اماكن ينفذها الهواء انظف من مذاود البقر يعلمون فيها ان مصر قطعة من افريقيا وان الصحة تتوقف على النظافة والنظافة تقوم بغسل الوجوه واليدين والرجلين وبتغيير الملابس وغسلها بالماء والصابون قبل ان تبلى على الاجسام وان النظافة لا تتوقف على الغنى فان فلاح جبل لبنان افقر من فلاح مصر وهو مع ذلك في بعض الجهات انظف منهُ بكثير يلبس الثوب المرقع ولكنهُ يلبسهُ نظيفاً وان البشر كلهم خلقة الله ليس بينهم كافر او مؤمن ولا طاهر او نجس الا الذي روائحهُ يكاد يغمى عليك منها وان العبادات لا دخل لها في المعاملات « لكم دينكم ولي ديني »

وانا اسمع من هنا معترضاً يقول ومن اين ننفق المال على مثل هذه الاعمال والجواب ان الحكومة لو اهتمت لما وجدت الامر ممتنعاً على انه توجد طريقة والغاية تبرّر الواسطة سهلة جداً وهي ان تتكفل كل بلاد وكل قرية وكل دسكرة بنفقة مدارسها تؤخذ من مواردها المختلفة وما نفقتها بالشيء الكثير اذا توزعت على هذا الوجه وكنت اود ان ارى حكومة الانكليز التي بيدها قياد البلاد تتصرف فيها كما تريد لما تريد تغفل امر التعليم في بلادها مثلما هي متغافلة عنهُ في مصر كيف كانت تقوم قيامة الشعب والجرائد عليها وانما هناك يوجد شعب يقوم وجرائد يخشى بأسها وهنا لا يوجد الا حكومة ان اصابت مرة فقد تخطيء عشرين اذ لا رقيب عليها تحسب له حساباً لا من الشعب ولا من

الجرائد فلا همَّ لها الاَّ ان تأمن شر المعاهـدات لقضاء اللبانات فاذا امنت ذلك نامت على اذنيها كما يقول المثل الفرنساوي ولا افهم كيف ينام الانسان على اذنيهِ . والمراد انها نامت مطمئنة البال من كل بلبال

على ان اللوم كله ليس على الحكومة وحـدها فاعيان البلاد واصحاب الثروة منهم خصوصاً الجالسون في صدر القوم لا يسلمون من الملام لتقاعدهم عن كل الاعمال العمومية التي ينفعون بهـا ابناء وطنهم وتكسبهم الذكر الحسن فانا لم نسمع بمشروع نافع مدوا اليه يد المساعدة غير بناء زاوية في مسجد واقامة وليمة لامير واحسان الى فقير والله غني عنهم والامير كذلك والفقير واحد الفقراء فاين المستشفيات التي تداوى بهـا الاسقام وتخفف فيها مصائب العباد التي جلبوها واي امير من امراء مصر واي وزير من وزراءها ممن ينفقون عن سعة وما ينفقون الا مما جمعوا من عرق الاهالي وقف شيئاً من ماله لاقامة مستشفى وبناء مدرسة تحدياً بالافرنج الذين يحبون تقليدهم في كل شيء وفيهم من جمع الملايين ولا نعرف له اثراً ينفع الجمهور ينفق عليه من فضل ما جمع . فاذا كان هؤلاء الكبار الذين « يفهمون الصورة ايه » كما يقال في اللغة الدارجة لم يقدموا على هذه الاعمال فهل ننتظر ذلك من فلان الشيخ وفلان العمـدة من اصحاب الثروة الطائلة الذي اذا افتخر فانما يفتخر كما افتخر ذلك المتصدي للولاية بان جـده اكل حمل حمار من الخيار يتباهى الواحد منهم بانهُ يأكل خروفاً على « وقعتهِ » ويجرع قربة ماء في « شربتهِ » فهل من رجل خطير ينهض في مقدمة القوم والاهالي ينقادون لكبارهم يسعى في جمع شيء من المال للشروع في هذه الاعمال ويكون عوناً للحكومة فينال خالص الشكر ويترك من بعـده جميل الذكر ليشكرهم المرضى بافئدة عظَّم الجميل عندها عظيم ما قاستهُ من الادواء ويشكرهم الاطفال بالسنة تعلمت ان تقرأ الف باء تاء ثاء [1]

(١) قد تغير الحال جداً في مصر من ذلك العهد الى اليوم سواء كان في انتشار التعليم او في التعاضد في مسائل كثيرة اجتماعية من نفس الامة

المقالة الحادية والاربعون

﴿ التعليم العملي [1] ﴾

نحن قد تسرعنا بطلبنا قلب نظام التعليم — لا من نظريّ بحت الى عملي بحت فان ذلك قد يعدُّه بعضهم بدعةً في الشرق وفي الغرب ايضاً — بل من نظري غالب الى عملي اغلب . ولكن الذي نسطره بملء الاسف بعد سبع وعشرين سنة من الاحتلال البريطاني وبعد اكثر من مائة سنة من محمد علي الكبير هو ان المدارس الاميرية المصرية عوضاً عن ان ترتقي من هذه الجهة في هذا الزمان الطويل تقهقرت جداً عما كانت عليهِ يوم اسسها ذلك الرجل الفطري العظيم فقد كان التعليم العملي فيها — وكل شيء نسبي — أوسع جداً منهُ اليوم . كان نظامها على عهد مؤسسها يقصد منهُ تخريج رجال عمليين يكفون البلاد حاجتها ويشيدون استقلالها على اساس مكين . وما مات حتى اخذ ذلك النظام يتفكك والغاية الحقيقية المقصودة منهُ تحول الى ان اوشكت العلوم العملية ان تموت وحتى بلغت العلوم النظرية اوج زهوتها اليوم . والمصري بحكم الفطرة غير محتاج الى تقوية ملكة العلوم الجدلية فان قوة النطق فيهِ مستوفية النمو في كل مراكزها وانما هو محتاج ككل شرقي الى تقوية مراكز قوى العمل ولم تكتف الحكومة المصرية بذلك بل ادخلت في مدارسها نظاماً هو في شرع كل منصف بدعة فقد قررت تعليم العلوم الدينية فيها وقدطرب لهذا القرار جمهور الامة واعضاء الجمعية العمومية وسيصفق له البرلمان البريطاني بكلتا راحتيهِ واقامت مسجداً فيها للمسلم والعدل يقضي بان تبني كنيسة للمسيحي وكنيساً لليهودي وهيكلاً للبوذي ومذبحاً للمجوسي فما من احد من هؤلاء الاَّ وله في ذلك حق والحكومة ممثلة الجميع وتتقاضى مالها من الجميع اللهمَّ الا ان يكون معطلاً او لا يملك فيها شروى نقير فهذا يسقط حقهُ في الاعتراض ويحق له اذا كان يملك قيد شبر يدفع عليهِ الشيء النزر . وحينئذ لا يبقى لزوم لتلك الجامعة الدينية الكبرى الا وهي

(١) نشرت في المقطم سنة ١٩٠٩

مدرسة الازهر اذ تصير مدارس الحكومة معاهد دينية بحتة . ولعل قلة اهتمام الحكومة اليوم بذلك المعهد الديني الكبير توطئة لهذا التحويل

على ان الحكومة لا تعدم نصيراً من متخرجي مدارسها اذا استمسكت بالتخصيص ولم تشأ التعميم ولا شيء اسهل عليها من استحصال فتوى من مدرسة اللاهوت الاجتماعي التي بجانبها تصدّرها « بما » و « لان » وتنتهي فيها « بحيث » وتكون اطول واعرض من فتاوي علماء الكلام في الاستحالة والوجود الواجب . تثبت هذا الحق وتدفع عنها هذا الاعتراض وتسفه رأي القائلين غير قولها وربما عدتهم من المصدعين

على ان الشعوب الضعيفة اول ما تفتح عينيها تحب ان تتشبه بالامم القوية وحكومتنا لا تأنف احياناً ان تنسخ نظاماتها عن نظامات اوربا ولو ان عليها مسحة من الف جيل . فاوربا نفسها شاعرة اليوم بهذا النقص في التعليم وهي وان لم تصرّح بطلب هذا القلب الكلي في نظامه محافظة على كنز موهوم وانقياداً لبقية باقية حتى في نظر الخاصة من اعتقاد العامة او خوفاً من تصعيب المطلب بتعميم الطلب الا انها تأتينا كل يوم بدليل على انها مسيرة في هذا السبيل الى غايتهِ الكلية بما تطلبهُ من التغيير في الفروع الجزئية

ومن احدث الانباء التي وردت الينا من هذا القبيل تقرير ضاف وضعهُ الدكتور رو صاحب اكتشاف مصل الدفتيريا لاصلاح التعليم في مدارس الطب تجد خلاصتهُ في الكلام الآتي قال

« ان التعليم في مدارسنا ليس كما ينبغي ان يكون فالاساتذة الذين يعلّمون والطلبة الذين يتعلمون متفقون على هذا القول وجميعهم يعترفون بان الدروس النظرية متسع المجال لها كثيراً في مواد تدرك فقط في قاعات التشريح وفي معامل الامتحان وعند سرير المريض . ولا ينكر ان كلام الاستاذ يحلو سماعهُ ولكنهُ مهما كان بليغاً لا يسعهُ ان يقوم مقام المشاهدة ولا مقام الاختبار . والاطباء الخارجون حديثاً من مدارسنا ناقصو الاستعداد سواء كان لاجراء البحث العلمي او لممارسة صناعة الطب نفسها واذا عرف العيب فلا شيء اسهل من تداركه وذلك بالاستعاضة عن الدروس الكلامية بدروس عملية في معاملنا ومستشفياتنا يتسع المجال فيها للعمل ويضيق فيها مجال النظر الا ما يلزم

من الكلام لشرحها وتفهمها » انتهى

وهو كلام حق لا اعتراض عليه ولكن رو ربي في مدرسة العمل بين انبيق الكيماوي ومشراط المشرّح وتخرَّج على ايدي اكبر عالم عملي واتى باعظم اكتشاف طبي علمي عملي معاً فلا غرو اذا رأى هذا الرأي الصائب ولكن هل يرى رأيهُ الذين تخرجوا في غير مثل هذا المكان . والغريب ان الحقيقة بسيطة ملموسة امامنا كل دقيقة ومع ذلك فنحن ندور حولها متلمسين ولا نريد ان نهتدي اليها ولو وضعوها تحت انوفنا

المقالة الثانية والاربعون

﴿ ماذا اكتب [1] ﴾

بينا انا افكر في ماذا اكتب بهِ اليك ايها البصير انجازاً لوعدي لك واقول مع الشاعر

انما المرء مثلما السيف يصدأ   عقله ساكناً بلا اعمالِ
يصدأ السيف بالجباء ولو كا   ن شديد الصقال حد النصال

واذا بكتابك ورد عليَّ يطالبني بالوعد ولكنهُ ورد عليَّ في ليلة ينطبق فيها على قولي

كم تبيت الدجى وطرفي ساهٍ   يرقب النجم في الليالي الطوالِ
انت خالٍ وملوء جفنك نوم   وانا ملوءه جبوب رمالِ

ولكن شتان بين السهدين فسهد الشاعر عن كلف بالحبيب يعلله الامل بالوصال فهو عذاب في انتظار لذة وأما انا فعن ألم مبرح احرمني الرقاد وتركني ليلي كلهُ اتقلب على سريري كمن يتقلب على شوك القتاد ليل خلت انه ليس له آخر كل دقيقة منـــهُ كأنها شهر وكل ساعة كأنها دهر

عذاب الفتى في يومه مثل عامهِ   ولذته في العام يوم وينقضي

ألمٌ يسميهِ الاطباء داء المفاصل ويذهبون فيهِ مذاهب والاطبـاء كالشعراء يتبعهم

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٧

« المغرورون » وهم في كل واد يهيمون وأما انا فاقول مع الشاعر العربي

وجع المفاصل وهو ايسر   ما لقيت من الاذى
جعل الذي استحسنتهُ   والناس من حظي كذا
والعمر مثل الكأس يرسب في اواخره القذى

ألمٌ انقضَّ على كتفي اليمنى كأنهُ وخز النصال واثقلها كأني كلفت بها حمل الجبال وعطل حركات اليد كلها فكأنني اصبحت اشل اليدين لان اليد اليسرى بالتربية على قول البعض ومن اصل الفطرة على قول البعض الآخر عاجزة عن القيام بوظيفة اليمنى ومهما يكن من هذا القول فاني في مثل هذا المقام حسدت العسر اي الذين يستعملون يسراهم كما يستعمل سائر الناس يمناهم ولو كان في ذلك شيء من الانحطاط كما يذهب اليهِ « دلوني » ومن نحا نحوه من العلماء الذين يزعمون ان المياسرة اي استعمال اليد اليسرى دليل على الانحطاط والميامنة اي استعمال اليد اليمنى دليل على الارتقاء واستدل من ذلك على ان المرأة احط من الرجل لان المرأة تياسر اي تذهب في حركاتها ذات اليسار والرجل يامن اي يذهب ذات اليمين وهذا ظاهر حتى في عرى ثيابهما وازرارها فان حركة التزرير في المرأة يسارية وفي الرجل يمينية واما انا فاخالف دلوني في ذلك واعتبر ان المرأة من هذا القبيل ارقى من الرجل لانها اقدر منهُ على استعمال الحركتين

ولا اعتبر هذا الفرق من اصل الفطرة بل اكثره من نتيجة التربية فلو ربي الانسان منذ الصغر على استعمال الحركتين على السواء لاستطاع ذلك ولعل الاباء والامهات في البيوت والمعلمين والمعلمات في المدارس ينتبهون الى هذه المسألة المهمة جداً في امر المعايش فيربون الاطفال على استعمال اليدين على حد سوى لا على استعمال اليد اليمنى وحدها زاجرين الطفل كلما عمل عملاً باليسرى حتى يرسخ في اعتقاد هذا الطفل المسكين ان استعمال اليد اليسرى ذنب لا يغتفر

ولا ريب ان اشد مصائب الانسان الامراض فالمريض ولو كان ذا ثروة يسكن القصور ويتوسد الحرير مسكين تجوز عليهِ الشفقة فكيف به اذا كان معدماً لا يجد مأوى يأوي اليهِ ولا فراشاً يستلقي عليهِ ولا ممرضين يمرضونه ولا اطباء يعودونه . واذا نظرنا

الى كثرة عدد هؤلاء المساكين في كل مكان وقلة ما اتخذته الهيئة الاجتماعية من الاحتياطات لتخفيف مصائبهم فلا نستغرب اذا رأينا الانسان ينقلب على الهيئة الاجتماعية باللوم والتعنيف وهو سبب من الاسباب الكثيرة التي تحمل الانسان على الخروج الى الفوضى ومحاولة دفع الشر بالشر واللوم في ذلك ليس على هؤلاء المساكين الذين احرجتهم مراكزهم فاخرجتهم الى اليأس بل على الهيئة الحاكمة وعلى رجال الثروة من كل امة الذين في مقدرتهم مداواة هذه الادواء وهم لا يفعلون فيحملون الحانقين على الهيئة الاجتماعية على الايقاع بهم وهم يقولون

اذا لم يكن غير الاسنة مركبًا فلا يسع المضطر الا ركوبها

وافضل الوسائل لتخفيف ويلات المرضى خصوصاً الفقراء منهم اقامة المستشفيات الكثيرة في كل مدينة وهذه المسألة اذا نظرنا اليها في بلاد مصر خصوصاً وجدنا الحكومة والهيئة الاجتماعية مقصرتين فيها كثيراً فان المستشفيات الموجودة صورة لا معنى هي دون ما تدعو اليهِ الحاجة بكثير فان عدد الاطفال حتى لا نتكلم الا عن قسم من اقسام الهيئة الاجتماعية الذين يموتون والذين تصيبهم العاهات بسبب الامراض الكثيرة وقلة الاعتناء لا نبالغ اذا قلنا انه يتجاوز الثمانين في المائة فلو وجدت مستشفيات للاطفال مثلاً كافية وافية لهبط هذا العدد كثيراً وهبوطه ربح للحكومة والهيئة الاجتماعية فالخطأ في هذه المسألة من وجهين خطأ من جهة الاقتصاد السياسي وخطأ من جهة الانسانية لانه على صحة هؤلاء الاطفال وكثرة عددهم تتوقف ثروة كل امة وقوة كل مملكة

وانا لنعجب كيف ان شريعة البوذيين تناهت في هذا الامر حتى اقامت مستشفيات للحيوانات وشرائع الامم المتمدنة لا تزال مقصرة بهِ حتى في حق ابناء جنسهم فقل للذي يتباهى ببناء حائط في كنيسة او زاوية في مسجد او باقامة وليمة لامير — والله غني عنهُ والامير كذلك — ان كان يقصد بعمله هذا فخراً فبناء المستشفيات فيهِ فخر عظيم وان كان يقصد بهِ اجراً فاجره من ذلك اعظم فقد اتفقت الشرائع المنزلة على ان علم الابدان مقدم على علم الاديان فذكّر علها تنفع الذكرى

المقالة الثالثة والاربعون

﴿ كُتَّابُنَا [1] ﴾

يستغرب الباحث في طبائع العمران ما وصل اليهِ اهل المشرق عموماً والذين تجمعنا بهم جامعة الوطن والسياسة خصوصاً من الخمول حتى اصبحوا على عاتق الاجماع وقراً لو اطلقت عليهم شريعة النحل لقُضي عليهم بالهلاك قتلاً لان النحل الجاني يقتل كل سنة النحل الذي لا يعود له نفع ويعيش على جنى غيره . أتغيرت سنن الطبيعة وضلّ العلم في تقريره سنن الوراثة ام لسنا نحن نسل اولئك الذين بلغوا في معالم الحضارة القدح المعلّى فنبغ الفينيقيون حتى قبضوا بايديهم على تجارة العالم والمصريون حتى صاروا نبراس الامم يقصدهم الناس من الاقطار الشاسعة لاخذ العلم والفلسفة عنهم واستنارت افكار الفلسطينيين وسكان بادية العرب حتى قام منهم هداة الافكار وسنوا الشرائع التي يخضع لها اكثر سكان المعمورة اليوم في معاملاتهم وعباداتهم او ما هو السبب

حتى انقضت تلك السنون واهلها فكأنها وكأنهم احلامُ

ولا نقلق راحة سكان القبور بالبحث عن اسباب ذلك في ما تقدم من العصور بل نكتفي بالقاء نظرنا الى ما حولنا وقصره على جزء منا فان في ذلك تبصرةً لقوم يعقلون ونسأل انفسنا لماذا لا ينبغ منا كتّاب شهيرون كما ينبغ في كل امــة لاننا مع احترامنا للنزر اليسير من اصحاب الاستعداد الفطري الذين لو ساعدتهم ظروف الزمان والمكان لربما كانوا تمكنوا من اظهار مواهبهم الى درجة يتحدث بهــا الخاص والعام وتعيد لهم في عيون الغرباء ما كان لابائهم من الشأن لا يسعنا الا الاقرار بان لا كتاب عندنا اذا ذكر كتّاب المغرب ذكروا معهم كأنداد ينيرون الافكار ويستنزلون درر المعاني من سماء العقول حتى يُلتقطَنَ باليد ويسيرون شوطاً بعيداً من دون ان تخور منهم القوى. والسبب بسيط اذا علمنا ان الانسان ابن الضرورة وصنيعة الحاجة . فالحاطب انمــا يجمع الحطب

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨

لقوم يصطلون والكاتب انما يكتب لقوم يقرأون الاول لا يستطيع ان ينتقل من حاطب فقير يحمل الحطب على ظهره الى تاجر تعظم ثروته وتتسع تجارته ان لم يجد من يشتري حطبهُ والثاني لا يستطيع ان يصير كاتباً مجيداً ان لم يجد من يقرأ كتبه فالشرق في تأخر عظيم من حيث انتشار العلم وعدد الذين يقرأون فيه القراءة البسيطة فقط شيء لا يذكر فلمن يكتب هؤلاء الكتاب وكيف تحسن حالهم لتجيد قرائحهم ويتفرغون للاستفادة والافادة وهم لو تفرغوا لذلك لطواهم الفقر قبل ان يطويهم القبر وهذا ما حملنا على التنبيه في مقالتنا ا ب ت ث الى وجوب نشر التعليم وشددنا فيها النكير على الحكومة واعيان الامة بكلام اقرب الى التقريع بعيد عن الالتماس لاعتقادنا انفي ما ننبه اليهِ قوة لا ينالونها بدونه وفخراً تتباهى سائر الامم بمديد السبق اليهِ أليس ما تراه من افتخار كل امة بكتابها واقامة التماثيل لهم بعد موتهم بمئات السنين من الدليل المقنع على ما لهم من اليد في تشييد معالم فخرها واحياء ذكرها . ولا يثنينا عن ملامنا اعذار يلتمسها بعضهم للحكومة تخفف من مسئوليتها كعدم وفاء عدد المعلمين اللازمين لنشر التعليم بالسرعة التي طلبناها وما اخاله يراها متفانية متهالكة في سبيل هذه الدعوة

ومن الاسباب القاضية على نبوغ الكتاب في المشرق سلوك حكومتهم معهم فقد تعودت الحكومة ان تنظر الى هذه الطائفة كأنها من الآفات التي ينبغي مقاومتها اكثر من تنشيطها لا تميز غثها من سمينها ولعل السبب عدم مقدرة كثيرين من الحكام على معرفة ما لها من الاهمية وما لكبارها من النفع في رفع شأن الامة وما مثل اكثرهم الا مثل ذلك الوزير الذي طلب اليهِ ان ينشط بعض المشروعات العلمية فاجاب ان مشروعك ان كان منهُ فائدة فهو ينجح من نفسه وعذره واضح اذ لا يعرف قدر الشيء الا ذووه . فمهما اجاد الكتاب في حكومة هذا شأنها ومهما اظهروا من الاستعداد لان يكونوا من النوابغ فلا يصادفون الا اعراضاً منها يحملهم على احد امور ثلاثة اما كسر القلم واما تحديده ضدها واما اذلاله لها الاول يختاره اكابرهم والاخير يعمد اليهِ ضعافهم حتى يحط مقام الكتابة بهم وابلغ من ذلك في الاساءة تخريب ذمم الكتاب ومشتراهم بالمال لا مشترى قلمهم ومواهبهم لنفع الامة بل مشتراهم ليكتبوا غير ما يفكرون او يصمتوا عما يعتقدون والنتيجة

من ذلك في كلا الامرين قتل الافكار وافساد الاخلاق وموت الكتاب الذين يفتخر بهم وما وجدت الحكومات لمثل هذا . نعم ان غرض الحكومات من ذلك انما هو كف الاقلام عن توجيه المطاعن ضدّها ولو علمت ان هذا السبيل انما هو السبيل الوحيد الذي يفتح الباب واسعاً لهذه المطاعن لانه اذا « مات منهم طاعن قام طاعن » لعدلت عنهُ الى السبيل القويم الذي يكسب البلاد اصلاحاً والحكومة اعتباراً وهو تنشيط الكتاب الذين يدل استعدادهم على نزاهتهم وسمو مداركهم والاصغاء اليهم حتى يقتدي بهم سواهم ممن يجد ان الاقتداء بهم ابلغ لنيل المجد والمنفعة لا افسادهم لإفساد غيرهم بهم فلو سلكت الحكومة هذا المسلك لقلّ الطاعنون عليها طعناً يقصد منهُ التهويل اكثر من الاصلاح بسبب سياستها التي ليس فيها شيء من الحكمة ولنبغ الكتّاب المشاهير الذين يرفعون شأن الامة ويشيدون فخارها فالفخر في احياء هذه المواهب لا باطفاء نورها وهم يحسبون انهم يتقون نارها

المقالة الرابعة والاربعون

﴿ أمّ الجرائد[1] ﴾

المشهور ان الجرائد من مخترعات اهل اوربا وان اول جريدة مطبوعة ظهرت في مدينة البندقية (فينيسيا) في القرن السادس عشر للميلاد . والذي علم لنا اليوم ان هذه الدعوى باطلة فالصحافة ليست من منشئات اهل اوربا فقد عرفها اهل آسيا قبلهم بزمان طويل كما عرفوا اميركا قبل خريستوف كولمبوس والطباعة قبل غوتنبرغ وكما عرفوا البارود والبوصلة التي عليها المعوَّل في فن سلك البحار وكما عرفوا كذلك صناعة الخزف ونسج الاقمشة البديعة التي لا يجاريهم فيها مجار حتى اليوم . والبلاد التي سبقت اوربا الى كل ذلك هي مملكة الصين اوسع ممالك الدنيا ارضاً واكثرها سكاناً

(١) نشرت في البصير سنة ١٩٠٩

فمن ضمن الجرائد المعمرة التي تقرأ حتى اليوم في مملكة ابن السماء كما يسمون مملكة امبراطور الصين يوجد في مدينة بكين (ومعناها عاصمة الشمال) جريدة يومية تدعى « كين بان » ومعناها المجموعة السنوية ظهر اول عدد منها منذ الف ومائة سنة وجريدة أخرى شهرية تدعى « تسين راو » ومعناها المجلة ظهر اول عدد منها منذ اربعة عشر عشر قرناً والحروف التي استخدمها الصينيون لطبع هاتين الجريدتين من الخشب

« فتسين راو » ابتدأت شهرية اي تصدر مرة في كل شهر وبقيت كذلك حتى اليوم واما « كين بان » فابتدأت شهرية كسالفتها ثم وسعت مواضيعها ولم تقتصر على ما يهم الخاصة بل تقربت من العامة فاكثرت نسخها وانقلبت يومية منذ سنة ١٨٣٠ للميلاد ثم زاد انتشارها كثيراً فاخذت تصدر ثلاث مرات في اليوم وسبقت اميريكا واوربا في استعمال الورق الملون للدلالة على طبعاتها المختلفة فطبعة الصباح لون ورقها اصفر وطبعة الظهر ابيض وطبعة المساء رمادي

وفي اول نشأتها كانت مقتصرة على تقييد الحوادث السياسية المهمة من دون ان تبدي فيها رأياً وذكر جميع الاخبار ذات الشأن التي كانت تأتيها من كل جهات الصين وملحقاتها اليابانية والانامية والكورية نسبة الى بلاد انام وكوريا وهكذا كانت توقف قراءها على حوادث ايام السنة واصفة الاعياد والاحتفالات والجمعيات ولم تحرمهم كذلك من فكاهات القصص والحكايات الخرافية ولا من ترويض العقل بنشر الاشعار التي كان يوافيها بها مشاهير الشعراء

ثم صارت تبدي رأيها في الحوادث السياسية ولكن مع التزام جانب الاعتدال وتذكر كل ما يقال ويجري في المدينة كما تفعل اعظم جرائد باريز ولوندرة . ومما يستحق الذكر ان هاتين الجريدتين لم ينصب عليهما غضب الحكام بالتعطيل والالغاء ولا ثار عليهما الشعب بالمظاهرات العدوانية والسبب اعتدالهما في كلامهما واتفاقهما على مبادئ هي بين الصينيين واحدة لتمسك البلاد كلها بشريعتها كأنها فيها رجل واحد ولعدم وجود الاحزاب بسبب ذلك وربما كان هـذا هو السبب ايضاً في ان هذه البلاد التي هي بالحصر مهد الانسان ومنشأ العمران وام الجرائد التي هي من اقوى عوامل المدنية لم تتقدم منذ مئات

من السنين بل لبثت واقفة كالبلية رأسها في الولية حتى حركت عليها مطامع الدول الاوربية من عظيمة وصغيرة وغنية وفقيرة فاندفعت نحوها كل يطلب نصيبه انكلترا وروسيا والمانيا وفرنسا حتى ايطاليا هاجتها المطامع فكأنها اصبحت كما في قول الشاعر

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

ولعل نفس السبب الذي اوقعها في الخمول سيكون السبب ايضاً لوقايتها من الوقوع في حبائل الدول الاجنبية زماناً طويلاً فيتحول خمولها الى نهضة بمحاكة الدول الغربية لها واقتباسها عنها أسباب تمدنها فتهب حينئذٍ حزباً واحداً وقوماً واحداً من جنس واحد ولغة واحدة ودين واحد فترد عنها مطامع الاحتلال وتحفظ لنفسها الاستقلال ولذلك يرجح ان الدول الاوروبية تشتغل هذه المرة لمصلحة سواها ضد مصلحة نفسها خلافاً للمشهور حتى اليوم فالصين مستقبلها لها من قبل ومن بعد والآتي اضمن لها

المقالة الخامسة والاربعون

الجرائد في الشرق (1)

مركز الجرائد في الشرق صعب جداً لان الجرائد التي تنتشر انتشاراً يترتب عليه أثر لا بد لها من معدات كثيرة لا تتوفر لها الا اذا كان جمهور الذين يقرأون كثيراً . والشرق ولا يؤخذ علينا في تأخر عظيم من هذا القبيل لان عدد الذين يقرأون محدود لا يكفي للقيام بنفقات كل ما يكتب وينشر وربما كان هذا هو السبب الذي لاجله سيبقى الشرق محروماً زماناً طويلاً من الكتاب الاعلام والمؤلفين العظام

والجرائد أثرها اعظم جداً من أثر الكتب لانتشارها بين الجماهير اكثر منها وسلطانها على الافكار اعظم جداً مما يظنهُ الانسان لاول وهلة لاستمرارها والفعل الضعيف

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٧

اذا استمر يكون له اثر متجمع عظيم جداً ومن أمثال العامـة « الحبل على تمادي الايام يقطع خرزة البير »

فالجرائد قوة من القوات التي يعتدّ بها في الهيئة الاجتماعية بل هي القوة الاولى في المجتمع الانساني ولها المقام الاول في الحكومات المتمدنة لانها تستطيع على هذا المجتمع ما لا يستطيعهُ سواها فلا صولة الملوك ولا سطوة الجيوش ولا قوة القوانين تعادل قوة الجرائد فالكاتب الذي يخط بقلم ضئيل على القرطاس الصقيل كلمات هينات ربمـا لا يدري ان كلماته هذه سيكون لها في الجموع أثر لا يصد ولا يقف عند حد

وبالنظر الى ذلك كانت الجرائد كثيرة النفع كثيرة الضرر ايضاً بحسب الخطة التي تسير عليها واللهجة التي تنطق بها فتكون كثيرة النفع اذا سلكت طرق التنبيه الى مواضع الخلل والارشاد الى سبل الاصلاح وبث المبادئ الصادقة بين الجماهير بلغة لا تحط في الالتمـاس الى التذلل ولا ترتفع في الطلب الى المخاشنة والضد بالضد . وما من أحد من أصحاب الجرائد الشرقية يجهل ذلك بل كل جريدة تصدر تبدأ ببيان خطتهـا والغاية التي تنويها في مقدمـة تضمنها من المبادئ العامة ما يرتاح اليهِ كل عاقل ويرجو الخير منهُ كل قارئ ولكنك اذا تعقبت هذه الجريدة في مستقبل الزمان وجدت ان سلوكها في الجزئيات لا ينطبق على مقدماتها في الكليات واذا خلوت باصحابها قالوا لك ما العمل فنحن انما نعيش في مجتمع يصدق عليهِ قول المعري

اذا قلت المحال رفعت صوتي وان قلت الصحيح اطلت همسي

فنحن انما نفعل ذلك مضطرين لانا اذا صدقنا أغضبنا فنضطر الى المداجاة احياناً والى المجافاة احياناً اخرى والا جفت موارد جريدتنا . وثروتنا التي هي غالباً مجموع أرقام سلبية لا تساعدنا على الاستقلال وما تعود أهل الشرق في مثل هذه المشروعات التعاون على جمع رأس المال وهو عار يلحق باصحاب الجرائد وان لم يبرأ منهُ سواهم فالحق يقال ان السبب هو في عموم الهيئة الاجتماعية نفسها فنحن معاشر الشرقيين ما زلنا أطفالاً في سلم حياة المجتمع الانساني والاطفال لا يؤخذون بمآخـذ الرجال ولا يؤخذون الاَّ بالترغيب أو الارهاب والا نفروا منك ولم ينقادوا اليك . وكما تكونون يولَّى عليكم . وهذا هو السبب

الذي لاجله اضطرت اكثر الجرائد المهمة بعد ان قصدت ان تسلك مسلك الاعتدال ان تحاز الى أحد الطرفين وتقسم جرائدها الى جرائد « فرشة » وجرائد « قمشة » فمن لم تستطع ان تأخذه بعصا موسى شهرت عليهِ عصا فرعون ولكن ضعفت بذلك ضرورة خدمتها العامة وقويت مطامعها الخاصة ولا يخفى ما لذلك من الاثر السيء على الجموع لما لها عليهم من السلطة في تحويل الافكار

أقول ذلك عن جرائد مصر المعوَّل عليها ولا ادمج في سلكها تلك الوريقات البذيئة التي لم توجد الا لنشر المثالب الصبيانية من دون تعقل والتي تقضي على الحكومة بان يكون لها قلم مطبوعات يردع مثل هؤلاء المتطفلين على الصحافة وليس عندهم أقل رأسمال علمي أو ادبي واغفل كذلك ذكر الجرائد العثمانية اي التي تطبع في الممالك العثمانية فان هذه الجرائد لا يذكرها عاقل الا لشجبها والقضاء عليها لا لانها ليس لها أدنى منفعة بل لانها مضرة وأي ضرر اذ لا شأن لها الاَّ التمويه والتمليق والتضليل والتغرير واني أقسم بكل عظيم لو كنت ناظراً للمطبوعات في الممالك المذكورة وكان لي بعض السلطة لجمعت هذه الجرائد اكداساً وأحرقتها على مشهد من العموم وكبلت أصحابها بالحديد وألقيتهم في السجون الى يوم يتوسدون تربهم ويقابلون ربهم ويجاوبون عن كذبهم

وكأني بك أيها البصير قد شعرت بصعوبة الخطة وحرج المركز لان الخطة التي وعدت انك تسير عليها وهي خطة الاعتدال صعبة جداً في مجتمع مثل المجتمع الذي يسير فيهِ اهل الشرق اذا مدحت لم ترض ممدوحاً لانك لم تبالغ بمدحهِ واذا انتقدت عدَّ انتقادك ذماً فاغضبت في الحالين

وكأنك علمت ان خطة كهذه لا تنجح الا في مجتمع بلغ من المدنية والاختبار والتعقل مبلغاً يضعف معهُ سلطان الافراد ويقوى سلطان المجموع فيغلب فيهِ العقل على الهوى حتى يقوى على احتمال الانتقاد ولا يسكر بخمرة المدح فتقوى اعصابه حتى لا ترجها رجة الغضب ولا تهزها هزة الطرب

على ان ما لا ينال كلهُ لا يترك جله واني أرى ان المثابرة على خطتك اولى ونتيجتها للبلاد أنفع ولو اعترضتها صعوبات شتى لا يجهلها من كان في مركزك لما للجرائد من السطوة

على الافكار وتحويل مجراها وانما ينبغي عليك ان توفي خطتك حقها كما وعدتنا في مقدمتك البليغة وان تقول الحق ولو عليك ولا تميل مع الهوى وان تجتنب المحاباة والمداجاة وخصوصاً ان تجتنب التذبذب لاني اراك « كبالع الموسى » أو كالضفدع في الماء

قالت الضفدع قولاً فسّرتهُ الحكماء
في فمي ماء وهل ينطق من في فيهِ ماء

تحوم على الحقيقة ولا تجسر ان تقولها بكلام صريح خوفاً من ان تغضب هذا ولا ترضي ذاك وان تجعل لغتك في الطلب بين الالتماس والامر وفي الانتقاد بين لين التمليق وخشونة المجافاة أي ان تجعل كلامك كلام رجال يخاطبون رجالاً فان تنهج هذا المنهج فالمستقبل لك

المقالة السادسة والاربعون

« ارق ليلة [1] »

ارقت ليلتي لأزمة في الصدر هي لي أوفى الاصدقاء لانها لم تفارقني منذ حداثتي وكم من صديق يتركك في الطريق — . فانتبهت وكأن على الصدر أثقالاً . وأخذت اجاهد كأني اعالج أجبالاً . ولما قلّت حيلتي وخفت ان تطول ليلتي قلت لعلّ الذي لا تنجع فيهِ عقاقير الاطباء تفعل فيهِ مطارحات الادباء . لان العلل العصبية كثيراً ما تثور وتزول بالعوامل النفسانية

ولكن من أين لي في هذه الساعة المدلهمة بالشدودي ، وحافظ ، وسركيس ، والخازن ، ونصيبي منهم في النهار لا يكون الا في ساعة معلومة ...

فقمت اطلب ذلك من بطون الاوراق . فمددت يدي الى ما حولي غير مخير فوقعت على شيخ المجلات ناشر لواء العلم في الاقطار العربية كلها واظنك عرفت أني اريد المقتطف . وان لم يكن لاصحابه سواه من الآثار لكفى وحده لتخليد ذكرهم والاقرار

(١) نشرت في الاخبار سنة ١٩٠٧ بتوقيع « معدي كرب »

بفضلهم . فقرأت فيهِ « اسايا [1] » و « الشفاء الغريب » . وقلت لعل بعض العلماء راجعون بنا الى ما وراء المنظور لحيلة قد انطلت عليهم أو لغرابة لم ينجلِ لهم سرها . والاغرب ان شيخ علماء العقليات الماديين « لمبروزو » الشهير مال ميلهم من قبلهم . ولو انهم اجتهدوا قليلاً لربما لم يجدوا صعوبة في تطبيق ذلك على الشائع المعروف من غرائب الطبيعة ولاستغنوا عن هذه الطفرة ولكن هذه المرة الى الوراء . ولكن ماذا نعمل بناموس « الرجعة » والانسان نسيج متوارثات

ثم قرأت فيهِ قصيدة عنوانها « فكتور هوجو » لنقولا افندي رزق الله فاستوقفني منها هذان البيتان

وبتنا وباتوا مثلما شاء ظالمهم   فريقين سادات قساة واعبدا
وخافوا اتحاداً بيننا فتوسلوا   بدينين للتمزيق عيسى واحمدا

فقلت من هو هذا المعرّي الجديد ؟

* *

ثم وضعت يدي الواحدة ومددت الاخرى واذا بالمنار يتلألأ فيها بانوار الجلال وهذه المجلة اكبر تعزية في قبره لفقيد الامة والدين حجة الاسلام في هذا العصر الامام الاكبر الشيخ محمد عبده القائل

ولست أبالي ان يقال محمد   أبل أو اكتظت عليهِ المآتم
ولكن ديناً قد اردت صلاحهُ   أحاذر ان تقضي عليهِ العمائم

والغريب ان الانسان يستعمل عقله في كل امر فاذا وصل الى الدين عقل عقله مع ان الاديان بنيت غاياتها على المعقول ووضعها اناس ان لم نسلّم جميعنا بانهم اولياء كرام فلا خلاف بانهم رجال عظام أي من ذوي العقول الكبيرة . والظاهر ان الشيخ رشيد يتوخى في مناره حلّ هـذا العقال لتجريد الدين من كل ما يشين مما ادخله عليهِ صغار العقول من كبار العمائم وذوي الغايات السافلة من أصحاب المقامات العالية لتسلم له حقيقتهُ وهي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

(١) المشعوذة الشهيرة اشارة الى ما ذكره المقتطف من اهتمام العلماء بأمرها حتى اوقعتهم في الريب

ومما قرأتهُ فيهِ ترجمة حجة الاسلام ابي حامد الغزالي ولا خلاف في انه من اكبر ائمة الدين المصلحين والفلاسفة في الاسلام . حتى وصلت فيها الى قوله عن تربية نفسه بنفسه . « حتى انحلت عني رابطة التقليد وانكرتُ عليَّ العقائد الموروثة » فذكرني ذلك قوله في أحد كتبهِ « لو لم يكن في ذلك الا ما يشككك في اعتقادك الموروث لكفى بهِ نفعاً فان من لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والحيرة »

وقوله أيضاً في محل آخر ما معناه « اذا وجدت تناقضاً بين العلم والدين فخير لك ان تعمد الى التأويل من ان ترمي الدين بتهمة الضعف » وقلت في نفسي ان امة فيها مثل هذا الامام لا يستغرب نجاحها في معترك الحياة

ثم قابلت ذلك بما قيل ونشر في الكتب وعلى صفحات الجرائد من عهد غير بعيد في أحد المشايخ من ذوي المقامات « ان من كرامات جده انه اكل حمل حمار من الخيار » وقلت ان امة فيها مثل من تقدم كيف تأمن العثار

***

وبعد ان فرغت من ذلك مددت يدي ٠٠٠ وماذا أجد ٠٠٠ ولا أخفي عليك باني شعرت كأني قد سرّي عني . فقلت هذه مجلة سركيس . وسركيس هو الكاتب المتفنن الشهير ومجلتهُ هذه على حداثة عهدها قد طبقت شهرتها الآفاق

فقرأت اولاً هجوه ولم أعجب لاقتراحه ذلك عن نفسه وهو أعلم من كل صحافي بطرق الرواج . والفخر لا يأتي دائماً عن طريقهِ المألوف . وقد استوقفني في قصيدة المجاز قوله

فهجاء مثلك ليس فيهِ تكلف   وارى مديحك كلفةً وعناء

وهي لناظمها الياس افندي فياض المحامي

ثم انتقلت الى باب حسنات الشعراء فقرأت الابيات الآتية

من كل ناطقة الجلال كأنها   أم الكتاب على لسان القاري
دلت على ملك الملوك فلم تدع   لأدلة الفقهاء والأحبارِ
من شك فيهِ فنظرة في صنعهِ   تمحو اثيم الشك والانكارِ

قلت والبرهان بسيط — الى قوله

او بابن داود وواسع ملكه ومعالم للعز فيه كبارِ
هوج الرياح خواشع في بابه والطير فيه نواكس المنقارِ (١)

قلت ويا ليتها كانت اكثر اطمئناناً ويا ليت ابن داود كان عمر . ولكن الشعراء بباب عمر .... (٢)

والابيات من قصيدة لاحمد بك شوقي يصف بها دخوله الاستانة يوم عيد الجلوس الهمايوني — ولما فرغت من تلاوة هذه الاشعار قلت مقسماً ان أحمد لهو ابو تمام هذا الزمان اذا علا لا يشق له غبار

⁂

ثم لما فرغت من كل ذلك تناولت شيخ المجلات الادبية بلا منازع ولو لم يكن له من العمر الا خمس عشرة سنة ناشر آداب القوم وصاحب المقالات الانشائية الاجتماعية والاقتصادية واللغوية والروايات التاريخية التي لم يسبق اليها في اللغة العربية واظنك عرفت اني اريد بهذا الوصف «الهلال» وفضل زيدان صاحبه على آداب العرب خصوصاً بعد الفتح الاسلامي لا يربو عليه فضل فقد حبب الى الناس مطالعة تواريخ هذه الامة في نهضتها وكبوتها ، وسهلها عليهم برواياته ، واستخرج لآلىء تمدنها من مغاصها في مؤلفاته ، وفي الامرين له فضل المنشىء المجتهد والمؤلف المبتكر

والعدد الذي وقعت يدي عليه هو الاول من السنة السادسة عشرة وفيه عدا عروس فرغانة التاريخية وغيرها من المباحث من المقالات الموافقة للمقام ما يدل على حسن ذوق صاحبه في انتقاء المواضيع « كاستقلال امريكا من سلطة الانكليز » و « مصر والشام » و « حرية الصحافة في انكلترا ومصر » . وفي مطالعة كل منها عبرة لقوم يعقلون ولا سيما في هذا الدور الذي بلغت فيه عندنا فوضى المطالب مبلغاً تاه فيه الزعماء قبل الاحزاب . فدرس اسباب ارتقاء الامم مفيد لنا فنجتنب ضلالهم في عثارهم ونهتدي بهديهم في نجاحهم. ذلك خير لنا من اثارة هذه الحرب بيننا على احزاب لا وجود لها الاَّ في رؤوس زعمائها

(١) من قصيدة لشوقي في مدح عبدالحميد (٢) اشارة الى ظلم عبد الحميد وعدل عمر والفرق بين مقام الشعراء في باب كل منهما

حتى سخر بنا النازلون بيننا من الامم الراقية من مباحثنا العقيمة . فكأننا نلنا كل ما ارتقت بهِ الامم ولم يعد ينقصنا الا الاحزاب

والاحزاب يا سادتي اذا جاز لي هذا القول هي في نظام الاجتماع من الكماليات ونحن لا نزال في حاجة الى اقل الضروريات . ونشوءها لا يكون باتلالها بل تنشأ من نفسها متى اكتمل الاجتماع فزعماؤنا يحاولون ان يخلقوا في نظام اجتماعهم جسماً مشوَّهاً ولكي اثبت ان زعماءنا رؤوس بلا اجسام فلينهضوا ونرى كم ينهض وراءهم . فاتقوا الله في الامة التي انتم هداتها وانظروا الى مصلحتها وانبذوا الغايات . ذلك اجلب للمنفعة وادعى للفخر

اراني تهت في الموضوع فمن الهلال الى الاحزاب بون شاسع ولكن تسلسل الافكار ينقلك من اقصاها الى اقصاها لاقل سبب : سنة الطبيعة في كل اعمالها

ثم قرأت فيهِ قصيدة لحافظ افندي ابرهيم في فكتور هوجو وفيها هذان البيتان

كتب المنفيُّ سطراً للذي   جاده العفو ألا اقرأ واعجب
ابريءٌ يعفو عنهُ مذنب   كيف تسدي العفو كف المذنب

وحافظ — ولا اطريه — شعره كالبنيان المرصوص متين لا تجد فيهِ متهدِّماً . وقد لمتهُ يوماً على اقلاله وقلت له ألعلَّ الشهرة اضاعتك فقال لي وهل نسيت المكان والزمان ام نسيت . . . فاوقفتهُ عني ووجدتهُ صادقاً في القولين . ثم قرأت له فيهِ هذه الابيات في « مصر والشام »

ماذا جنيتِ وما جناهُ بنوكِ   أظلمتهم يا مصر ام ظلموكِ
فبسمتِ للغرب الطموح واهله   ومنحتهم فوق الذي منحوكِ
وعبستِ في وجه الشآم وانما   قطر الشآم وان عبستِ اخوكِ

وكان بها مسك الختام وختام النوبة . وقد انبلج الصباح وقامت الاطيار تغرّد فقمت الى الورق ودونت فيهِ ما خالجني من الافكار كما رأيت فان احسنت فقل ان من الشر لخيراً وان من العسر ليسراً . والا فلي تأسية بقول شيخ نهضتنا الحديثة امام المنشئين الشيخ احمد فارس : فصلتهُ اكن على عقلي فما   مقياس عقلك كان لي معروفاً

قال في وصف النوبة في الربو أي الازمة الصدرية المشار اليها في المقالة السابقة

في نوبة من النوَب [١] اعدها شر النوَب [٢]
صحوت من نومي مذ عوراً على صوت النوَب [٣]
لكنما انغامها ليس بها داعي طرب
فيها صرير وصفير وصليل وصخب
خرخرةٌ حشرجةٌ وكل انواع اللجب

* * *

وفوق صدري جبلٌ يهوي به ثم يثب
ومن جبيني عرقٌ منحدر مثل الصبب
والانف مفتوح الكوى مصفراً لا عن غضب
يجدُّ في سحب الهوا وكم يعاني من نصب

* * *

واذا انا بالجوّ مربدٌ باكداس السحب
ينذرنا بمطرٍ منهُ كافواه القرَب
كأنني ميزانةٌ فكيفما مال انقلب
وكلما زادت به رطوبة زدت كُرَب

* * *

فذاك داء مزمنٌ والطب فيه ما حطب

وقال في هذا المعنى ايضاً

وبي علة في الصدر لو انها خلت لنازع ما بي من « انا » نفس من « انا »
لقد لزمتني والشقا منذ خلقتي فصرتُ أَلوفاً للشقاء وللضنى
اكاد اذا ما فارقاني لحظةً اشك بوجداني وانكرني « انا »
كأني وما بي صرت عكس بني الورى ففي صحتي دائي وفي راحتي العنا

---

(١) وقت اخذت العلة (٢) مصائب (٣) آلات الطرب المعروفة

المقالة السابعة والاربعون

﴿ ان من العلم لسحراً [١] ﴾

كلما زاد الانسان علماً زاد تفنناً في العمل فلا غرو اذا كنا نرى في عصرنا هذا على ما هو عليه من التدقيق في العلوم والاتقان في الصناعات اموراً يصنعها البعض ويشكل كشف سرها على كثيرين فيقبلها بعضهم كامور روحانية ويحل بها الوهم عندهُ محل الحقيقة مع انها ضرب من الشعوذة التي لا طائل تحتها والموجودة عند جميع الشعوب ولكن على صور مختلفة تناسب روح كل شعب . وكلها اما من باب صناعة استخدام القوى الطبيعية بطريقة محكمة التوقيع واما من باب الخفة . ومن هذا القبيل الكتابة الروحية التي يدعي اصحابها انها من صنع الارواح والتي كثيراً ما يتحدث بها القوم في مجالسهم كأنها من البراهين القاطعة على صحة ما يدعون . والغريب في ذلك هو ان هذه المسألة اخترقت صفوف العامة ودخلت الى قاعات العلماء وجرت المباحثة فيها علمياً في الجمعية العلمية الانكليزية وشوشت افكار البعض حتى تعرض اخيراً لكشف هذا السر العلامة لنكستر استاذ طبائع الحيوان في مدرسة لندن فادركه وهاك البيان

قصد العلامة المومى اليه المدعو هاتر المدعي الوساطة بين الناس والارواح وسأله ان يستدعي له الارواح للمجاوبة على سؤالاته . ولا يخفى ان الارواح لا تجاوب جهاراً وانما تتمّ عملها تحت مائدة يكون الوسيط ألصق بسطحها السفلي اللوح الحجري المعد لكتابة الاجوبة الروحية . ولازالة كل شبهة يأمر الوسيط السائل بان يضع يده تحت المائدة على اللوح ويضغط عليهِ بكل قوتهِ حتى لا يتغير وضعهُ والقلم يكون موضوعاً بين المائدة وبرواز اللوح بحيث لا يستطيع الانسان ان يستخدمهُ

فلنكستر تظاهر بانهُ منذهل جداً من افعال القوات الروحية . واخذ يراقب حركات الوسيط جيداً فتأكد بان هاتر يكتب الجواب بسرعة عند ادخال اللوح تحت المائدة

(١) رسالة من الاستانة نشرت في الاهرام سنة ١٨٧٦

لتسليمهِ للارواح . والوقت اللازم لذلك يطيلهُ هاتر تحت عللٍ شتى ويحدث حينئذٍ بعض الاصوات ليخفي صوت صرير القلم على اللوح الحجري . وفي هذه الفرصة يكتب الكلمات السحرية اما بالقلم المعد للارواح واما بطرف قلم آخر موجود تحت ظفر سبابتهِ وقد لاحظ بان المرفق الذي يبقى وحده ظاهراً من اليد كان يتحرك مدة هذا العمل المهم

فلما ايقن لنكستر باكتشاف السر حضر في اليوم الثاني ومعهُ احد الاطباء وقدمهُ كمنكر يريد ان يقنعهُ ولكنهُ هذه المرة لم يستنظر استدعاء الارواح بعد عرض السؤالات بل مد يده حالاً تحت المائدة واخذ اللوح فوجد الجواب مكتوباً عليه . ولا يخفى ان الوسيط لا بد ان يكون ماهراً جداً في توقيع الجواب وسرعة الكتابة

المقالة الثامنة والاربعون

﴿ ظواهر لا تفسَّر [1] ﴾

الى صاحب جريدة « الكوريه دوريان »

قرأت في جرنالكم مقالةً تحت اسم « ظواهر لا تفسَّر » منقولةً عن جريدة « الكنستيتيسيونال » بشأن ما رواهُ الدكتور « دلفيتش » الانكليزي من انه سمع صوت صديقهِ المتوفى في مدينة حلب يدعوه باسمه . سمع ذلك وهو مار بالقرب من بيت صديقهِ المذكور في لوندرة . وقد تحقق من اخبار البريد ان صديقه هذا كان يُحتضر في الساعة التي سمعهُ يناديه فيها . والظاهر انهذه الحادثة المستغربة أدهشت الجمهور وتخطت احاديث العامة الى نوادي الخاصة حيث كانت موضوعاً لمباحثات بعض ذوي المكانة في العلم وحسبها بعضهم برهاناً جلياً على صحة علم مناجاة الارواح

---

(١) عنوان رسالة باللغة الفرنساوية نشرت في جريدة « الكوريه ودريان » التي تطبع في الاستانة في عددها الصادر بتاريخ ٢٥ اكتوبر سنة ١٨٧٦ . كتبتها يوم كنت في الاستانة وقد عربتها مجلة الطبيب التي تطبع في بيروت . ونشرتها هنا نقلاً عنها . اما الاصل الفرنساوي فلم يحفظ عندي

(٣٢)

وقد افاض الكاتب في الموضوع . على انهُ جعل جل اعتماده فيهِ على التاريخ فسرد عدة حوادث تاريخية شبيهة بما تقدم . اما البراهين العلمية فقلما تعرض لها . لذلك رأيت ان اسهب الكلام فيها في المقالة الآتية لعلها تجلو الامر بعض الشيء

لا يخفى ان الدماغ هو العضو الرئيسي للحس . وهو يتسلط على كل قوى حياة النسبة فيتأثر بما ترسله اليهِ هذه القوى بواسطة اعضاء الحواس التي لا يمكنها اتمام وظائفها الأ بمقدار ما تسمح بهِ حالة الدماغ الصحية باعتباره كونه مادة . فيفهم اذاً ان أعضاء الحواس ليست الا آلات لنقل التأثرات الى المركز العام الذي هو وحده قادر ان يحكم فيها فيتقي ضررها بالقوة التي له على اصدار الاوامر اللازمة بحسب حكمهِ . وهذه القوة في الحكم والامر والنهي والعمل تختلف باختلاف الاشخاص والاحوال والبنية الموروثة والمكتسبة بحيث يختلف الشعور والفعل بحسب ذلك كثيراً

ومن ذلك يفهم عند ما نتأثر من الشعور بالسمع او البصر أو الشم او الذوق أو اللمس ان هذا الشعور انما يكون في الدماغ وليس في الاعضاء الأخر . فان هذه الاعضاء ليست الا سطوحاً ترتسم عليها التأثيرات الآتية من الخارج والدماغ هو الذي يحكم فيها وانما يحكم فيها في مكان هذه الاعضاء نفسها وهذا ما يجعلنا ننسب الشعور الى الحواس نفسها حال كونه واقعاً في الدماغ حقيقة . وبعبارة اخرى ان مركز السمع هو الذي يسمع ومركز البصر هو الذي يبصر ومركز الشم هو الذي يدرك المشموم ومركز الذوق هو الذي يحكم على الطعوم ومركز اللمس هو الذي يدرك الملموس وليس الاذنان او العينان أو الانف او اللسان أو الجلد . وهذا الشعور سمي شعوراً خارجياً (١)

والشعور في الدماغ على طريق الحواس وهي الناقلة لهذا التأثير والمدركة له يظهر في بادىء الرأي قولاً غريباً وامراً مستحيلاً . ولكننا اذا أمعنا النظر نرى انهُ بذلك يحصل الدماغ على نظام اكثر ووضوح اتم في اعماله الكثيرة المتواصلة . لانه لو كان

(١) أي انه آت عن طريق الحواس من الخارج للفصل بينه وبين الشعور الداخلي الذي يقوم في الدماغ ويرد تصوره الى الحواس من دون ان يكون مع ذلك للاسباب الخارجية الواصلة دخل في الامر كرؤية شخص غير ماثل امامنا وسماع صوت من دون وجود صائت على مسمع منا

ينبغي لكل احساساته ان تتم ويُحكم فيها رأساً في مراكزها الدماغية بدون معونة الاعضاء الأخر التي هي مراكز مختلفة ايضاً لتأثيرات مختلفة للزم ان يكون في وقت من الاوقات في غاية ما يكون من التشويش من تراكم الاحساسات التي ترد عليه والاوامر المختلفة التي يرسلها على الدوام . ولنا على ذلك برهان اجلى على لزوم هذا النظام من الشعور الصادر من الداخل بدون تأثير خارجي والذي مصدره على الغالب الذاكرة . فالذاكرة تذكّر الدماغ بالتأثيرات المرسلة اليه سابقاً من الخارج ولكنها تذكره بها في الحواس الخارجية الخاصة كما هو الحال في الشعور المسمى شعوراً داخلياً

والشعور الداخلي هو تأثير داخلي محض لا علاقة له واصلة بالمؤثرات الخارجية وان بني عليها ويحصل في الدماغ عن تهييج فيه لاسباب قد تخفى احياناً كثيرة بعضهُ خاص بقوة الادراك التي تتصور تصورات بسيطة او مركبة والبعض الآخر خاص بالذاكرة التي تحضر للدماغ صور الحوادث التي تأثر بها سابقاً وهي اما بسيطة كما يشاهد في الاحلام التي هي من نفس طبيعة التخيلات او غير عادية وتكون نتيجة مرض في حالة الدماغ العصبية . لان الدماغ مثل باقي اعضاء الحياة معرَّض لامراض عارضة وقتية أو ملازمة دائمة عضوية او وظيفية . امراض يصح ان تسمى خللاً عصبياً يكون على جملة وجوه ويحدث جملة ظواهر واحياناً يكون من الامراض التي تجلب اليأس للمريض والطبيب معاً . وفي درس الدماغ وامراضه ما يوضّح لنا هذا الخلل العصبي الذي شوهد في الماضي وسيشاهد ايضاً في المستقبل توضيحاً وان يكن قاصراً بالنظر الى جلاء الاسباب كنقص جلاء بقية النواميس الطبيعية والكيماوية والحيوية الا انه يكفي لرفع كل شك يلبّك العقول من هذا القبيل

وبالحقيقة ما الفرق من جهة المصدرين بين صوت ملفوظ وطنين اذن صادرين كليهما من الداخل ؟ لا يوجد فرق بينهما سوى ان الصوت الملفوظ مركب اكثر من الطنين الذي ليس هو الا صوتاً بسيطاً . فلماذا نتعجب من سماعنا الاول ولا نعلّق ادنى اهمية على الثاني . وما الفرق كذلك من جهة السبب بين صورة ترى ومصدرها داخلي و « بين » قشعريرة عارضة او رجفان عضو وكلاهما من مصدر واحد أي انهما داخليان ليس

للاسباب الخارجية الواصلة دخلٌ فيهما ؟ والجواب على ذلك ان لا فرق بينهما مطلقاً بل نحن نعلم جيداً بان رجفاناً شديداً عارضاً في عضوٍ ما عائد الى تشويش وقتي في المركز المحرّك او في الاعصاب الناقلة للسيال العصبي . فان كان الامر كذلك في الحوادث المذكورة فلمَ لا نسلم بصحة ذلك ايضاً في المرئيات والاصوات الداخلية بدون ان نفتش على التعليل عنها في ما هو فوق الطبيعة

الدماغ بالنسبة الى هذا الشعور الداخلي اما صحيح واما مشوش تشويشاً عارضاً واما مريض تماماً كما في الجنون

ففي الحالة الاولى هذا الشعور الداخلي او هذه التخيلات كما يسميها البعض هي بسيطة يعني اننا نسمع صوتاً بسيطاً او مركباً او نرى صورة او صوراً ولكن على نوع هو بهذا المقدار سريع حتى لا يكون لنا وقت لتحقيق ما يجري فينا وهذه الحوادث تعرض تقريباً لكل الناس وأنا من جملة اولئك الذين سمعوا آخرين يدعونهم باسمهم مراراً كثيرة وغالباً من اناس اعرفهم وحدث لي بأني وقفت احياناً في الطريق لاتحقق الذي يدعوني مع انهُ لم يكن لذلك حقيقة في الخارج ولم يكن سوى تخيلات

وفي الحالة الثانية الامر أهم . فاننا نظن إنّا نرى اشخاصاً تبقى صورتهم مرتسمة امامنا مدة طويلة ونسمعهم احياناً يتكلمون ويستمرون على حديث طويل فيه بعض الائتلاف . وهذه الحالة اندر مما تقدم وقد رويت عن كثيرين من أصحاب العقول الثاقبة وكان جان جاك روسو من هذه الرتبة فكان كلما انفرد يخال نفسه انهُ مع اشخاص يكالمونه والاحلام هي من هذا القبيل وتدل على تشويش وقتي في الادراك

والحالة الثالثة اشد جداً مما تقدم . الدماغ في حالة التخيل والانخداع الدائم كما في الجنون . ويختلف التخيل عن الانخداع بانه شعور داخلي محض متعلق بانحراف عصبي مركزي . والانخداع متعلق بانحراف محيطي في الاعصاب الناقلة نفسها فتنقل التأثيرات الخارجية على غير حقيقتها

والاعتراض الوحيد الممكن في مثل هذه الاحوال هو ما يأتي : لماذا نرى احياناً ان الامور تتم كما تنبئ عنها او توحي بها أو تشير اليها التخيلات فاجيب على ذلك وعن

الاحلام ايضاً جواباً بسيطاً وهو ان كل ممكن يجوز ان يتحقق ولكنهُ لا يتحقق دائماً وهذا ما يجعل اكثر التخيلات لا تتحقق غالباً . هذا وان عدداً عظيماً من الحوادث المذكورة في التاريخ القديم حكايات لا طائل تحتها كما ان الحوادث المأخوذة عن التاريخ الحديث ربما كانت اختراعات المدعين علم ما فوق الطبيعة

القسطنطينية في ٢١ اكتوبر سنة ١٨٧٦

المقالة التاسعة والاربعون

﴿ صدى النفوس (١) ﴾

« ورجع الصدى »

هي قصيدة بعث بها الى الهلال وقد ضمنتها رأيي في اقتراح الهلال على الشعراء « ان الدين جزء من الوجدان واكبر تعزية لبني الانسان » وصدرتها بمقدمة في الشعر والشعراء قلت فيها

كلمات املاها عليَّ اقتراح الهلال تكاد تكون غير مقفَّاة ليس لها من رنة الرويّ ما ألفتهُ الاسماع العادية من تناسب الوقع . والرويّ للشعر العربي كالموسيقى للغناء . فان لم تبلغ في اجادة المبنى حدَّ الافادة في المعنى فهي لغير شاعر

شعر ليس له من صناعة النظم غير الوزن . عاطل من كل جمال الأحلى الحقيقة ولكن الحقيقة فيما يقال ليس لها جمال الخيال . فان فعل في البعض فعل الوباء في الجرد فالاطباء كالانبياء انما ارسلوا رحمة للعالمين

موضوع ينبو الفهم عنهُ وليس يلزم ان يكون سليماً . ولقد قال احد الحكماء اذا قرأت شيئاً ولم تفهمهُ فافحص فهمك اولاً واحذر ان يخونك العلم اذا صدقك الفهم

صوت من بين ملايين الاصوات هل يجزع منهُ . وان لم يضرب على وترها

(١) نشرت في الهلال والمقتطف سنة ١٩٠٨

فهل يفقدها لذة نغمها وهل تكدر نقطة صفاء البحر العظيم اذا وقعت فيه . وان كدرتهُ فما اعظم حماتهُ

ما احلى الاماني لولا انها خيال شاعر وما أمر الحقيقة لولا انها السبيل الى الرشاد

خواطر اوحت بها اليَّ تلك النفس الطاهرة صاحبة نفوس الشعراء (١) فقلت اين نفس القائل :

وان مديح الناس حقٌ وباطل ومدحك حقٌ ليس فيهِ كذابُ
اذا نلت منك الود فالمال هينٌ وكل الذي فوق التراب ترابُ

من نفس القائل :

اقول للحيان وقد صفرت لهم وطابي ويومي ضيق الجحر معورُ
هما خطتا إمّا اسارٌ ومنة واما دمٌ والقتل بالحر أجدرُ
واخرى اصادي النفس عنها وانها لمورد حزم ان فعلت ومصدرُ

هذا قاله شاعر البداوة على قمة جبل يلقي عليك بهِ درساً عالياً في الاخلاق ولم يثنهِ الإباء عن مأتى الحصافة والحزم لئلا تكون الصلابة القاصمة خرقاً في سياسة المنفعة

وذلك قاله شاعر الحضارة قائماً يسأل على اعتاب المدنية مع انه امير شعراء المولدين في صناعة النظم وكبر النفس

أنت تستطيع ان تترجم شعر هوجو وموسه وروستان وتستفيد من ذلك غرضاً اجتماعياً وبحثاً ادبياً اخلاقياً وعبرة تاريخية . ولكنك لا تستطيع ان تترجم شعر المتنبي وابي تمام والبحتري ولا ان تستخلص منهُ شيئاً من ذلك غير بعض الحكم والامثال مشتتة في تلك الادغال لا رابط ينسقها . ولماذا ؟ لان هوجو اطلَّ في شعره على العالم اجمع فنظر الى الحقائق وبما له من قوة الخيال وحسن السبك ربطها وكساها من شعرهِ حلة مهيبة رهيبة في النفس كما كساها موسه رقة وجمالاً وروستان نظر الى الوقائع فاكسبها من قوة خياله ومتانة شعره وقعاً في النفوس جعلها ابلغ في العظة

(١) مقالة بهذا العنوان للمرجومة عفيفة كريمة الشيخ سعيد الخوري الشرتوني نشرت في المقتطف في شهر مايو سنة ١٩٠٨

فلو عني المتنبي واقرانهُ بالامور نظيرهم وقصدوا فيها الى مرامي اجتماعية عالية أكان خانهم خيالهم ؟ او ما كانوا فاقوا شعراء الافرنج في دقة الوصف وقوة التصور وسعة الخيال. فعوضاً عن ان يتبسطوا في ذلك الاسلوب الجاهلي ويضعوا لنا ما اذا رُوي روى مطامع النفوس وظمأ العقول — بل عوضاً عن ان ينحوا النحو الذي نحاه بعدهم شعراء الافرنج في وصف الطبيعة الصامتة والناطقة وينزعوا الى اغراض اجتماعية استغواهم ذلك البذخ الذي عاشوا في وسطهِ واستهوت الخلاعة نفوسهم فاذلوا لها قرائحهم ونهجوا في شعرهم ذلك المنهج الغريب في المدح والغزل والتصابي والاستجداء حتى غلب هـذا الاسلوب على صناعة الشعر العربي والفتهُ الطباع واستسهلتهُ السلائق لعدم الارتباط فيهِ بقيد وصار جماله لا يقوم الا بالاغراب في تلك المعاني المبتذلة

وكيف يترجم ردفٌ يقعد صاحبـهُ كأنهُ كثبان عالج وقلب يحرق بناره الرجلين ويثب من الصدر الى العين . وقد رأيت قلباً خرج من تحت الابط في صدمة قطار ولكني لم ارَ قلباً تخطى سنن الطبيعة في خروجهِ من الجسم

والشاعر العربي الذي يمكن ان يترجم اكثر شعره من غير ان تفقدهُ الترجمة جماله هو شاعر الحقائق القائل :

ما الخير صومٌ يذوب الصائمون له ولا صلاةٌ ولا صوف على الجسدِ
وانمـا هو تركُ الشرّ مطرَحاً ونفضك الصدر من غلّ ومن حسدِ
ما دامت الوحش والانعام خائفةً فرساً فما صح امر النسك للاسدِ

والقائل :

وقـد زعموا هذه النفوس بواقياً تشكل في اجسامهـا وتهذبُ
ولو كان يبقى الحس في شخص ميت لآليت ان الموت في الفم اعذبُ

والذين يقولون هذا القول هم الذين يحبون الحياة اكثر من سواهم . والقائل :

كذب الظن لا امام سوى « العلم » مشيراً في صبحهِ والمساءِ
انمـا هذه المذاهب أسبا بٌ لجذب الدنيا الى الرؤساء

ولا شك ان أبا العلاء المعري هو فيلسوف الشعراء قاطبة واكثر شعراء العرب علماً

وارجحهم عقلاً وهو الوحيد بينهم الذي ترفعت نفسهُ عن تلك الدنايا ومال عقله عن سفساف القول الى الحقائق ومحاربة الضلال

لا اقول ذلك حطاً من سليقة شعرائنا المولدين من متقدمين ومتأخرين فانهم وأيم الحق اعلى الشعراء كعباً في الصناعة واوسعهم خيالاً ولا أقول اسماهم . وانما أقول ذلك طعناً في اسلوبهم العقيم المبتذل فانهم وقفوا تلك القرائح المجيدة على امور لا تفيد القارئ فائدة ادبية او اجتماعية او تاريخية ولو كتبوها نثراً لخجلوا من دنا نفوسهم وسخروا من اغراب عقولهم

ولعله كان للمولدين من شعرائنا يدٌ ليست اقل شؤماً من يد علماء الكلام في تقهقر التمدن العربي كما ان تلك الاشعار الحماسية في عصور الجاهليــة وأثرها في النفوس كانت مبعثاً لقيام دولة العرب في الاسلام وبزوغ تمدنها وبلوغها فيهِ الشأو الذي بلغتهُ

ولعلنا اليوم على فجر نهضة جديدة فأني أرى من بعض شعرائنا نزوعاً الى وضع الشعر في اسلوب يرمي الى غاية اجتماعية ولا نعدم قرائح متوقدة من شعرائنا المطبوعين فلعلهم لا يلبثون طويلاً حتى يرونا منهم امثال هوجو وموسه وروستان وسواهم فان النظم طوع بنانهم فما عليهم الاّ ان يعملوا عقولهم ويجيلوا نظرهم في ما حولهم فلا تضن الطبيعة عليهم بمكنوناتهــا والاجتماع باسراره والتاريخ بعبرهِ ولا اقلّ من ان يدخلوا بنفوسهم الى أعماق نفوسهم

أما القصيدة فهذه :

فؤادك ما بين المنــيّة والمنى يسائل ام ما في حجاك من الظما (١)
اذا ما ترامى العقــل يجلو حقائقاً شكا القلب ان الغبن في ذلك الجلا (٢)

---

(١) أقلبك الذي وقف بك بين الموت ومنى النفوس بالبقاء يتساءل لتحقيق ما به من الرجاء ام عقلك الذي وقف بك هذا الموقف لما به من الظماء لاستجلاء الحقائق والشغف بها ؟ (٢) اي ان العقل كلما انجلت له الحقائق قلت اماني القلب فشكا الغبن فكأن كثرة الاماني فيه وانجلاء الحقائق للعقل على طرفي نقيض لا يجتمعان

وما الغبن الأّ ان يرى القلب هائماً … ويخفى على العقل الحقائق في الدنى [١]

لقد قلت ان الدين ضربة لازبٍ … وجزءٌ من الوجدان في اعمق الحشا [٢]

وانّا اذا لم نعبد الله ربنا … عبدنا ولو الأّ [٣] اقناه من صوى [٤]

فلولا من النفس السجينة بارق … يمزّق سجف الجسم ما كان ذا الصبا [٥]

ولو انت أعملت الروية لا الهوى [٦] … لادركت ان الدين لا صوت بل صدى [٧]

صدى حبنا البقيا لهول حقيقة [٨] … وزلفى دلفنا للذي يحفظ البقا [٩]

وماذا عزاء المرء من بعد موته … اذا حبهُ للذات لم يدفع الاذى [١٠]

وأنّى له دفع القضاء محتماً … فلم يبقَ الا باسم الوهم مرتجى [١١]

هو الحب اكسير الوجود بلا مرا … ولولاه ما كان الوجود كما ترى

فكلّ الذي تلقاهُ في الكون سرّه … وهاديهِ في افعاله كيفما نحا

هو الحي مولوداً هو الميت فانياً … هو النجم قد أسرى هو الصبح والدجى

هو الكل في كلّ معيداً ومبدياً … وما نحن الأّ فيهِ من صوَر الفنا

وليس فناء ما نراه وانما … هو العوْد للاولى هو البعث للألى

قضوا فحيينا وانقضينا بعودنا … اليهم وغير الكل ليس له البقا

---

(١) اي ان الغبن الحقيقي هو ان يرى القلب مسترسلا في امانيه والعقل جاهلا للحقائق لان ذلك شر في الدنيا مؤكد (٢) الوجدان عند الطبيعيين هو الذات التي يقوم بها شعور الفرد وهو في اجزاء البدن وملازم له . وهو النفس عند سواهم ويقتضي ان يكون مفارقاً مستقلا (٣) الالّ الاله (٤) جمع صوة وهي علم من حجارة (٥) فلولا طموح النفس النزيلة في الجسم الى المرجع الاعلى ومحاولتها تمزيق الحجاب الذي يصدها عنه لما كان بها هذا الحنين اليه (٦) يريد بالهوى اميال القلب (٧) وبالصوت والصدى الجوهر والعرض (٨) اي لهول حقيقة الموت (٩) اي صدى حبنا البقاء ولما كانت حقيقة الموت صادعة رجونا البقاء في صورة اخرى . وتزلفنا للذي ظنناه يقدر ان يهبنا هذا البقاء (١٠) قال اذا كان حبنا لذاتنا لا يدفع عنا اذى الموت بما يخلق فينا من الامل بالبقاء بعده في صورة اخرى ذاتية فاذا يكون عزاء الانسان بعد الموت اذا كان هو منتهى حياتنا الحقيقية وليس لنا ما يدفع عنا هذا الموت الذي لا مفر منه والانسان لا يفارق هذه الدنيا الا مكرهاً (١١) ولما كان ذلك كذلك لم يبق له من الرجاء بالحياة الا ما يسم له من الوهم بانه خالد فاحب الاستمساك بهذا الرجاء ولم يشأ التعمق فيه ليعلم هل هو حقيقي ام هو مغالط نفسه فيه لانه رجاء يحلو له

وما الحب من ادنى فاعلي الى الرجا — فما فوق الا الشوق في كبد السهى [١]
ترقى بنا حتى النهى وهو دونهـــا — كما في نيوب الليث او في حشى الصفا [٢]
حبينا [٣] الذي فينا حبينا رجاءنا — حبينا الذي نرجو لحب لمقتنى [٤]
وهمنـــا به في الارض طوراً وتارةً — صبونا الى ملك وطوراً الى السما [٥]

عبـــدنا به رباً مثيباً معاقباً — ويقضي ولا ردٌّ ويقضي كما يشا
رجوناه رحماناً اردناه عادلاً — خشيناه جباراً كملكٍ اذا عتا
دعونا اليـه الناس بالحلم والتقى — دعوناهم بالنار والسيف في القلى [٦]

(١ و ٢) ان حب الذات هذا الذي ترق بنا من ادنى الى اعلى الى الرجا فاقصى درجات الكمال العقلي ليس خصيصاً بنا بل هو مبثوث في جميع مواليد الطبيعة الجماد والنبات والحيوان وهو نفس الشوق او الجاذبية العامة التي تحفظ نظام الاجرام المعبر عنها بالسهى ونفس القوة الموجودة في الحيوان الذائد عن نفسه بسلاحه ونفس القوة الموجودة في الجماد الحافظ لذاته بالجاذبية الاتصالية والانتخابية المعروفة بالالفة ايضاً . يريد بذلك ان كل القوى الموجودة في الانسان موجودة في سائر ما دونه من الكائنات وان الاختلاف بينها اختلاف نسبة فقط وارتقاء في التركيب وانها كلها تعمل لغاية واحدة هي حفظ الذات . اي انها كلها من اصل طبيعي واحد كما في قوله :

لولا الهوى وبديع للشوق يهديه — ما صح في الكون معنى من معانيه
ولا سرى النجم في العلياء وانتظمت — له المواقع تقصيه وتدنيه
شوق تكامل من ادنى الوجود الى — اعلى فاعلى الى اعلى اعاليه
حتى تناهى وقلب المرء تليه — نار من الحب يذكيها وتذكيه

(٣) حب الثلاثي غير مألوف ولكنه جاء في قول الشاعر * ووالله لولا تمره ما حببته *

(٤) ثم فسر هــذا الحب بانه محبة الذات الغريزية فينا التي تجعلنا نحب كل ما فينا ونحب بقاءنا وهي التي جعلتنا نحب رجاءنا لما تولد فينا حباً ببقائنا ونحب الذي رجونا منه تحقيق هذا الرجاء واستمسكنا بذلك استمساكنا بكل شيء حبيناه فامتلكناه (٥) اي فتنا بهـذا الحب نهيم في طلب رغائبنا فطلبناها اولا في الارض فعبدنا الجماد والنبات والحيوان والانسان نفسه ثم صبونا الى السماء فعبدنا الشموس والكواكب . وكنا كلما انجلت الحقائق لنا اكثر ننتقل فيه من شيء الى اخر حتى طفرنا الى ما وراء الطبيعة (٦) اي عبدنا رباً تصورناه كفتاة ملوكنا واطلقنا عليه كل ما اطلقناه عليهم وتقربنا اليه بالخوف والتمليق كما تقربنا اليهم ودعونا الناس اليه تارة باللين وتارة بالشدة بحسب مركزنا من القوة او الضعف وبحسب مصلحتنا

فان كان هذا الميل هدي نفوسنا … رُويدك ان الكائنات بهِ سوا (١)
فاين مكان النفس فيها من القوى … واين نبي العالمين الى الهدى (٢)

وان كان كالوجدان غير مفارق … فلمْ لا نراه في جميع بني الورى (٣)
ووجداننا هل أنت الفيتَ انه … يقوم بغير الجسم ان حلَّ (٤) ما استوى (٥)
ألم ترَ أنا فيه تحت طواريء … تعددُ (٦) فيها أو نعدُّ له الرقى (٧)

اذا ما منينا بالحقائق مُرة … فهل في التمني خير ما يُبلغ المنى (٨)
نقيم بهِ من حائل الوهم معقلا … وكم ذا نلاقي ان نشأ دكه عنا (٩)
ترى المرء في رشدٍ الى أفق دينهِ … هناك يغيب الرشد والصوب والنهى (١٠)

ولوع الفتى فيهِ ولوعٌ بعادة … ترسخت الاجيال فيها على المدى (١١)

(١ و ٢) اي اذا كان هذا الميل الى المعبود حباً يقانا دليلنا على صحة هدى نفوسنا افلا ترى انا وسائر الكائنات فيه سواء فاين معبودها واين نبيها اليه وكيف تفرق نفوسها عن قواها الملازمة لها اسوة بما فعلناه في انفسنا نحن ؟ (٣) اي اذا كان هذا الميل الى المعبود كالوجدان غير مفارق كان يقتضي ان يكون عاماً على الجميع كالوجدان والحال ان كثيرين لا يشعرون به (٤) الضمير للجسم (٥) الضمير للوجدان . ثم عطف وقال ان الوجدان نفسه ليس شيئاً مستقلا عن نظام الجسم وتركيبه فلو حل الجسم ما استقام الوجدان ولا بقي له من اثر الا مثل ما في البسائط المنحل الجسم اليها على حد قوله : ان اركانا تدوم وتبقى … تلك اعياننا تعيش سنينا

(٦) اي يتعدد (٧) وعزز ما تقدم بقوله ان الطواريء التي تعرض الجسم في الحياة كالامراض والآفات تؤثر في هذا الوجدان فتجعله غير واحد في الجسم الواحد فترى الانسان مثلا في وجدانين متميزين . فاما ان نعلل ذلك حينئذ بان الوجدان حالة من احوال البدن كالصداع والزكام مثلا ونعالجه كما نعالج سائر امراض الجسم والا فنضطر الى استعمال الرقى لزوم القول حينئذ بالحلول المتعدد اخراجاً للارواح الشريرة كما يفعل المشعوذون وهذا مناف للعلم كما لا يخفى (٨) اي اذا كانت الحقائق على غير ما نحب ونهوى فهل تمنينا يقلب الحقائق وينيلنا ما نرغب (٩) فضلا عن انه لا ينيلنا مرغوبنا هو كثيراً ما يقوم حائلا في سبيل ارتقائنا اما بالانصراف اليه عما به منفعتنا في هذه الدنيا واما بوقوفه عقبة في سبيل كل اصلاح بما يكسبنا به من الجمود فلا ننتقل عنه الا بكل صعوبة وبثورات كثيراً ما تجلب الدمار (١٠) اي ان الانسان يستعمل عقله ولا يأبى البحث حتى يصل الى دينه فيفقد حينئذ كل رشد (١١) اي ان الانسان يتمسك بالدين كما يتمسك بكل عادة اخرى انتقلت اليه بالوراثة والتي يكون سلطانها اشد وارسخ كلما تكررت في الاجيال

ولكنّا العادات مهما تضاءلت   فناموسها الرجعى وناموسنا الرجا (١)

لئن كان في الاديان ردعٌ لجاهل   فكم قد جنى جانٍ علينا بها بغى
وان كان فيها من عزاء لبائس   ولكنها لا تقنع العقل والحجى
وان يك للانسان قسط مؤجل   فهلا هدى هادٍ بغير الذي هدى
اذا كان مخلوقاً كما شاء ربه   فماذا جنى غير الذي ربهُ جنى
وان قلتَ مخلوق وحرٌّ مهددٌ   فهذا مقال لست افهمهُ انا (٢)

المقالة الخمسون

﴿ هل في الوجود عالمٌ آخر (٣) ﴾

(١)

سيدي صاحب الهلال

اني ارتاح دائماً الى قراءة هلالك وانتظره بتشوق لطلاوة مباحثه . وقد قرأت في عدده الاخير مقالاً لك في « هل في الوجود عالم آخر » استرسلت فيه من مقدمة الى أخرى الى وضع هذه الاولية وهي : « ان نظام هـذا الكون يدل على حكمة فائقة في

(١) اي ان العادات مهما ضعفت بالعلم فقلما يستطيع الانسان ان يتخلص منها بسهولة لخضوعه فيها لناموس في الوراثة شديد الوطأة هو ناموس الرجعة (Atavisme) ويراد به انتقال صفات الاجداد طبيعية كانت ام ادبية الى الاحفادولو لم تظهر في الابناء لانها تمر فيهم كامنة الى سواهم ولذلك كان من الصعب جداً ان يتخلص الانسان من اثر المتوارث ولو مهما ارتقى الا في الاجيال البعيدة والعصور المتطاولة . وبناء عليه فالرجاء معقل لنا قوي لانه عريق فينا اولا ولانه آخر ملجأ لنا نلوذ اليه دفعاً لما نكره حباً ببقائنا فلا غرو اذا استمسكنا به واندفعنا معه الى غير ما تدلنا عليه الروية

(٢) الابيات كلها مثلما في قولي :

قسم الناس بين خلق يجازى   ثم قوم بعد ذاك مجونا
بين خلق نعد فيه المعاق   ونعد المألوم والمسكينا
هل دريتم بما جنيتم فظلو   مون انتم وانتم الظالمونا

(٣) نشرت في مجلة الهلال سنة ١٩٠٩

وضعه ونرى هذه الحكمة في كل عمل من الاعمال المادية » ثم نظرت الى الاعمال الادبية قلت « اما الاعمال الادبية فقلما نرى حكمة فيها » . واستنتجت من ذلك ان الحكيم الذي وضع هذا النظام الكامل في العالم المادي لا يعقل ان يدع هذا النظام غير كامل في العالم الادبي فلا بد ان يكون قد جعل لهذا الكون « تتمة تسدُّ هذا النقص » ولما لم تظهر لك هذه التتمة في هذا العالم البادي قلت « ولا يمكن ان يكون ذلك الا في عالم آخر نظامه متمم لهذا . و بما ان ذلك النقص متعلق رأساً بالانسان فلا يسدُّ ذلك الخلل الا اذا وجد الانسان في ذلك العالم وهو لا يكون هناك الا مبعوثاً » . اه

وليس غرضي هنا النظر في النتيجة التي اتصلت اليها كما بدا لك مع ما هو معلوم من ارتباط الاعمال الادبية بالاعمال المادية نفسها وارتباط نظام الكل بالكل مما يجعل مثل هذا القول ضعيفاً . بل توجيه النظر الى ان ما اثبته من الحكمة الفائقة لنظام العالم المادي ليس باقل وهناً مما نفيته عن العالم الادبي . ولا سيما انك نظرت الى الانسان في هذا الكل كأنه عالم مستقل

قرأت ذلك في ليلة اشتد حرُّها وكثر بعوضها حتى لم يعد يقي منه واق فحرمت المنام للسع كأنهُ وخز الحراب او لذع النار والفكر لا يهجع فاخذت انتقل من موضوع الى آخر حتى وقفت على سؤالك : « فهل في الحوادث الطبيعية ما ينافي هذا القول » اي الحكمة الفائقة في نظام الاعمال المادية . فنظرت واذا بالمنافي كثير وعجبت كيف انه خفي عليك لا سيما وانك نظرت الى الانسان من خلال ذلك نظراً خاصاً وهو في نظامه المادي ليس اكثر استقلالاً من سائر الكائنات ولا اكمل منهُ في نظامه الادبي . فخطرت على بالي الابيات الآتية ابث بها شكوى وأصدع بها الى بيان حقيقة وهي :

يا برغشاً ارَّقني من فرط ما حرَّقني
هل انت مخلوق الذي بحكمة خلقني
وأين هي فليُفتني كلُّ حكيم لقن
هل هي بخلق مطلقٍ أردى ولما يقني
من زائد او ناقص او جالب للمحن

فكل مخلوق بهِ زوائد كالدَّرن
زوائدٌ خاليـــةٌ من كل معنى بيِّن
منقصةٌ للخلق لولا انهـــا في الزمن
كان لهـا معنى دليـــل نفعهـا للبـدن
فضمرتْ اذ أهملتْ لسنَّةٍ في الثفن
وسوف لا تبقى بهِ كأنهـا لم تكن
هي حكمة في النشوء لا في خلقها ان نفطن
تربطها بمـا مضى مثـل بقايا الدمن
والنشء مضطرٌ بهـا والخلق فوق السنن
نتيجـة لا غاية من دونها الخلق يني
وغاية الحكمـة خلق كامـل لم يهن

هل في الوجود عالم آخر [1]

(٢)

حضرة صاحب الهلال

لما كتبت اليك موجزاً ومشيراً لم يكن قصدي ان أفتح معك باب المساجلة في مسألة اعتقادية خلافية تتعلق بالمبدأ والمعاد خشية ان يجرنا الدخول في ذلك الى اخـذ ورد لا ينتهيان لاختلاف نظر كل واحد فيهما بحسب مواقفه واهوائه ويوقعنا والجمهور معنا في مغالطات اجتهادية عقلية لا يكون معها تهافت الفلاسفة وتهافت التهافت شيئاً مذ كوراً

وانما كان قصدي التنبيه الى مسألة علمية بسيطة لا يصح ان يجاز علينا فيها ما قـد يجاز في المسائل النظرية العقليـة البحتة . وهي نسبة العالم المادي الذي قلت ان نظامهُ التام يدل على حكمة فائقة — الى العالم الادبي الذي لم تجد فيهِ هذه الحكمة . وما قلت

(١) نشرت في مجلة الهلال سنة ١٩٠٩

قولك هذا الغريب في العلم الا لتستخرج منهُ هذه النتيجة الاغرب في الحكم « من ان الصانع الحكيم لا يعقل ان يتم شيئاً ويدع الآخر ناقصاً فلا بد ان يكون قد أعد الكمال للناقص هنا في عالم آخر هو عالم البعث »

ولا يخفى ما في هذا القول من الاضطراب مع مخالفته المقرر في العلم الطبيعي من تلازم العالمين الواحد للآخر وتوقف احدهما على الآخر. ولو لم تجعل سندك هذا العلم لتقرير مقدمتك ونتيجتك لما جاز لي الاعتراض عليك

ولقد اشرت في ما كتبت اليك بكلام صريح الى ان فقد الحكمة من العالم الادبي كما تقول والذي قلت انهُ نقص في الخلق كائن هو نفسه أيضاً في العالم المادي نفسهُ اذا نظرنا اليهِ نظرك اي بالنسبة الى غاية الخلق وهو واضح جيداً في عالم الاحياء الذي منهُ الانسان المقصود بالذات من البعث . وكلامي هناك على ما فيهِ من الاقتضاب كافلٌ لان ينبه من ذهب عليهِ ذلك لا لنقص في العلم بل لباعث آخر غلبهُ فيهِ فصرفهُ عنهُ لعله يراجع نفسه فيصحح حكمهُ في ما بناه على مثل هذه المسأله العلمية المنافية لغرضه لئلا يكون التشبث بذلك ادعى الى الوقوع في مغالطات علمية أيضاً تكون الجناية فيها مزدوجة على العلم والاعتقاد معاً

على ان بيانك الذي اتيت بهِ بعد ذلك دلني على انك لم تعبأ باهمية هذه الاعضاء الاثرية فلم تعتبرها آثاراً منافيـة لغاية الخلق الاستقلالي ومنقصة لتلك الحكمة الفائقة في الخلق بل صرفت النظر عنها وأخذت تدلني على تلك الحكمة الفائقة في نظام العوالم وتوجه نظري اليهـا تارة في الافلاك وطوراً في الارض من نظـام الاجرام السماوية الى نظام الاجسام الارضية من الانسان فالحيوان فالنبات حتى الجماد

والحق اقول اني غير صعب المراس وان كنت غير متساهل في القياس فجاريتك الى ابعد من مبتغاك ونظرت معك في نظام الافلاك وتحوُّل السدم الى شموس واقمار وزدت عليك باني نظرت وحدي الى انحلال هذه الشموس والاقمار ورجوعها الى السدم . ونظرت الى حركات الرياح وتساقط الامطار وأعجبني منك قولك فيها « وتسلسل اسبابها » ونظرت الى تحليل المواد وتركيبها على نسب محدودة وقلت في نفسي هل كان يمكن

يا ترى غير ذلك . ثم نظرت الى توالد الاحياء من بيضة أو جرثومة ثم قلت ما الحكمة من وجود هذه الاعضاء الأثرية التي لا معنى لها في محفظة هذه البيضة او الجرثومة التي اختصر فيها هذا الخلق البديع المستقل . نظرت في كل ذلك فلم اجد في بعض ما ادركته مما أوسعتَ لهُ مجال الاسهاب تلك الحكمة المقصودة ولا تلك الغاية المرغوبة وانما وجدت في سردها من الاطناب ما هو أدعى في بعض المواقف الى الاعجاب . على انك لم تقصد بذلك الا اكثار الادلة لبيان الحكمة الفائقة في الخلق لا بديع ما في قوله «ويسألونك عن الاهلة» . ولكنهُ بيان لو تدبرناه جيداً لوجدناه يرمي الى ضد ما تقصد فانك قمت تؤيدني من حيث قصدت ان تناقضني . اقول ذلك لا عن تعنت كما ربما تظن بل عن برهان واليك البيان

الذين يقولون بالمعاد في غير هذا العالم هم اصحاب الخلق . وهم اصحاب الخلق الاستقلالي اولاً — قلت اولاً لان بعض هؤلاء يميلون اليوم الى القول بالخلق الكلي — فهؤلاء يجعلون كل جنس مخلوق من المخلوقات التي يتألف منها العالم اجمع خلقاً خاصاً . واخص هذه المخلوقات عندهم الانسان الذي خلق كل شيء من منظور وغير منظور لاجله. فهو عالم مستقل بنفسه علاقتهُ بهذا العالم المنظور عارضة لا يلبث ان ينفك عنها الى العالم الآتي غير المنظور الذي هو مقرُّهُ الدايم والذي علاقته به جوهرية . أليس هذا هو الاعتقاد الشائع الذي تعلم بهِ الكتب الدينية والذي هو اساس اوليتك ؟

ولنحصر كلامنا في هذا الانسان الذي هو محور هذا الاجتهاد من كل هذا البحث بالنظر الى معادهِ لنرى اولاً ما اذا كانت علاقته بهذا العالم عارضة أم جوهرية . وثانياً لنعلم ما اذا كان الذي يطلق على كل الطبيعة يطلق عليه أيضاً ام هو ممتاز علمياً يجوز له الانفراد وحده بامتيازات تجعله فوق الطبيعة للتجرُّد عنها

لا يجوز لي في هذا المقام بالنسبة اليكم ان أدخل معكم في بيان كون الانسان في تكوينهِ حيواناً في أعلى درجة من سلم الحيوان تربطهُ بهِ روابط تدلُّ على انه مرتقٍ عنهُ وان كان في بعض العصور غيره الآن . فاني لا ارتكب مثل هذا الخطأ مع من اعده يعلم ذلك جيداً كما هو مقرر اليوم في العلم والذي هو نفسه يقول لي « كم من الحكمة في نمو

النبات بتحويل المواد الترابيـة الى مواد حية وفي نمو الحيوان بتحويل المواد النباتية الى حيوانية ثم ترجع تلك المواد بعـد الموت الى التراب » فانتم تعلمون جيداً ان في الاحياء وخصوصاً في الانسان أعضاء اثرية أي زوائد لا معنى لها في خلقـهِ كما هو الآن . وان كنتم تقولون مع ذلك « على اننا اذا تدبرنا هـذه الزوائد رأيناها تنحصر في عالم الحياة وهو جزء صغير من المخلوقات »

ولا اقف عند هـذا القول لارد عليه بقولي : اما كون عالم الحياة جزءا صغيراً من المخلوقات ففيه نظر سواء نظرنا اليه بالنسبة الى ارضنا أو بالنسبة الى العوالم الاخرى التي لا نعلم عنها شيئاً من هذا القبيل . وهو في ارضنا ليس صغيراً بالقدر الذي يستفاد من هذا الكلام . وصغيره يكاد يكون مالئاً الارض كلها ومتخللاً كل اجزاء الجماد وله في تحليله وتركيبه وتحولاته شأن عظيم — فان هذا البحث ليس من غرضنا هنا . بل أقول انه مهما يكن من ذلك فعالم الاحياء جزء مهم جداً في بحثنا لانهُ يشتمل على الانسان الذي هو موضوع البحث في العالم الآخر

وانتم تعلمون ان هـذه الاعضاء الاثرية التي ليس لها معنى في تكوين الانسان كما هو الآن كان لها معنى في الماضي يوم كان تكوينهُ غيره اليوم . وهي كثيرة جداً وليس المقام مقام بيان وجودها واثبات عدم نفعها فيهِ ونفعها في سواه كما هو مبسوط في محله وكما تعلمونه جيداً . بل انتم تعلمون ان هـذه الآثار اقوى دليل على تسلسل الخلق وترابطه وعلى ان الانسان مشتق من الحيوان بالارتقاء . ولكن بعد هذا العلم ماذا يكون مقامها في الخلق الاستقلالي وأين الحكمة فيها حينئذٍ ؟ ولا اخالك تعمد هنا الى القول بان الحكمة التي لا تبدو لنا فيها دليل على جهلنا لا على عدم وجودها . وربما كان يجوز مثل هذا التخلص لولا انك تعلم ان العلم عرف فائدتها لا كتشافه حقيقتها في الاحياء الاخرى الادنى واثبت بذلك ارتباط الانسان بالحيوان بل نشوءهُ عنه واقر ذلك على أساس علمي متين . فهل لنا بعد ذلك مناص من انكار مذهب الخلق الجزئي الاستقلالي والا فكيف يمكن لنا حينئذٍ ان نوفق بين هذا الوصل في المبدإ وذلك الفصل في المعاد وان نسند ذلك الى العلم نفسه ؟ بل كيف يمكن لنا ان نوفق بين الحكمة الفائقة في الخلق ووجود مثل هذا

العبث في المخلوقات لان وجود مثل هذه الزوائد غير النافعة فيها والضارة بها احياناً ليس الا عبثاً بالنسبة الى المخلوق نفسه

بل كيف يمكن لنا ان نوفق بين هذا النشوء المتسلسل الذي يثبت لنا ان العوالم بعطلقها التي تبدو لنا اليوم كما هي لم تكن كذلك في الماضي القديم و (بين) مذهب الخلق الكامل الذي يقول ان العوالم ومنها الانسان وجدت بصورتها الحاضرة كما هي الآن — فلم يبقَ امامك الاَّ القول بالخلق الكلي وهو أحسن ما يعتصم بهِ المستمسكون بالخلق اذ ينسبون حينئذٍ كل تحولات الطبيعة الى نواميس عامة مخلوقة هي نفسها وهي العامل الثاني في نشوئها المتسلسل . وانما يبقى عليهم حينئذٍ ان يوفقوا بين ذلك ومبدأ الاديان القائل بان المعاد في غير هذا المكان للانسان وحده وهو لم يكن انساناً كما هو اليوم في اطوار نشوئه ولا هو مستقل عن سواه في مبدئه حتى يجوز له هذا الاستقلال في معاده . أو انهم يطلقون البعث حينئذٍ على العالم كلهِ لا باعتبار انتقال مواده فيه بتغير صورها بل باعتبار انتقال الطبيعة كلها باعيانها من مكان منظور الى مكان آخر غير منظور ؟ ! — هذا ولا يخفى عليك حينئذٍ ما يرد على الخلق الكلي نفسهِ من الاعتراض المعقول من ان الخالق والمخلوق لا يجوز ان يكونا منفصلين والاَّ وجب ان يكون فعل الخلق الصادر من الخالق منفصلاً عن الخالق نفسهِ وهو خلفٌ وان كان متصلاً بهِ فكيف يكون هو نفسهُ غيره وهو خلف ايضاً

على ان هذه الامور المقررة اليوم في العلم والتي تنفي الحكمة من الخلق تصبح ذات شأن عظيم في مذهب النشوء اذ تبين حقيقة هذا الترابط الذي تشير اليهِ في قولك « ونجد الخلق بجملتهِ تام النظام مترابط الاطراف» لتوقف كل تغير فيهِ على تغير في سواه أو لاحداث كل تغير فيهِ تغيراً مناسباً في سواه . وعليهِ فالعالم في مذهب النشوء لم يكن ولا هو كائن ولن يكون الا منتظماً لناموس عظيم فيهِ هو ناموس التناسب او المطابقة

وكما ان العالم المادي مترابط ومن هذه الحيثية هو تام النظام في كل العصور فالعالم الادبي اذا نظرنا اليهِ نظراً علمياً وجدناه لا يخرج عن هذا الحكم فهو مترابط تام النظام ايضاً ولا يجوز ان يكون غير ذلك . لا سيما وان كل الاعمال الادبية متوقفة على نظام

المادة نفسها . فقوى الطبيعة من حركة الى حرارة الى نور الى كهربائية الى قوى حيوية الى غير ذلك من تحولات القوى مترابط بعضها ببعض ومترابطة بالمادة نفسها . ووظائف الاعضاء في الاحياء متوقفة على حال هذه الاعضاء كوظيفة التغذية عموماً ووظيفة عضو عضو منها . فكما ان افراز اللعاب عمل من اعمال الغدد اللعابية فالعقل نفسهُ ليس الا عملاً من أعمال الدماغ بحيث لو انحلت مادة الدماغ الى بسائطها انحل العقل الى القوى المودعة في تلك البسائط ولم يتطاير منهُ شيء الى الخارج . حتى الوجدان نفسه الذي يتوهم البعض انه مزية يمتاز بها الانسان على سواه والذي ذكرتموه على صورة تؤيد هذا الامتياز اذا تدبرناه كما ينبغي يظهر لنا انه عام على العوالم كلها مع حفظ النسبة بينها من الانسان الى الحيوان الى النبات الى الجماد . فكل من هذه العوالم يدافع عن نفسه حفظاً لكيانه بحسب مرتبتهِ مما يدل على انه شاعر بذاتيتهِ ولو لم يكن له هذا الشعور لم يكن له ذلك

وما اتيت بهذا البيان لاعارض ايًّا كان في ايمانه بل لادفع عن القضايا العلمية المغالطات التي قد نجيزها فيها على انفسنا وعلى سوانا فنقطع بها تارة ما يوصل ونصل بها اخرى ما يقطع لغاية في النفس لنا سابقة نشؤها فينا معلوم لو تحريناها الى اصولها . وفي اللاهوت النظري ما يغنينا عن ذلك كله للغرض الذي تدفعنا اليه امانينا ويرتاح له وجداننا لا سيما وان المسألة مسألة اعتقادية بحتة

اما قولكم ان كثيرين من العلماء الاعلام لم يستطيعوا النفي البات في مثل هذا المقام فما ذلك بالبرهان على ثبوت دعوى خصوم النفي الذين لا يستطيعون ان يجدوا في العلم دليلاً واحداً للاثبات . وما مقام اللورد كلفن باعظم من مقام اغاسيز نفسه في العلوم الطبيعية فقد كان فيها اعلم من دروين ومع ان دروين بنى مذهبه وايده بابحاث كثيرة مأخوذة عنه فقد كان اغاسيز نفسه من ألدّ خصومه . ولا يثبت ذلك الا امراً واحداً وهو شدة وطأة ناموس الوراثة وخصوصاً ناموس الرجعة كما دلتنا اليوم تصريحات لمبروزو نفسه على ما جاء في المقتطف من انقياده لشعوذة المشعوذين ووهم الواهمين واعتبار ذلك من مرجحات الاعتقاد بالارواح وما شاكل مع انه كان من اشد انصار الفلسفة العقلية المادية

فالعالم مخلوقاً يحملنا على اعتقاد وجود العبث في الحكمة وهي غير مضطرة وهو خلف. وناشئاً يدلنا على ان هذا العبث ليس بالحقيقة عبثاً بل رابطة ضرورية للتسلسل في النشوء. والعالم مخلوقاً يحملنا على ان نقطع حيث يجب ان نصل او نصل الى نتيجة كلية لا تنطبق على غاياتنا الجزئية ولا على شيء من العلم . والعالم ناشئاً يدلنا على ان كل ما في الطبيعة منها وبها واليها

وعليه فالذي تقول انه خلق لا ينطبق على الواقع المقرر في العلم الا اذا قلنا انهُ نشوء والذي تقول انهُ غاية مقصودة لا يصح الا اذا قلنا انهُ نتيجة لازمة . والذي تقول انه حكمة فائقة هو عبث الا اذا قلنا تناسب ضروري لنشوء مترابط . والذي تذهب الى انه معاد خاص في غير هذا المكان لا يجوز الا اذا قلنا انهُ عود على بدء في هذا المكان. وهذا ما يقوله العلم وان تلجلج في بعض القضايا العلمية المادية فلا يقول سواه كما في هذا القول :

هو الكل في كلٍّ معيداً ومبدياً   وما نحن الا فيه من صور الفنا
وليس فناء ما نراه وانما   هو العود للاولى هو البعث للأولى
قضوا فحيينا وانقضينا بعودنا   اليهم وغير الكل ليس لهُ البقا

أما الايمان الذي ترتاح اليه نفوس الاكثرين لاسباب تعليلها واضح في مذهب النشوء لا يضيق به مثل هذا الحصر . وهو قام حتى الآن على غير العلم وفي امكانه ان يبقى في غنىً عنه زماناً طويلاً أيضاً . وليس من الحكمة ان نحاول الباسه حلة علمية لا تناسبهُ تنم عن ضعفه أو تكون به كطيلسان ابن حرب — وفي الختام اني معجب بك لسعة فضلك وغزارة علمك وان خالفتك في مثل نتيجتك التي اتصلت اليها والتي كنت اود ان لا أحرج لمعارضتها ولكنك توافقني على ان لا محاباة في العلم كما انه لا حياء في الدين . وان سألت ما الذي احرجني قلت مقامك عندي

المقالة الحادية والخمسون

﴿ مناجاة الاحلام وقرع الاوهام (١) ﴾

لقد كثر الآن تحدُّث الناس بغرائب افعال العقل أو النفس كما يقال ايضاً وسائر أفعال الجهاز العصبي الخارجة عن المألوف من مثل التخيلات والشعور بما هو فوق طاقة الحواس الاعتيادية وانطباق ذلك في بعض الاحيان على الواقع مما يختلط كثيراً على العامة ويربك الخاصة ايضاً . واشتدت المناضلة بين الباحثين فذهب بعضهم الى ان هذه الغرائب من خوارق الاعمال التي لا تنطبق على النواميس الطبيعية وعلّلها بانها من أفعال الارواح المحيطة بنا . ونقل بعض الجرائد العربية تصريحات المسترستد بما وقع له ولبعض اشياعهِ ونسبتهم ذلك الى مناجاة الارواح . وقد كتبت مقالة في الجريدة اجابةً لاقتراح بعضهم ادفع هذا الزعم نافياً الغرابة غير الطبيعية فيه ومطبقاً الصحيح منها على نواميس العلم الطبيعي وعلم الامراض العصبية . ونقل المقتطف مساجلة عالمين طبيعيين يذهب كل منهما مذهباً مخالفاً للآخر . فرأيت ان اسهب الكلام هنا للالمام بالموضوع من كل اطرافه لكي يتيسر للناظر بالمقابلة والاستقراء والاستناد الى العلم الطبيعي ان يحكم بما هو اقرب الى الحقيقة . وانا لا أشك في ان كل ما يجري فينا من هذا القبيل انما يجري تبعاً لقواعد طبيعية نظير سائر ما يقع في الطبيعة مما هو مقرر اليوم انهُ بحث طبيعي بحت . ولا اشك كذلك ان معلوماتنا الطبيعية اليوم كافية وحدها لتعليل ذلك تعليلاً يزيل عنهُ كل غرابة الا ما كان من قبيل الغرائب الطبيعية فقط

ان غرائب أفعال العقل والجهاز العصبي معروفة للانسان منذ القديم واشهرها الاحلام التي تعرض له وهو نائم — وهي تعرض للحيوان ايضاً — وقد كانت سبباً من اكبر الاسباب لاعتقاد الانسان ان فيه قوة غريبة عن جسمه تنفك عنهُ في حالة النوم وتطوف المعاهد متنقلة من مكان الى مكان ومن احساس الى احساس ثم ترجع اليه في

(١) نشرت في المقتطف سنة ١٩٠٩

اليقظة وكثيراً ما تصدق في الانباء التي تنقلها مما حمل الاكثرين على الاعتقاد بها وظن بعضهم انه يمكن من مراقبة احوالها ان يستخرجوا احكاماً مطلقة وألفوا الكتب في تفسيرها حشوها تارة بالخطل وتارة بالدَّجل

وقد كانت اوهام الانسان في اليقظة كثيرة جداً في اول الامر لقلة تعرفهِ ما حوله من قوى الطبيعة اذ كل ما هو مألوف معروف لنا اليوم كان يبدو غريباً له . وقد بنى عليها كثيراً من اقاصيصهِ الميثولوجية وحكاياتهِ الخرافية واشتغل بها زماناً طويلاً قبل ان استهلك كثيراً منها بالعلم شيئاً فشيئاً واقرَّها في مكانها الحقيق

وقد كانت الامراض العصبية ولاسيما العقلية والهستيرية نظراً لغرابة ظواهرها بالنسبة الى سائر امراض الجسم محل استغرابه بل موضوع تكهنه وتفزُّعه حتى ان الالفاظ التي استعملت للدلالة عليها في كل اللغات تدل دلالة صريحة على الاعتقاد بانها حالات مستفاضة على الجسم غريبة عن مادتهِ وعن جوهر قواه كأن يقال ان بصاحبها مسّاً أو دخلاً اشارة الى الروح الغريبة الحالة فيه . وكم عذب النساء الهستيريات وحلت بهنَّ النقم لاعتبارهنَّ ساحرات واحرقنَ ايضاً تخلصاً من الشيطان الحال فيهنَّ قبل ان تداركهنَّ العلم برأفته . ولا يزال هذا الاعتقاد شائعاً عند كثيرين حتى اليوم وان تلطف بعضهم في تسميته كأن يقول ان الحالَّ شيخ . ورأفوا في معاملة صاحبه فأحلوا الرحمة محل النقمة وعالجوهُ بالتعاويذ والرقى والقراءات وما شاكل . وكما انهم نسبوا بعضَ الحالات العصبية الشديدة الوطأة الى الارواح الشريرة والخشوا في معاملة اصحابها نسبوا كذلك بعض الحالات العصبية التي كانت تبدو لهم الطف من تلك على الجسم المصاب بها الى الارواح الصالحة ورفعوا اصحابها الى مقام الاولياء والانبياء . ثم اخذ هذا الاعتقاد يضعف حتى اثبت العلم اليوم ان مثل هذه الحالات ليست سوى امراض عصبية كسائر امراض الجسم ولها احكام طبيعية مثلها حتى في غرابتها

وكأن جمهور المتعلمين الراقين لم ينفِ الاعتقاد بالمصدر الغريب في مثل هذه الحالات الاَّ عما كان يبدو خشناً فظّاً واما الجمّ الغفير فلا يزال حتى اليوم يعتقد ان في اللطيف منها محلاً للنظر ومتسعاً للقول . وكثيرون يميلون الى نسبتها الى الارواح للاعتقاد المتأصل

فيهم ان لم يكن رهبةً فرغبةً والذي هو بقية راقية من مجموع تلك الاعتقادات القديمة الخشنة

وقد عنيت بهذه المسائل طوائف كثيرة من اهل الادب والعلم في اوربا واميركا وخصوصاً في انكلترا وألفوا لها الجمعيات الكثيرة ليلبسوا البحث فيها حلة علمية اشترك فيها المقتنع والواهم والمتردد وانضم اليهم الدجّال ايضاً وكلٌّ واجدٌ في ذلك مصلحتهُ

فلكي يمكن البحث في هذه المسائل على اسلوب يكون منهُ فائدة للعلم لم يكن بد من تحليلها قبل تعليلها لمعرفة الصحيح فيها من المختلق والممكن من غير الممكن . فلا تخدعنا اعمال المشعوذين الذين يأتون أمامنا أعمالاً كثيرة غريبة صناعية كوضع الشيء في مكانه ثم اخراجهِ من مكان آخر وكابتلاع السيوف والسكاكين ولم يبلع منها شيء والتكلم مع اشخاص متباعدين والمتكلم واحد وغير ذلك من الامور المدهشة التي يجيزونها على الناظرين وليس فيها شيءٌ من الغرابة سوى مهارة الصناعة فان أمرها اليوم معروف للخاصة والعامة وانما نقتصر هنا على المسائل المقررة اليوم والتي يعترف بها العلم

ان جميع الغرائب التي تعرض للانسان تطرأ على شعوره فيحس أو يعلم بما هو فوق طاقة مشاعرهِ وادراكهِ في حالتهِ الاعتيادية وتحصر جميعها في ما نسميهِ هنا على وجه الاطلاق بالتخيلات وان اختلفت مسمياتها بحسب مدلولاتها وذلك بقطع النظر عن صحتها وعدمها لانها في اعتقادنا صحيحة كلها سواء طابقت الواقع كأن يرى الانسان وهو في مكان صورة صديق له في مكان آخر مثلاً او لم تطابق الواقع كأن يحلم انه طائر في الجو كما يحصل كثيراً للاطفال في احلامهم وهم نيام . فكلاهما تخيُّل حاصل لا يجوز للعلم ان ينفيهُ لئلا يتلجلج في تعليله وكلاهما شعور حقيقي وان اختلف سببهما كما سيجيء

وما اطلقت اسم التخيلات على كل هذه الغرائب مع قطع النظر عن اسبابها الظاهرة والباطنة والبعيدة والقريبة الاَّ لاضمها تحت اسم جنس باعتبار ان اصلها واحد يسهل تعليلها وهي تشمل احلام النوم واحلام اليقظة كرؤية الاشباح وسماع الاصوات والاحساس بالملموسات ومناجاة النفس التي يطلقون عليها اسم مناجاة الارواح وقراءة الافكار والوقوف على الانباء البعيدة وغير ذلك مما هو خارج عن مألوف الحواس والادراك وبالحقيقة كلها في الغرابة سواء والذي يستوقف النظر في احدها يجب ان يستوقفهُ في

الآخر فليست قراءة الافكار باغرب من الاحلام ولا مناجاة الارواح باغرب من تخيل سماع الاصوات وكلها من مصدر واحد

وقبل التوسع في الموضوع لابدَّ لي من التنبيه الى ان كل ما يقال عن الانباء بالمستقبل لا حقيقة لهُ مطلقاً الاَّ ما كان منهُ في حكم الواقع كان ينبئ الانسان بامرٍ مقبل يتوقف على امر حاصل وهذا يدخل حينئذٍ في موضوع البحث في ما هو كائن في الحال حقيقة مثال ذلك — كان عندي مريض منذ عشرين سنة وكان بهِ اختلاط ذهن هستيري طال بهِ اكثر من شهرين تقلّب المريض فيهما على حالات مختلفة اظهر فيها عدَّة غرائب منها انهُ عرض لهُ في طور من اطوار مرضهِ رعاف تكرَّر مراراً عديدة ففي اول الامر لم نكن ندري بالرعاف الاَّ من مشاهدتهِ ولكن بعد ان تكرَّر صار المريض ينبئ بهِ وبمقدارهِ تقريباً قبل حصولهِ باربع وعشرين ساعة وكان انباؤهُ يصدق وتعليل ذلك بسيط لان الرعاف الذي كان يحصل لم تكن مهيئاتهُ تقع في الحال بل لابد انهُ كان يسبقه بعض تغيرات احتقانية وغيرها فصار المريض اول ما يشعر بها يعرف انهُ سيعقبها رعاف فينذر بهِ ومن شدتها وخفتها ينذر بمقدار الدم الذي سيرعفهُ فانباؤهُ هذا ليس انباء بالمستقبل بل تقرير للواقع ولذلك كل ما تسمعهُ من قبيل الانباء بالمستقبل ان لم يكن لهُ مثل هذه المسوّغات مما يجعلهُ انباء بالواقع حقيقة فهو مخرفة ودجل من قائلهِ

وما نبهت الى ذلك الاَّ لخلط الناس والعلماء انفسهم في هذه الغرائب واعتقادهم بأن الانباء بالمستقبل من الامور المقرَّرة الداخلة ضمنها . واعجب من ذلك اني قرأت من مدة قريبة في احدى المجلات الفرنساوية بحثاً لطبيب في هذا الموضوع وقد عدَّ فيهِ الانباء بالمستقبل من الامور الداخلة فيهِ وهذا جهل فادح يستعظم خصوصاً من طبيب يجب ان يكون ملماً بنواميس هذه الغرائب لان هذه الغرائب لا تحدث اعتباطاً كما يتوهم بعضهم بل تعرض للناس بناء على نواميس مقررة لا تحرف عنها سواء كان في الصحة او المرض وتسير فيهما بانتظام على حدٍّ سوى

فنحن الآن بين اقوال ثلاثة من ذوي المقام في الادب والعلم : تصريحات ستد الذي يزعم انهُ يكتب احياناً متأثراً تحت سلطان الارواح وانهُ رأى صورة ابنهِ المتوفى

وسمعهُ يخاطبهُ . ونفي العالم الرياضي نيوكم لهذه الغرائب ونسبة بعضها الى هواجس لم يعنَ بالبحث عن سببها وانما نسب صحتها في بعض الاحيان الى مجرد الاتفاق باعتبار انها من الامور الممكنة . وتسليم العالم الطبيعي السر اوليفرلدج بحصول هذه الغرائب من تفاعل العقول او النفوس بناء على مبدإ التلبثيا وميله الى ترجيح سببها الروحاني مما يجعل صدقها نتيجة للشعور بأمر واقع لا اتفاقاً . وقد حاول ان ينفي نسبتها الى الاتفاق باحصاءات تنفي الصدفة وتؤيد الارتباط السببي في زعمه

والحقيقة ان كلاً منهم على صواب وخطأ في آن واحد · فستد صادق في قوله انهُ رأى صورة ابنهِ وانهُ يشعر في نفسهِ بانهُ يكتب احياناً تحت سلطان شخص آخر . وانما هو مخطيء في ادعائهِ ان ذلك من فعل ارواح غريبة عنهُ ولو درى انهُ مستهوى استهواء ذاتياً من جهة ومتخيل من جهة اخرى ما في ذاكرتهِ من المحفوظات لاسباب معلومة لنا اليوم جيداً من درس نواميس الجهاز العصبي في الصحة والمرض بما عبرنا عنهُ هنا «بمناجاة الاحلام وقرع الاوهام» لما كان في قوله شيء يؤخذ عليهِ . ونيوكم مصيب في نفيهِ التفاعل الروحاني عن هذه الغرائب ولكنهُ مخطيء في انكارهِ سببيتها الطبيعية وتعويله في صدقها على الاتفاق وحده وان كان للاتفاق دخل في بعض الاحيان . واوليفرلدج مصيب في ان هذه الغرائب تجري على نواميس معلومة لنا اليوم بالتلبثيا ولكن خطاءه في نسبة ذلك الى تفاعل العقول أو الارواح لا يغتفر ولا سيما ان في المعلومات الطبيعية اليوم مندوحة لنا عن الخروج بها الى مثل هذا التعليل الغريب

وقد وقعت انا نفسي منذ ثلاث وثلاثين سنة في نفس الخطأ الذي وقع فيهِ اليوم نيوكم بتعليل صدق هذه الغرائب بالاتفاق وذلك في حادثة طبيب انكليزي زعم انهُ سمع وهو مار في لندن بالقرب من بيت احد أصدقاءه الذي كان يومئذٍ بمدينة حلب صوت صديقهِ هذا يناديه ثلاثاً ثم علم عند وصول البريد ان صاحبهُ كان في تلك الدقيقة يحتضر . وقد تناولت هذا النبأ في ذلك العهد الجمعيات النفسية في انكلترا وهوَّلت بهِ كثيراً حتى ان الجمعيات العلمية شاركتها في هذا البحث وكتبت الجرائد فيهِ مقالات ضافية . وكنت يومئذٍ في الاستانة فاطلعت في جريدة «الكوريه دوريان» على فصل طويل عقدتهُ

جريدة « الكونستيتيسيونال » الباريزية لهذا الموضوع ونقلتهُ عنها جريدة الاستانة المذكورة جاء فيهِ كاتبهُ على امور كثيرة من حوادث التخيلات الغريبة نسل اكثرها مما وقع لبعض مشاهير الرجال في التاريخ كنابوليون وقيصر وسواهما من انهم كانوا يرون اشباحاً ويسمعون اصواتاً تخاطبهم لا حقيقة لها في الظاهر وذهب الى انها من الغرائب التي لا تدرك . فكتبت في ذلك الحين رداً عليهِ باللغة الفرنساوية نشر في جريدة « الكوريه دوريان » المذكورة في ٢٥ اكتوبر سنة ١٨٧٦ ونقلتهُ الى العربية مجلة الطبيب في بيروت . وقد حاولت في هذا الرد ان أدفع عن مثل هذه الحوادث كل غرابة غير طبيعية مستنداً في ذلك الى علم امراض العقل وما يعرض من التخيلات وانخداع الحواس في الجنون وفي سائر الحالات العصبية التدريجية التي بين الصحة والمرض وحصرت تعليل ذلك بما سميتهُ هنا قرع الاوهام ويراد بهِ قرع محفوظات الذاكرة لمراكز الحواس بالارتداد من الباطن الى الظاهر وذلك في الاعصاب المتهيجة المنصرفة الى التفكير في موضوع ما أو الملفتة اليهِ لمناسبة ما كمناسبة المرور بالبيت الباعث على التذكر بصاحبهِ . وعللت صحة النبأ اذا صدق قائله بما يأتي :

« والاعتراض الذي يوجه الى ذلك في مثل هذه الاحوال هو هذا : لماذا تتم الامور احياناً كما تنبيء عنها او توحي بها التخيلات ؟ والجواب على ذلك وعلى الاحلام أيضاً بسيط وهو ان كل ممكن قد يتحقق احياناً ولكنهُ لا يتحقق دائماً ولذلك كانت اكثر التخيلات لا تتم حقيقة » اه . اي انني عللت ما يصح منها بالاتفاق كما عللهُ نيوكم الآن ولكن الخطأ الذي كان يغتفر حينئذٍ لا يغتفر الآن بعد ان تقدمت العلوم الطبيعية وباثولوجية الامراض العصبية هذا التقدم الباهر

وازيد على ذلك اليوم بقولي ان غير الممكن لا يتحقق مطلقاً كأن يحلم الانسان انهُ طائر في الجو او ساقط من مكان عالٍ وهو لم يسقط فلا يمكن ان يكون مثل هذا الحلم موعزاً بهِ من الخارج او معبراً بهِ عن حقيقة واقعة مع ان صاحبهُ يحس ويرى انهُ كذلك ويعلل في الاول بقرع الاوهام لذاكرته وتجسمها لدى حواسهِ بما يكون قد ذكر له في طفوليتهِ من مثل هذه الاخبار السقيمة وغيرها من الخرافات السخيفة التي يحشون بها

دماغ الطفل . وتعليله في الثاني تعب طرأ على الجسم وهو نائم من وضع او سوء هضم وبانتقال الافكار الى المتناسبات والحواس في كل انتقل « بهِ الشعور » من ضيق الى ضيق الى هول السقوط

ولكن هذا التعليل وان انطبق على الانفعالات الذاتية المنعكسة من الباطن وصح على كل التخيلات الذاتية التي تعرض للانسان في الحلم واليقظة من رؤية الاشباح الى مناجاة الارواح التي هي عبارة عن مناجاة احلام الانسان نفسهِ بناء على ناموس قرع محفوظات الذاكرة للاعصاب المهيجة وناموس الاستهواء الذاتي الا انهُ توجد حالات اخرى مصدرها خارجي محض لا ينطبق عليها هذا التعليل . وتعليل صدقها بالاتفاق وحده لا يكفي مثل قراءة الافكار والعلم عن بعد مما هو مقرر امره في العلم ولا يجوز الشك فيه اليوم

على ان العلوم الطبيعية والعلوم الباثولوجية العصبية قد تقدمت كثيراً من ذلك العهد واكتشفت غرائب كثيرة فيها غير خارجة في أعمالها عن نواميس الطبيعة حتى صار يجوز لنا فهم اكثر اعمال العقل غموضاً واستنتاج المجهول بناء على المعلوم

غير ان المتصعبين من العلماء — وما تصعبهم لضعف البينة بل لاقتصارهم في البحث على الجزئيات ولقلة تعويلهم على الاستقراء في الكليات — لا يزالون يميلون الى نسبة هذه الغرائب الى امور غير طبيعية مع علمهم الاكيد انها في غرابتها تسير على نواميس معلومة كغرائب الامراض العصبية مثلاً انقياداً لاوهامهم التي ورثوها اباً عن جد . وبعضهم ينصاع اضطراراً الى التسليم بطبيعتها المادية ولكن ما رسخ في ذهنه بالوراثة يحملهُ على الوقوف موقف المتردد غير الجازم متوقعاً ان يكشف له العلم نواميس طبيعية جديدة غير معروفة له اليوم . ولو تدبر هذا المتردد والمتمني في سرهِ فشل العلم في نفي امانيه لعلم انهُ لا ينتظر ان يكتشف في الطبيعة من يوم عرف ناموس تحول القوى نواميس جديدة أصولها الطبيعية مجهولة بل كل ما ينتظر انما هو زيادة التوسع في معرفة تحولات هذه القوى واستخدامها لغرضنا بناء على انها هي والمادة من اصل واحد . والمعلوم اليوم من هذه التحولات البديعة من حركة الى حرارة الى نور الى كهربائية الى اشعة رنتجن الى أشعة الراديوم الى الاشعة الكيماوية التي ترقق الاجسام وتشففها واستخدام ذلك لنقل

الاصوات بالتلفون وحفظها بالفونوغراف وخزن حركاتنا في السينماتوغراف ونقل اخبارنا في الفضاء بتلغراف مركوني ونقل المرئيات الى بعد كل ذلك كافٍ لان يجلو لنا اليوم أشد هذه المسائل غموضاً . واذا اضفنا الى ذلك علمنا بان العالم لا فراغ فيهِ وهذا يستلزم ان لا يضيع فيهِ شيء بل يحفظ فيهِ ويحول لعجبنا ليس من عروض هذه الغرائب لنا أحياناً بل من عدم عروضها لنا غالباً لان عروضها هنا هو القياس وعدمهُ كان يجب ان يكون الشاذ فاذا كان عروض هذه الغرائب لا يتيسر دائماً فلحوائل طبيعية ازال العلم الطبيعي اليوم كثيراً منها وايده علم بسيكولوجية الدماغ والامراض العصبية نفسها كما ابنت ذلك في مجلد السنة الثالثة من مجلتي الشفاء في حادثة اختلاط ذهن هستيري من أغرب ما وقع لي ولسواي ايضاً

وبالحقيقة ان أثر كل حركة مادة او نبضة فكر يجب ان يصل الى كل شيء ويجب ان يحسّ به كل شيء بناء على ناموس حفظ القوى واذا كنا لا نشعر به دائماً فلاسباب مادية اما لضعف في حواسنا واما لضعف الأثر نفسه وتبدده قبل وصوله الينا فاذا امكننا ان نقوي مشاعرنا او نزيل الحوائل الأخر لم يصعب علينا ان نقف على كل ممتنع علينا في حالتنا الاعتيادية . وقد جاءت الاكتشافات المذكورة سابقاً مؤيدة لذلك كما قلت في الشفاء من ان لا بد لكل فعل من فاعل وقابل وناقل وقد تمكنا بالتلفون من تقوية الناقل ووقفنا من قراءة الافكار على قوة القابل وتمكنا كذلك بتلغراف مركوني من تقوية الفاعل والقابل معاً وعرفنا كذلك ان هذا القابل قد يشتد تأثره جداً في بعض الحالات العصبية المرضية الى حد ان الانسان يقدر ان يعلم عن بعد شاسع حركات سواه ويسمع كلامهُ كأنهُ على كثبٍ منهُ ولكن يشترط في ذلك شروط تجعل هذا العمل خاضعاً لنواميس معلومة نظير سائر النواميس الطبيعية كأن لا يدرك الانسان الا حركات أشخاص معلومين له بهم علاقة معلومة ولو مهما ابعدوا عنهُ ولا يدرك حركات سواهم ولو كانوا بالقرب منهُ لان أعصابهُ تكون متكيفة لقبول تأثيرات اولئك لشدة الاشتغال بهم خلافاً لهؤلاء

واذا كان هناك محلٌ للشك فدرس غرائب الامراض العصبية الهستيرية كافٍ لان

يزيله اذ أثبت استطاعة الانسان لان يتأثر بالمؤثرات الخارجية فيرى عن بعد شاسع صور الاشخاص ويسمع كلامهم بما يفسر لنا جيداً شدة تهيج القابل فيهم حتى يصير يحس بما لا يحس به الانسان عادة ولان يفسر لنا كذلك حقيقة التخيلات الذاتية الصادرة من الباطن والتي هي سبب وهم ستد واشياعه بان ارواحاً تخاطبهم او انهم يفعلون متأثرين بسلطان غيرهم

فلا يخفى ان أصحاب المرض العصبي الهستيري موصوفون بقوة الذاكرة حتى ان في وسع بعضهم في هياج مرضهم ان يذكروا ادق دقائق ما جرى لهم في حياتهم كأن الذاكرة آلة فونوغرافية سينماتوغرافية حقيقية ينطبع على صفحاتها كل ما يمرُّ بها من كلي وجزئي فاذا عرض ما هيج هذه الصفحات بدا ما كان كامناً فيها كأنهُ ابن يومه . ومن أغرب ما اتى به المريض الذي اشرت اليه وذكرت حكايتهُ في الشفاء انهُ في اثناء مرضه الذي دام به اكثر من شهرين ذكر تاريخ حياتهِ بالتفصيل والاعجب انهُ ذكر وقائع دعوى كانت له في المجالس دامت ثلاث سنوات ثم خسرها وكانت خسارتهُ له سبباً لاستيلاء المرض العصبي عليه بعد ذلك على الفور . حتى انه ذكر المرافعات التي جرت فيها امام القضاء كأنها منقولة بالحرف وبفصاحة تفوق طوره جداً في حال الصحة . فليس بدعٌ ان يكون سبب التخيلات التي من مصدر باطني والتي تجعل الانسان في بعض احوال خصوصية يسمع ويرى ويلمس ما ليس له حقيقة في الظاهر قرع الذاكرة نفسها للحواس المتهيجة كما في الجنون وما دونهُ من احوال اضطراب العقل بالمؤثرات المختلفة في الاعصاب المتهيجة وهي درجات كثيرة بين الصحة والمرض . ومعلوم كذلك امر الاستهواء الذاتي حتى تصير احلام الانسان لديهِ حقائق وحتى يصير بالنظر اليها بوجدانين متباينين بحسب سرعة تغلب احوالهِ العصبية يسمع احدهما يخاطب الآخر وكثيراً ما يشعر الواحد انهُ تحت سلطان الآخر يأتمر بأمرهِ حتى يزول منهُ الاضطراب العصبي الكلي كما في الجنون والجزئي كما في الاحوال الهستيرية المتغلبة بحسب نوبها فيرجع انساناً اعتيادياً لا يتأثر بغير ما يتأثر بهِ الناس عادة . ومن هؤلاء طائفة من الناس ليس بهم جنون حقيقي او ظواهر هستيرية ظاهرة للعيان بل بهم من كل ذلك ظاهرة واحدة مقتصرة على أمر واحد فقط وهي تهيج مركز واحد من مراكز قواهم العصبية بحيث يقتصر

الاستهواء فيهم على فكر واحد او شعور واحد كما هو شأن ستد واضرابهِ في اعتقادهم انهم يكتبون أو يعملون عملاً تحت سلطان شخص آخر غريب عنهم . ولا شك ان كثرة اشتغال العقل بموضوع يخافهُ او يهواهُ تعدهُ لاستيلاء مثل هـذه الحالة عليهِ واحداث الاضطراب الشديد في جزء من اجزاء دماغهِ مع سلامة باقيهِ كما هو مشاهد كثيراً في عموم الناس لمن يتدبر ذلك كما ينبغي

والحاصل ان الحوادث الغريبـة من مثل التي ذكرها ستد ليست بالحقيقة هذياناً خالياً من سبب طبيعي معلوم كما يذهب بعضهم ولا هي وحي أو شبـه وحي كما يذهب كثيرون وانما هي تخيلات الذاكرة لمعلوماتها الباطنةاو تأثر الحواس تأثراً قياسياً بالمؤثرات الخارجية البعيدة الطبيعية لوجود كل من المؤثر او ناقل التأثير أو قابله أو كلها معاً في احوال خصوصية تزيل من بينها كل حجاب كان يحول دون الشعور بما يلزم الشعور بهِ في كل الاحوال لولا تلك الموانع العارضة والتي ازال العلم الطبيعي وعلم الطب كثيراً منها . وعليهِ فليس غريب في كل هـذه الغرائب التي انجلت لنا اسرارجلها ان لم نقل كلها سوى غرابة قلة عروضها لنا وخصوصاً طفورنا في تعليلها الى غرابة اغرب منها لا اساس لها الا نقل لا ينطبق على علم ولا يجيزه عقل حرصاً على مبتغيات اوهام ومتمنيات احلام

كلمة مرة ولكنها حرة [1]

موسى نظر الى شراهتهم وضررها بالصحة فدلهم على النافع من الطعام ومحمد الى قذارتهم فأمرهم بالنظافة وعيسى الى اختلال آدابهم وضررها بالاجتماع فحثهم على الفضيلة فعفواً ايها الانبياء الكرام على مذهب المؤمنين ويا ايها الرجال العظام على مذهب العقلاء عفوكم الف مرة على ما يأتيه اتباعكم من الاعمال ويثيرونهُ من المباحث الدالة على سخافة العقول وهم يدعون انهم ابناء هذا العصر الذي يزعم اصحابهُ انهُ عصر المدنية والعلم

(١) نشرت في المقطم سنة ١٩٠٤ على اثر مناقشات الجرائد في الموقوذة وهل يجوز للمسلم ان يأكل من ذبيحة النصراني حتى صمت الآذان وقرت النفوس من هذه المباحث السخيفة

المقالة الثانية والخمسون

« مخاطبة الاموات [1] »

« تفنيد مذهب ستيد »

ستيد كاتب شهير وقراءه معجبون بهِ لبلاغتهِ . فهو قال قولاً لولا شهرته واعتقاد الكثيرين فيهِ الرجاحة في الرأي والصدق في القول ولولا موافقتهُ لاماني الاكثرين لما لفت أحداً اليهِ . ولو قاله سواه ممن ليس لههذه المميزات لعدَّ ذا جنة أو انه من المخرقين

على ان الشهرة لا تقي من العثرة . والاجادة في شيء ليست الاجادة في كل شيء . والاصابة ليست دائماً في جانب الاجماع فالعدد ليس حجة قاطعة أو هو وحده برهان القوة الوحشية فقط . والحقيقة ما كانت ادنى الى الواقع

***

الناس في مجموعهم مذهبان متناقضان نظريون وحسيون . فالاولون وهم الاسبقون والاكثرون بنوا آراءهم في الطبيعة على تخرصات واوهام لقلة تعرفهم لها في اول الامر وأوسعوا لعقلهم مجال النظر والاجتهاد فبنوا على هذه الشبهات تعاليم كان الفطير فيها اكثر من الخمير . ثم الفوها مع الزمان بالتربية والتوارث حتى صارت لديهم في عداد الحقائق المقررة

والآخرون وهم الاخيرون والاقلون تعرَّفوا الطبيعة اكثر من اسلافهم فوجدوا المعلوم كافياً لان يفسر المجهول ورأوا انهم بذلك خطوا خطى صائبة في زمن قصير الدقيقة منهُ اتت باعمال نافعة ملموسة قصرت عنها تخبطات مخالفيهم في قرون فاستمسكوا بهِ ولم يريدوا ان يحيدوا عنهُ لغير سبب راجح

***

(١) نشرت في الجريدة سنة ١٩٠٩ جواباً على اقتراح بعضهم عليَّ ان ابدي رأيي في هذا الموضوع في الجريدة بناء ما قصه من هذا القبيل الكاتب الانكليزي الشهير ستيد صاحب مجلة المجلات الانكليزية

نظر الفلاسفة الطبيعيون الى مواليد الطبيعة الجماد والنبات والحيوان فوجدوا ان استقلالها ليس مطلقاً كما ترمي اليه مذاهب أهل النظر بل نسبيٌّ فقط بالنظر الى مقامها في سلم التحول والارتقاء فكما أنه ليس لها مواد مستقلة ليس لها كذلك قوى أو نفوس مستقلة وقد كان لها ذلك في اعتقاد سواهم قبلهم بل كان لكل جسم بل مادة جسم نفس خاصة قبل ان استأثر الانسان وحده بالنفس

ثم نظروا في علوم الاحياء على الاطلاق فوجدوا ان بين الاعضاء وافعالها نسبة شديدة فاذا علّت الاعضاء علّت الافعال وعلّ الحي نفسه القائمة حياته بها وهلك واذا مات انحل الى البسائط المؤلف كل عضو منها ولم يجدوا في كل ذلك أثراً لقوة خارجة عن قوى المادة المشتركة

ثم نظروا الى الانسان والحيوان فلم يجدوا الفارق الجوهري الذي يفرق الواحد عن الآخر لا في تركيب جسمه ولا في جوهر عقله والفارق النسبي بينهما ليس باعظم منهُ بين الحيوان والنبات وهذا والجماد بل بين احط فروع الانسان وارقاها . فالانسان عاقل لانه يعمل اعمالاً مغياة والحيوان يعمل اعمالاً مغياة أيضاً وليس من قوة في عقل الانسان مهما تعالت الا موجودة في الحيوان بحالة أثرية وما الفرق الا نسبي لفرق في التركيب

ثم نظروا الى عقل الانسان نفسه فوجدوه يتمشى على نفس النظام الذي تتمشى عليهِ سائر الاحياء في النسبة التي بين الاعضاء والافعال اي انه فعل من أفعال الدماغ نفسه وصار بذلك علم العقل فرعاً من علم منافع الاعضاء

⁂

ولما كان العقل والنفس واحداً في المعنى كما كانوا يعتقدن في القديم ويخلطون بينهما كما تدل عليه لفظة البسيكولوجيا نفسها التي هي في الاصل معناها علم النفس والتي تطلق اليوم على علم المعقول صار من الضروري ان ينتقل البحث في النفس من دائرة علوم الكلام التي كانت تجول فيه لا ضابط ولا رابط وتقيم البرهان أثر البرهان والدليل أثر الدليل لتثبت ان النفس قوة غير ذات مادة تفعل في المادة وان يدخل في علم منافع الاعضاء نفسها وان تعتبر النفس كالعقل فعلاً من أفعال الدماغ خاضعة لجميع المؤثرات التي تؤثر في مادته

ولكن الرضى بهـذا الحد يزيل عن النفس روحانيتها وهي اوسع من ان تقع تحت حصر في نظر أصحابها وهم اذا رضوا بان يتنازلوا عن امتياز العقل الروحاني فلا يرضون بهذا الدموج النفساني فضحوا العقل في سبيل النفس ومالوا حينئذٍ ولكن على نوع مبهم الى فصلها عنهُ وحاولوا في أول الامر ان يثبتوا لها مركزاً في الدماغ مستقلاً ولو مهما كان صغيراً تجلس عليهِ كالملك على عرشهِ تأمر وتنهى وتستبد بالجسم اذا شاءت . وكأنهم لم يبق لهم اليوم مثل هذا المتكأ فصارت النفس عندهم أوغل في الابهـام لا يعرفون أين تستقر ولا من أين تدخل ولا كيف تخرج ولكنها مع ذلك موجودة والتعنت برهان ايضاً

***

فالطبيعيون رأوا كل ذلك فلم يروا ان يحيدوا عنهُ . رأوا ان لا شيء في الطبيعـة يتلاشى وان لا شيء فيها يحدث فوقفوا عند هذا الحد وقالوا ان لا شيء معلوماً يخرج الى ما وراء الطبيعة اذ يجيء من وراء هذه الطبيعة ولو شاؤا ان يبحثوا في ما وراء الطبيعة لتعذر عليهم ان يفهموا استقلال هذه النفوس او العقول أو الارواح الذاتي وهـل هي محدودة تحل في الاجسام ثم تفارق ثم تعود الى سواها أم هي خصيصة تصنع لكل مولود ثم تعود لتخزن او لتطرق وتصب ثانية ام هي كالرديف محجوزة للنجدة عند الحاجة اليها وما نسبتها من حيث الاتصال والانفصال الى مكانها سواء كان ضمن الطبيعة أو وراءها . وهذا « الماوراء » نفسه أو « الما فوق » ما هو وكيف هو وأين هو ؟ ما دام الطبيعـة نفسها مالئة الفراغ كلهُ

ولما كان الدماغ عضو العقل كالرئتين للتنفس والمعدة للهضم والكبد لافراز الصفراء كانت العلل التي تطرأ على الدماغ تؤثر في العقل ايضاً . وهذه العلل كثيرة منها ما هو كلي يلمّ بكل مراكز العقل ويحدث ما يسمى بالجنون المطبق . ومنها ما هو جزئي يقتصر على بعض مراكز كالذاكرة مثلاً أو قوة الحكم أو التصور الخ فاما ان يلمّ بهـا كلها أو بشيء منهـا فيسمع الانسان اصواتاً غير موجودة أو يرى اشباحاً غير حقيقية أو يسمع هذا الصوت او ذاك او يرى هذا الشبح ولا يرى ذاك أو . واو . الى ما لا يقع تحت حصر مما لا يخفى اليوم على علم الطب في جملتهِ وان خفي عليهِ في كثير من ملابساته ولهذا

قيل الجنون فنون . وزد على ذلك ان درس أحوال الدماغ وسائر الجهاز العصبي — لان الدماغ ليس مستقلاً في الجمجمة كما يتوهم لاول وهلة بل يمتد في اصوله المشتركة الى اعماق الجسم وكل ما يعرض في هذه الاعماق يؤثر فيهِ — قد أبان لنا اموراً كثيرة هي في عداد الغرائب من مثل قراءة الافكار وسرد الوقائع الحاصلة والتأثر بها ولو عن بعد شاسع والاستهواء الخارجي والداخلي أو الذاتي ايضاً الى غير ذلك مما لا يتسع المقام لاستيفائهِ هنا وقد عللنا كل ذلك تعليلاً طبيعياً في مقال ضاف في جريدتنا الشفاء من نحو عشرين سنة واكثر وقد نقله عنهُ المقتطف في مجلد سنة ١٩٠٧ يشمل الكليات ويرجع اليهِ في الجزئيات بحيث تبدو كل هذه الغرائب في حكم المحتمل مع بقائها في دائرة سائر أعمال الانسان الطبيعية فيفسر الجليّ منها بذلك ويبحث عن الغامض حتى ينجلي سره الطبيعي على هذا القياس بشرط ان تتأكد صحتهُ لان الدجل يدخل في كل شيء والكذب كثيراً ما يلابس كل شيء . فالآن وقد تقرر هذا التمهيد الضروري لفهم ما يترتب عليهِ في امر تصريحات ستيد وأمثالها نقول :

ان ستيد الكاتب الشهير والمبرّز في فن التحبير متأثر تأثراً شديداً بتعاليم اصحاب المذاهب النظرية والتي تربيتهُ الاولى وعلومه الادبية وأشغاله الخصوصية ان لم تساعده على تمكينها فلم تعمل شيئاً لتخفيف وطأتها عنهُ مع ما بهِ من الاستعداد الخاص . فقضية النفس والحياة الاخرى كما يظهر من كلامه همته جداً مع الميل الشديد به الى ترجيح الجانب الذي تحلو فيه للانسان امانيهُ وما فتيء طول حياته تحت سلطان هذا الهاجس متردداً فيه بين الشك المكروه واليقين المحبوب حتى اصيب من هذه الجهة بنوع من الهوس امتلكه وغلبهُ على سائر قواه العقلية ووقع به تحت سلطان الاستهواء الذاتي مع استعداده لقبول الاستهواء الخارجي من هذه الجهة خصوصاً

فهو من هذا القبيل معد اعداداً خاصاً طبيعياً لشدة الانفعال وذكاؤه دليل عليهِ . ومكيف له بسلطان فوق سلطان ارادته فزيولوجياً . ومستهوى له من الخارج والداخل طبياً وهذا لا يشين الرجل ولا يمنع كونه من النابغين في فنه . فلا يجزع ولا يتم أنصاره للاخذ بخناقي فقد عرض لاناس مشهورين اكثر منه في التاريخ كقيصر ونابليون وجان

دارك مضطهدة الامس وقديسة اليوم وسواهم انهم كانوا يسمعون اصواتاً ولا مخاطب أو يرون أشياء لا يراها سواهم . ولو أمكن للانسان ان يتحقق بصدق شهادة الآخرين مبهمات شعوره وواضحاته لبدا الامر لكثيرين اكثر مما هو معروف . ولكن اذا لم يخنك الصدق في هذه المسائل فكثيراً ما يخونك كيفية النظر فيها وما آفة الاخبار الا رواتها . فستيد من هذه الجهة أحوج الى طبيب منا الى مثل تصريحاته

فرواية ستيد تحصر في أمرين مهمين أحدهما يتعلق بهِ رأساً كمسألة الكتابة تحت سلطان ارادة صديقته المتوفاة وباملائها وهذا تعليله سهل جداً بالاستهواء الذاتي فكان يفعل ما يفعل من نفسه وهو يظن انه منقاد فيهِ لارادة سواه نعم هو مسخر فيهِ اذا صدقناه وانما هو مسخر لارادته المستهواة

والآخر اتصل اليهِ بواسطة اصدقائه وبالاعتماد على روايتهم واصدقاؤه هؤلاء من جنسه بالاشتغال في هذا الموضوع وقد يكونون اخص منهُ فيهِ اذ قد يكونون أعضاء من الجمعيات الخاصة المشتغلة بهذا النوع من العرافة الشبيهة بالعلمية وكلامهم يحتمل الصدق والكذب فضلاً عن ان المروي عنهم ان لم يفسر طبيعياً أو بالصناعة فهو مع ذلك من السخافات التي لا طائل تحتها . فأصحاب هذه المباحث اما مخرقون وخادعون أو مستهوون ومخدوعون ولا يصح ان يكونوا الا واحداً من هذين الاثنين مهما علا مقامهم . وفي العلم لا يجوز تضحية المبدأ اكراماً لعالم أو علماء مهما ارتفعت مكانتهم — كما انهُ لا يجوز اليوم في عصر الدستور ان تضحى مصالح الامة لخاطر عظيم ولو رزح تحت اثقال النياشين خلافاً لمن لا تزال تستهويهم هذه الاعراض في الامرين حتى اليوم — فان كان اصدقاؤه غير مخلصين فماذا يمنع ان يكونوا نقلوا له كل ما ذكره غير مخلصين ايضاً ان كان ما ذكره مما هو بعيد الاحتمال كأمر الصورة نفسها فليس أسهل من نقلها من صورها الفوتوغرافية بالتحليل والتركيب حتى يعدوا سائر الاعراض ولا تبقى الا صورة الوجه فقط بزي جديد

وأما ما بقي مما يحتمل الصدق والكذب كأمر العلامة الخاصة ورسائل ابنه المتوفي وكرؤية أحدهم لصديقته دون الباقين ففي حال الكذب لا حاجة الى التعليل وفي حال

الصدق والاخلاص فكله محتمل على مبدأ قراءة الافكار والعلم عن بعد وتجسم الوهم بالاستهواء الخ . وقد يكون هو نفسه قد أباح بصورة العلامة الخاصة ولم يدرِ

ثم ان هذه المعلومات نفسها التي أخبر بها ما قيمتها بالنظر الى المعلومات التي لاشك كان ينتظرها من أصحابه المتوفين والتي كانوا هم أنفسهم يعدونه بها . ولو كنت مكان ستيد لما رضيت من أصحابي المتوفين ما داموا قادرين على مخاطبتي الا ان يخاطبوني رأساً وان ينبئوني بالاسباب بكل ما تتوق اليهِ نفسي بالصراحة التامة فيخبروني بمكانهم وحالتهم وانطباقها على المعلوم في هذه الدنيا أم عدمه وينصحوني في ما يلزم وينهوني عما لا يلزم لا ان ينبئوني بأمور مبهمة كالاحلام وبطرائق هي أقرب الى صناعات المشعوذين من العلم . ولماذا لا يفعلون ذلك ويجعلون هكذا حياة اصدقائهم وأقاربهم بل سائر اخوانهم في الانسانية سعيدة في الدارين ؟ — ولعل ستيد نفسه المتحمس في هذا السبيل والمتطوع في هذا الجهاد العلمي من نوع غريب والذي يشعر بنقص كل هذه المخابرات المرغوبة يخبر الناس بعد عمر طويل بما لم يأتهم بهِ بشر من قبل ويحل لهم هذه المشكلة العويصة أللهم الا اذا حظر الامر عليهِ هناك لئلا تفسد على المحتكرين صناعاتهم هنا وقد اعطيت لهم امتيازاتها في عهد حكومة الاستبداد الاسمى . أما أنا فلا أظن ان ستيد مع شدة رغبته يقدر على ذلك لا لهذا السبب ولا لسواه من جنسه بل لانه . . . لا يقدر . . .

هذا جوابي على السؤال الموجه اليَّ في الجريدة وهو الاول والاخير وقد صدرتهُ بمقدمة تمهد السبيل لتفهمه جيداً على اسلوب اقرب الى العلم منهُ الى النظر لأ بعد عني المناقشات التي هي أقرب الى الجدل خصوصاً وان الموضوع على الطريقة التي ينحوها اصحاب هذه المباحث تلذّ المولعين بالغرائب وبقراءة الاقاصيص التي هي أقرب الى الخيال اكثر جداً مما تلذّ لسواهم ممن هم أرغب في المباحث الجافة وأنا لا أميل الى تلك — وكأني اسمعك بعد كل هذا البيان تقول : « عنزة ولو طارت »

المقالة الثالثة والخمسون

﴿ علموهم ولا تقسروهم (١) ﴾

جاء في مقدمة مختنر: « ولا يتوهمن القارئ ان مرادنا بذلك قلب الموضوع وعكس المطبوع قهراً وظلماً اي استعمال القسوة لنفي الديانات على حد استعمالها لتأييدها كلاً ثم كلاً وانما القصد ان الحكومات لا تكره الناس على الايمان ولا تخمد الانفاس عن ابداء ما في الصدور بل تدع كلاً وشأنه وتحاشى الضغط على العقول »

ثم قرأت اليوم في الصحف عن الجالية الايطاليـة في الاسكندرية انها يوم تذكار محررها غريبلدي نصبت في احد معاهدها العلمية أثراً نقشت عليه الكلام الآتي « ان العلم والادب لا يدركان الا بزوال العقائد والاديان »

وقلت في نفسي التطرف من طبع الانسان أولئك اقنعوك بحدّ السيف وهؤلاء يريدون ان يحظروا عليك ان تؤم معهداً للعلم وانت لا تقول قولهم . ومن يضمن لنا ان الذين يقولون هذا القول اليوم لا يعمدون الى نفس البرهان اذا توفر لهم الحول والصول على ان الدين والعلم بريئان من هـذا التحمس . فالدين يدعونا الى الايمان ولكنهُ يقول لنا « لا اكراه في الدين » والعلم لا يدعونا الى الالحاد بل يكشف لنا الحقائق . واذا الدين قال « قاتلوا في سبيل الله » فانما يقول « قاتلوا الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » وهذا من حقوق الدفاع العمومية . فاذا جنى عليه دعاته فاين فضل دعاة العلم اذا حذوا حذوهم ؟ وهل تدرك غاية العلم بذلك ؟

ولذلك لا اظن ان أحداً من كبار الملحدين يصوب هذا العمل لان هذا الكلام معلقاً في مدرسة من مـدارس الحكومة والامة مناف لحرية الفكر التي هي غاية العلم ولا سيما ان مجموع الامة لا يقول كله هـذا القول والحكومة ليست الا ممثلة الامة حتى ولو كانت الامة جميعها على هذا المذهب لما جاز ايضاً لان العلم الذي يعلّمنا احترام حرية

(١) نشرت في الاخبار سنة ١٩٠٧ بتوقيع « المعيدي »

الفكر كيف يجوز له ان يعلمنا الاكراه في الالحاد واذا اجاز العلم لنا ان نفتكر ونقول مثل هذا القول وننشره في الكتب ونعلمه للطلبة حتى في المدارس مبينين لهم وجهُ الصواب فيه أو الخطاء في سواه الا انهُ لا يجيز لنا ان نجعله شعاراً نعلقه على معهد عمومي للتعليم . ألا يرى اصحابنا ان ذلك ضرب من التعصب مقلوب الموضوع . ولقد طالما شكونا المضار التي لحقت بنا من تعصب دعاة الاديان . ودعاة الحرية يريدون ان يعلمونا بصنيعهم هذا التعصب للالحاد . لا لعمري ان ذلك لا يقبله أشد الملحدين تعصباً ولا يقول به منهم الا المتقادون المقلدون لا المفكرون بأنفسهم ومثلهم مثل المتقادين في تعصبهم للدين . فالالحاد وان كان نتيجة العلم احياناً الا انه ليس غرضه بل غرض العلم حل العقل من قيوده ليصير حراً يفتكر لا لغرض معلوم نشأ فيه وتربى عليه بل ليصير قادراً أن يحكم لنفسه بنفسه

وانا لنستغرب منهم ذلك ونحن اليوم في عصر نرى مرجل الافكار فيه في أشد غليانه وكلها متجهة الى غاية واحدة وهي مقاومة التعصب في كل مقاصده . لا في الاديان فقط بل في الاوطان أيضاً لان المصلحين الحقيقيين ينظرون الى العالم نظراً عاماً ويعتبرون الوطن أعم من ان ينحصر في قوم ويقف عند حد من الارض ولذلك تراهم في سائر الممالك يسعون لتحقيق هذه الامال مادين أيديهم الى ما وراء حدودها متصافحين على ما بينها من اختلاف المنازع السياسية كأنهم يريدون أن يحققوا مقاصد كبار الوازعين من اهل الدين بجعلهم الدنيا وطناً واحداً واهلها شعباً واحداً . وكيف يتم لهم ذلك ان لم يلتفوا كلهم حول كعبة العلم الصحيح اذ يتخذونه وسيلة لهدم آخر صرح شاده الجهل في العقل ألا وهو معقل التعصب . فالعلم لا يجوز ان يبني باليد الواحدة ما يهدمه بالاخرى وان يفعل فلا يجوز ان يسمى علماً . فليتوخَّ دعاة الاصلاح هذه الغاية في معاهد التعليم فذلك ادعى لاتساع المدارك والا فهم ناشطون بها من عقال الوقوع في آخر

المقالة الرابعة والخمسون

﴿ نفق اوليفر لودج [١] ﴾

« وهي مقالة خرافية فكاهية »

اذا عدت اكتشافات البشر واعمالهم العظيمة في العصور من اول الخليقة الى اليوم فلا ريب أن هذا النفق الذي انبأنا عنهُ اوليفر لودج العالم الطبيعي الانكليزي والرجل السياسي أعظمها جميعها

الانكليز اشتهروا حتى اليوم باعظم الاكتشافات العلمية الكبرى فنيوتون اكتشف الجاذبية العامة وليل مذهب التعاقب الجيولوجي البطي٬ ولستر مذهب الجراثيم في الامراض وداروِن مذهب النشوء والتحول فلا غرو ان يكون مكتشف هذا النفق اليوم أوليفر لودج الانكليزي

ونفق أوليفر لودج ليس سرباً في الارض يخرج منهُ الى مكان في الارض بل هو سرب بين الارض والسماء يخرج منهُ اهل الارض الى السماء وأهل السماء الى الارض

هذا النفق الذي سيقلب العالم قلباً ويجعل الارض والسماء مشاعاً بين سكانهما — كقنال السويس بعد أقل من ستين سنة — لم ينته الحفر فيهِ ولم تتم به المواصلة حتى الآن ولكنها صارت بهِ على وشك التمام

وهو وان كان العمل فيهِ مشتركاً بين سكان العالمين الاَّ ان الفضل في حفر القسم

---

(١) الف اليوم اوليفر لودج العالم الطبيعي كتاباً في البحث طبع مراراً في مدة وجيزه « ونفق » كالملح وقد لخصه المقتطف الى العربية ومما جاء فيه ان مناجاة الارواح ليست بالامر الغريب . ويظهر ان الصعوبات التي كانت تحول بين البشر وارواحهم في عالم الغيب اخذت تقل اليوم وستصبح يوماً ما امراً سهلا فكأنه امتد بين العالمين اليوم شبه نفق فتح اكثره ولم يبق الا حائل رقيق سيسقط مع الزمان وهو فكر من اغرب ما سمع حتى في عهد الخرافات الميثولوجية وللناس في اهوائهم شؤون . نشرت في الاخبار سنة ١٩١٠

الاعظم منهُ لسكان السماء انفسهم ومن البشر لفئة صغيرة من عمال الانكليز النشيطين كستيد ومن لفَّ لفه

والظاهر من قول أوليفر لودج ان الحاجز الباقي قائماً في هذا النفق والفاصل بين العالمين قد رق جداً ، حتى صار يسمع من خلاله صوت ضرب المعاول من الجانبين وربما صار أرق من دين الكافر ودليله على رقة هذا الحاجز هو سهولة التخاطب اليوم بين البشر في هذا العالم والارواح في العالم الآخر وهو يقول ان هذا الحاجز سيسقط قريباً وربما لا ينتهي هذا القرن حتى تتم المواصلة الفعلية بين العالمين

حينئذ يسهل على ابناء البشر معرفة المخبأ لهم وعلى الارواح ابناء البشر بما ينتظرهم . ولا بد ان افتتاح هذا الطريق يتبعهُ تغير في نظام الارض والسماء واختلاط بين سكانهما فيتحقق في هذا العصر ما أنبئ به منذ القديم من ان سكان الارض سيصيرون بطبائع سكان السماء ملائكةً ويعم ملكوت الله فطوبى للذين يعيشون ويشهدون ذلك

انما يخشى ان السياسة تتداخل في الامر فتدعي دولة الانكليز حق السيادة على هذا النفق وتضرب عليه رسم مرور وتحصر الامتياز فيها لان العاملين فيه من رجالها ومهما يكن من الامر فانها لا تستطيع احتكار هذا الامتياز الا سنين معدودة ثم يصبح المرور مشاعاً للعموم كما هو مصير قنال السويس — قبل ستين سنة — ولو بدفع تعويضات لها يكون القول الفصل فيها للاتفاق الدولي لا لتحكماتها هي نفسها اللهم الا اذا بقيت دولة الانكليز أقوى الدول كافة ولو مجتمعة تحكم فيها كما تريد وهذا بعيد

ويظهر من مباحث المنقبين في العاديات السماوية ان هذا النفق كما في الميثولوجية كان موجوداً في القديم — كما كان قنال السويس موجوداً ايضاً على قول — ثم سدَّ اي النفق لحصول اضطراب بين سكان العالمين كاد البشر يفسدون فيه الملائكة كما في التوراة فصوناً للمصالح السماوية وللفضائل الراقية سد هذا النفق وقضي على الناس ان يعانوا مشقة فتحه مرة ثانية قصاصاً لهم على شرورهم

فعسى ان يتم لهم هذا الفتح اليوم فيعود الناس الى معاشرة آلهتهم كما كانوا في عصور الميثولوجية وعلى عهد التوراة ايضاً ولكن بالمعروف ليستتب لهم الفتح نهائياً من

دون ان يخشوا سداً في المستقبل وكأن البشر اليوم صاروا أصلح حالاً واسهل تمازجاً عن ذي قبل حتى لا يخشى عليهم ان يقعوا في ما وقعوا فيه من الغضب عليهم في الماضي

حينئذ يسطر التاريخ لهذا القرن اعظم عمل قام به البشر حتى اليوم في هذا النفق وينقش على بابه بأحرف من نور اسم أعظم مكتشف ويسمى « نفق اوليفر لودج » ويصبح صاحبنا للاجيال الآتية رابع الثلاثة

هكذا هكذ العلماء النفعيون[١] والا فلا . واعلم ان السخافات ليست كلها في الشرق

المقالة الخامسة والخمسون

المريخ او معمل الحياة[٢]

« انتقادية فكاهية »

علماء هذا العصر متصاعبون جداً لا يتساهلون في قضايا العلم ، فقلما يقبلون قولاً لم يعززه البرهان ، وبرهانهم ليس قضايا منطقية قد تتناهى فتنقلب الى غرابة وسفسطة من مثل قولهم : لك اذن بل اذنان واذن واذنان ثلاث ، اذن لك ثلاث آذان ، بل برهانهم برهان الامتحان ، وهو برهان الحس والعيان ، ولئن كان الحس الظاهر نفسه يخدع ويقع في التوهم احياناً كثيرة ، الاَّ انهُ أقل انخداعاً من المشاعر الباطنة واسلم منها عواقب ، ولا سيما ان المشاعر الباطنة منقادة في أحكامها الى ما تنقله لها الحواس الظاهرة نفسها ، خلافاً لمن يرى لها الاستقلال

ولذلك لما اعياهم سر التولد الطبيعي ، ولم يستطيعوا ان يؤيدوه بالامتحان تلجلجوا ، فوقف بعضهم كما وقف حمار « بوريدان » بين حزمتي الحشيش ، وانضم الى طائفة

(١) لقد جاء هذا الكتاب للناس كحكلا على جرب ولا تسل عن اقبالهم عليه
(٢) نشرت في الاخبار سنة ١٩٠٩

اللاأدريين ، وهي حكمة بالغة سل عنها كثيرين من نواب امة بني عثمان في المبعوثان ، بل سل عنها الحكماء النفعيين ، أي اصحاب مذهب « الأوبرتونيسم » الذين هم في الاجماع على رأي القائل : « لا يترك الساق الا ممسكاً ساقاً » حكمة لولا انها ابلغ من حكمة اصحاب المبادئ ، لما صاغها شعر المولدين في قالب تتبرأ منهُ فصاحة شعراء الجاهلية وان كان يعده البعض بليغاً ، ولكن باعتبار ان البلاغة تناسب بين الصيغة والمصوغ فقط ، ألم يقل شاعرهم ؟

زعم المنجم والطبيب كلاهما ان لا معاد فقلت ذاك اليكما
ان صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالوبال عليكما

والعجيب الغريب ان آفة الفهم لم تأتنا في كل عصر الأ من علماء الفلك واطباء الابدان، مع انهم اقرب الناس الى اختبار عجائب المخلوقات وهم كل يوم معها في شأن ، كأن المثل ما احتقرك الا من خبرك ، وما استصغرك الا من عرفك ، صحيح على سائر احوال الانسان ، ولذلك لم يكن نبي بلا كرامة الا في وطنه

وانقاد بعضهم في الاصول الى علماء الكلام الابعدين الذين لولا هديهم لما وقف الانسان في ضلاله عند حد ، ولكنهم خالفوهم في الفروع ليجمعوا بين النقيضين ، ويمسكوا الحبل من الطرفين ، كما هو شأن الكثيرين في الاجماع وكما فعل داروين نفسه في العلم وبعضهم رأى التخلص بالهروب ، ليدفع الحجة بنفس الحجة ، على مبدأ معالجة المثل بالمثل ، وهذا شأن السير وليم طمسون المعروف باللورد كلفن ايضاً ، وهو من كبار الفلاسفة الطبيعيين والرياضيين . فزعم ان جراثيم الاحياء لم تتولد في الارض وانما اتتنا من بعض الاجرام محمولة على بعض النيازك ، وكأن لسان حاله يقول للذين يشكّون ويستغربون : نحن في الغرابة سواء ، والذي لا يصدق فليذهب يحقق

وأما الذين وقفوا على ارضهم ، كالبلايا رؤوسها في الولايا ، لا يحولون عنها ولا يُثبتون ، وهم مع ذلك يكابرون ويتفلسفون ، كهكسلي وهكل وبخنر ومن تعلق بزمكاهم فلا شك انهم من طينة القذى الذي رسب في قارورة الخلق بعد توزيع النفوس — وما من قاعدة الا ولها شواذ — فانكروا على سواهم ما هم خالون منهُ بحكم الضرورة وبنوا

على الاقلية الشاذة حكماً اطلقوه على الجميع

والظاهر ان العلم لا تهوله صعوبة ولا تصرفهُ غرابة ، فالانسان الذي لم تسعه الارض على سعتها وصغره ، ما زال من أول خلقه يتطاول الى الافلاك ، كأنهُ شاعر ان اصله من العلى ، لعله يصنع له اجنحة يطير بها اليها ، أو مراكب يركب بها الهواء كما يركب الماء ، فيسافر عليها وينتقل بين الاجرام كما ينتقل في القارات والمدن . ولكن ما كل مستطاب هين ، « ولا بد دون الشهد من ابر النحل » وحلاوة استرداد الصحة تنغصها مرارة تجرع الدواء ، فما كاد يتحقق له حلم السفر في الفضاء ويتعرض للغرق في اوقيانوس الهواء ، كما هو يغرق اليوم في محيط الماء ، حتى بدت له صعوبات الحدود ، كأنها سد الاسكندر ، ان وصل اليه ، فلا يستطيع ان يتعداه ، فالهواء لا يتجاوز حداً محدوداً وهو لا يعيش بلا هواء ، وان عرف كيف يذخره لحاجته فأي هواء يركب غير هذا الهواء ، لقطع المسافات ومقاومة الثقل الذي يجذبه الى الوراء ، الى ان يقع في جو يدفعه ناموس جذبه الى الامام أو الى العلاء

ولكن الامل زاد الانسان في دنياه ولولاه لأحجم عن كل عمل فيهِ مشقة ، وقد علمتهُ مكتشفات العلم ومخترعات الصناعة ان لا يجزم بممتنع ولا يستسلم لمستحيل . فأخذ يبحث ليعلم أي الاجرام يقصد اولاً فوجد المريخ اقربها منالاً ، ووجده كذلك أشبهها بطبيعة ارضهِ فوجد فيهِ المياه والثلوج ، والليالي والايام ، والسنين والفصول ، والمروج الخضراء ، ولكنهُ لم يتأكد فيهِ وجود الانسان ، حتى ولا الحيوان البري ، وكانهُ سرَّ من ذلك لانهُ يسهل عليهِ الفتح والاستيطان ، فيخلو له الجو ويستعمر جرماً كبيراً لا ينازعهُ فيهِ منازع ، وأول ما افتكر حينئذ ان يؤلف الشركات لاستثمار تلك المجاهل الشاسعة والمضاربة بها

غير انهُ عاد الى البحث فبدت له أمور كادت توقعهُ في القنوط : رأى الهواء رقيقاً جداً لا تكاد تعيش فيـهِ الا الاحياء التي تعيش بلا هواء ، ووجد الثلوج كثيرة جداً تجعل البرد هناك زمهريراً ، ووجد الليالي والايام اطول منها في الارض والفصول والسنين ضعفي السنين والفصول فيها طولاً ، ووجـد المياه كثيرة جداً تكاد تعم سطح الجرم وهي

قليلة الغور كأنها مستنقعات نهر الغنج لا تعيش فيها الا النباتات المائية كأنها طحالب هائلة واذا كان فيها حيوان فهو من انواع الحيوانات المائية الهائلة ايضاً . ورأى كذلك ان الاجسام تبدو هناك خفيفة جداً لضعف ناموس الثقل ، فيخشى عليه اذا تمكن من الوصول الى هذا الجرم واستيطانه ولم يغرق في الماء ولم يفطس من قلة الهواء ، ان يصبح في جوه كالدمى الراقصة على مراسح التمثيل الصامت (١)

ولكن العلم اوسع في اغراضه من ان تتولاه السآمة من غرض لم ينله فانتبه الى قول اللورد كلفين في مصدر الحياة وقال من يدري فلعل اللورد مصيب في دعواه : فيكون المريخ معمل الحياة الاولى ومهبط الجراثيم التي تولد منها الحيوان والانسان الى هذه الارض لكثرة مياهه ومستنقعاته ، والماء اصل الحياة كما هو مقرر في العلم ، وكما تؤيده الآية ايضاً « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ولكنهُ تبقى لدينا صعوبة نقل الجراثيم من هناك الى ارضنا بحيث تقاوم في مسيرها حرارة الغليان وبرد الزمهرير ، ولعل العلم يكشف لنا في المستقبل امكان بقاء الحياة في مثل هذه الشرائط المانعة كما تحفظ حياة ضيوف « بلوتون » في نار جهنمه ذات السعير (٢)

---

(١) سئل الدكتور فاندبك هل الاجرام السماوية مسكونة فأجاب على الفور « اذا كانت مسكونة أرجو ان يكون سكانها من غير هذا المخلوق اللعين » يريد الانسان

(٢) من ملح العلماء ان بعضهم خطب في جمهور منهم قال ان البرد يتكون من بخار موجود في الخلاء الذي بين الاجرام السماوية . فلما أتم الخطبة حتى وقف اللورد كلفين وقال : أظن ان الخطيب يمزح لانه لو فرضنا تكون البرد في تلك الاعالي لذاب قبل ان يبلغ الارض بملايين من الاميال ولما جلس قام اللورد ريلي وقال أنا اعرف رجلا (يريد به اللورد كلفين) ارتأى رأياً اغرب من هذا وهو ان بزور الاحياء هبطت على الارض من السماء فقال اللورد كلفين أنا لم اجزم بذلك بل قلت بامكانه وبانه لا يمكن ان يقام دليل على فساده . وقد عقب بعضهم على هذا القول بقوله اذا صح قول اللورد كلفين فالقمر اذاً مصنوع من جبن طري لانه لا يقام دليل على فساده انتهى

المقالة السادسة والخمسون

العالم بعد ٦٠ سنة [١]

« او امتياز قناة السويس وحقوق مصر »

ان الناظر الى مصالح الامم والباحث في حقوق الاوطان لا يسلم حكمهُ من الخطل الاَّ اذا نظر الى ذلك من خلال البحث في طبائع العمران ليقف على نواميسهِ في سيره البعيد وعلى تقلباته في اطواره المختلفة . والباحث في ذلك لا يسعهُ الا الاقرار بان حركة العمران الارتقائية اليوم اسرع جداً منها في الماضي

فقد كانت هذه الحركة في الماضي بطيئة للغاية تمر على العمران آلاف السنين وهو واقف لا يتغير سواء كان في علومه او صناعاته او شرائعهِ . يتقلب فيها على غير هدى ويعود فيها من حيث اتى

فكانت علوم اليونان وفلسفتهم وشرائعهم وسائر نظاماتهم حتى اوائل القرن الماضي موضوع بحث الاجيال التابعة يستقون منها ويتخبطون فيها و يتناقلونها لينسجوا على منوالها كأنها الغاية في الكمال والنهاية في الحسن حتى رسخ في الاذهان ان غاية الانسان من ارتقائهِ في العمران هو الوقوف عند فهم فلسفة ارسطو وطب ابقراط وكيمياء هرمس وعلوم ارخميدس . وتطبيق شرائعهِ على شرائع تلك العصور المتحيرة في ظلمات الجهل والموسومة على تباينها بميسم الاثرة والاستبداد

وكانت الصناعات بسيطة جداً وقائمة على استخدام قوى الحيوان والقوى الطبيعية الاخرى البسيطة كهبوب الرياح ومجاري المياه والجاذبية العامة فكان الناس ينتقلون من بلد الى بلد ومن قطرٍ الى قطر على الجمال والخيل والعجلات في البر والمراكب الشراعية في البحر ولا يخفى كم كان يقتضي لذلك من المشقات والزمن مما كان يجعل المسافات بين الاقطار متباعدة جداً والمصالح العامة بين الامم متباينة كذلك

(١) نشرت في المقطم سنة ١٩٠٩ أول ما فتحت مسألة تمديد امتياز قنال السويس

وكانت الشرائع بناء على هذا الفصل والتقاطع بين الافراد والجموع وبين البلدان والاقطار بسبب هذا التباعد اميل الى تأييد المصالح الخاصة المنفردة منها الى تأييد المصالح العامة المشتركة . فكانت حقوقاً ممتازة ينظر فيها الى مصلحة البعض لا الى مصلحة الجمهور والى مصلحة كل بلد لا الى مصلحة العالم . وكانت اكثر الآثار القديمة لخدمة اغراض خاصة لا آثاراً ذات شأن في المنافع العمومية . فكانت قصور ملوك كالخورنق والسدير ومقابر ملوك كالاهرام ومعابد آلهة كبعلبك . بل صار الملك حقاً خاصاً يجيز لصاحبه ان يصدّ بهِ النفع العام . وكما قامت حقوق الافراد على هذا الاساس الواهي قامت حقوق البلدان والاوطان وضحوا بذلك المنافع العمومية على مذبح المصالح الخصوصية

وما زال الانسان في المجتمع العمراني على هذه الحال شرائعهُ لا تتغير لجهله ومواصلاتهُ لا تختلف ومصالحهُ لا تأتلف لبعد المسافات بين البلدان حتى اوائل القرن الماضي فارتقت حينئذٍ علومه الطبيعية واكتشف البخار اولاً ثم الكهربائية ووقف على الرابطة الذي يربط قوى الطبيعة بعضها ببعض فركب البخار وامتطى البرق وانطق الجماد فتقاربت المسافات بين الاقطار المتباعدة وارتقت صناعاته جداً والذي شهدناه من ذلك في النصف الاخير من القرن الماضي وفي العقد الاول من هذا القرن لم يذكر له مثيل في مئات الاجيال بل الوفها . حتى ان الاضاءة التي بقيت آلافاً من السنين لم تتغير السراج الذي كان مستعملاً على عهد الفراعنة هو نفس السراج الذي كان مستعملاً بيننا من عهد اربعين سنة اصبحت في هذه الآونة الاخيرة وامرها كل يوم في شأن من التفنن والابداع وقس على ذلك سائر الصناعات وسائر وسائل الانتقال بين البلدان بالبخار والكهرباء في البر والبحر وفي الهواء أيضاً

وكما انهُ حصل هذا الارتقاء في العلوم والمخترعات والصناعات حصل ايضاً في الافكار فتغير نظر الانسان في الشرائع والحقوق والواجبات . فعلم عن يقين ان حقوق الافراد لا يجوز ان تبتلع في جوفها حقوق الجموع وان المنافع العمومية مقدمة على المنافع الخصوصية وان الشرائع التي لا يتوفر معها كل ذلك يجب ان تمزق تمزيقاً فضعفت سطوة الملوك وما عهدنا بقيام الشعب في وجه تجحج بعض العواهل ببعيد . وعلم ان حقوق

الامم هي فوق حقوق كل فرد مهما تعاظم وحقوق العالم اجمع فوق حقوق كل مملكة .

بل علم ايضاً ان المصالح المختلطة اليوم يجب ان تجعل وطن الانسان العالم كلهُ لا بقعة في الارض نشأ فيها ودب عليها وان لا شريعة يجوز لها ان تحظر عليهِ هـذا الحق الطبيعي المقرر بالعلم والمصلحة اليوم . بل علم الانسان من كل ذلك ان الشرائع السائدة حتى اليوم موسومة بميسم الحيف وانهُ يجوز له الانتقاض عليها دفعاً لشرها وتعميماً لنفعها

وقد بدت في الاجتماع البشري الراقي حركة هي كل يوم في شدة لنقض القديم وتأييد الحديث . والاشتراكية التي تنتفض لذكرها اعصاب الكثيرين اليوم لانهم لا يفهمونها على حقيقتها ليست الا تمخض الاجتماع بهذه المبادئ الحديثة لاقامتها على اطلال القديم الذي لا بدَّ من نقضهِ عاجلاً أو آجلاً ولكنهُ اجل بالنسبة الى نظام الاجتماع قريب . ولا يدري مبلغ سرعة هذه الحركة الانتقاضية الارتقائية الا من تروَّى قليلاً في مبلغ العلوم والصنائع في ارتقائها السريع في هذا العهد الاخير . وسنن الطبيعة في الاجتماع واحدة فهي في سرعتها دائماً بالقلب كمربع البعد بحيث ان الذي كان يلزم له مئات السنين بل ألوفها لأن يتغير في الماضي صار في الامكان اليوم أن يتغير في بضع سنين

وما حملني على هذا البيان الموجز الا ما رأيتهُ من الحركة الانتقاضية الشديدة ضد مشروع تمديد قناة السويس مقابل مبلغ تتقاضاه مصر وتنتفع بهِ قبـل انقضاء اجل الامتياز المضروب اي قبل ستين سنة لا تنتفع مصر فيها بشيء . وعجبت جداً لما رأيت ان اكثر الباحثين في الموضوع وقفوا فيهِ كأنهم في الماضي لا ينظرون الى ما نحن فيـهِ من الحركة الارتقائية الشديدة غير حاسبين ادني حساب لما سينجم عنها من التغيرات الاجتماعيـة المهمة في المستقبل القريب . وفي نظرنا ان الستين سنة اليوم هي بمقام ستة آلاف بل ستين الف سنة من سني الماضي ستصبح فيها المواطن بالنسبة الى العالم كالمدن بالنسبة الى الوطن الواحد وتتغير حقوق المرور بالنظر الى ذلك

فعسى الذين يهمهم امر مصر ان لا يذهب عليهم ذلك لئلا يضيعوا برفضهم حقاً راهناً محافظة على حق موهوم لان قناة السويس صارت اليوم للعالم اجمع من المنافع

العمومية التي سوف لا يقرّها المستقبل القريب انها من حقوق مصر اكثر مما هي من حقوق الصين او اميريكا . فعلى الجمعية العمومية ان احسنت رأياً النظر اليوم لا في قبول هذا العرض أو رفضه بل في تعديله وخصوصاً في كيفية صرفه في منافع مصر فذكّر علها تنفع الذكرى (١)

المقالة السابعة والخمسون

﴿ الى جريدة « الوطن » في بيروت (٢) ﴾

ايها الوطن العزيز

افتقدتك هذه المرة لحسبتك وُهمت بي اني اقول باللاوطنية لحنقت عليّ فأردت ان تختبرني فاحتجبت عني . فقمت ابحث عنك وقد قيل لي انك في شاغل عني بي في التفسير والتأويل في امر لا يحتاج الى تفسير حتى عثرت عليك امس فاذا انت مضطر . وقرأت لك شرحاً يزري « بعرف الطيب » فزاد اعجابي بك ووددت لو اني المتنبي لتكون انت اليازجي . فلا اعدم حينئذ خير شارح لقولي

لا يصلح الانسان مجتمعاً ما دام فيه الدين والوطن

---

(١) ولقائل ما فائدة الشركة من تمديد الامتياز وتحمل هذه الغرامة الزائدة اذا كان لا بد من سلبه منها قبل ستين سنة والجواب على ذلك ان الحال لو بقيت على ما هي عليه اليوم بين الشركة ومصر لسهل على التجارة الدولية سلب الامتياز ودفع التعويض اللازم في مدة قصيرة واما لو تم الاتفاق على التمديد وقامت الشركة باصلاحات اخرى استوجبت زيادة نفقات على القنال فان هذا التعويض يصبح اصعب ويجيز للشركة الانتفاع من امتيازها مدة اطول تستفيد منها فوائد مالية جمة لا تستفيدها هي ولا مصر ايضاً اذا بقيت الحال على ما هي عليه الآن

(٢) كانت جريدة الوطن البيروتية نشرت ابياتاً لي جاء في مطلعها

لا يصلح الانسان مجتمعاً ما دام فيه الدين والوطن

وكأن الناس هناك انتقدوا عليها ذلك فكتبت مقالة بليغة بينت فيها صواب القول من الوجهة العملية وكانت الجريدة تصلني بالترتيب الا هذه المرة فقمت ابحث عنها حتى وجدتها فكتبت المقالة المذكوره اعلاه وقد نشرت في الاخبار سنة ١٩١٠

كما لم يعدم المتنبي خير شارح لقوله

فلو سرنا وفي تشرين خمس رأوني قبل ان يرَوُا السماكا

وعذرتك ولم اعذل الدافع او الدافعين لك الى تسنم هذا المركب وقد رأيت ذلك «الموكب» على باب «الاتحاد [1]» بل كان لهم فضل الكير ولك فضل النار لازالة الصدأ عن حديد الافكار الراكدة في مستنقع الاقتناع

مسألة الدين والوطن مبحث وعر المسالك ومجرد ذكر اسمهما يقلق الافكار المطمئنة ولو انهما بحالة اجتماعية لا تحمد ولا توجب الاطمئنان حتى انهُ تنسد لديهما منافذ العقل ولا تبقى سوى عواصف العواطف . مع ان المسألة بسيطة جداً ككل الحقائق فالدين للآخرة والوطن للدنيا . والذي يهم الانسان منهما في هذه الدار هو اصلاح حاله مجتمعاً ولا ينكر ان غرض الشارعين كل بحسب روح عصره كان هذا . ولا ينكر كذلك انهم جاؤا من اول الخليقة الى اليوم متعاقبين لاجل هذا الغرض وقد رأوا تعذره على من تقدمهم أو اختلاف الحاجات بحسب المواطن والعصور . جاؤا متفقين في الكليات مختلفين في المرغبات والجزئيات ولكنهم جميعهم لم يفلحوا بجعل العالم ديناً واحداً ووطناً واحداً فقامت الاختلافات بين الاديان والمذاهب والمواطن عراقيل في سبيل ارتقاء المجتمع فرأى العلم ان لا سبيل الى ذلك الأ بفصل الدين عن الدنيا أولاً فاخذ يبث تعاليمهِ الصادقة الحرة والناس يدخلون فيها افواجاً وكلما زادت بينهم انتشاراً زادت حالهم في مجتمعهم صلاحاً ثم رأوا ان العلم كلما انتشر قلل الفواصل بين الاوطان وذكروا ما كان تخاصمهم بسبب ذلك يجر عليهم من الشقاء ورأوا مزايا التعاون الكلي فمالوا اليهِ ورأوا انهم كلما مالوا اليهِ قل شقاؤهم وكادوا يكونون سعداء ورأوا كذلك ان الاتفاق ممكن وليس حلماً فلم يعد يستهوي العقلاء تعليم آخر في مجتمعهم سوى تعليم العلم الذي اعتبروه انه الدين الحق الذي يستطيع اتيان هذه المعجزة التي عجز عنها سواه وارصدوا كل قواهم له وعلقوا كل آمالهم بهِ وتركوا للدين الغاية الاخروية يتعلق بها من شاء على شرط ان لا يتذرع بها

(١) اشارة الى ما كان قد وقع في هذه الاثناء من تجمهر الناس وهجومهم على مطبعة جريدة الاتحاد ببيروت بدعوى الدين

لما كسة سواه في دنياه كل يبث تعاليمه كما يتراءى له والا اشتد التنازع بينهما على نفقة المجتمع المسكين الى ان تتم الغلبة لاحدهما ولكن كلما اشتد التنازع دان حلول اجل وقرب حلول اجل والغلبة النهائية اليوم للعلم لا محالة

وبالحقيقة اذا نظرنا الى الدين والوطن نظراً اجتماعياً فان لم نستطع ان نجعلهما وسيلة لترقية المجتمع — وكيف يمكن ذلك مع اختلاف الاديان وتفرق المذاهب وهو لا يرتقي الا بالتعاون — فما الحكمة من الوقوف بهما سداً في سبيل كل اصلاح ؟ فاذا لم نفصل الدين عن الدنيا واتخذناه كما هو اليوم وسيلة للشقاق ولم نتوسع بالاوطان فصددنا بها عنا غوث المدنية بسدود التعصب ولم نقتبس من محاسنها ما يجعلنا شركاء في العمران متضامنين متساوين في المساعي واستمسكنا بما يجعلنا أعداء متخاذلين ونحن لا نستطيع ان نكون الأ متفاضلين فماذا تكون النتيجة على المفضولين سوى خسارة الدين والدنيا معاً ؟ ولا يفعل ذلك الاتقياء العقلاء من اهل الاديان والمخلصون في حب الوطن ولا يفعله — وهم العدد الاكثر — الا الجهلاء منهم ولا سيما المنافقون المتاجرون بهما الذين اذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون . هؤلاء هم الذين في كل امة وزمان يتذرعون بعامل الدين والوطن ويسطون بهما على الاغرار ويلصقون بهما العار فيهدمون المجتمع ويهدمون الوطن ويهدمون الدين نفسه ليبنوا على اطلالها عروشهم الى حين . وكم قامت أمة على امة ومملكة على مملكة ومذهب على مذهب لعلة دينية او وطنية طفيفة كان يمكن حلها لمصلحة الاجتماع على اسهل سبب مع بقاء الدين ديناً والوطن وطناً . وماذا يمنع اعتبار العالم كلهُ وطن الانسان الاكبر من اشتغال هذا الانسان لوطنهِ الاصغر ؟ ألا يشتغل الانسان اليوم لوطنهِ وهو يشتغل لنفسه معتصماً في بيتهِ ؟ نعم انهُ يشتغل لنفسه حينئذٍ أحسن ويكون ارتقاؤه اسهل كذلك

وقد كان الناس في الماضي لا يدركون ذلك فكانوا لاقل سبب يخدم افراداً منهم ولا يخدمهم يمثلون بانفسهم وبوطنهم وبالمجتمع كلهِ . ولكن الانسان كلما ارتقى في العلم علم مزايا الارتقاء بالسلم اكثر . والامم الراقية اليوم اميل الى التنازع العلمي والمباراة باتقان العمل ولو أبرقت وارعدت منها الى التنازع بالحروب حتى غلب بفضل العلم على المجتمع

اليوم الارتقاء بالنشوء التحولي على الانتقال بالثورات الهمجية

هذا من الجهة الاجتماعية . ولقد اجدت ان الكلام فيها . واما من الجهة العلمية البحتة فلا اعلم السبب الذي يثير الضغائن والاحقاد اذا تراءى للبعض ان الاديان متحولة عن الاوهام في الماضي وابدى رأيهُ في ذلك بصراحة حتى يقوم عليهِ الناقمون ويصدعونه بالكثرة ويحجونه بالقوة وماذا يضر ذلك باعتقادهم الخاص والمقام حينئذٍ يكون افسح لهم . يدعون بعضهم بعضاً الى المزاحمة هناك على كنز دائم وهم هنا لا يطيقون المزاحمة على كنز فانٍ . فيا للعجب من هذه المفارقات : استئثاريون الى حد الجشع هنا واشتراكيون بل اباحيون هناك ! فليستبدوا باموال الامم وليشيدوا بها المعاهد على ما يهوون لترسيخ تعاليمهم في الافكار وليستدروا بها المزيد وليلوذوا اليها وليقصدوها لقضاء مآربهم وليحرموا المجتمع من كل ما هو باحتياج شديد اليهِ بشرط ان يعلموه مع ذلك التساهل حتى يستطيع سواهم ان يرفع صوته أيضاً ويبدي رأيهُ بدون ان يكون عرضة للمثالب والتضييق حتى يعدم الصدق بين الناس ملاذاً وينتشر الرياء وتصير الحكمة مداجاة ونفاقاً . وما اعجب مما تقدم الا خوف الراقين منهم على الاخلاق والآداب اذا تراخت المبادىء الدينية . فلقد ربينا حتى اليوم في مهدهم واغتذينا بلبانهم كل هذه العصور الطويلة — فهل نحن اليوم — ونكاد نبصر قليلاً اسوأ حالاً منا في الماضي كلا نحن اليوم أصلح حالاً ومن المسئول عن البقية الباقية الفاسدة الكثيرة فينا سواهم ؟

المقالة الثامنة والخمسون

﴿ ساعة في الماضي [1] ﴾

مللتُ الخروج ولو الى الحق وغلبتني عوامل الرجعة ولو انها ردة الى الباطل فرأيت الناس يفخرون بأجدادهم ولو انهم بهم بئس الاحفاد فتولتني السآمة من حقارة النسب ولو زانها كرم الحسب فقمت ابحث في كتب الحكماء لعلي أهتدي الى شرف عظامي

(١) نشرت في الجريدة سنة ١٩٠٩ وهي فكاهية خرافية انتقادية

اضمهُ الى فخر عصامي فوجـدت اني من سلالة الا لهة يوم فتنوا باخلاط الناس فلذت بأجدادي وزهوت بهم على كل مخلوق وضيع من ابي البشر الى الذي أبى وتكبر وكان مقره بهم النار و بئس المستقر . وعلمت ان الطب ليس من موضوعات الناس كسائر صناعاتهم بل هو صناعة سكان الاولمب وان أهله هنا من اهله هناك تربطهم فوق صلة العلم صلة الدم فهم أحق بتفهم الداء ووصف الدواء لا كالدعيّ الذي يندس بينهم ثم يرميك بدائه وينسل

فعلمت ان هرمس رب البلاغة والبيان الذي تخرج من فمه سلاسل الحكمة فتقيّد اللسان وتعصمهُ عن مواقف الخطل ومواطن الزلل اشفق على البشر فنقل اليهم من صناعة الآلهة على ما رواه القديس اكليمنضوس الاسكندري كتباً ستة في التشريح ومنافع الاعضاء والطب والجراحـة وأمراض العين وطبابة النساء ضمنها كنوز اختباره واختبار اخوانه الاطباء في السماء اذ ان كثيرين من الآلهة كانوا يحترفون هذه الصناعة الشريفة. وأشهرهم فيها بلا منازع الجراح الشهير الاله « بيون » وقد داوى كثيرين من الآلهة المشاغبين فشفاهم من جروحهم التي كانت تعرض لهم في خصامهم بعضهم مع بعض ومع البشر انفسهم وقد ضم الى عيادته الالاهة « ديونه » الجميـلة فكانت تساعده في تضميد الجروح

فالآلهة وان كانوا معصومين من الموت الا انهم لم يكونوا في عصمة من المرض بل كانوا يتألمون في حياتهم الخالدة كسائر الناس ويقصدون الطبيب متكعين ملتمسين الشفاء منـهُ نظيرهم والامثلة على ذلك كثيرة . فان « فولكان » بن « جويتر » من «يونون» ولد شنيعاً جداً فلما أبصرته أمهُ راعها ما في صورته الجاحظية . . . . . من القبح فرمت بهِ من عالي كرسي مخاضها الى بحر الظلمات (البحر المتوسط اليوم) فتهشم وبقي اعرج اكسح طول حياته

و « هرقل » قصد ان يزور « اتروبوس » احدى غزّالات خيط الحياة في الجحيم وكانت من غزالات حبال الهوى ايضاً فاعترضهُ « بلوتون » في الباب فطمنهُ هرقل طعنة نجلاء ادمت كتفهُ اليسرى حتى اخلى له السبيل فداواه « بيون » بلسمه العجيب وشفاه

في الحال . ثم انتقم بعد ذلك من « هرقل » فطعنهُ برمحهِ طعنة لولا صناعة « اسكولاب» لما نجا بها من العرج

وفي الحرب التي نشبت بين الاغريق والترواديين زجّ « مارس » اله الحرب نفسهُ بينهم فرماه « ذيوميد » بضربة مقلاع محكمة اصابت بطنه فأخذ يصرخ من الألم كائنة الف رجل معاً حتى ملأ صراخه الفضاء ثم هرع والقى بنفسهِ بين يدي الجراح الشهير « بيون » فداواه بمساعدة الفتاة الجميلة « هيبة » وشفاه

ولم تكن الالاهات انفسهن اقل تحمساً من الآلهة انفسهم فكنَّ يخضنَ معامع الحروب نظيرهم و« فنوس » ذات الجمال الباهر لم يشفع جمالها بها لدى « ذيوميد » القاسي فطعنها طعنة شلت يدها فأدركتها « ديونه » ذات الحنان والمتطوعة في جمعية الصليب الاحمر الاولمبي وضمدت جراحها وشفتها . و« يونون » ذات الكيد الذي يضرب بهِ المثل وأم النساء بذلك خانها الهوى فاستقبلت في ثديها الايمن سهام قوس « هرقل » فداواها رئيس الجراحين « بيون » وشفاها

ولم يكونوا يداوون العلل الجراحيـة فقط في المستشفى الاولمبي بل كانوا يداوون الامراض الباطنية أيضاً واخص الامراض التي كانوا يداوونها الامراض العصبية خصوصاً امراض العقل . وقد كان « باكوس » اله الكرمة وسيد المصابين بهذيان السكارى من أعاظم مشاهير المجانين وقد عرض له وهو في « دلفوس » نوبة جنون قتهيأ له ان يبلع المسافات بلعاً فأخذ يطوف في العالم وهو يعدو عدواً سريعاً فالتقى باثنتين من اخواته فأمسكتاه وكانه وقع بهما في شرك النخاسين . ولكن « جوبيتر » أبا الآلهة الشفوق رأف بهِ وأعاد له العضو المفقود وشفاه

وهرقل سيد المشاغبين جنّ لكثرة ما قاسى من المشقات في وقائعـه الكثيرة وفي نوبة من نوب جنونه المطبق ألقى بأولاده من وصيفته « مغار » في النار . ولكن جنونه لم يطل بهِ بل انقلب الى نوب صرع وقد شفاه من احـداهن مرة المدعو « انتيسير » اذ سقاه مقادير كبيرة من الخربق الاسود ولكن نوب الصرع عاودته بعـد ذلك ولم يشف منها تمـاماً الاَّ بعـد ان أكل مخ الطير المعروف بالسماني بناء على اشارة

صديقه « بولاس » أول واضع لطريقة علاج الاعضاء بالاعضاء المماثلة المعروفة « بالأوبوثراپية » اليوم

و « سرس » الاهة الحصاد كان بها وسواس سوداوي شديد فكانت تجلس دائماً الى حجر مقطبة الوجه وبينا هي على هذه الحالة من اليأس التقت بها عجوز تدعى « بوبو » فوقفت ترقص امامها رقصاً جمع الى براعة الافرنجيات خلاعة المصريات حتى أضحكتها وأزالت ما بها من العبوسة

ولما كان الناس غير معصومين من الموت عصمة الآلهة انفسهم كانوا بحاجة الى التداوي اكثر منهم وكان منهم اطباء كثيرون وكانوا يشترون الادوية من هيكل الحي كما يشترونها اليوم من الصيدليات و « أونون » وصيفة « ابولون » تعلمت من عشيقها خواص المفردات ووضعت أساس علم العقاقير النباتية ولكن الناس رأوا ان علمهم هذا لا يكفي لان يدفع المرض والموت عنهم فلاذوا كما لا يزالون يفعلون اليوم بقوى ما فوق الطبيعة يستنجدون الآلهة في أمراضهم وكانوا يضعون كل عضو من أعضائهم وكل وظيفة من وظائف جسمهم تحت سلطان إله خاص فقد كان عندهم إلاهة للعظام تدعى « اوسيلاغو » يلتجئون اليها في الكسور والخلوع والصدوع . وإله لصيانة عفة العذارى اسمهُ « هيمن » وإلاهة لعلل النساء تدعى « منة » وإله كثير الطرب بالموسيق اسمهُ « كربيتوس » لمداواة القراقر والرياح الباطنية !!

وكان لهم اطباء مشاهير مثل « بايس » الذي درس الطب حباً بأبيه ليطيل حياته و « كوسيت » تلميذ السنطور (وهو الخليط بين الفرس والانسان) « شيرون » والذي يرجع له الفضل في رد الحياة الى «ادونيس» الجميل عشيق «فنوس» وقدجرحه «مارس» غيرة منهُ وقد ظهر له بصورة خنزير بري في غابات لبنان . و « بودالير » الذي ابنهُ هيبا كون الجد الثاني للجد الثالث لبقراط

وكانت أمراض تلك العصور الميثولوجية كثيرة الشبه بأمراضنا اليوم فالنساء في ذلك الزمن كنَّ يشكون النمش كما يشكونهُ اليوم مثال ذلك « فاس » اخت « عولس » فلم يكن شيء يعزيها عن هذا المرض الذي افقدها صفاء لون وجهها وروائع جمالها وكان

كل مقترب من مغارة اللص « تمريوس » يحس بمطرقة الصداع تعمل في رأسه حتى قتلتهُ « تزت » فازالت المسبب بازالة السبب . وكانت الفصادة المهملة اليوم فوق اللازم كثيرة الاستعمال في تلك العصور وقد شفي بها « بودالير » « دمثوس » ملك « قاريا » من مرض حار فيهِ الاطباء فكافأه بأن زوجهُ باحدى بناته وبعد خمسة اجيال منها ولد أبقراط

« وعولس » نفسه لم يكن طبيباً ولكنهُ اقتبس من معاشرته الاطباء اموراً كثيرة نافعة وقد داوى مرة « تلفوس » من جرح نبلة اصابتهُ فشفاه بمرهم صدأ الحديد على مبدأ « وداوني بالتي كانت هي الداء » وكانوا يداوون بهذا الصدأ اصحاب ضعف الباه يسقونهم الخمر وقد اطفي فيها الحديد المحمي كما يداوون اليوم أصحاب ضعف الدم بالانبذة الحديدية اما النساء العواقر فكنَّ يستشفين بالسحر وزيارة الاماكن المقدسة كما يفعل كثيرات اليوم

ومن حوادث الشفاء الشهيرة في القديم شفاء « فيرون » بن « سزوستريس » ملك مصر فانه عمي فوصفوا له ان يكتحل بمستقطر كل امرأة لم يقربها غير رجلها فبحثوا في كل جهة وتجاوزوا ينابيع النيل حتى عثروا اخيراً على ضالتهم لا في شخص الملكة بل في شخص امرأة رجل بستاني فقير . ولما شفي الملك تزوج بها ثم احرق كثيراً من النساء اللواتي اعتبرهنَّ علة عماه وهنَّ في قيد الحياة

والارق الذي اضنى العاشق « تريتولم » وكاد يقضي عليهِ من اليأس شفي منهُ بقبلة من « سيرس » وبمثل هذا العلاج شفت هيلانه الجميلة « تليماك » الحزين بان سقتهُ نبيذاً مضمخاً بمعسول اللمى و « باتوس » الاخرس حلت عقدة لسانه من رؤيتهِ لاسد غضنفر اعترضهُ في الطريق ومعلوم كذلك ان « بنولبس » فقدت ذراعها فاعتاضت عنها بذراع من عاج . و « اشيل » فقد عظم عقبه فوضعوا له عقباً جديدة . واذا استقصينا البحث وجدنا ان كل الطرق الشفائية المعروفة اليوم كانت مستعملة في الطب الميثولوجي فلا جديد على وجه الارض

المقالة التاسعة والخمسون

﴿ آيات العصور الميثولوجية (١) ﴾

ألا قل للذي ادعى انهُ ارتقى ، فما برّ وما اتقى ، انك قد ضللت الهدى ، فقد كان الانسان أعزَّ في ما مضى ، فضلَّ وغوى ، فذلَّ وساء مصيرا

فلقد كان آباؤنا غطارفة الارض وابطال الوغى ، اذا مدوا بأيديهم الى المجد استطالوا الى العلى ، وان حدثتهم نفوسهم الكبيرة اضطربت احشاء الجحيم ، فانخلع قلب « بلوتون » رب السعير هلعاً ، وقلق سكان « الاولمب » ووقع جوبيتر القدير في التفكير

وكان الآلهة يدانونهم ويختلطون بهم ، ولهم معهم كل يوم شأن . يطارحونهم الغرام في الغياض والرياض ، على ضفاف الانهار وفي ظلال الاشجار ، وحول جداول الماء المترقرق على حصباء كأنها حصى الدرّ . وينفرون عنهم الى الغابات ويظهرون لهم بمظاهر الوحوش الضارية للايقاع بهم ، أو يختبئون لهم فيها جآزر بعيون المهى لاخذهم في شراك الهوى . فاذا ملّوهم وأرادوا الاحتجاب تجلوا لهم من وراء الغيوم اصواتاً قاصفة كهزيم الرعد ، أو من خلال الهشيم لساناً مندلعاً من نار ، أو شهاباً منبثقاً من نور ، آيات بينات عذاباً لقوم وهدى لآخرين ، ولا يستنكفون ان يمازحوهم بالكلام ولو على لسان حمارة بلعام

وأما اليوم فبئس ما انحط اليهِ الانسان ، دودة تدب على الارض وتسعى ، منها المبدأ واليها الرجعى ، فنفرت الآلهة عنهُ ترفعاً الى سماء اولمبها واحتجبت وراء جبلها المقدس وحجبت عنهُ آياتها الا من مثل ما اوحي بهِ الى ستيد الغبين ، وما هو من ذلك المعدن الكريم الا سحالة ومن تلك الكاس المترعة الا ثمالة . انحط هذا الانحطاط وما درى وبات مع ذلك فخوراً

فزعم انهُ بلغ من العلم حداً قصياً وانهُ امتلك ناصية المعجزات ، وكشف اسرار الكائنات ،

(١) نشرت في الجريدة سنة ١٩٠٩ وهي كسابقتها خرافية ميثولوجية

وغره انهُ حدد بصره بالآلات المخترعات . وترامى بهِ بين الاجرام . فما هي الا عشية أو ضحاها حتى استدناها وقاس ما بينها من الابعاد كانها منهُ على قاب قوسين أو ادنى. ونزل بهِ الى قلب الاجسام المصمتة ففتح المغلق ثم استنطق الطبيعة الصامتة فما لبثت ان تكلمت وباحت له بسرها المكنون . ووقف على سر نشوء الاحياء فدفعهُ الغرور من خلال ذلك الى تنسم سر التولد . وقرأ المطبوع على صفحات الهواء بخطرات الكهرباء فانكر الممتنع . وقرأ ما في الضمائر من اختلاج الافكار ، وعقد النيات في القرب والبعد فقال اني والعالم واحد . واطنب بهذا الارتقاء يفاخر بهِ السلفاء

وما آيات علمهِ التي يفتخر بها اليوم الا مما يزدرى بهِ اذا قيست بآيات العصور الميثولوجية معجزات مبتذلات بالقياس الى تلك المعجزات . فقد كان في تلك العصور طبقة من الناس فوق البشر واقرب الى الآلهة ، تتصرف بقوى الطبيعة العمياء كيفما تشاء من دون علم وعناء . فالساحرة « سرسه » على رواية هوميرس كانت تخضع لارادتها حركات الكواكب ، وتغير مجاري الانهار ، وتعرف خواص الحشائش السامة . ولم تكن مع ذلك معصومة من داء الغرام ترتكب فيهِ المحرمات الى الدرجة القصوى فكأنها بهِ أم بعض ملكاتنا المغرمات الجانيات الشهيرات في التاريخ . فكانت تقطن احدى الجزر وحولها اربع من الحور الحسان يخدمنها وهنَّ على شاكلتها ولم يكن بينهنَّ رجل فكنَّ يرقبنَ فيهِ الاقدار ، وويل للذي كانت تدفعهُ الامواج الى شاطئهنَّ . ولولا ان الاله « مرقوروس » رأف « بعولس » فزوده لسفره بترياق يقيهِ من شر « سرسه » لما نجا من سحرها بعد ان هاجت عليهِ البحار واوقعتهُ هو ورجاله في شركها ولكي تستبقيهم عندها ابتدأت بان مسخت رجاله خنانيص واستبقت « عولس » على نية ان تمسخهُ هو ايضاً ولكنهُ دفع سحرها عنهُ وعن رجاله بترياقهِ فردهم الى حالتهم الاولى الا واحداً اسمهُ « غريلوس » ابى كأنه لم يرَ فرقاً بين الانسان والخنزير الا في الصورة فقط

وجوبيتر اكبر الآلهة علق قلبهُ بهوى انتيلوب ، ولكنهُ لم يشأ ان تكون صلتهُ بها الا بصورة « ساتير » فمسخ نفسهُ نصف خنزير واولدها اثنين على صورته هذه وكأنهُ رأى «اوربا» ملت صور الرجال ، فشاطرها قلبه ، الذي لم يكن يملأه شيء — كبرميل

« الادانئيد » السائب من قعره— وهو بصورة ثور . وكان على جانب من المجون، يحب ان يلبس لكل حالة لبوسها فعلق ذات يوم بالفتاة « كليتوريس » وهي ذات قوام دميم جداً فطلب اليها ان يكون برغوثاً فأبت الا ان يكون نملة فتم لها ما ارادت

و « يونون » امرأة « جوبيتر » ذات الكبر المشهور لم تكن حسنة الاخلاق كبعلها ويوم زواجها ابطأت احدى الحور المدعوة « كيلوني » عن حضور حفلة العرس فمسختها في الحال سلحفاة وانتقمت من معشوقات بعلها فسخت « ايو » بقرة ثم مسخت « كليستو » دباً ثاني يوم ولادتها لابنها « باكوس »

أما « باكوس » هذا فكان عنوان الظرف فجذب قلب « اريغونه » بان تحول هو نفسهُ عنقود عنب . ولما مات صديقه « امبل » حول جسمهُ الميت الى كرمة حتى يتذكره دائماً في مجلس شرابهِ وتحويل الحور من غير الكحول لاجتذاب القلوب القاسية وامتلاك القلوب اللينـة كثير في اساطير الاولين و « ابولون » كان يحب الزهور كما كان باكوس مولعاً بالخمرة . فلما غضب على معشوقتهِ « كليتيا » لفرط غيرتها حوّلها الى الزهرة المعروفة بالاليوثروب اي دوار الشمس لتبقى متجهة دائماً نحو الكوكب الذي كانت تعبده كما انهُ حوّل « اكايثه » الى النبات المسمى بهذا الاسم

و « ديانة » الغزالة الشاردة غضبت على « اكثيون » لما فاز عليها في القنص فحولتهُ الى ايل . وفنوس، ربة الجمال والاهة الحب مسخت « انكزرتوس » حجراً لان عينهُ لم تدمع وقد مرت جنازة فتى كان يهواها فاولتهُ صدوداً واما « ادونيس » الذي كانت تحبهُ فلما مات مسختهُ شقائق النعمان . و «نبتون» اله البحر تحول ثوراً لكي يمتلك قلب «ارنه» « ومارس » اله الحرب غضب على الكتريون ، لاهماله مراقبة رجوع « الاورور » اي الفجر فمسختهُ ديكاً حتى لا يفوتهُ ذلك في المستقبل . و « منرفا » الاهة الحكمة ساءها تفوق « ارخنة » عليها في صناعة النسج فمسختها عنكبوتاً وايزيس المصرية حولت الفتاة « ايفيس » يوم زواجها رجلاً نكاية بخطيبها .وفي اساطير البوذيين ان « قادومة » امرأة «شريزة» تحولت الى انثى قرد لكي تلد الجنس البشري ومنها ولد داروين واولاده فيلزمنا والحالة هـذه ولا حياء في قول الحق ان نعترف بأن هذه التحولات تفوق

جداً كل ما يستطيعهُ تصور دماغ أعظم عالم اليوم نشوان بخمرة العلم معجب بهِ وليس بين علمائنا من يجسر ان يقول انه رأى في معمله تحولاً او شبه تحول من مثل ذلك وقع لاقل كرية من كريات الاجسام الحية . ولقد ادعى بعضهم انه رأى الحياة تتولد في قارورة اختباره وما هو بالحقيقة الاَّ واهم ومن منهم اتصل ان يغلب الموت ؟ وأما في العصور الميثولوجية فقد كانوا ارقى جداً منا اليوم واحياء الموتى كان عندهم شيئاً عادياً مبتذلاً ميسوراً للغاية

وفي الحرب بين جوبيتر ابي الآلهة والجبابرة الذين ارادوا ان يصعدوا الى السماء على جبال اركموها بعضها فوق بعض اخذ ابن ساتورن اسيراً وقطع ارباً ارباً وحفظت قطعه بعضها الى بعض كما كان حياً ، فخاطها « مرقوروس » واعاد له الحياة . كذلك فعل الجبابرة بباكوس فاحياه جوبيتر وفوق ذلك اعاد له العضو الضائع وكان اخواته قد رمين بهِ بعيداً في تيرينيا

ومثل ذلك حصل لبلوبس بن تنتال ، وقد قطعهُ ابوه طعاماً لضيوفه فعرف المدعوون بالامر قبل الاكل فهاجوا وماجوا وجمعوا الاعضاء الى بعضها الا الكتف فكانها وقعت في يد من يعرف « من اين تؤكل » ، الا ان جوبيتر صنع له كتفاً من عاج وقد احكمت « منرفا » تركيبها بهِ

ولقائل ان هذه المعجزات من صنع الآلهة وأين منهم البشر ؟ على ان التاريخ فيهِ كثير من حوادث احياء الموتى بقوى اقل من القوى الالهية

حكي عن « هرقل » انه قتل بقرا « لبلوتون » وبحث في دمها واستخلص منهُ مادة ترد الحياة للاظلال التي تقطن على ضفاف نهر الستيكس في الجحيم . و « بوليد » الساحر الشهير في بلاط الملك مينوس رأى صلاً ميتاً أتاه صل آخر ولمسهُ بحشيشة معلومة فاحياه فاقتبس ذلك عنهُ واحيا بهِ غلوقوس بن مينوس سيده وكان قد وقع في برميل عسل وفطس . ويحكى ايضاً عن « اغاميذ » ابنة « اوجه » ملك « ايينس » انها تعرف بعض حشائش تحيي بها الموتى وكان عندهم في القديم عين تسمى عين ماء الحياة وماء الشباب ايضاً فاذا شرب منها القائل

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم

واذا بهِ شاب غرانق وقد صار عشاه حوراً معروفاً وانحناء ظهره قواماً موصوفاً . ولكنهم ما لبثوا ان اهتدوا اليها حتى ضللتهم الالهة لئلاً يشاركوهم في ملكهم

مسكين قارئ كتاب (اسرار الكون) اليوم بالقياس الى قارئ كتاب (عجائب المخلوقات) في الماضي !

المقالة الستون

« حكم كاذب [1] »

كذب القضاة . وكذب الاطباء . وصدق المال.

برأ المحلفون « ثو » قاتل مقلق راحتهِ ومثير غيرته . ومراود امرأته . والمتباهي بفعلته . والمتناهي في قحته

كذب القضاة — لا لانهم برؤه — بل لانهم فقدوا في حكمهم كل شجاعة فلم يصغوا الى صوت الضمير وحكم العقل

وكذب الاطباء — لا لنسبتهم الجريمة الى جنون طارئ عليهِ بل لاعتبارهم الجنون فيـهِ ملازماً

وكذب « ثو » لانهُ بعد ان ارتكب الجريمة وثاب اليهِ رشده جاراهم . وجبن لانه لم يقض عليهم بالقضاء عليهِ

ولم يصدق الا «قاضي الحاجات» الذي يحل شاش ... القاضي ويعقد لسان الطبيب ولماذا هذا ؟

لان شرائع الانسان تريد ذلك

الانسان لا يخجل من الكذب نفسه . امام نفسه . بل يخجل بالنظر الى سواه . فاذا

(١) نشرت في المؤيد سنة ١٩٠٨ على اثر حكم القضاة بالجنون على « ثو » قاتل عشيق امرأته ومهينها في حضرته كان لم يكن لهم مخرج آخر في القاتل اصوب وأنزه وارفع

وجد لنفسهِ مخرجاً فيهِ لم يخجل منهُ . فهو يخجل من الصورة لا من الحقيقة . ومن العرض لا من الجوهر . لذلك كان في كل افعاله تحت هذا السلطان

« ثو » ليس بالمجنون فيعامل كالمجانين . والاَّ فالناس جميعهم شركاؤه في مثل ظروفهِ . وهو هنا ليس بالمسئول حتى يجب عليهِ القصاص

الانسان مهما عقل فلا ينجو من ان يكون تحت تأثير عوامل اشتداد الحاجة وتهيج العواطف

اذا عض الجوع انساناً بنابهِ . او ثار بهِ الغضب الى الدرجة القصوى فارتكب الجناية سداً لجوعهِ واطفاء لغضبهِ — فهل يعد مجنوناً ؟

ولماذا المسوغات التي دفعت (ثو) الى ارتكاب جنايتهِ لا تنجيهِ من القصاص الا اذا قضينا عليهِ بالجنون المطبق ؟

نظام الشرائع حكم على المحلفين فلم يكن في وسعهم ان يحكموا الاَّ بأحد امرين . وحكم على الاطباء فاختاروا أهون الشرين . وأفقدهم جميعهم الشجاعة فكذبوا على العلم وكذبوا على الحق

« ثو » جنى لانهُ ليس في الشرائع ما يصونه من هذا العدوان . والذين برؤوه كذبوا لانهم لم يجدوا فيها مخرجاً آخر لنجاته . وان كانوا قد اظهروا كل هذا الاهتمام فالفضل للاصفر ذي الوجهين

فويل للفقير

وسيخرج « ثو » من البيمارستان سليم العقل ويوضع تحت المراقبة — ثم يطلق من قيودها

اذا كانت الشرائع حقاً فالعقل رزيئة . واذا كان الغنى قوة فالفقر لا شك جناية

***

وأما وجوده في المارستان فلا تضييق فيهِ عليه لان ثروته تضمن له كل ما يتوق اليه من الراحة

المقالة الحادية والستون

❋ اصلاح القضاء [١] ❋

كنت قد كتبت كلمةً أنتقد فيها القضاء جاء فيها ما ملخصهُ :

« منصة القضاء مقدسة لا يجوز مسها كمحراب المصلّى ولكن هذا لا يمنعني هنا من ترديد هذين البيتين

قتل امرء في غابةٍ   جريمة لا تغتفر
وقتل شعب آمن   مسألة فيها نظر

يسطو اللصوص على جمع فيجرحون وينهبون ويضبطون متلبسين بالجناية فقد يعفو القضاء عنهم لان هفوة في الشكل تمنعهُ عن النظر في الاصل فيضحي القضاء الجوهر مراعاة للصورة . وهذا كرفض سماع كلام المحامي القانوني اذا لم يكن مرتدياً ذلك الثوب « الكرنفالي » أمام مذبح المرافعة . تقوم القيامة بين عناصر الامة فيكثرون من البذاء والقول الهراء والسب والشتم والتقبيح بما قد يدفع الى ثورة داخلية ومع ذلك لا تحرك الحكومة لهذا الامر ولا تجد النيابة مسوغاً للتداخل فيه لايقافه عند حد لان المحافظة على الآداب العمومية والسلم العمومي ليست من الامور التي يستدركها القضاء وينهض لها من نفسه مع انهُ قد ينهض احياناً لانتقادٍ يمسُّ الافراد وقد يكونون ممن لا يصل الانتقاد اليهم بأذًى

تقوم دعوى بين اثنين فيجدان في ثنايا هذا القانون متسعاً لان يتحاميا ويتشا كلا ويتجاولا في هذا المضمار أشهراً وسنين وربما تركا هذه الدعوى بعد ان اكلت عمريهما إرثاً لاعقابهما وقضاؤنا يعد نفسهُ مع ذلك رحمة للعالمين

وبعد هذا اذا طلبنا اصلاح القضاء في شكله . في اصله . حتى في قضاته فهل نلام

---

(١) نشرت في المقطم سنة ١٩٠٩

وهو حق للجمهور وواجب على ولاة الامر ولكن على اولئك الولاة الذين يهمهم امر العباد واين هم بعد ان يتربصوا في مناصبهم . ولفعلوا لو دروا ان محاكم اليوم سخرية الغد» .اه

فأقام البعض القيامة عليَّ في الجرائد فكتبت المقالة الآتية :

المقالة الثانية والستون

﴿ من اين ابتدئ[1] ﴾

ليس اصعب من مصادرة المقرر المألوف . هذا يقول لك انه منزل وذاك يقول انهُ مقرر بالاجماع وقم ناضل بينهما . وكل قضية من ذلك معقل تخور دونهُ قوى اعظم الجيوش فكيف بافراد لا حول لهم سوى جرأة القول ولا سلاح لديهم سوى رأس اليراع . ولكن رب قول كان ألهب من شرارة الكهرباء ورب قلم كان امضى من السيف

قامت عليَّ قيامة الكتاب من كل صوب لقيامي على القضاء ونظامه ولم يقم لي حتى الآن نصير الا في مثوى الضمائر ولكنهُ لم يجسر ان يجهر بالحق عملاً بقول الشاعر

اذا قلت المحال رفعت صوتي وان قلت الصحيح اطلت همسي

وأما الذين نسبوا كلامي الى الغرض فهؤلاء دعهم في ضلالهم يعمهون فما ينالون مني غرضاً حتى يشفوا من غرضهم او اصاب بمرضهم . وأما الذين وجدوا ان نوري ظلمة وان ظلمتهم نور فدعهم في نور ظلمتهم يتخبطون وما ربك بظلام للعبيد . واما الذين اتوني من طريق العقل فاني لا انكر عليهم ما في كلامهم الراجح من القول السديد والاعتراض الوجيه . فهم لا ينكرون ضمناً نقص القضاء ولكنهم يقفون حائرين امام الصعوبات فهؤلاء اعيد عليهم قول الامام الغزالي « لو لم يكن في ذلك الا ما يشكك في اعتقادك الموروث لكفى بهِ نفعاً فان من لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والحيرة »

(١) نشرت في المقطم سنة ١٩٠٩

وهـذه حجتي لدى حضرة الفاضل المحقق « ي . ش . » على قوله انهُ لولا ما لي من المكانة وهـذا من ادبهِ — ولولا خوفهُ مما سيكون لكلامي من الاثر لما عني بالرد على ما كتبت . فانا اشكره على حسن ظنهِ بي ولكن هـذا الذي خافهُ هو الذي دفعني الى ذلك ولو علمت ان كلامي سيذهب بدون اثر لما خططتُ منهُ حرفاً ولو علمت ان مكانتي هي كما يقول لكسرت من حدتي ولكن جهلي بما اعلمني به عن نفسي وعلمي بأن الاستكانة للمألوف توقع في الخمول والاستسلام دفعاني الى تشديد الوخز ولولا ذلك لمـا اضطر العقلاء في المعمورة كلها من الانبياء الى الحكماء وسائر المصلحين ان يلجأوا الى العنف في الانتقاد واستعمال السيف احياناً لحمل الاجتماع على السير في سبيل الارتقاء ولو متثاقلا في قيوده . اقول ذلك لا غروراً مني باني بلغت مبلغهم بل لشغفي بالتشبـه بهم ولو اني في سبيل ذلك اجهل فوق جهل الجاهلين

ولكن من أين ابتـدئ فان الموضوع كالتنين ذي الرؤوس الكثيرة ولو جاريت حضرة السائل في الاقتصار على الرد على أسئلتهِ لقطعنا القول في أشياء مهمة ولكان فاتنا اشياء اكثر وأهم وما ضربنها في مقالي الا مثلاً من امثال لو أردنا كلانا ان تعقبها كلها للزمنا ان نلازم القاضي في غرفته والمحامي في محفظته والمدعي والمدعى عليه في شكواهما والاجتماع كلهُ في تظلمه

وليس ذلك فقط بل لو جاريتهُ لانصرفنا عن النظر في الكليات التي هي موضوع كلامي الى البحث في الجزئيات التي يتسع لنا فيها مجال المغالطات وينتهي الكلام فيها على غير نتيجة مرضية وهـذا ليس غرضي بل غرضي هو ان اوجه نظر الباحث الى ان هذا النظام الموضوع كما هو موضوع لا يفي بالغاية التي وضع لاجلها . وليس ذلك فقط بل انهُ في جملته مناف لهذه الغاية . ولا ريب ان كثيرين سيستغربون قولي هذا لاول وهلة ولكن استغرابهم هذا لا يلبث طويلاً حتى يتحول فيهم الى تفكير وهذا هو مستصغر الشرر المقصود لايقاد نار الثورة في الخواطر احداثاً للاصلاح المطلوب فلا يمنعهم الوجوم المكتسب بالاعتقاد الراسخ من القيام في وجه كل نظام لا يفي بمصلحـة الاجتماع مهما عززتهُ الرهبة

فالقضاء ليس الغرض منهُ تشييد تلك المعاهد الفخيمة واحاطتها بكل ما يجعلها امنع من عقاب الجو على اللائذ بها فلا يدنو منها حتى تصطك ركبتاه وينعقد لسانه ويضطرب جنانه فلا يعرف كيف يدخل اليها ولا كيف يخرج منها ولا كيف يطلب منها حقاً ولا كيف يدفع بها حيفاً . يرى هناك على منصاتهم انصاف آلهة وحولهم كهنتهم فلا يستطيع ان يتقرب الى هيكل اولئك الآلهة الا بواسطة اولئك الكهنة حتى صار القضاء بذلك اشبه شيء بجوقة دينية مع الفرق بان كل انسان يستطيع ان يصلي في المعابد بنفسهِ وان لم يضمن لنفسهِ الخلاص الا بواسطة واما في المحاكم فالحوائل دونهُ كثيرة لا يقوى عليها العالم فكيف بالجاهل وينضب دونها كيس الغني فكيف بالفقير المعدم

فالقضاء ابسط من ذلك كثيراً . ويجب ان يكون اسهل من ذلك كثيراً . وقد يتعذر فهم هذه البساطة على اولئك الذين تعودوا ان لا يروا في احنائهِ الا كل تعقيد وقد رسخت هذه القضية في الاذهان حتى ان المحامي لا يسر بكسب دعواه بقدر ما يسر اذا ركب فيها متن الاغراب فخاض في كل يم ونبش احشاء الارض وحلق في الفضاء واخذ يتنقل بين الشعرى والجوزاء يناجي احياناً طوائف الجن واخرى سكان السماء وكل ذلك لكي يقول لسامعيهِ ان اذني التي بجانب رأسي هي هذه . ولو قال غير ذلك فهل يتأثر القضاء او يرتضي الزبون . حتى صار علم الحقوق بفضل هذا النظام من العلوم الكلامية البحتة التي لم تنضج ولن تنضج بعد ان كان المأثور عنها انها من العلوم الوضعية التي نضجت وكادت تحترق

وهذا النظام اذا افاد — بعد محتكريه — طائفة من الناس هم الاقوياء والاغنياء فهو لا يفيد الضعفاء والفقراء . والاجتماع معظمهُ مؤلف من هؤلاء فكيف يطمع بعد ذلك باقامة القسط بين الناس . ألا ترى ان المدعى عليهِ اذا لم يحضر اجاز هذا القانون الحكم عليهِ باقصى العقوبات وجاز للقاضي ان ينطق بمثل هذا الحكم خالي البال مرتاح الضمير . وما معنى ذلك ؟ معناه انهُ اذا لم يعرف المدعى عليهِ كيف يدفع عن نفسهِ كما يحصل كثيراً بمقتضى هذا النظام او اذا كان ضعيفاً لا نصير له وخصوصاً اذا كان معدماً لا يستطيع ان يكفي محامياً فلا حق له ان يعيش وحضرة القاضي لا يضطرب في حكمهِ وهو

يحصن وراء هـذا القانون . ولقائل يقول ان القضاء يسمي محامياً يدافع عن الفقير ولكن نحن نعلم كم يكلف ذلك من المشقات الاخرى حتى يسمي القضاء هذا المحامي وانت تعلم ايضاً كيف ان هذا المحامي « يكلفت » دفاعهُ غير المأجور

بل ان هذا النظام لا يفي بمصلحة الاجتماع ولا يثقل كلامي على طائفة ذات شأن اجلها كافراد وان انحيت عليها كمجموع فالاجتماع يشكو من نظامها مرَّ الشكوى بل هي قيد في رجل الاجتماع وغلّ في عنقه ولولا ما يتسرب الى افرادها من مبادئ العلوم الطبيعية بالعرض لا بالذات لما خطا الاجتماع بها خطوة في سبيل الارتقاء بل هي بنظامها عبء ثقيل عليه تمتص دمهُ ولا يستفيد منها فائدة حقيقية فهي كالجيوش التي بنظامها تحرم الاجتماع من استثمار الارض واحياء الصناعة بايديها وتحمله نفقاتها وكان في الامكان ان تكون فيه عاملة نافعة

ومن غريب المفارقات ان اساس علومها العلوم الاقتصادية ولكن نظامها لا يعرف للاقتصاد معنى فالوقت في القضاء لا قيمة له كان المثل الافرنجي القائل Time is money لا معنى له عندها وكان عمر الانسان لديها كعمر ابينا متوشالح . وقول حضرة المعترض بان هـذا من حسنات النظام الدستوري لاعطاء كل ذي حق الزمان الكافي لتأييد حقه لا يجوز الأَّ اذا اعتبر نظامه مقدساً وانا أقول لحضرته ان هذا من سيئات النظام الاحتكاري لفائدة الحكومة وطائفة معلومة . كان هذا الحق لا يتيسر له على صورة انفع له وللاجتماع وللآداب الحقيقية بنظام آخر حتى ولو كان القضاء حيفاً مع قصر الزمن لكانت الفائدة منهُ أتم اذ تنصرف قوى الانسان وافكاره الى اعمال نفعها اقرب بدلاً من انحصارها في موضوع واحد وصرف العمر في المخاصمات واستنباط الحيل وخلق المشاكل مما يكون ضرره على الاجتماع مزدوجاً ادبياً ومادياً وسبب كل ذلك هذا النظام الاعوج الذي ابتلع القضاء الحقيقي في جوفه واضاع جوهرهُ في اعراضهِ . وهو لكثرة ما يقتضيه من النفقات لم يعد في الامكان تعميمهُ فاقتصروا فيهِ على مراكز معلومة فزالت كفاءتهُ وتبعها كل هذا العطل وزادت النفقات العمومية زيادة فاحشة

ولو اردت ان اؤيد كل قضية مما اقول بأمثلة اتخذها من نظام هـذا القضاء كل

يوم لنفد الحبر والورق ولما وسعتني الجرائد ولنفد صبر القراء قبل ان ينضب هذا المعين . فاترك الحكم فيها للذين يعانونها كل يوم ـ ولا يعرف الشوق الا من يعانيه ـ وا كتفي بالقضاة والمحامين انفسهم فليرجعوا فيهـا الى ضمائرهم واختبارهم فضلاً عما يلحق بهذا النظام من الاعراض التي اصبحت لازمة واغفالها يعرض الجوهر للضياع والتي هي في عرف العقلاء من السخافات المضحكة اليوم

وأما ضربهُ المثل بين العلوم القانونية والعلوم الطبيـة فليسمح لي حضرتهُ بان ادفع هذه المقارنة فالعلوم الطبية أساسها العلوم الطبيعية التي هي في احكامها كالعلوم الرياضية والتذبذب هو في الاهتداء الى اسرارها والخطأ المتوقف على الافراد لا يعتدّ به في بحثنا ولم احاسب حضرتهُ عليه. وأما العلوم القانونية كما هي اليوم فقد اصبحت كالعلوم الكلامية واساسها النظر وكان في الامكان ان يكون اساسها العلوم الطبيعية ولكنها حتى اليوم لم تفعل وهل ينكر حضرتهُ ان الطبيب القاضي يكون اوسع نظراً وارجح حكماً من القاضي المتشرع فقط ومن يجهل اليوم حكم الاسرار الطبيعية في افعال الانسان الاجتماعية

ولقائل يقول ان الاعتراض سهل ولكن العمل صعب فهل لك دواء لهـذا الداء . وجوابي على ذلك بسيط فطري اجعلوا القضاء ابسط جداً مما هو وعمموه اكثر كثيراً . ما قولك لو كانت المحاكم بسيطة جداً وموزعة في كل مدينة وفي كل قرية على نسبة احيائها وسكانها ألا يكون الفصل في الدعاوي اسرع والنفقات خصوصاً اقل والفائدة الاجتماعية اعظم

ومهما بدا هـذا القول غريباً لبعضهم فاني لا اخشى ان اقول ان المستقبل لي اي لكلامي ولكن هذا لا يتم حتى يتقلص ظل العلوم الكلامية وتعم العلوم الطبيعية وان كان مثل هذا البحث لا يفيدنا فائدة قريبة الا ان ما يحدثهُ من الاثر ولو صغيراً جداً لا بد ان يختمر على توالي الايام ويفعل في العقول فعل الشرارة في الافعال المتجمعة فيعلم الجميع على السواء ان الشرائع الموضوعة والراسخ في يقين البعض انهُ لا يجوز مسها يجوز النظر فيها حتى قلبها رأساً على عقب اذا كانت غير ملائمة لمصلحة الاجتماع وهذا هو المقصود هنا

﴿ روزفلت والقضاء [1] ﴾

ان الذي يعجبني من قول الرئيس روزفلت ليس تنديده بالقضاء لتمسك قضاته بسخافات فنية اصطلاحية تتأخر بها الاحكام وتضيع معها الحقوق بل صدور ذلك من رجل في وظيفة عمومية هي اعظم المراكز شأناً . والعادة ان الذين يشغلون مثل هذه المراكز في الهيئة الاجتماعية تضرب الوظيفة على عيونهم حجاباً كثيفاً . ولكن الرئيس روزفلت ليس موظفاً كسائر الموظفين ولا ملكاً كسائر الملوك بل هو الرجل الاجتماعي العظيم الذي عرف ادواء الاجتماع . وكم حاول ان يجد الدواء لها خصوصاً قيامهُ ضد شركات الاحتكار التي تفشت جداً في هذا العصر ولا سيما في العالم الجديد . ولا يخفى ان هذه الآفة من شر الضربات الاجتماعية التي اذا لم تتدارك قبل تفاقم شرها جرت الى ثورة ليست الثورة الفرنسوية (وهي قيام الشعب على النبلاء) بالنسبة اليها شيئاً يذكر لانحصار تلك اذ ذاك في بقعة معلومة واما هذه فهي قيام العمل ضد المال فشرها لا ينحصر اليوم في بقعة معلومة وفي قوم معلومين بل سيمتد لهيبهُ الى كل العالم المتمدن ومن يعش يرَهُ

المقالة الثالثة والستون

﴿ بئس الاخلاص [2] ﴾

الانتحار جبن في كل احواله وهو اختلال في القوى العاقلة الى حد الجنون . فان جاز لنا ان نأسف على منتحر ونبحث في امره بحثاً نفسانياً وفزيولوجياً لنقف على ما في قواه العقلية من الضعف وسهولة الانقياد وما في تكوين اعصابه من الوهن وقبول التهييج الا انهُ لا يجوز لنا ان نبحث فيه بحثاً يشم منهُ رائحة التصويب لعمله واستحسان العواطف الدافعة اليه لئلا يكون ذلك مشجعاً لكثيرين من ضعيفي العقول ومتهيجي العواطف

(١) نشرت في المقطم سنة ١٩٠٩ (٢) نشرت في الاخبار سنة ١٩٠٨

لاقتفاء خطتهِ كما احرجتهم الحال والمحرجات في الاجتماع كثيرة من فقر وسقام وحب وغرام ولا شيء اسهل من العدوى بالقدوة حسنة كانت او رديئة

ولولا التربية السيئة المبنية على الخيال اكثر من الحقيقة وعلى الاستسلام للاماني والآمال اكثر من الاعتماد على العمل وعلى اعتبار الموهوم اكثر من المحسوس لما فشا الانتحار في هذا التمدن المضطرب لما فيه من المبادئ المتناقضة لان الانتحار نفسه مخالف للمبدأ الاول المنبعثة منهُ الحياة والمتوقف عليها حفظها ألا وهو الالفة وحب الذات

فالانسان من يوم يولد الى ان يموت تتنازعهُ عوامل التربية المختلفة من بيتية ومدرسية واجتماعية وفيها كثير من التناقض ادبياً ودينياً واجتماعياً مما يجعل حياته محفوفة بالمصاعب فينشأ بسبب ذلك غير مستقل في احكام عقله متهيجاً في اعصابه قليل الاعتماد على نفسه سريع الانقياد لمن يتوهم انهم أرقى منهُ . فاذا رأينا نتأسف على منتحر ولا نشجب عمله في آن واحد كما هو الواجب نكون كأننا قد دفعناه خطوة بل خطوات للاقتداء به

ولذلك كانت حوادث الانتحار تزداد على ما تقدم وكما اقتبسناها من التمدن الحديث وهو تمدن في طور الانتقال حيث يشتد الخطر خصوصاً بقراءة كتب المجون المتداولة بيننا والتي اكثرها من وضع القصاصين الفرنساويين في النصف الاول من القرن الماضي وما قبله لشدة ما فيها من تجسيم الخيال الى حد التناهي في ترهيل العواطف وانزال الوهم منزلة الحقيقة ولذلك كانت قراءة مثل هـذه الكتب من شر العوامل في تربية الاحداث وفي التأثير على كل من ليست احكامه الذاتية قوية فيه . والمطلوب من الجرائد ان تبين باجلى بيان قبح هذه الاعمال لاماتة مثل هذه العواطف المرضية الباعثة عليها لا ان تكون سبباً لانمائها

فالرجولة الحقيقية تقضي على كل انسان ان يقف امام كل المصاعب كالطود الراسخ يدفعها بما في الامكان ولا يهتز لها حتى تصرعهُ قوة واقتداراً والا فهو نذل وجبان . فالشجاعة الحقيقية ليست بالانتحار بل بالصبر على الكوارث

ومن حسنات النصرانية انها تحرم المنتحر من التمتع بحق الدفن الديني ولا شك ان ذلك كان له اثر حسن في النفوس لما كان الدين في سطوته الاولى

ولولا انهُ ورد في مقالة الاخبار اليوم « حب الرجال للرجال » في بعض كلامها ما قد يحبّب مثل هـذا الامر لقصار العقول الذين يؤثر فيهم كلام سواهم لاعتبرتها إلماماً بشيء من المباحث البسكيولوجية والسوسولوجية التي تتناول البحث في العواطف وقوى العقل بحسب احوالنا الاجتماعية ولما اتيت على هـذا البيان الوجيز موضحاً ان الانتحار ليس فيه شيء من رجحان العقل ولا نبل العواطف ولا فيه شيء من الشجاعة التي يفتخر بها بين الاقران في الاجتماع انذاراً للمترشحين الذين قد يستهويهم الكلام الذي هو على ضد ذلك فيقعون في مثل هذا العمل المشجوب في كل شرع

المقالة الرابعة والستون

﴿ الدين والحق [1] ﴾

الانسان لولا الجهل لما وقفت بهِ مطامعهِ القريبة الخاسرة واضاعت عليهِ غاياته البعيدة الرابحة

مطامع الانسان القريبة هي مطامع الحيوان الذي يستخلص قوته بأنيابهِ من فم سواه أو يأوي الى مغارة لا يزاحمهُ فيها سواه . او هي مطامع الانسان الهمجي الذي يسعى لغذائهِ منفرداً فيقضي نهاره جائعاً هالعاً ويبيت ليله خائفاً حاذراً . او هي اسرة تنق اسرة أو قبيلة تناهض قبيلة او قوم يهاجمون قوماً او وطن يقوم على وطن . — وغايات الانسان البعيدة تناصر الانسان في كل مكان كأنهُ اسرة واحدة

فلو عرف الانسان ان تناصره هـذا يوفر له القوت والكساء والمبيت بحيث يكون آمناً على مقوّمات حياته لما هجر الراحة الى العناء والسعادة الحقيقية الى الشقاء

على ان الانسان من الحيوانات التي لا تستطيع ان تعيش الا جماعات فتألف أولاً جماعات نبتت في ارض أو انشقت من صلب وهو ارقى الحيوانات تحصيلاً من الاختبار

(١) نشرت في الاخبار سنة ١٩٠٩

فرأى نفسهُ انهُ اثرى بسعة الارض وتقوَّى بالتناصر فقام يكتسح البلدان ويضم اليه الاقوام يدمجها فيه ليزيد ثراء وقوة . ولقد مضى عليه ملايين ملايين من السنين قبل ان وصل الى حالته اليوم

ولكن الانسان في كل اطوار ارتقائهِ في اجتماعه لم يسر سيراً حثيثاً بل اعترضتهُ حوائل كانت تقف به تارة وتتقهقر به اخرى فسار متذبذباً وسيسير كذلك زماناً طويلاً قبل الوصول الى غايته تلك

وأهم هذه الحوائل مطامعه القريبة لجهله وقصر نظره فقام المصلح الاجتماعي ووضع له الشرائع تسد مسد هذا النقص ولكن الانسان لا يحول عن تلك المطامع مهما كان شأنهُ فاستبد الوازع بهذه الشرائع وقلبها الى غرضه فصار من الضروري ايجاد لجام لكبح جماح الحكام

فقام المصلح الديني زماناً طويلاً قبل الشارعين المعروفين وقد كان الناس يجدون في كل شيء الهاً لا يدركونه ولكنهم يخافونه ووضع الشرائع الالهية وملأها بالتقريع والارشاد والوعد والوعيد والثواب والعقاب والانسان مفتون بنفسه لا يخلد فيها الا الى الخلود لعل الحكام يرهبون فيرجعون عن ظلمهم

شرائع اجتماعية او دينية بائدة أو بادية قديمة او حاضرة غرضها واحد نبيل وهو اصلاح حال الانسان في العمران وواضعوها من انبل المصلحين غاية

ولكن الانسان الذي حارب آلهتهُ في القديم لم يكن ليعجز عن ان يستخدم الآلهة انفسهم لغرضهِ . فقام رؤساء الاديان يسطون بها على الحكام والناس لا لمصلحة الناس بل لمصلحتهم ودامت الحرب سجالاً بين الحكام ورؤساء الاديان يتراوحون الفوز يختلفون تارة ويتفقون أخرى على ظهر الانسان حتى اليوم

المصلح الاجتماعي والمصلح الالهي كلاهما قصدا بشرائعهما ان يضعا في يد الانسان سلاحاً لخيره ضد ظالميه فحوله الحكام ورؤساء الاديان لصد هذا الخير عنهُ ووقفوا به سداً حتى انهم صرفوه عن اقرب الاشياء اليه وهو اكتسابه علماً من اختباره ومن ينكر فلينظر الى الانسان في التاريخ بل فلينظر الى حال الانسان اليوم في كل المعمورة بالنظر الى

ذلك فحيثما كانت سطوة الحكام ورؤساء الاديان عظيمة كان الجهل كثيراً والعلم قليلاً وحيثما كان العلم قليلاً كان الانسان فاقد الحرية قليل التسامح صعب المساكة . وبالضد من ذلك تزول منهُ هذه العيوب وتتوفر فيه المزايا ضدها على قدر نصيبه من العلم الصحيح فدين الانسان الحق هو العلم ومزيتهُ على سائر الاديان انهُ نظيرها يعلم الانسان ما تعلمهُ الاديان ويفوقها في انهُ لا يجوز عليه ما يجوز عليها من تحكم الانسان بها في الانسان ولا تقيده نظيرها بزمان أو مكان فالدين الحق هو العلم الصحيح

المقالة الخامسة والستون

شكوى المستأجرين [1]

« ومبدأ العرض والطلب »

قام في هذه الايام جمهور من سكان القاهرة والاسكندرية يشكون من تحكم أصحاب الاملاك انهم يتقاضونهم اجوراً فاحشة حق سكنهم . ولم يقصدوا بذلك سوى مظاهرة بسيطة ليس فيها شيء بعد من الاعتصاب الحقيقي وانما هي خطوة كبرى نحوه لعلّ الحكومة تنتبه وتستعمل حقها الطبيعي المشروع وتتداخل في هذه المسألة وغيرها من المسائل الاخرى الاجتماعية الحيوية للفصل فيها بحيث لا يقع حيف على احد لمصلحة الآخر

ولقد ذكرت الجرائد ذلك بين مصوب ومخطيء ومنهم من اراد ان يثبط عزائم المحتجين فقال ان نجاحهم مشكوك فيه لا لان الشرائع عمياء والآذان صماء بل لان المسألة حقوقية والمرجع فيها الى مبدأ اقتصادي (اكشفوا رؤوسكم) هو مبدأ العرض والطلب

ولو قال هذا القول قاض او محام لعذرناه لان كل مؤمن معجب بمسجده ولكنهُ قاله صحافي أقل ما يطلب منهُ أن لا يضلل وهو في مقام مرشد والجرائد تعتبر مشكاة الجمهور في المسائل الاجتماعية الكبرى ليعرف الجميع على السواء كيف يجب عليهم أن

(١) نشرت في المؤيد سنة ١٩٠٨

ينظروا فيها منعاً للحيف واتقاء للقلاقل التي قد يجر ذلك اليها حرصاً على مصلحة العمران نفسه

ومنع الحيف واتقاء القلاقل لا يكونان بالضرب على عقول الجماهير بسجف التمويه وعلى ايديهم بعصا الظلم لان ذلك يشبه ان يكون كذر الرماد على النار فلا تلبث ان يكون لها ضرام بل بتعريف كل واحد في الاجتماع ما له من الحقوق فلا يتخطاها وما عليهِ من الواجبات فلا يقف دونها . وقول هذا الصحافي يعجبني اكثر من صمت أولئك الذين يعرفون جيداً وجه الحق ولكنهم يحجمون عن ابداء رأيهم لئلا يخسروا رضى مشترك مالك والصحافة عندهم ليست الا حرفة من الحرف فهي ليست عندهم سوى تجارة رابحة

من المقرر البديهي الذي لا خلاف فيهِ ان الاجتماع لا يقوم بفرد ولا بطائفة من افراد بل بافراد وطوائف من أفراد يؤدون أعمالاً مختلفة على قدر اختلاف المنافع التي يحتاج اليها الاجتماع بحيث ان كل واحد من افراده يؤدي العمل الذي لا يستطيعهُ سواه و يستفيد من الآخر المنفعة التي لا يستطيعها وحده . وقد شبه الطبيعيون العمران بجسم حي كبير هائل وافراده بمثابة الاعضاء في هذا الجسم فكما ان الاعضاء لازمة لسلامة الجسم الحي كذلك الافراد لازمة لسلامة العمران

ومن البديهي ان من كان هذا مركزه في الجسم يكون له فيهِ مثل ما عليهِ لذلك كان لكل فرد في الاجتماع حقوق على الاجتماع نفسهِ كما أن عليهِ واجبات له . ومن المعلوم ان من المنافع في الاجتماع ما هو ضروري لازم لا يمكن الاستغناء عنهُ من غير أن يؤذي الاجتماع في اهم أركانه ومنها ما هو غير ضروري يمكن الاستغناء عنهُ بدون ضرر . والحق الذي للفرد من ذلك يسمى حاجياً في الاول وكمالياً في الثاني

فالكمالي مثل التأنق في المآكل والمشرب والبذخ في لبس الوشي وسكنى القصور فاذا استطعت ذلك فليس لاحد عليك اعتراض ولا يمنعك أحد ان تتبرع وتهب اذا شئت ولكن اذا أردت ان تبقى ضمن دائرة حقوقك وواجباتك فلا سلطان لاحد عليك في ان يجبرك على ان تتعداها وبقيت المسألة بينك وبين سائر افراد الاجتماع مسألة تراضي أي مسألة « عرض وطلب »

ولكن الحاجي مثل حق الاكل والشرب والمسكن الضروري الذي لا يمكن الاستغناء

عنهُ والاَّ هد الاجتماع من أركانه هل يجوز ان يقال فيهِ مثل ذلك ؟ فهل يجوز ان يقال لطالب الرغيف ليقتات والماء ليروى والبيت ليأوي اليهِ ان المسألة مسألة «عرض وطلب» لا بد فيها من التراضي كالتراضي على ثمن خاتم من ماس او مطرف من خز

ومعلوم كذلك ان قيمة كل شيء في العمران تزداد بكثرة الزحام حول المنفعة الحاصلة من هذا الشيء اي انها تتوقف على عدد الافراد الذين يتألف منهم الاجتماع فرغيف الخبز تعظم قيمتهُ اذا كثر طالبوه وكذلك يقال في المسكن وسائر مرافق الحياة الضرورية . فهل يجوز والحالة هذه ان تنصرف المنفعة من هذا الشيء الى مصلحة طائفة من طوائف الاجتماع على حساب الغير مع معرفتنا ان هذا الغير هو المقوّم لقيمة هذه المنفعة حتى يجوز ان يقال ان حقه من هذه المنفعة لا يقل عن حق صاحب الشيء نفسهِ واذا صح له هذا الحق جاز له صرف المنفعة الى مصلحته كما يجوز لصاحب الشيء صرفها الى مصلحتهِ ايضاً . ولذلك كان من وظيفة الوازع القيم على مصلحة العمران أن يراعي في المنفعة مع ذلك ظروف الزمان والمكان أيضاً لتعديلها لمصلحة الاثنين والا وقع الاجتماع في الفوضى

لان في الاجتماع ناموساً هو ناموس التنازع يحمل كل واحد فيهِ بما فيهِ من حب المحافظة على الذات على ان يجدّ ويكدّ بكل ما له من القوى للحصول على احسن نصيب من هذه المنافع . الا ان هذا الناموس الذي هو من اركان القوى الاجتماعية اللازمة لارتقاء الاجتماع لا يبقى نافعاً فيهِ الا اذا بقي محصوراً ضمن دائرة معلومة تتفق فيها المنفعة الخاصة مع المنافع العامة والا انقلب الى الضد وأضر بالمصلحتين معاً فلا بدَّ اذاً من معدّل لهذه المنفعة لتبقى ضمن دائرة هذه الحدود ولذلك كان من أول واجبات الهيئة الحاكمة التي يهمها أمر الهيئة المحكومة النظر في هذه المسائل الحيوية كلما دعت الحال الى ذلك

أنا لا اجهل أن هناك ناموساً يده فوق كل يد يعدل كل شيء في العمران وهو ناموس التكافؤ ولكني اعلم حق العلم انهُ قبل ان يتم ذلك على موجب هذا الناموس يقع الحيف على كثيرين وهذا مضر بالعمران ومن وظيفة الوازع اتقاؤه . وهذا لا يكون باطلاق مبدأ « العرض والطلب » وجعله أساس كل المعاملات على حد سواء غير فارق

بين الضروريات وغير الضروريات أي بين الحاجيات والكماليات

ولقائل ان الساكن مخير في ان يسكن البيت الذي يناسبهُ وهذا يساعد على هذا التعديل وعلى ذلك اجيب بان الشكوى ليست من ذلك فقط بل من اغتنام أصحاب المساكن غالباً فرص وجود السكان فيها لكي يحرجوهم اما بقبول الزيادة واما بالخروج لعلمهم ما عليهم في ذلك من الصعوبات فيضطرون لقبول أحد الشرَّين والا عرَّضوا أنفسهم لشر ثالث وهو قضاء القانون عليهم بناء على مبدأ « العرض والطلب » المعتبر للمالك حقاً مقرراً

على ان في جميع الشرائع متسعاً لذلك الا التي ضُربت بالقانون وا كثر الحكومات حتى تلك التي نظن بانفسنا اننا أرقى منها تهتم بالامر واما نحن فنأكل الرغيف ممزوجاً بالتراب ونشارة الاخشاب ويتقاضوننا أسعار المآكل كما يشاؤن ويتحكمون في أجور المنازل وينصرهم القانون وما ذلك الا لان شرائعنا صارت بهذا التحوير والتبديل تنفاً من شرائع غير ناضجة وحكومتنا خليطاً من حكومات متنابذة فنحن اليوم معهما كما في المثل القائل « اسلم الظهر ومات العصر » فعيسى انكره ومحمد لم يعرفهُ فنحن لم نبلغ فيهما مبلغ الحكومات الراقية ولا حفظنا من شرائعنا حسناتها

وهنا لي كلمة اوجهها الى المحتجين فاقول لهم انتم محقون في شكواكم وانتم في الاجتماع أعضاء لازمون لكم عليهِ مثل ما له عليكم وانتم مظلومون ايضاً وظالمكم حكامكم وشرائعكم فلا تفل عزائمكم . فقط انصحكم ان تلوذوا في مطالبكم الى جانب الحكمة حتى اذا كثر عددكم واشتد تضامنكم ولم ينصفكم الذين يجب عليهم ان يهمهم امركم كان لصوتكم صدى فوق كل صوت وليدكم مدى فوق كل يد

المقالة السادسة والستون

الحاجيات والكماليات [١]

قرأت تعليق المؤيد على ما كتبتهُ بخصوص شكوى المستأجرين ومسألة « العرض والطلب » وشكرت لسعادة صاحبه الفاضل الشيخ علي يوسف لاهتمامه بالنظر في المواضيع التي بحثت فيها بحثاً اجمالياً وان كان قد خالف نظره نظري في بعضها لان كلامي لم يذهب عنده من غير صدى . ولعل ما علَّقهُ المؤيد لا يكون الوحيد والاخير وأنا منتظر أن جمهور المفكرين يشتركون في هـذا البحث الاجتماعي الاقتصادي الذي هو لنا أهم جداً من جميع المباحث الاخرى العقيمة السياسية . وما نحن في مركز سياسي يعوَّل فيـهِ على كلامنا بشيء عظيم . فلا اقل من ان نهتم بشؤوننا الداخلية لعلنا بتعمقنا في المسائل الكبرى الاجتماعيـة نلقي اساساً متيناً نقيم عليه بناء اصلاحنا المنشود ولا سيما ان كلامي أعم من ان يقتصر على غرض واحـد من أغراض الاجتماع أو طائفة واحدة من طوائفهِ وسأنتظر ما يكون لجمهور كتّابنا من الجولة في هذه المواضيع لاستئناف البحث معهم فيها على ما يقتضيه المقام حينئذٍ

فاني اشرت في كلامي الماضي الى جملة امور اعتبرتهـا من النقائص في نظام هيئتنا الاجتماعية سواء اقتصرت علينا وحدنا او شملت أرقى الامم اليوم ووجود النقص في هيئة راقية ليس بحجة علينا للوقوف حيث نحن واقفون وللاغضاء عن عيوبنا ساوت عيوبهم أو زادت عليها مكتفين بهـذه المقابلة وناظرين فقط الى مقامنا النسبي بالقياس اليهم في ما زاد منها . فما هذا بالدليل الذي يجب ان يمنعنا عن ان نفكر ونصبو الى الاحسن . كيف لا والقلاقل التي نراها تمزق احشاء المجتمعات الراقية كما نسميها اليوم أليست دليلاً كافياً على ان تمدنها الذي تفوقنا فيهِ شامل لعيوب كثيرة هي سبب هـذه القلاقل مما يدل على انه ليس التمدن الحقيقي بل طور انتقال اليهِ أفلا يجوز لنا وان كنا أحط ممن هم

(١) نشرت في المؤيد سنة ١٩٠٨

أرق منا ان نسعى لكي نبني على اساس أحسن . وهل من الحكمة أو من العدل اذا كانت نظاماتنا المعتلة المختلة تقيم الحوائل دوننا ودون مطالبنا ان نعتبر هذه المطالب أفكاراً عقيمة وأحلاماً كاحلام الشعراء . وكم من هذه الاحلام الاجتماعية التي كانت تعد هكذا في عصور خلت صارت حقائق باهرة اليوم

والمسائل التي ذكرتها في مقالي السابق تنحصر فيما يأتي :

أولاً حق الفرد على الاجتماع كحق الاجتماع على الفرد

ثانياً اطلاق مبدأ « العرض والطلب » على جميع معاملات الانسان الحاجية والكمالية نقص في الشرائع وحيف عظيم

ثالثاً المسكن كالقوت والفحم الخ حاجي وأهم من هذا الاخير وما يجوز على الواحد يجوز على الآخر

رابعاً اذا عسر الفصل في مسألة المساكن فليس لان المسألة يجب ان تخرج عن هذا الحد بل لان النظامات في الاجتماع ناقصة

خامساً شرائعنا نحن خصوصاً ناقصة نقصاً مركباً والحيف يقطر منها من كل اطرافها

سادساً حكومتنا اقل ما يقال فيها انه لا يصح ان تعتبر حكومة ذات نظام معلوم

فهل من راء غير ذلك ؟ ومجال القول ذو سعة

المقالة السابعة والستون

﴿ حقٌ لا صلف [1] ﴾

« وواجب لا رحمة »

متى عرف الانسان في الاجتماع واجباته كما يعرف حقوقهُ قلّت الشرور من بني البشر ومتى فهم الانسان جيداً معنى قوله « حب قريبك كنفسك » عرف غرض الشارع الاجتماعي ونال اجر عمله ان لم يكن في الدارين ففي هذه الدار اولاً

(١) نشرت في المقطم سنة ١٩٠٨

ومتى عمل بهذه القاعدة الذهبية « وكما تريدون ان يفعل الناس بكم افعلوا انتم ايضاً بهم » علم ان الاجتماع لا يرجى صلاحهُ الا بالعدل في التعاون

ومتى فهمنا ان الاجتماع لا يقوم الا بافراده علمنا ان حق الفرد على الكل مثل حق الكل عليهِ

ومتى علمنا ان هذه الحقوق طبيعية لا وضعية علمنا انهُ لا يمكن الاخلال بها حتى يختل نظام الاجتماع نفسهِ . وعلمنا ان كل ما نصنعهُ في الاجتماع من حسن نثاب له وان كل ما نأتيهِ من قبيح نعاقب عليهِ . لا بالشرائع الوضعية بل بالشرائع الاجتماعية الطبيعية نفسها

فان اصلحنا حال الفقير دفعنا عنا شرور الجنايات وشرور الاوبئة من فساد اخلاقهِ وفساد معيشتهِ بقذارتهِ

وان اعتنينا بالمريض دفعنا شرور الامراض وانتشارها بيننا وتأصلها فينا . فما نفعله مع كل واحد في الاجتماع يجب ان نفعله حرصاً على مصلحتنا ومصلحة الاجتماع نفسهِ التي هي مصلحتنا ايضاً وما نطلبهُ منهُ يجب ان نطلبهُ كذلك

فلا استرحام اذاً ولا تمنين

وما دفعني الى هذا القول الا ذهولنا عن هذا المبدأ الذي تؤيده نواميس الاجتماع وآراء المصلحين والشرائع الدينية نفسها

هذا الذهول منا واقع في كل اعمالنا كما تدل عليهِ شرائعنا المدنية ولو اقرها الاجماع فالاجماع لا يكسبها متانة ما دام هو نفسهُ عمل عقل متعدد في رؤوس كثيرة ليس للكثرة فيهِ مزية على العقل الواحد

وكما يدل عليهِ ايضاً سلوكنا نحن انفسنا في اكثر مطالبنا . وخصوصاً سلوكنا اليوم في مطالب المستأجرين وسلوك اللجنة نفسها المدافعة عن حقوقهم

وكأني بالجميع رأوا تراكم الصعوبات من حوائل النظامات ومجرى الافكار فقاموا يستلينون القاسي من الشرائع بالاستعطاف وينبهون الغافل من الحكام بالاسترحام كما فعلت اللجنة في عريضتها الى الحكومة وكما فعل مكاتب البصير نفسهُ . فانهُ بعد

ان نصر المستأجرين رأى كل هذه الحوائل فقام يطالب الى الحكومة ان ترأف بهم كما يرأف الله بعباده . واخشى ان تعوّل الحكومة على هذا الهزّ بالحرف فتكون النتيجة سلباً وليس لهم هنا عزاء كما لهم هناك في الحياة الاخرى

فاردت ان انبه هنا الى ان مطالب الاجتماع لا تدع سبيلاً للواحد ان يمنّ فيها على الآخر . فالاجتماع كما قلت سابقاً اكبر مراب ٍ ولكن على عكس المرابين يرد كل شيء بربا ه ولو تبرعت بهِ عليه تبرعاً . لعل الافكار تنصرف الى النظر في هذه المباحث وامثالها من وجه التضامن في الحقوق والواجبات . فان ذلك احق وانجع

ولانهُ يظهر حقيقة ان اكثر الناس يظنون ان مثل هذه المطالب تهجمٌ غير معقول واحلام لا تنال ودليلنا على ذلك جريدة الاخبار نفسها مع ميلها فيما تظن الى نصر المحتجين فقامت تكتب ما يشم منهُ رائحة التثبيط ولعله التوى عليها الامر لانشغالها اليوم بامور غير هذا العالم

على انهُ يعجبني جداً ما كتبتهُ جريدة الظاهر مما يتضح منهُ جلياً ان هذه الاحلام انما هي حقائق وقد طمحت اليها انظار العالم الراقي حتى صارت فيهِ في حكم الشرائع

وقد بحثت في ذلك جريدة المقطم في مقالة ضافية بحثاً اقتصادياً محكماً تذليلاً للصعوبات وتقريباً للمنفعة المشتركة

والحق يقال ان الشركة من تصرف بعض الملاك مع المستأجرين المقيمين في ملكهم منذ زمان اعتماداً على الصعوبات التي تنالهم في انتقالهم من مكان الى آخر فلذلك يختارون اخف الشرور بالبقاء على القديم او بقبول الزيادة مضطرين . والاَّ فان هناك ناموساً اجتماعياً طبيعياً لا بد ان يعدل كل شيء . واذا طالت الحال على ما هي — ويخشى ان تطول وتشتد ما دام الحكومة لا تبدي ولا تعيد — فلا بد من نزول الاجور الى حد يفوق حد التصور خصوصاً بهذا التشبث من الفريقين

ونعم ماقام بهِ المحتجون من تنبيه الجمهور الى ماله من الحقوق للمطالبة بها ولو لم يكن الآن لمثل هذه المظاهرات سوى تمهيد العقبات الاجتماعية للمستقبل لكفى بها نفعاً الاَّ اذا اشتد الفريقان فتكون الفائدة في جانب الاقوى ولعلهما لا يفعلان حرصاً على منافعهما المتبادلة

المقالة الثامنة والستون

﴿ حرية الطباعة ﴾

« وقانون المطبوعات »

لم يكن للحكومة المصرية قانون او مشروع قانون حقيقي للمطبوعات قبل سنة ١٨٧٩ و ١٨٨٠ لان الحكومة قبل هذا التاريخ كانت حكومة استبدادية قانونها في الواقع ارادة الحاكم ولو قيّدت هذه الارادة بنظام في الظاهر . ولان الجرائد كانت قبل هذا التاريخ قليلة ايضاً . ثم كثرت الجرائد واشتدت المراقبة الدولية على اعمال الحكومة فرأت هذه ان تضع قانوناً للمطبوعات فاوعزت الى أحد عمالها الاجانب المقتدرين بوريلي بك ان يضع مواد هذا القانون وظنت انها تستطيع ان تطاقة على سائر المطبوعات العربية والافرنجية . والظاهر انهُ لم يجد اصلح لذلك من قانون فرنسا بما فيهِ من بقايا الامبراطورية الثالثة فساء ذلك جمهور الصحافيين واخذوا يتمقمون

فكتبتُ حينئذٍ مقالة تحت اسم « حرية الطباعة » ونشرتها في جريدة مصر الفتاة التي كانت تحرر باللغتين الفرنساوية والعربيــة وتنشر في الاسكندرية والتي انشأها في ذلك العهد[1] بعض رجال الحرية من وطنيين وأجانب تحت ادارة اديب اسحق صاحب جريدة مصر والمحروسة . وكان من أنصارها العاملين المتحمسين « غوسيو » اليوناني احد عمال بنك « الانجلو اجيسيان » قبل ان يرقى الى رئاسة ادارتهِ . وكان ينشر مقالاتهِ فيها بالفرنساوية فتترجم الى العربية

وفي هذه المقالة التي فقدت مني[2] ذهبت الى ان الآلات التي يخترعها الانسان ليست سوى اعضاء اضافية متممة لاعضائهِ الطبيعية فلا يجوز ان تعامل معاملة استثنائية تخالف

(١) لم اتحرَّ التواريخ في كل ذلك بالضبط لان معلوماتي هذه عن ذاكرة فقط (٢) كما فقدت مني مقالات اخرى كثيرة نشرت قبل هذا التاريخ وبعده في جرائد مصر والمحروسة والطائف والتبكيت والتنكيت وغيرها

معاملة الاعضاء الطبيعية نفسها . فكما انهُ لا يشترط على الانسان لاستعمال رجليهِ خوفاً من ان يسعى بهما الى الشر أو يديه خوفاً من ان يجني بهما لا يجوز ان يشترط عليهِ كذلك لاستعمال اعضائه الاضافية . فاذا جنى بها فالقانون الذي يتكفل بمعاقبة جنايات الاعضاء الطبيعية وهو القانون العام يجب ان يتكفل بمعاقبة جنايات الاعضاء الاضافية ايضاً

وكأني لم اكتفِ بذلك بل اعتبرت واضع بنود هذا القانون مسئولاً اكثر فكأني نظرت ان الحكومة ألِفَت الاستبداد كسائر الحكومات المتقهقرة فهي لا تدرك مزايا الحرية الصحيحة المقرونة بالحزم — لان ذلك يتطلب نزاهةً وعلماً واختباراً لاستخدام الشدة اللازمة التي تقتضيها فكرة الخير من دون أدنى تذبذب وقلما كانت الحكومات الشرقية نزيهة والمستبد صارم ظالم ولكنهُ غير حزوم — وأما واضع هذا القانون — الاجنبي — فلا يجوز له ان يجهل هذه المزايا وهو يومئذٍ طريد الحرية على المشهور فكأني نظرت اليهِ نظراً أعلى لزيادة تحقير عمله في تجاهلهِ . فارسلت له المقالة المذكورة ضمن خطاب خاص مختصر كتبتهُ له بالفرنساوية وضمنتهُ الكلام الآتي :

« عجبت كيف انكم قبلتم ان تخطوا مثل مواد هذا القانون وانتم مطرودو الحرية من بلادكم ولكن الظاهر ان لسماء مصر تأثيراً على العقول » وامضيت

ثم مضت السنون وهذا القانون حبرٌ على ورق ولا سيما ان الدول الممتازة أبت ان تصادق عليهِ . وقد راق للحكومة مرة — وقد غلبتها نعرة الاستبداد — فصادرت احدى الجرائد المنتمية لحكومة اجنبية فكلفها ذلك تعويضاً واعتذاراً

وبقي هذا القانون سلاحاً مثلماً في يد الحكومة كخيال الكروم عند غيبة الناطور أو حلية — وان لم يكن كذلك — مدفونة كخطوط الحكومة العثمانية الاصلاحية في العهد الماضي — حساب العهد الجديد لم يدخل في التاريخ بعد — حتى سنة ١٨٨٨ على عهد الوزارة الفهمية حيث كان الباعث على اخراجهِ من قبره سلوك هذا العبد الفقير المحدّث للاذهان . وحتى تلك الساعة كنت مخدوعاً بنفسي فلم اكن أعلم بي ذلك . غير ان حكم الانسان وان كان قد يجوز على نفسهِ أحياناً الا انهُ لها لا يجوز

ولبيان ذلك لا بد لي من تمهيد صغير آتي فيهِ على صفحة تاريخية صغيرة

*

في أول سنة ١٨٨٦ أنشأت مجلة « الشفاء » في الطب ولم يكن حتى الساعة صحيفة طبية في مصر ومجلة الطبيب التي كانت تصدر في بيروت كانت قد توقفت . وكان الطب في مدرسة القصر العيني والمدرسة السورية الكلية لا يزال يعلَّم باللغة العربية . وقد اشتركت مصلحة الصحة بمائة وخمسين نسخة منهُ توزعها على أطبائها . واول ما سعيت بهِ عند انشائهِ تأليف جمعية طبية مصرية عربية . وما مرت اشهر حتى ذاع صيت الشفاء وانتشر وبلغ المشتركون او بالحري الملصقة بهم المجلة عدداً وافراً أيقنت منهُ النجاح في الغايتين العلمية والمالية ولكن الى حين

وكأن خبر هذا النجاح كان مهمازاً حرك بعض محبي المعارف لانشاء صحيفة طبية اخرى . وبالفعل ما دخل الشفاء في سنتهِ الثانية حتى كانت مجلة « الصحة » المعروفة قد صدرت فاستقبلها الشفاء بالترحاب كما استقبل آدم حواء وأصبحنا كلانا نرتع في فردوس مصلحة الصحة . والظاهر ان هذا الفردوس لم يكن ليسعنا كلينا . غير ان مجلة الصحة كانت ذات ضلع مع ادارة الصحة وذات ضلع ناعمة وانعم من ضلع الشفاء . فاول ما شطحت نطحت كما يقول وحيد بك فنشرت في اعدادها الاولى كلاماً مفاده ان بعض الناس يرمي مصالح الصحة المصرية بتعضيد الصحة لمعاكسة الشفاء الى آخر ما هنالك . وصار رئيس مصلحة الصحة يقرأ الشفاء بعد ان كان لا يقرأه ويجد في ثناياه مغامز كثيرة ضده . وصاحب الشفاء ضيق الحوصلة تأتيهِ بالورب فيصادرك وجهاً لوجه . فما طال الامر حتى صار القرد كما في المثل العامي يلعب بين مصالح الصحة والشفاء اي اتسع الخلف بينهما . وانتهى بسلب الشفاء تعهد مصلحة الصحة باشتراكاتها بعد ان اجبرها بطريق المحاكم على دفعها له عن السنة الثالثة أيضاً

وعلى أثر ذلك اشتد الخلف بين آدم الشفاء وحواء الصحة حتى صارت الحال بينهما كما هي بين اكثر الرجال والنساء . فصار الشفاء اذا قال هذا أبيض قالت الصحة بل اسود ولكن الصحة كانت في كل ذلك اكثر لباقة وان كان الشفاء أوضح بياناً واثبت حجة

*

ثم حدث ان الجمعية الطبية المصرية العربية المنشودة تألفت وعقدت جلستها الاولى — ولم تطل بعد ذلك جلساتها ككل مساعي الشرقيين — فقام الشفاء على عادة الجرائد يتبجح في انبائهِ عنها بقوله « هذا الذي طالما نشدناه وطلبناه وتمنيناه و . و . و . الى آخر ما هنالك من تبجحات الصحف التي لا يتم امر في العالم الأ وقد سبقت وانبأت بهِ . فلم يرق للصحة ان تكون الجمعية قد تألفت اجابة لنداء الشفاء فقامت تدفع مفترياته على زعمها بما كان له كالنقطة للحوض الملآن او الشرارة للافعال المتجمعة اذ ان الشفاء خلافاً للقياس الطبيعي كان قد حبل من الصحة لكثرة مساعيها المستترة وصاحب الشفاء ليس بالصحافي المدرَّب ولا هو بالمتنجع الذي يعرف كيف يستفيد وساءه ما يرى في طبائع اهل الشرق من مساعي التنابذ والتخاذل والمعاكسة والمواربة حتى تموت فيهِ كل نفس ناهضة او تنقلب الى الضدّ . فكتب مقالة شديدة اللهجة ينتقد اهل الشرق في ذلك انتقاداً مراً من كبارهم الى صغارهم ومن امرائهم الى صعاليكهم وختمها بهذين البيتين

سبقتهمُ الى التنبيه طراً بعزم ثابت حرٍّ قويِّ
وكم حرّضتهم تحريض عيسى ولكن ليس لي سيف النبيّ

فجاء هذا الكلام للخصوم « شحمة على فطيرة » وتذرعوا بهِ لدى قلم المطبوعات — وكانت طبلة اذنهِ مستعدة — الى اصدار انذارٍ مشدَّد قيل — والعهدة على الراوي — انهم مددوا الوقت حتى اصدروه ثم ذهبوا وأمضوه من الناظر في بيتهِ . وفي هذا الانذار تهديد للشفاء بالتعطيل اذا عاد الى تخديش الاذهان عملاً بالبند الثالث من قانون المطبوعات

***

حينذاك خطر ببالي ما كتبتهُ في هذا القانون يوم سنّهِ وما كتبتهُ الى واضع بنودهِ فنظمت كل ذلك شعراً في عرض الكلام على الانذار واثبتُّهُ في الشفاء قلت :

عجبنا كيف اخلفتم عهوداً قد اجلتكم
شرعتم غير شرع الحق — ما هذا الذي جئتم
كأنكمُ اضلتكم سماء قد أظلتكم

***

لكم أعضاء قائمةٌ بها الافعال ما عشتم

***

وأنتم مثلنا تدرو نَ ما بالفعل انكرتم
بان المرء مخترع لآلات بها سدتم
لآلات متممة لاعضاء لها حزتم

***

فلم نسمع بمخلوقٍ لعلَّ سمعتمُ أنتم
لينطق أو لكي يمشي يقال له كما قلتم
يقال له ألا استأذن وسبقتم وضمنتم

***

فان نخطئ بأيدينا نعاقب بالذي صنتم
وحكم متم الاعضاء حكم العضو لا زلتم

وكان ذلك خير ما ظنت الحكومة انها تقدر ان تصلني بهِ على خير ما ظننت اني أقدر ان اخدم الامة والحكومة بهِ اللهم الا اذا عدّت الامة والحكومة ضدين متنابذين . فقد قال لي بعضهم يوم انتقدت قرار الجمعية العمومية في مسألة القنال ما أرويه بالحرف قال. « اليوم الوحيد الذي « فازت » الامة فيه على الحكومة قمت يا حضرة العالم والفيلسوف تنتقد عملنا فدعنا في جهلنا ودع علمك لبلادك» وحتى الساعة لم اكن أدري ان الحكومة اليوم تشتغل بفكرة الشر وانها عدوة الامة وان كنت اعتقد ان الخطأ قد يتسرب الى أشد الاعمال اخلاصاً . وقد مرَّ عليَّ وأنا في مصر نحو «أربعين سنة» — ما كفى باناس اليوناني واقل منهُ لان تتنازعهُ الوطنية الفرنساوية — شاهدتها فيها في الحالين وخبرتها في الطورين . وتعزيتي الكبرى ان وطني أعم من ان ينحصر في بقعة من الارض وان مصر الراشدة اعدل من ان تجور عليَّ بمثل هذا الحكم وقد خبرتني صديقاً مخلصاً كما خبرتها بلاداً تنسيك بحسن وفادتها الاوطان وقوماً يعيضونك بجميل عطفهم اهلاً بأهلٍ واخواناً باخوان . أو ان الصديق الصادق هو الاعمى في كل حال والاَّ فهو العدو اللدود؛ و بئس مثل هذا الصديق

*
* *

ودام اصدار الشفاء بعد هجر مصلحة الصحة له سنتين اخريين أيضاً ولكني اضطررت اخيراً ان اوقفهُ لان « حساب الحقل ما وافق حساب البيدر » فان المشتركين الذين كانوا كثيرين في السنة الاولى على الورق وكانوا سبب هذا النقار والمزاحمة على النضار كانوا قليلين عند الدفع فقمت اتقيهم سنة فسنة حتى اصبحوا اخيراً كصبيرة طمسن (١) - وزد على ذلك حسن ادارة صاحب الشفاء في الاعمال المالية كما دلت عليهِ مضارباته بعد ذلك بالبورصة لعله يثري ويستطيع وحده ان يضع أساس مشروع مستشفى طالما حث السوريين عليهِ فأبوا الا ان يتسكعوا بمرضاهم على ابواب المستشفيات الاجنبية — وكأن البعض اليوم يريدون ان يكذبوا على الناس بعد مماتهم كما كانوا يكذبون عليهم في حياتهم - وحتى الساعة ليس لهم ذلك وما درى انهُ بذلك انتقل من «الشفاء» الى بحبوحة «الشقاء» وصاحب الشفاء قليل الصبر لا يحب الامور الا مستعجلة وقد اشار الى كل ذلك في ابيات من قصيدة نظمها يصف مسعاه هذا وحبوطهُ فيهِ ووقوعهُ في حبائل المشاكل قال :

قلت علّي وحدي . . . فهبّت بي الار — زاء تترى رزءًا فرزءًا دراكا

الى قوله يعزّي نفسهُ

ربّ قوم عابوك والعيب فيهم لو سما فرعهم لنالت السماكا
يفشل المرء لاقتضاء انطباقٍ ان تولّى اوهى بهِ الإدراكا
ويهون الفتى بأرض هوانٍ لو تسامت لزاحم الافلاكا
طال سيفي في غمده مستقرًّا وهو لو سلّ قلما ان يحاكى
يصدأ السيف ان يُغلّ وسيفي ان تجلّى يطاول الاملاكا
كم جلا الحق لو درى الناس معنا هُ لما الظلم ساد فيهم وحاكا

والتبجح رأسمال المفلس وصاحب الشفاء ليس من غير طينة سائر الناس

*
* *

(١) المستر طمسن مرسل امريكاني جاء بيروت في القرن الماضي فلما قدموا له الفاكهة المعروفة « بالصبر والصبير » ايضاً تناول صبيرة واخذ ينقيها من البذر بالشوكة والسكين فما اتى على آخرها حتى لم يبق منها شيء فذهبت صبيرته مثلا

وبعد ان اوقفت الشفاء بأيام قليلة توجهت ذات يوم الى نظارة الداخلية وكان ذلك على عهد الوزارة الرياضية بعد سقوط الوزارة الفهمية . فلما قابلت الوزير الخطير رجل مصر الكبير سألني ما شأنك قلت له على الفور جئت لاعطل صحيفة الصحة فنظر اليَّ مندهشاً وقال لي كيف ذلك ؟ . فابتسمت حينئذ وقلت له قد أوقفت الشفاء . . . وفي اعتقادي ان الصحة «بارامسيته» فلا تستطيع ان تعيش بعده وهكذا كان وانقضى تاريخان في الصحافة الطبية كان عمرهما قصيراً

وأما اليوم فلا شفاء ولا صحة عادا ينفعان بعد ان تحول التدريس في مدارس الطب في مصر وسورية الى الفرنساوية والانكليزية حتى فقدت اللغة العربية العلمية بذلك أقوى ركن لها وصار من الراجح ان لا يعود لها ذلك لعدم وجود علماء باحثين فيها ولسرعة سير العلوم الطبيعية حتى صار يصعب عليها اللحاق بها

٭ ٭ ٭

وكأن هذا الانذار الذي ضُربتُ به كان الاخير وأهمل بعد ذلك العمل بقانون المطبوعات وقامت الحكومة تقاضي الصحافيين امام المحاكم وتفتحت لهم ابواب السجون وأمّها منهم الصالحون والطالحون فقمت حوالي سنة ١٨٩٨ بحركة في الصحافة وضممت اليَّ مدير المؤيد لالتماس العفو عن مجرمي الاقلام وكان بعضهم مسجوناً لذنوب ضد العائلة الخديوية والبعض الآخر ضد الدولة المحتلة وكأن المعية كانت أقرب الى العفو لولا ان الوكالة البريطانية أبت ان تتداخل في الامر بحجة ان ذلك ليس من خصائصها فلم نُفلح

ثم انهُ في سنة ١٩٠١ كثر التطفل على الصحافة والتهجم على اعراض الناس خصوصاً بما حلَّ من طيف حكومة الاستانة على مصر فانتقلت الجاسوسية اليها وأفسحت للجرائد المتدنية موارد الكسب من طرقها غير المشروعة وبالاتفاق مع الجواسيس حتى ضج الناس وشكا اعضاء الجمعية العمومية من هذه الفوضى وطلبوا اعادة العمل بقانون المطبوعات فكتبت المقالة الآتية تحت عنوان «فوضى المطبوعات» [١] وهي هذه

(١) نشرت في المقطم سنة ١٩٠١

⁂

«تشكت الجمعية العمومية من تهجم بعض من اتخذ الصحافة وسيلة للوقيعة في الناس ونهش اعراضهم وانتهاك حرماتهم وطلبت من الحكومة وضع حد لما سمّتهُ الجرائد «فوضى المطبوعات» وتبعها اصحاب الجرائد المهمة في هذه الشكوى واخذ كل منهم يصف الدواء بحسب ما تراءى له . فنهم من طلب وضع قانون للسيطرة على المطبوعات وهو دواء ليس فيهِ شيء رادع على ما بهِ من تقييد حرية الصحافة والرجوع بنا القهقرى اذا تبعتهُ الحكومة . وهذا لا ينطبق على غايات الحكومات الصالحة التي من واجباتها تسهيل سبل الارتقاء . وذهب غيرهم ـ ومذهبهم اقرب الى الصواب ـ الى ان القانون كافٍ لتأديب كل معتدٍ . على ان الباحث في امراض الاجتماع كالباحث في امراض الجسم يجب عليهِ لمعرفة الدواء ان يتعرَّف اولاً اسباب الداء . وليس من ينكر ان المتطفلين اليوم على صناعة الكتابة المتدنين بها الى الطعن المحكي عنهُ لا يقصدون بذلك سوى التهويل لاستدرار المنفعة لهم وما الذي يا ترى جرّأهم على ذلك . لا شك ان الذي فتح لاصحاب الاخلاق الفاسدة هذا الباب الواسع هو الجاسوسية التي فشا داؤها في هذه البلاد في السنين الاخيرة الى حد لم يعهد له مثيل في مصر حتى في اعظم ايام استبداد حكامها السالفين وما يترتب على هذه الجاسوسية من الاسترضاء . وقد كثرت شكوى الناس والجرائد من هذه الرذيلة التي انتشرت في طول البلاد وعرضها واستغرب العقلاء منهم كيف امكن لها ان تمتد هذا الامتداد في عهد الاحتلال (راجع تاريخ اكثر هذه الوريقات الساقطة) وكثيراً ما يكون للجواسيس اليد الطولى في الحض على هذه المنشورات البذيئة فيقدمون بها التقارير ثم يسعون للاسترضاء فاذا نالوه اقتسموا المنفعة حتى صارت هذه الرذيلة اي الجاسوسية وما يترتب عليها اعظم وسائل الكسب في هذه الايام وحتى كادت تأخذ بتيارها الجارف الكتاب المجيدين بما تزين لهم من المطامع»

«فاذا كانت الجمعية العمومية والجرائد الحرَّة وعقلاء الامة وكبراؤها يريدون ان يضعوا حداً لفوضى المطبوعات كما يقولون فعليهم قبل كل شيء باستئصال الاسباب المحرضة عليها قبل ان تجلب على البلاد شراً ليس في الحسبان . فاذا فعلوا ذلك فانا اضمن لهم بان

المطبوعات تتهذب من نفسها بقوة الانتخاب الطبيعي الذي يميت كل ما كان بذيئاً باغفاله ويحيي كل حسن بالاقبال عليهِ فلا يقدم حينئذٍ على الكتابة الا كل نحرير واسع الاطلاع نبيل الغاية يقصد النفع لنفسه من حيث ينفع سواه . واذا قلبت الآية وصرفت القوة المبذولة الآن لزرع اغراس الجاسوسية ونشر بذورها لافساد اخلاق الناس بها واستخدمت ما لها من الوسائل لتنشيط الكتاب المجيدين فانها تنقي الكتابة من الادران التي نشكو منها الآن باسرع مما يظن وتخدم البلاد خدمة يشكرها الناس عليها ويذكرها لها التاريخ بالاعظام » . انتهى

***

وبالرغم من الحاح الجمعية لم يرجع الى العمل بهذا القانون لان مبادئ اللورد كرومر لم تكن ترضى بهِ . ثم سافر اللورد كرومر وخلفه السر غورست ودامت الحال كأن لا حكومة حتى سقطت الوزارة الفهمية الاخيرة وقامت الوزارة البطرسية فكانت باكورة اعمالها اعادة العمل بهذا القانون المدفون فأوجب ذلك زيادة الشكوى على غير فائدة لان القانون لم ينفذ بالحرف والتهويل بهِ احرج الطبائع التي قد تناستهُ . والظاهر من مسلك الوزارة الحالية انها تنوي تنفيذ هذا القانون بأقصى شدته . غير ان الجمعية العمومية التي كانت تطلبهُ في الماضي ليست ميالة اليهِ كثيراً اليوم

على ان العمل بهذا القانون لا ينيل الحكومة في رأينا الغرض الذي تتوخاه منهُ الاَّ اذا كانت تريد ان ترجع بنا الى الاستبداد الاعمى وهذا لا ينطبق على مصلحة البلاد خصوصاً اليوم ولا ينطبق على مبادئ الحكومة المحتلة وان انطبق عليها فلا ينطبق على مبادئ أمتها فسيكون وجوده علة للاضطراب والتشويش تارة من هنا وتارة من هناك

واذا كان الغاء العمل بقانون المطبوعات في الماضي اوجب التطرف من البعض والتهجم من البعض الآخر فان اعادته في العهد الاخير لم تأتِ بالمرغوب وزادت الشكوى ايضاً . وذلك لان الحكومة في الامرين لم تكن متوافقة مع نفسها فلم تكن حازمة في الحرية ولا مستبدة في المظاهرة بالشدة بل كانت حكومة تهويل متذبذبة في الحالين تشد

تارة وترخي اخرى . وما من حكومة تسلك هـذا المسلك الا وترمي البلاد هي نفسها في الفوضى ثم تسأل الآخرين بعد ذلك عما هي وحدها مسؤولة عنهُ

فقانون المطبوعات اليوم لا فائدة منهُ ووجوده مضر في كل حال بل يجب دفنه الى الابد . والحكومة الحازمة يجب ان لا تخشى الحرية ولا يخشاها الا الذي لا يعرف ماذا يريد أو ماذا يلزم فيتذبذب متراوحاً بهذا الذكاء الشرقي الذي يعده البعض دهاء . نعم هو دهاء ولكنهُ دهاء حبله اليوم لايطول . اذ لم يعد ينفع في هذا العهد الا الصراحة المقرونة بالعلم والحزم . فلا تجرب الحكومة اليوم ما قد يجرّ لها المتاعب غداً وعلى البلاد الوبال. فلا تخشَ الحرية ولا تخشَ معها الضرب بيد من حديد عند اللزوم لتقويم الاخلاق ما دام رائدها فكرة الخير . — ولتعم قبل كل شيء التعليم الحرّ الذي لا يشوبه كدورة الاغراض . ولا اقل من ان تأتي ذلك في المدارس الاميرية تاركة لاصحاب المنازع الدينية المختلفة ان يتعهدوها في معاهدها الخصوصية ولاتجار الجهلاء الذين لا يفهمون ما يطلبون ولا الحكماء الذين يتوهمون ان سياسة الصراحة لا تنطبق على العمل — ولا يدرون انهم بذلك يرسّخون سواها — ما دام المسلك ليس فيهِ مصادرة لاحد في خصوصياته . حينئذٍ يقضي ناموس التنازع الطبيعي نفسهُ القضاء العادل بين الصحف والكتاب حتى لا يعود يؤمها الا كل من توفرت فيهِ المزايا اللازمة التي تضمن المنفعتين العامة والخاصة بما يؤديه من الخدمة الصحيحة التي يفهمها الناس حينئذٍ ويقدرونها حق قدرها

تقول انك تأبى القتل عن خلُقٍ　　حتى على النمل تخشى وطأة القدمِ
وفوق رأسك ألقى كمّة[1] رُفعت　　مصبوغةً بدم النـاموس كالعنمِ
فقلتُ والله اني صادق فانا　　لا استحلُّ لنفسي غير سفك دمي

---

(١) اي ناموسية

المقالة التاسعة والستون

﴿ الدفن والمدافن ﴾

« وعلامات الموت »

الناس في كل العصور مفتونون بما يؤول اليهِ امرهم بعد موتهم . والاكثرون على ان النفوس بواقٍ ، أما الجسوم الفانية فلا يبتّون فيها قولاً ولو ان الشرائع جميعها تقول بالحشر وقيامة الاجساد . والمصريون القدماء أشدُّ من كان في عمله متفقاً مع معتقده ، فكانوا يعتنون بالاجساد بعد الموت اعتناء خاصاً يحفظها من الدثور على مدى الدهور ، ليسهلوا على النفوس الاجتماع بأجسادها عند الحشر ، فكانوا يأتون فيها عملاً تمثيلياً بالتحنيط يقيها من البلى ، ولكنهُ يجعل ارتداد الحياة اليها — بعد الموت الظاهري — أمراً ممتنعاً

أما الذين لم يكونوا يلجأون الى التحنيط الديني أو الاحراق الديني كما يفعل المجوس حتى اليوم فكانوا يعولون لتقرير الموت الحقيقي والدفن على علامات قد لا تصدق فيبقى الميت المدفون معرَّضاً لان تعود الحياة اليهِ ، ولكنها تعود اليهِ ليقضي بعدها بالعذاب الشديد بين جدران القبر وتحت تراب اللحد . ومن يستطيع ان يتصور هول الدقائق أو الساعات أو الايام التي تمرُّ على المدفون حينئذ قبل ان يعود ثانية ويموت الموت الحقيقي ، وقد يستطيع ذلك بعض الشيء اصحاب امراض ضيق التنفس كالداء المعروف بالربو ،

ولا يخفى ان العبد الفقير محتكرٌ لهذا الداء منذ حداثتهِ وقد كان له أوفى صديق حتى اليوم . ولا اذكر اني جزعت في كل اطوار حياتي من كل أنواع الموت مثل جزعي عند تصور هذا الدفن ، وما ذلك مني من تلك « الغفوة » التي لا تحب بل من تلك « اليقظة » التي ترهب ، حتى اني قلت ذات يوم في مرض عرض لي منذ بضع سنين الابيات الآتية وهي تعبر عن هذا الشعور بي أصدق تعبير . واني موردها هنا — ولكن

بعد ان استأذن هذه المرة من كلية الاساتذة ومن استاذ الاثنين . . . — والايات هي

ادفنوني في القبة الزرقاء ان قدرتم فذاك أقصى رجائي
لا بقبر في الارض لا كان قبرٌ ضيق النقب ضيق الارجاء
أودعوني المنطاد ينقل جسمي في فسيح الخلا وصافي الهواء
ولأنَلْ في الممات ما لم أنلهُ في حياتي من بعد طول العناء
سعةً في البقا ولو بتُّ فيها اكل وحش الفلا وطير السماء

***

والعلامات المعروفة التي ترافق الموت والتي يعوّل عليها الناس حتى اليوم هي همود الجسم وبرده وانقطاع التنفس وانقطاع النبض ووقوف دقات القلب ، ويزيد الاطباء عليها علامات اخرى يحاولون استكشافها كل يوم وكلها علامات مشكوك فيها

وفي المجتمعات المنحطة التي لا تشدد الحكومات فيها مراقبة احوال الدفن لا تلبث هذه العلامات ان تظهر على الجثة حتى يبادروا الى اخراجها الى المدفن ومواراتها التراب مسرعين قائلين «ستر الميت دفنهُ» . واما في المجتمعات الراقية فينتظرون ساعات معلومة قبل الدفن ويعوّلون خصوصاً على شهادة الطبيب

والحق يقال ان الطب مهما دقق في التحرّي للتأكد من الموت الحقيقي فلا يسعهُ الاَّ الاعتراف بان كل العلامات المعوَّل عليها قد تخطئ ما عدا علامة واحدة هي « التعفُّن » . فيجدر بالناس والحكومات والحالة هذه ان لا يعولوا في اجازة الدفن على علامةٍ اخرى . ولاجل ذلك يجب ان يكون في كل مدفن محل معد لهذا الغرض تنقل الجثث اليهِ وتحفظ فيهِ الوقت الكافي حتى تظهر فيها هذه العلامة الصادقة ثم تدفن

والغريب ان الناس مع علمهم ذلك وشدة حرصهم على حياتهم وراحتهم مقصرون في هذا الامر حتى في أرقى المجتمعات اليوم مع انه أهم وألزم وأوجب وأرحم من بناء القبور الفخيمة واقامة المآتم العظيمة التي يتباهى بها الاحياء على ظهور الموتى . واغرب من ذلك تحكم الاحياء في معاملة جثثهم وكيفية دفنهم بعد موتهم . والمؤمن معذور اذا طلب ان يدفن دينياً لان ذلك داخل في فروض دينه . وأما غير المؤمن فما عذره اذ

يحكم ويطالب انلا يدفن الا مدنياً وهو ينفي كل معتقد؟ أيريد ان يتبجح بقوله للناس بعد موته انهُ لا يعتقد بسلطة روحية ؟ وهو عمل في منتهى السخافة وتعصب بارد ، — خلافاً لما توهمهُ بي صاحب « الزهور » من اني متعصب حارٌ ولكن . . . ضد الايمان — . أم هو يريد ان يقول للناس بعمله هـذا ان اقتدوا بي ان الكفر سمة العقول الراجحة ؟ كأنه « الغرض » من بحثه لا « نتيجة لازمة » له ، خلافاً لجميع الذين توهموا بي من كتابي اني أقصد مقاومة الايمان لا نصر العلم والتأليف بين البشر بازالة كل العقبات من طريقهم والارشاد الى الوسائل التي تسرع ارتقاءهم . ولعل بعضهم لا يتذرع بقولي هذا الى اني هنا أيضاً « انقض نفسي بنفسي » لاني قلت ان الاديان ذات معـد واسعة لا يضيق بها شيء ، لكي لا تقوم كل مرة وتقف حجر عثرة في سبيل العلم ، ولكن العقل كما قلت ايضاً « خزانة كثيرة الادراج » والمنازع اهواء غالباً تدور حول العلم اذا هي لم تستطع شيئاً ضده

* * *

واذا جاز لي ان اطلب شيئاً بعد موتي ممن يدهم حينئذٍ امري فلا اطلب منهم سوى شيء واحد معقول استعطفهم فيه شفقة عليَّ والتمسهُ منهم رحمةً بي . فانا لا اخاف الموت ولا اخاف ما بعد الموت . ولا يهمني أُحرقت في النار ام دفنت في التراب . وصلّى عليَّ قسيس او شيخ او حاخام ، ام لم يصلِّ عليَّ احد ، او صلوا كلهم مجتمعين يستمطرون لي غيوث الرحمة ، او يستنزلون عليَّ سيوف النقمة . يرفعونني الى السماء ، او يدفعونني الى جهنم . فانا ليس لي ادنى مطمع بما هنالك ، ولا اخاف شيئاً من كل ذلك . ولا اخاف الاَّ « يقظة » القبر ! فانا لا اطلب الا ان ادفن ميتاً حقيقياً لا يجوز ان تردَّ اليهِ الحياة ولو في اقل المحتملات

ولا ينكر ان هـذه اليقظة من تلك الغفوة نادرة جداً ، الاَّ ان ندورها لا يجعلها ممتنعة ، فاذا حصلت مرة في الالف او العشرة الآلاف او المائة الالف أو المليون ، فذلك كافٍ لوجوب اخذ الحيطة منها ما دام للحياة قيمة وهي لها ذلك باعتراف الافراد انفسهم لانفسهم وان لم يكن لها ذلك حتى اليوم باعتبار الجموع من دون ان يرى صاحب

«الهلال» في قولي هذا تذمراً من الرئاسات « لهدمها » لا « لتقييدها » بما يكون اصلح لمصلحة الجمهور . ولعلَّ ذلك ليس حلماً ايضاً لا ينطبق على العمل ، ولولا «حمزة» الجريدة وقوله اني « احاول التأثير بقوة الالفاظ لا بمتانة البرهان » لعولت هنا ايضاً على أحكام المقابلة وقلت كم من امثال هذه الاحلام في الماضي صار حقائق اليوم

على اني لا أريد ان « أدفن » الكلام في هذا الموضوع — الذي جرى هنا على القلم من غير تعمد — قبل ان اقدم كلمة شكر مفعمة لجميع الذين لم يثنهم حرج الموقف عن بذل الوقت عن سخاء للكلام عن كتابي سواء بالاذاعة أو بالاطراء أو بالانتقاد — ومجال القول هنا قد يكون ذا سعة وربما جرَّدت مني شخصاً آخر وانتقدت نفسي بنفسي ، ولكن لا لاستمسك بالعرض لاقتل الجوهر وأقلب الاشياء عن كيانها في سبيل الغرض ، فلا أرى في البراهين الآخذ بعضها برقاب بعض برهاناً راجحاً ، ويا ليت شعري بما يجيبون لو قيل لهم : هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين — كلمة شكر ازفها الى جميع هؤلاء الافاضل ممن ذكروا هنا او لم يذكروا حيث نظروا جميعهم الى كتابي اليوم بغير العين التي نظرَت اليه في الماضي ، وهو ارتقاء في التساهل وتحوُّل في المذهب ، عسى ان يتصل الانسان يوماً ما بالعلم الى « دفن » أوهام كم غمَّت على الحقائق فاذابتها فيها كأنها هي نفسها الحقيقة المنشودة ، يدفنها جثثاً هامدة تولاها موت حقيقي لا مبعث بعده ، لعل الانسان الكلي » يستطيع حينئذ ان يقضي عمره القصير على هذه البسيطة باكثر أنواع التعاون وأقل أنواع الشقاء ولا يكون الخاسر في الحالين

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

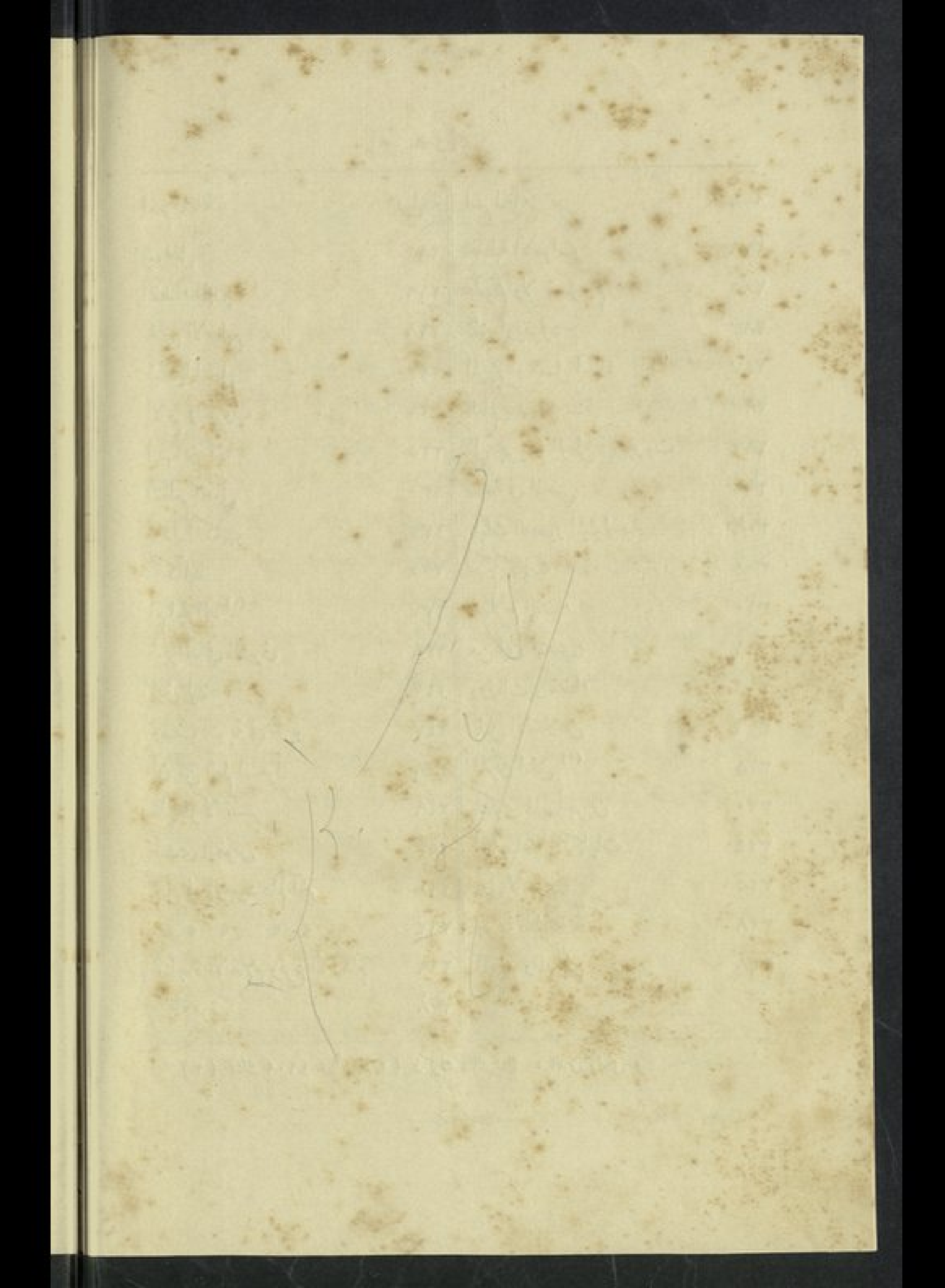
﴿ تم الجزء الثاني ﴾

« ويليه الجزء الثالث »

فهرست المقالات [1]

(١) وقع بعض اغلاط في تحريف أسماء بعض المقالات وتاريخها فأصلحنا ذلك هنا واما الاغلاط المطبعية الطفيفة التي وقعت في المتن فلم نصلحها اتكالا على سليقة القارئ وعلمه (٢) وقد ذكرت هناك سنة ١٩٠٨ وصوابها دسمبر سنة ١٩٠٩ (٣) ذكرت هناك «الاناث» خطأ (٤) ذكرت هناك « مسألة » خطأ

(١) هناك ١٩٠٩ خطأ (٢) ذكرت هناك غلطا « الدين والحق »



كلمة شكر واجبة

في صيف عام ١٩٠٩ قصدت ربوع الشآم ، وطني الاول ومسقط رأسي ، بعد ان رحلت عنها منذ نحو اربعين سنة ، لم ازرها في خلالها الا مرتين اياماً معدودة ، اخرهما منذ سبع وعشرين سنة قضيتها في القطر المصري ، وطني الثاني ومبسط افكاري . فلم يشأ اهل سورية ان تنفرد مصر وحدها بالفضل عليّ ، فاغتنموا فرصة وجودي بينهم فغمروني باحسانهم ، وطوّقوني بجميلهم مما لا انساه لهم على مدى الاعوام

وزادوا على ذلك ان بعض اولي الفضل منهم ، ارادوا ان يتناهوا في الكرم فحثّوني مجاملة لي وتشجيعاً لسواي ، على ان اجمع ما تيسر من كتاباتي المتفرقة في الكتب والمجلات والصحف منذ اكثر من ثلاثين سنة في مجموعة اطبعها في اجزاء على حدة ، وكان قد طلب مني مثل ذلك قبلهم بعض افاضل المصريين وغيرهم من بعض الاقطار العربية الاخرى ، وكنت انا نفسي غير قليل الميل الى ما يحب الناس ان يحرصوا عليه من آثارهم ، مهما كانت ، ولا سيما اذا كان لم يبقَ لهم سواها ، فصادف ذلك مني هوى في النفس ، وان لم يخدعني كثيراً في حقيقة نفسي . ولكني مع ذلك وقفت واجماً متردداً لان الاسباب التي كانت متوفرة في الماضي لم تبق لي اليوم ، وخفت ان اصادف في هذا السبيل ما قد يسلبني البقية الباقية ويجدد بي تذكار مثل هذا القول

لقد كان لي نفس تصان بها العُلى ... وقصد الى الاصلاح أنبل من نفسي
فمالت بي الدنيا فقلت سلامة ... أيا نفسُ إني لا أُهينك يا نفسي
ولكنّ دهراً درهمُ القدر درهمٌ ... بهِ كيف ترجو ان يصونك من بخس

ولكن الافاضل المذكورين لم يشأوا الا ان يذللوا كل الصعوبات . فوضعوا اساس المشروع ، ثم قاموا هم انفسهم يسعون ويجمعون المال بالاكتتاب ، وقمت انا حينئذٍ

متشجعاً بهم اعرضهُ على كل من عهدتُ به نجدةً لانجاح مثل هذه المشروعات من كرام القطرين ، من كل مَن:

ترى المجد يَهـدي الى بيتهِ   يرى افضل المجد ان يُحمدا
وانْ ذُكرَ المجد ألفيتهُ   تأزَّر بالمجد ثم ارتدى

او ذكر البذلُ الباذخ اشرأبّت اليهِ الاعناق وطوَّقتهُ الاحداق وفاضت بهِ الذاكرة . فما لقيت منهم الا كل من لبى متصاغراً كأنهُ المفضول شأن الجوَّاد الكريم . فحق لهم عليَّ تجاه هذا الفضل « كلمة شكر » انقشها على « صحيفة فخر » تحفظ لهم اعترافاً بجميلهم وتخليداً لذكرهم

ولكني ، وحق ، حرتُ كيف أذكرهم لادلّ على فضلهم ، فانَّ عددهم لكثير لدى من يرى « ان الكرام قليلُ » ، وفضلهم في هذا المقام أعظم ايضاً والناس بيننا على ما تعوَّدوا ، والفضـل الكثير يعقل اللسان الطليق ، فكيف بي وانا حليف العيّ وارى الواجب اكبر مني . فلم اجد حيال هذا الحَصَر ، انطق للفضل بياناً واثبتَ للجميـل عرفاناً من ذكرهم بفضلهم متبرعين كانوا او مشتركين او ساعين ، فالجميع بالفضـل عليَّ سواء ، ليحفظ ذلك لهم في سجلّ مجموعتي أثراً خالداً يفي عني من الواجب بقدر ما يذيع لهم من حسن الذكر

***

على اني لا اكون من المنصفين ان لم استأذن حضراتهم لاذكر هنا اسماء ثلاثة من بينهم كانوا لمشروعي من اهم الاركان ومن اكبر الاعضاد لابرازه الى الوجود

الاول الخوري بواص الكفوري ، رجل الجد والعمل المكافح في سبيل الاصلاح ، صاحب جريدة المهذب في زحلة من لبنان ، فقدكان الواضع لمشروعي والعقل المدبر له

والثاني الدكتور ايوب ثابت من بيروت ، من أشد رجال النهضة الاصلاحية فيها اخلاصاً ، فانه كان اليد العاملة فيهِ

٭٭٭

اما الثالث فهو الخواجا امين وهبة كرم من الاسكندرية ، مَن الكرم بهِ سجية ، ومَن

اذا الناس مدُّوا بأيديهم الى المجد مــدَّ اليهِ يدا
فنال الذي فوق ايديهم من المجد ثمَّ مضى مُصعِدا

فما لبث ان ذكر مشروعي له وخاف عليه من الحبوط حتى ضمن له الحياة ، فبذل له عن سخاء ، ووفى له خير وفاء

٭٭٭

فشكراً لجميع هؤلاء الافاضل على ما اولوني من الجميل . فان كان في عملي هذا بعض الفائدة فليحمدهم الناس فالفضل كل الفضل لهم . وان لم يكن فيهِ ذلك فليحمدوهم ايضاً انما الاعمال بالنيات ، وليلحقوا التبعة كل التبعة بي

مصر ١٠ يونيو (حزيران) سنة ١٩١٠ الدكتور شبلي شميل

(تنبيه) الآية الواردة في صفحة ٨٧ في الحاشية في السطر الثالث هي هذه «فلما رأى الشمس بازغةً قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم اني بريءٌ مما تشركون» اه . فلتصلح هناك

جدول اسماء حضرات اعواني الكرام مرتبة كما يأتي

اذكرها مجردة عن النواتيّ. مكتفياً بجمال الاعمال، وكم يجمل بالناس ان يتعودوا ذلك اختصاراً للوقت وانصرافاً للجدّ، وسيكون ذلك منهم متى غلب النظر الى الجوهر على الاستمساك بالعرض في كل أعمالهم

جنيه
٢٥٠ امين كرم . اسكندرية

٢٥ جورج كرم . اسكندرية
٢٥ خليل باشا خياط . اسكندرية

١٢ الياس صباغ . بيروت

جنيه
٥٠ ادريس بك راغب . مصر

٢٠ محمد بك وحيد . مصر

١٠ اسماعيل باشا عاصم . مصر
١٠ بولس طراد . بيروت
١٠ جورج قرداحي . اسكندرية
١٠ حسين باشا واصف . مصر

جنيه
٤٠ نجيب يوسف سرسق . اسكندرية

١٥ بطرس افندي داغر . بيروت

٨ جورج بك متري سرسق . بيروت

٧ اسعد نقولا . مصر

« تابع ما قبله »

جنيه

٦ علي بك جنبلاط . بيروت

٦ يعقوب كرم . بيروت

---

٣ اندراوس بشاره . مصر

٣ انطون خوري . المنصوره

٣ موسى بسترس . بيروت

٣ نقولا دوماني ،،

٣ يوسف خضير . اسكندرية

جنيه

٥ الشيخ ابو طالب جهرمي . البدرشين

٥ حبيب بك دبانه واخوته . مصر

٥ حبيب بك فرعون . مصر

٥ سليم طويل . اسكندرية

٥ محمد بك ابرهيم هلال . مصر

٥ ميشيل خوري . اسكندرية

٥ نجيب غناجه . مصر

٥ نعمان السوقي . طنطا

٥ نقولا دهان . رمل الاسكندرية

---

٢ نقولا حمصي . حلب

٢ يوسف هاني . بيروت

جنيه

٤ جاد بك عيد . مصر

٤ عادل افندي جبر . يافا

٤ نقولا سرسق . بيروت

« ثمن النسخة الكاملة من المجموعة »

(جنيه واحد)

واقدّم شكري ايضاً لاصحاب المساعي المشكورة ممن لم تمنعهم وفرة أشغالهم من ان يبذلوا من ثمين وقتهم للسعي معي في هذا السبيل وهم حضرات الافاضل : اخنوخ افندي فانوس . اسيوط ، الدكتور اسكندر جريديني . طنطا ، اسكندر صيقلي . اسكندرية ، ألفرد جدعون . بيروت ، انطون خوري . المنصورة ، داود افندي نحول . بيروت ، رزق الله افندي أرقش . بيروت ، سامي افندي قصيري . مصر ، عبد الله بك الخوري . لبنان ، الدكتور فتح الله دهان . طنطا ، وميشيل بك ايوب . اسكندرية ، نخله بك تويني . بيروت ، نقولا افندي أرقش . طنطا ، وغيرهم مما قد تكون الذاكرة خانتني فيهم

أما اسماء المشتركين بنسخة واحدة من هؤلاء الافاضل أو عن يدهم أو من سواهم رأساً فسأدرجها في الجزء الثالث

(تنبيه) السهو الذي قد يمكن ان يكون وقع ارجو ان انبه اليه لاستدركه في الجزء الآتي

أما الوقت الذي صرف في هذين الجزءين مع رغبتي الشديدة في الاسراع فهو ثمانية شهور وكان يمكن ان يكون اقصر لولا صعوبات لم يكن في الامكان تداركها . وما كنت ادري قبل الآن ان التأليف اسهل جداً من تجشم الطبع والنشر خصوصاً في بلادنا . وعساي بعد ذلك كلهِ أن لا اكون قد قصَّرت

***

هذا ، واذا سمح لي الوقت واتسع مني الصبر ايضاً ، ربما وضعت فهرساً في آخر الجزء الثالث شاملاً لبيان الاغلاط التي تكون قد وقعت في الاجزاء السابقة ، مطبعية كانت أو ناشئة عن سهو أو سواه ، مما أنتبه له او أُنبَّه اليهِ ، ومما لا يسلم منهُ كتاب أو كاتب

على اني أقول اني في مراجعتي المسوَّدات كنت وحدي . ولم يكن لي همٌّ سوى مراعاة المعنى ، وقلما كنت ارجع الى المقابلة لمراعاة دقائق الالفاظ مع ان من الكتابات ما هو قديم جداً الا عند اضطراب المعنى عليَّ . ولذلك اقدر أن اؤكد للقراء ان الخطأ من هذا القبيل لم يقع في ما أعلم ، أو هو في حكم النادر ، الاَّ في مسألة تقديم وتأخير

وقعا في فصول تاريخ الاجتماع الطبيعي ، ولكن لا مساس لهما بالجوهر لدى المحقق

ولا يتوهم من ذلك ان الاغلاط المطبعية كثيرة أو مهمة . وكأنها قليلة جداً في ما بدا لي حتى الآن ، مما يشهد ببراعة عمال المطبعتين الذين صفوا الجزئين ، خصوصاً في ما كان منقولاً عن مطبوع ، في ما خلا مواضع مخصوصة ظنوا هم انفسهم انهم يصلحون خطأً وقع مني أو ذهب عليَّ ، مثل لفظة « الاناث » عوضاً عن « الايناث » في الجزء الثاني. و « الاودان » بصيغة الجمع العامي المصري للاذن ، عوضاً عن « الاردان » في الجزء الاول . — والحق يقال ان اكثر ما وقع هـذا الغلط هو في مخطوطاتي الحديثة ، وهم معذورون حينئذٍ بل فضلهم عظيم جداً في حل طلاسمها أحياناً كثيرة . وهي شهادة مني لهم ، وشهادة الحق واجبة . — وأما ورود « سعيت بهِ » في مقام « سعيت فيـهِ » « او له » فمن محاسن الاتفاق للمتعقب ، لولا اني أنا نفسي اتعثر في السعي البسيط نفسه ، فكيف بي في ما يلزم له ذكاء ودهاء شرقيان فائقان ! وان سألتني ما هما هذان « الفائقان » ؟ قلت لك هما الناشئان عن كل ما يضغط على اللسان والجنان والقلب ، مما لا يزال حتى اليوم في الشرق اكثر منهُ في الغرب

﴿ الذي يضغط على اللسان والجنان والقلب ﴾

المدارس العمومية في كل الدنيا وحدت لتطمس على الاذهان غالباً . وكتابي وضع لكي ينيرها . فلا مطمع لي اذاً ان اراه متداولاً بين ايدي طلاب مدارس الحكومة ومدارس الامة . فوفاءً ببعض ما عليَّ من الواجب نحو وطنيَّ الاول والثاني قد تبرعت بثلاثمائة نسخة من كل جزء من اجزاء مجموعتي تعطى مجاناً لادباء القطرين السوري والمصري وطلبة مدارسهما الذين لا تمكنهم وسائلهم من اقتنائه بدفع الثمن . نصفها لكل قطر . وبما ان الاجزاء غير متصل الواحد منها بالآخر اتصالاً لازماً فالذي ينال الجزء الواحد لا يحق له ان يعطى باقي الاجزاء بل تعطى لسواه وذلك زيادة للنشر وتعميماً للفائدة ، ولا جود الا من الموجود ، ولا فضل بذلك

يجود علينا الخيرون بمالهم ونحن بمال الخيرين نجود



DATE DUE

